

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي -

قسم التاريخ

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية



العلماء الجزائريون في تونس ودورهم في الحياة العلمية والثقافية وأثرهم في
التواصل الثقافي بين البلدين ما بين القرنين 16 و19م / 10 و13هـ

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ

تخصّص: التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف:

أ. د علي غنابزية

إعداد الطّالِب:

البشير مقدود

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب العائلي	الرتبة العلمية	مؤسسة الانتماء	الصّفة
أ.د. موسى بن موسى	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي	رئيس الجلسة
أ.د. علي غنابزية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي	مشرفاً ومقرراً
أ.د. معاذ عمراني	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي	عضواً مناقشاً
أ.د. سفيان لوصيف	أستاذ التعليم العالي	جامعة سطيف 2	عضواً مناقشاً
د. فاتح باهي	أستاذ محاضر أ	جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي	عضواً مناقشاً
د. محمّد بك	أستاذ محاضر أ	جامعة عتّابة	عضواً مناقشاً

السنة الجامعية: 1444 / 1445 هـ — 2024 / 2023 م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إني مرأيت أنه لا يكتب أحدٌ كتاباً في يومه، إلا قيل في غده: لو غير هذا
لكان أحسن، ولو نريد هذا لكان يُستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل ولو ترك
هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة

البشرِ ﴿

(العماد الأصفهاني 1125_1201م)

شكر و عرفان

بادي ذي بدء أشكر الله عز وجل على توفيقه لي في إنجاز هذا العمل المتواضع،
كما يسرني أن أقدم بالشكر الجزيل والتقدير لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور
علي غنابزبة الذي لم يبخل علي بنصائحه وملاحظاته القيمة وصبره الشديد علي

في إخراج هذا العمل .

كما لا يفوتني أن أقدم بالشكر إلى أعضاء اللجنة المحترمة التي سأتشرف بمناقشتها
لأطروحتي بإذن شاء الله ، وعلى رأسها الأستاذ الدكتور موسى بن موسى الذي كان نعم الموجه
وتقديمه لملاحظات قيمة فشكرا جزيلاله .

كما أعرب عن امتناني الكبير لكل من ساندني وساعدني من قريب أو بعيد طيلة
مشواري الدراسي، وأخص بالذكر عائلتي الكريمة أخوتي وأخواتي وأفراد أسرتي
الذين انتظروا نتيجة هذا الجهد بكل شغف، ولا أنسى أيضا صديقي وأخي
الدكتور إدريس ساعبي الذي أتمنى له كل التوفيق ولكل أصدقائي، فالشكر
موصول لهؤلاء جميعا؛ متمنيا لهم كل الخير والحمد لله رب العالمين .

الإهداء

أهدي ثمرة هذا العمل المناوئع إلى:

- روح والدي الكريم، الذي لم يدخ جهداً وأنفق علينا من ماله في سبيل طلب العلم رغم قلة ذات اليد، وكانت من آخر وصاياها لي عليك بطلب العلم.

- روح والدتي الكريمة التي غمّرتني بفيض عطفها وحنانها، والتي كثيرًا ما كانت تدعوني بتيسير الحال .

- أفراد أسرتي الكريمة، زوجتي وأبنائي: ساجدة، إسراء، والبطلين أيوب وعبد الباري.

حفظهم الله لي جميعاً .

- كل من لم تخطه قلمي، واسمه في قلبي له مكان .

إليكم جميعاً أهديكم عملي هذا .

قائمة المختصرات

1 - باللغة العربية

المعنى	الرمز المختصر
- مجلّة الدراسات التاريخية .	- م د ت
- المؤسسة الوطنية للكتاب .	- م . و . ك
- وزارة الشؤون الدينية والأوقاف	- و . ش . د ، و
- تحقيق	- تح
- ترجمة	- تر
- تعليق	- تع
- تقديم	- تق
- الجزء	- ج
- دون تاريخ	- د ت
- دون طبع	- د ط
- الديوان الوطني للنشر والتوزيع .	- د ، و ، ن ، ت
- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع	- ش . و . ن . ت
- صفحة	- ص
- طبعة	- ط
- عدد	- ع
- مجلد	- م
- المؤسسة الوطنية للكتاب	- م و ط
- مخطوط	- مخ
- الأستاذ الدكتور .	- أ . د
- دراسة وتحقيق .	- د ، ت
- مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامية	- م ، أ ، ت ، ث ، ف ، اس .
- ميلادي / هجري	- م / ه

2- المختصرات باللغة الأجنبية:

_V	_ Volume
_T	_ Tome
_N°	_ Numéro
_ R.A	_Revue Africaine
_P	_ Page
_Op.Cit	_ Ouvrage précédemment cité
_Ibid.	_ Ibiđen

مقدمة

تشكّل بلاد المغرب وحدة طبيعية واحدة ولها امتداد روحي موحد نظرا لاعتناق أهلها الإسلام منذ دخول الأفواج الأولى من الفاتحين المسلمين، كما أن الصلة بينها ترجع إلى أقدم العصور، والحديث عن تاريخ وحضارة بلد - ما - لم يعد يقتصر على دراسة تاريخه السياسي وعلاقاته السياسية مع مختلف البلدان، بل ترتقي إلى معرفة جوانبه المختلفة، وعلاقاته الاجتماعية، والاقتصادية والثقافية مع غيره من الشعوب، وذلك بغية تكوين نظرة شاملة فيما يتعلّق بالحياة العامة لهذا البلد، غير أن تلك العلاقات تخضع لعوامل تتأثر بها ومنها المجال الجغرافي، ونظام الحكم السائد في البلد محلّ الدراسة والبحث، ومحاولة منّا بالوقوف على تاريخ الجزائر في جوانبه الثقافية، ومعرفة علاقاتها بغيرها خاصّة خلال العصر الحديث اخترنا دراسة هذا الجانب لأهميته العلمية والتاريخية .

التعريف بالموضوع:

إن علاقة الجزائر العثمانية مع جيرانها تشمل جوانب مختلفة ومجالات عدّة، وقد تنوّعت أطرافها بحكم الموقع الاستراتيجي للجزائر، فهي تمثّل قلب دول المغرب، هذه العلاقات دعمتها ظروف حتمية، منها التاريخية باعتبار الإسلام دين يجمع بين هذه الدّول، وانتماء دول المغرب للدّولة العثمانية ماعدا المغرب الأقصى، هذا من جهة، يضاف إلى ذلك الحتمية الجغرافية فهذه البلدان تشكّل وحدة طبيعية واحدة.

لقد تمّ البحث في العلاقات السياسية بين مكّونات هذه المنطقة المغاربية، وتنوّعت الدراسات واختلفت آراء الباحثين والمؤرّخين الذين كتبوا حول ذلك، ومازالت العديد من جوانب العلاقات الثقافية تنتظر من يكشف عنها ويخصّص لها دراسة علمية تفصيلية .

إن الدّارس لتاريخ الجزائر وتونس خلال هذه الفترة - العهد العثماني - يقف على علاقات متشابكة ومعقدة أحيانا، كانت تسود بين الإيالتين، فعلى المستوى السياسي تميّزت العلاقات التي ربطت الإيالتين بالتوترّ وحروب دامية في كثير من الأحيان، وتدخّل إيالة الجزائر في الشّؤون الداخلية للإيالة التونسية والنزاع عن الحدود وغيرها، لكن لم يمنع هذا كلّ من حدوث علاقات ودّية تمثّلت في وجود علاقات اقتصادية وأخرى ثقافية بين الإيالتين، وقد مثّلت هجرة العلماء الجزائريين ومشاركتهم في الحياة العلمية والثقافية خير مظهر لهذه العلاقات وهذا التّواصل بين المجتمعين خلال هذه الفترة .

ورغم التّفاوت البارز بين الفئة الحاكمة والفئات الاجتماعية الأخرى فإن طبقة العلماء والفقهاء والمتصوّفة تعتبر من الطبقات الاجتماعية التي أحدثت توازناً داخل المجتمع خلال العهد العثماني في كل من الجزائر وتونس.

والجدير بالذكر أن الجزائر تعرّضت منذ بداية القرن 15م مع بقية دول المغرب الأخرى لهجمة صليبية شرسة أدت إلى فقدان كيانها السياسي وتدهور حياتها الاقتصادية، وركود أحوالها الثقافيّة وانعكس ذلك سلبيّاً على النواحي التعليميّة، وهو ما دفع بالعديد من العلماء والفقهاء إلى شدّ رحالهم والهجرة نحو تونس وبلاد المشرق، للتزوّد بالعلم ومختلف المعارف وإعداد أنفسهم للقيام بدورهم ومحاولة اصلاح أوضاع بلادهم وحمايتها من أي غزو فكري أو حضاري .

ومن أجل الوقوف على ذلك وتتبع المنحنى البياني لهجرة هؤلاء العلماء، ومدى تأثيرهم في الحياة العامّة وخاصّة الثقافيّة منها في تونس كان اختياري لهذا الموضوع ذي الطابع الثقافي لأهميته، ومن أجل معرفة الجوانب المختلفة لتاريخ الإيالتين الجزائر وتونس خلال الفترة الحديثة كان الموضوع موسوماً بـ "العلماء الجزائريون في تونس ودورهم في الحياة العلميّة والثقافية وأثرهم في التّواصل الثقافي بين البلدين ما بين القرنين 16 و19م / 10 و13هـ" .

لقد كانت العلاقات الثقافيّة بين تونس والجزائر وطيدة ومتجدّدة، نظراً لعدّة عوامل تاريخيّة وأخرى جغرافية واجتماعية، فالتداخل الجغرافي بين القطرين ساعد على توافد مجموعات بشرية متنوعة من قُطرٍ إلى آخر، و حتّى توافر أسباب التفاعل الاجتماعي، وخروج بعض القبائل وتمرّدها على أوامر السلطة في الجزائر كعدم التزامها بدفع اللزّمة مثلاً، أو الوقوف مع أو ضدّ حاكم من حُكّام البايك.

دواعي اختيار الموضوع:

إن من أهمّ دوافع اختيار هذا الموضوع ما يلي :

- التعرّف على الأوضاع الثقافيّة والاجتماعية للإيالتين خلال العهد العثماني.
- الوقوف على معرفة الدوافع والعوامل التي أدّت إلى هجرة هؤلاء العلماء وقيامهم برحلاتهم العلميّة نحو تونس.

- رصد جذور علاقات التّواصل الثقافي والفكري خلال هذه الفترة والوقوف على معرفة الظروف التي

ساعدت وأدّت إلى قيام هذه العلاقات.

- المساهمة في إعداد عمل علمي ومعرفي يتناول الجوانب الاجتماعية والثقافية للإيالتين خلال العهد العثماني.

- الوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بين الإيالتين في جوانبها الاجتماعية والثقافية خلال هذه الفترة.

- الوقوف على ما كُتب بخصوص هذه المرحلة ومقارنة ما كتبه المؤرّخون الجزائريون والتونسيون من جهة، وما كتبه المؤرّخون الأوربيون من جهة ثانية حول الحياة الاجتماعية والثقافية في الإيالتين خلال فترة مجال الدراسة.

- إنّ هذه الدراسة حول العلماء وهجرتهم نحو تونس لها علاقة بالمكتسبات القبلية، بحيث تُمثّل امتدادا لتخصّصنا ودراستنا خلال مرحلة الماجستير، والتي كانت حول العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير .

- تقديم الصورة المشرقة عن العلاقات بين الجزائر وتونس في جانبها الثقافي والعلمي بدل علاقات الصراع والتوتر والمؤامرات والدسائس بين الإيالتين خلال الفترة العثمانية.

- ميلنا الشّخصي إلى هذا النوع من الدّراسات المتعلّقة بالجانب الحضاري والعلمي بحكم طبيعة العمل في مجال التّربية والتّعليم.

الإطار الزّمني والمكاني للدراسة:

الإطار الزّمني لموضوع الدّراسة تمتدّ بين القرن 16 و19م ولعلّ السّبب في ذلك يعود إلى أن هذه الفترة عرفت خضوع الإيالتين للخلافة العثمانية وما ترتّب عن ذلك اجتماعيا وثقافيا، ففي القرن 16م انتصب فيها الحكم العثماني في كل من الجزائر سنة 1519م، وتونس سنة 1574م، فشهدتا أحداثا مختلفة ومهمّة كان لها التأثير الواضح على الحياة العلمية والثقافية، وأما بالنسبة للقرن 19م فقد شهد هذا القرن نهاية الحكم العثماني في كل من الجزائر سنة 1830م، و1881م في تونس بسبب الاحتلال الفرنسي لكل من الإيالتين، وأما الإطار المكاني فهو الجزائر وتونس، كما أنّ تونس عرفت تغيّرات وتطورات سياسية ومن ذلك تدخّل الجزائر في الشّؤون الداخلية لها.

والعلاقات الثقافية هي أهم مظهر من مظاهر وحدة بلاد المغرب ، ونموذجاً فريداً لما يمكن أن ينشأ من صلات قوية وودية بين منطقتين متجاورتين، ومثالاً لعلاقات الجوار الإيجابي بينهما، ورغم ما عرفته الإيالتين خلال فترة الدراسة فإن هذه العلاقات ظلت قائمة لتعزز الشعور بالانتماء إلى حضارة واحدة، وتمثلت هذه العلاقات أساساً في الزيارات المتبادلة بين علماء الإيالتين وهجرة العلماء وطلبة العلم نحو تونس بهدف الاستزادة العلمية أو حتى التدريس وكذلك الأمر لعلماء تونس بهدف التدريس وإجراء المناظرات العلمية أو تولي بعض المناصب الرسمية في الحكم مثل القضاء وإعطاء الإجازات العلمية وغيرها، وتتضح أيضاً في انتشار الطرق الصوفية في الإيالتين وتواصلها فيما بينها .

الإشكالية المطروحة:

الإشكالية الرئيسية لموضوع البحث هو محاولة بناء صورة على العلاقات الثقافية للإيالتين من خلال هجرة هؤلاء العلماء واستقرار بعضهم هناك ودورهم في الحياة العلمية بتونس، لتكون الإشكالية العامة للموضوع كالتالي : "من هم العلماء الجزائريون الذين هاجروا نحو تونس خلال الفترة ما بين 16 و19م ؟ وما هو دورهم في الحياة العلمية والثقافية ؟ وماهي العوامل المؤثرة على هجرة هؤلاء العلماء ؟ كما يمكن طرح تساؤلات أخرى قد تتبادر إلى أذهاننا عن كنه هذه الهجرات مثل: هل كانت بفعل التقارب السياسي والثقافي بين دول المغرب الكبير؟ أم يرجع ذلك إلى تسهيلات الحكام في هذا البلد أو ذاك لنشاطات العلماء وتقريبهم لهم ؟ أم هي مجرد ردود أفعال وتطلعات من هؤلاء العلماء لما هو أفضل لهم في حياتهم الخاصة ؟ ومهما يكن من أمر فإن هجرة العلماء وبغض النظر عن ظروفها وأسبابها فإننا نتساءل ونقول : ما هو أثر هؤلاء العلماء في التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس؟.

الدراسات السابقة:

مما تجدر الإشارة إليه هو وجود دراسات سابقة وأبحاثا علمية هامة لا يمكن للباحث في هذا الموضوع الاستغناء عنها أو تجاهلها، وهي مواضيع مساعدة للبحث، وتناولت بعض الجوانب المختلفة منه ومن أهمها :

1 - " العلماء الجزائريون في البلدان العربية والاسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (الثالث إلى الرابع عشر الهجري)"، وهي دراسة علمية مهمة للدكتور "عمار هلال"، وتناول فيها مختلف البلدان العربية

والاسلامية التي هاجر إليها العلماء الجزائريون ولم يخصص فيها الحديث عن الدول التي هاجر إليها من بلاد المغرب الكبير فقط، بل ذكر حتى دول المشرق العربي وبعض الدول الاسلامية الأخرى.

2. " هجرة ونفي أهل العلم والدين من الجزائر خلال العهد العثماني"، وهي رسالة ماجستير للباحثة "سعاد بصير" بجامعة منتوري سنة 2008م، وهي دراسة مستفيضة وقيمة أبرزت الباحثة خلالها دوافع وأسباب هجرة علماء الجزائر في فترة التواجد العثماني.

3. " العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن 18م " وهي مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة وهران للباحثة "حصام صورية" تناولت في مجملها العلاقات بين الجزائر وتونس بمختلف مجالاتها وأنواعها، حيث أشارت إلى العلاقات الثقافية غير أن هذه الدراسة كان إطارها الزماني القرن الثامن عشر ولم تشمل فترة الوجود العثماني.

4. "العلاقات العلمية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني رسائل أئمة التجانية إلى أعيان الجنوب التونسي أمودجا"، هي عبارة عن أطروحة دكتوراة للباحث "يوسف الطيب" بجامعة سيدي بلعباس ومن جملة ما تطرق له الباحث جذور وطبيعة العلاقات العلمية ومظاهرها بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، معرجا على التواصل الصوفي والطرفي خلال هذه الفترة، مُخصِّصًا الحديث حول رسائل أئمة الطريقة التجانية إلى أعيان الجنوب التونسي، حيث وضح كيف كانت هذه الرسائل مظهرا من مظاهر للتواصل الثقافي بين الإيالتين ومدى مساهمتها في استمرار العلاقات العلمية وحتى الاجتماعية للإيالتين .

5. دراسة للباحثة "لزغم فوزية" موسومة ب " البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، ودورها الثقافي والسياسي(925- 1246هـ / 1520- 1830م)، وهي في الأصل أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، بجامعة وهران تناولت فيها بالبحث والدراسة البيوتات العلمية الشهيرة بالجزائر خلال العهد العثماني ومصنفات أفرادها ورحلاتهم العلمية وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة، ولنفس الباحثة بحث مهم جدا وقد استفدت منه كثيرا وهو عبارة عن مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الاسلامية، وعنوانها " الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية"، تطرقت فيه الباحثة لأغلب الإجازات العلمية التي حصل عليها علماء الجزائر العثمانية سواء من تونس أو المغرب أو حتى في باقي الدول الاسلامية الأخرى .

6. أطروحة الدكتوراه الموسومة ب " التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية (1519 - 1830 م) مقارنة سياسية ثقافية " بجامعة غرداية، للباحثة "عائشة محممة"، وهي دراسة مهمة تناولت فيها

الباحثة العوامل المؤثرة في التواصل الثقافي ومختلف المراكز العلمية في الإيالتين، وأهم مظاهر التواصل الثقافي والعلمي والروحي بين علماء الجزائر وتونس خلال هذه المرحلة، اعتمدت فيها الباحثة عن وثائق أرشيفية ومصادر مهمة عربية وأخرى معرّبة.

7- " العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر العثمانية خلال فترة الدايات (1671-1830 م)"، وهي عبارة عن مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الجزائر، للباحثة " رشيدة شدرى معمر" تطرقت الباحثة فيها إلى وظائف العلماء وأجورهم ودوافع ومظاهر التقارب بين العلماء والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني ونتائجه، كما عرّجت الباحثة أيضا عن مظاهر وأسباب التوتر والقطيعة بين العلماء والسلطة الحاكمة في الجزائر وانعكاسات ذلك عن العلماء والجزائر والتي كانت من بينها الهجرة والتحرّيز للقيام بثورات عن السلطة الحاكمة أو حتى قيادة هذه الثورات.

8- وللباحثة " ليلي غويبي " دراسة تناولت من خلالها " التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية الجزائرية"، وهي في الأصل مذكرة ماجستير، تناولت فيها الباحثة أهم مظاهر التواصل بين علماء الجزائر ودول المغرب الكبير حيث خصت بالدراسة الرحالة الجزائريين ونشاطهم العلمي والثقافي خاصة في تونس فذكرت منهم الرحالة " المقرّي " و " الورتيلاني " .

9- " الحضور الجزائري في تونس خلال العهد العثماني (1628 - 1830م)"، وهي عبارة عن أطروحة دكتوراة تقدّمت بها الطالبة " سحابات زهيرة"، حيث بينت في دراستها قوّة الحضور الاقتصادي والاجتماعي والصراع العسكري الذي دار بين الإيالتين خلال هذه الفترة، وكذا الحضور الثقافي و العلمي من خلال نشاط العلماء الجزائريين في تونس، كما تطرقت للحضور الصوفي الجزائري في تونس بانتقال بعض الطرق الصوفية التي تأسست أو ظهرت في الجزائر وانتقلت بعدها إلى تونس.

المنهج المعتمد:

المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي التحليلي الذي يحاول التحقق من المعلومات وإعادة بناء السياق التاريخي لها واستخلاص النتائج الهامة.

الخطة المعتمدة في الدراسة:

عملت على تقسيم البحث إلى مقدمة وفصل تمهيدي أو مدخل وثلاثة فصول وخاتمة وذيلته بفهارس فجاءت الخطة كالتالي:

أمّا المدخل فهو عبارة عن فصل تمهيدي تطرقت فيه بالحديث عن العثمانيين والبحر الأبيض المتوسط وبدايات ظهورهم كقوة عسكرية في هذا المجال البحري المهمّ حيث تُعتبر كلاً من تونس والجزائر جزءاً لا يتجزأ منه كما ذكرت فيه انتصاب الحكم العثماني في كليهما حيث أصبحت بذلك الجزائر وتونس إيتاليتين تابعتين للخلافة العثمانية، ثمّ عرّجت عن أهميّة المجال الجغرافي للدراسة وجذور التواصل الثقافي والعوامل المساعدة في ذلك.

وجاء الفصل الأوّل بعنوان الأوضاع الثقافية في الإيتاليتين مقسّماً إيّاه إلى ثلاث مباحث حيث تناولت في المبحث الأوّل الأوضاع الثقافية في الجزائر وفي المبحث الثاني تناولت فيه الأوضاع الثقافية في تونس وأمّا المبحث الثالث فتناولت فيه أهمّ المراكز العلمية المختلفة في الإيتاليتين مثل المساجد والجامع والمدارس والكتاتيب والزوايا وغيرها.

وأما الفصل الثاني كان بعنوان عوامل هجرة العلماء الجزائريين حيث تناولت في المبحث الأوّل اتصال العثمانيين بالعلماء في الجزائر وبدايات ذلك من خلال اتصال الحكّام العثمانيين الأوائل للإيالة بالعلماء الجزائريين، ومحاولة التقرب منهم وكسب وُدّهم في أوّل الأمر، ثمّ كيف بدأت تتأزّم العلاقات بين هؤلاء الحكّام وتبدّل نظرهم حول العلماء بمرور الوقت ممّا أدّى إلى توتر هذه العلاقة وتفكير العديد من هؤلاء العلماء بالهجر أو الهجرة نحو خارج الجزائر، ثمّ عرّجت في المبحث الثاني على أهمّ العوامل السياسية والاقتصادية التي أدّت بهم للهجرة، وأمّا في المبحث الثالث فقد ذكرت في العوامل الاجتماعية والثقافية التي كانت من العوامل المهمّة التي ساعدت على هجرة هؤلاء العلماء.

وخصّصت الفصل الثالث والذي عنوانه بـ "علماء الجزائر في تونس ودورهم في التواصل الثقافي والعلمي بين الإيتاليتين" للحديث عن أشهر هؤلاء العلماء الذين اختاروا الهجرة نحو الإيالة التونسية حيث ترجمت في أشهر علماء الجزائر في تونس، وأهمّ مؤلفاتهم ورحلاتهم وهذا في المبحث الأوّل منه، كما ذكرت في الوظائف التي تقلدها هؤلاء العلماء في الإيالة التونسية طبعاً خلال فترة محل الدراسة، ثمّ عرّجت على دور هؤلاء العلماء في الحياة العامّة في تونس، وذلك من خلال الإفتاء والمناظرات العلمية وتقلد مناصب علمية مهمّة مثل التدريس والخطابة وغيرها.

أما في المبحث الثاني فقد خصّصت فيه الحديث حول الزيارات المتبادلة بين علماء الجزائر وتونس وكذا الإجازات العلمية بينهما، وتناولت فيه أهمّ المناظرات العلمية التي جرت بين علماء الإيتاليتين ومجالس الإفتاء التي أُقيمت في تونس، وهي بمثابة النشاطات العلمية والثقافية المختلفة التي قام بها هؤلاء

العلماء في تونس. وأما في المبحث الثالث فقد تطرقت فيه لدور العلماء في التواصل بين الطّرق الصّوفية وانتقالها بين الإيالتين.

وقد ختمتُ دراستي هذه بمجموعة من الملاحظات والاستنتاجات التي توصلتُ إليها، وذيلت هذا كله بالمصادر والمراجع التي اعتمدتُ عليها في هذا البحث وفهارس للأعلام والأماكن والموضوعات.

نقد لأهم المصادر والمراجع المعتمدة:

* اعتمدت في هذا البحث على جملة من المصادر والمراجع ومن ذلك نذكر:

- رحلة الورتيلاني الموصوفة ب " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار " لمؤلفها الحسين بن محمد الورتيلاني والمشهورة ب "الرحلة الورتيلانية " والتي ذكر فيها الكثير من الأحوال الثقافيّة والسياسية والاجتماعية، وتمتاز كذلك عن غيرها من الرحلات بما تحويه من معلومات تاريخية مهمّة وملاحظات عن الأماكن التي مرّ بها فضلا عمّا فيها من أخبار التصوّف والمتصوّفين بالمشرق العربي ومغربيه، كما جمع فيها من العلوم الدينية من فقه و تفسير وغيرها في كلا الإيالتين وقد استفدتُ من ذلك كثيرا وخاصة لمعرفة أحوال بعض العلماء وأوضاع وأخبار أهل هاتين الإيالتين في تلك الفترة رغم ما فيها من حشو وتكرار وعدم ترتيب.

- و لابن المفتي حسين بن رجب شاوش : والذي لم يُعرف اسمه الكامل والحقيقي ولكنه اشتهر بذلك لكون والده مُفتيًا حنفيا تقييداته المعروفة ب " تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها " ، دراسة وتحقيق فارس كعوان، وقد استفدتُ منها في تراجم بعض علماء الجزائر خلال تلك الفترة وما حدث لهم من فتن والتي أدّت بالبعض منهم للهجرة لخارج الجزائر.

- وللعلامة الشيخ عبد الكريم الفكون كتاب : " منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، تحقيق أبو القاسم سعد الله مصدر مهمّ في معرفة أحوال التصوّف والتدين في مدينة قسنطينة خلال فترة من فترات الحكم العثماني في الجزائر ، كما يعرض تراجم بعض العلماء ومناقبهم ويكشف زيفَ بعض من ادعى العلم والتصوّف والصّلاح منهم واستفدتُ منه في معرفة مراسلاته وإجازاته لبعض فقهاء تونس.

- ولحمّد بن ميمون الجزائري كتابه المعنون ب: " الثّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية " ، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، وقد استفدتُ منه في العلاقة التي طبعت بين الحكّام العثمانيين وعلماء الجزائر خلال فترة الأغوات رغم أنّها كانت إشارات بسيطة.

- كتاب " إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان " لمؤلفه أحمد بن أبي الضياف والذي تناول فيه تاريخ البلاد التونسية واستفدت فيه من الأجزاء الخاصة التي تتناول مرحلة إيالة تونس العثمانية، والذي ذكر فيه تراجم لرجال السّلطة في تونس من البايات وغيرهم بالإضافة للعلماء التونسيين الذين ذكروا في ثنايا هذا البحث والتي كانت لهم علاقة بإيالة الجزائر وكذا مساهمة بعض البايات المراديين خصوصاً في إثراء الحياة الثقافيّة في تونس.

- " ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان " : ومؤلف هذا الكتاب هو حسين خوجة بن علي بن سليمان الحنفي تناول فيه تراجم العلماء التونسيين باختلاف مذاهبهم المالكي منهم والحنفي والقضاء، وقد استفدت منه في تراجم العلماء الذين كانت لهم علاقات مع علماء الجزائر أو حتى بعض العلماء الجزائريين الذين تقلدوا مناصب أو كان لهم حضور قويّ في الإيالة التونسية وبعض مؤلفاتهم رغم أنّ هذه التراجم كانت مختصرة.

- كتاب " نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار " لمحمود بن سعيد مقديش الصفاقسي تحقيق كل من علي الزاوي و محمد محفوظ، وهو مصدر مهمّ أيضاً باعتباره عاصر الفترة محلّ الدراسة فلقد أفادني في الإشارات المهمّة للحياة الثقافيّة في تونس خلال الفترة العثمانية والانجازات الحضارية وخاصة المراكز العلمية والثقافية، سواء للمراديين أو الحسينيين، كما تعرّض لبعض فترات التوتّر التي طبعت العلاقات بين الإيالتين.

- كذلك كتاب "نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان " لصاحبه العلامة محمد أبو راس الناصري العسكري الجزائري، تحقيق، وتعليق، محمد الحبيب العلابي، وسهيل الحبيب وقد أشار فيه للأوضاع الثقافيّة في تونس وخاصّة في مدينة القيروان التي أقام بها وخصّها بالزيارة وتبرّك بصلحائها وأوليائها وذكر معالمها ووصف الحياة الثقافيّة والعلمية بالمدينة.

- " صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر"، لمؤلفه محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفرائي، تقديم وتحقيق الدكتور عبد المجيد خيّالي، وقد استفدت منه في معرفة وترجمة بعض العلماء الذين تمّ ذكرهم في بحثنا هذا، وإن كانت هذه التراجم جاءت مُقتضبة غير أنّه لا غنى للباحث عن هذه المصادر المهمّة التي عاصر مؤلفوها الفترة الزمنية محلّ الدراسة .

- ولمحمد مخلوف كتابه " شجرة التور الزكية " والكتاب في جزأين خرّج حواشيه وعلّق عليه " عبد المجيد خيالي " وتحدّث فيه صاحبه عن تاريخ تونس، وقد ذكر فيه أهم العلماء المعاصرين للفترة محلّ الدراسة وخاصة من علماء المذهب المالكي، وأفادني في تراجم العلماء التونسيين في العهد العثماني.

- ولابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي الدينار كتابه " المؤنس في أخبار افريقية وتونس " حيث أفادني في بعض الإشارات التي تطرّق فيها للحياة الثقافية والعلمية في تونس خلال هذه الفترة محلّ الدراسة ومدى تأثير الأندلسيين في الحياة العامة وخاصة الثقافية منها.

* كما لا يمكن الاستغناء عن المراجع والتي لها علاقة بالبحث سواء العربية منها أو الاجنبية، وأمّا المراجع العربية التي اعتمدت عليها فإنّي أذكر منها :

- " تاريخ الجزائر الثقافي " لأبي القاسم سعد الله ، ويُطلق على هذه السلسلة الموسوعة التاريخية للجزائر وهي تؤرّخ للأوضاع الثقافية للجزائر ما بين (1500 و1962م) واستفدت من الجزأين الأول والثاني كثيرا بحكم علاقتهما بالبحث على اعتبار أنّهما يتعلّقان بالفترة العثمانية حيث ذكر فيهما أوضاع الجزائر الثقافية خلال العهد العثماني، وتأثير الأندلسيين فيها ، كما ذكر مختلف المراكز العلمية والثقافية وكذلك العلماء ورجال التصوّف والطرق الصوفية وتأثيرها على الحياة العامة كما أشار إلى هجرة العلماء من الجزائر نحو المناطق المجاورة وخاصة المغرب وتونس وأسباب ذلك غير أنّه لم يفصّل في ذلك تفصيلا دقيقا مع ذلك فلا ينقص من أهميته شيء فلا مستغني لأي باحث في تاريخ الجزائر عن هذا المرجع المهم وخاصة في الجانب الثقافي منه.

- عادل نويهض : " معجم أعلام الجزائر "، مرجع يعتمد عليه الباحث في ترجمة الأعلام والشخصيات المختلفة، وقد استعنتُ به من أجل ترجمة العلماء الذين تمّ ذكرهم في ثنايا هذا البحث رغم أن معظم التّراجم كانت مختصرة، غير أنّه يعتبر بمثابة محرّك بحث لتراجم هؤلاء العلماء فهو يحيلك على العديد من كتب التّراجم المهمّة.

- محمد بن الخوجة " تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد " ، كتاب مهمّ أشار فيه صاحبه لبعض الجوانب من الحياة الثقافية في تونس، غير أنّ الأهمّ فيه ذكره المفصّل عن المساجد والجوامع سواء منها الحنفية أو المالكية، وكذلك المدارس والمراكز العلمية في تونس وتاريخ نشأتها ودورها الثقافي والعلمي التي قامت به،

وجهود رجال السّلطة في تونس خاصة خلال العهود الحديثة في الاهتمام بهذه المساجد والجوامع والمدارس المختلفة وعنايتهم بالأئمّة والعلماء وطلبة العلم.

- و لأحمد عبد السلام كتابه " المؤرّخون التّونسيون في القرون 17 و18 و19م "، وهو كتاب باللغة الفرنسية ترجمه إلى اللغة العربية مؤلّفه والأستاذ عبد الرزّاق الحليوي، وقد استفدت منه كثيرا لما احتواه من معلومات قيّمة حول الحياة التّقافية والعلمية في تونس خلال العهد العثماني، وعلاقة السّلطة بالعلماء.

- من المصادر والمراجع المهمّة كذلك في دراستنا ما كتبه الأجنب عن الإيالتين من خلال كتابات الأب دان، و لويس رين، و فايسات ، وأيضا هنري دونان في كتابه "الإيالة التّونسية 1858م"، تر، محمّد فريد الشريف وكتاب شالر وليام "مذكّرات قنصل أمريكا (1816 - 1824)"، ترجمة وتعليق العربي إسماعيل ، والدكتور "شو" ، أو كتاب جوهان أورنيست هابنسترايت : رحلة العالم ج .أو . هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ / 1732م)، تر، تع، تق، ناصر الدين سعيدوني، وما كتبه الرخالة "جون أندريه بيسونال " في كتابه " الرحلة إلى تونس " سنة 1724م ، الذي قام بترجمته وتحقيقه مُحمّد العربي السنوسي، وكذلك كتاب "وصف إيالة تونس " والذي ألّفه " أرنيست بيليسي دي راينو " والذي قام بترجمته مُحمّد العربي السنوسي كذلك ،وقد مكّنتنا هذه المصادر من معرفة أحوال الإيالتين العلمية والفكرية وسياسة السّلطة فيهما اتّجاه العلم والعلماء والجهود المبذولة في النهوض بهذا الشأن، وكذا معرفة أحوال المدن (الحواضر)، ووضعية المراكز العلمية من مساجد ومدارس، وزوايا إضافة إلى جهود العلماء في سبيل تطوير الحركة العلمية والفكرية في كل من الجزائر وتونس عبر مختلف المراحل الزّمنية ومن هذه المصادر والمراجع أيضا نذكر :

_ DAN(P) , histoire de la barbarie et ses corsaires, récollet imp. Du Roy, 2émme, édit. , Paris, 1973.

MERCIER: Histoire de Constantine, IMPRIME—_ J. MARLE ET F BIRON, IMPRIMEURS-ÉDITEURS, Rue Damrémont, 51;1903.

_ VAYSETTES (E) , «Histoire des derniers Beys de Constantine , depuis 1793 jusqu'à la chute d'HADJ AHMED», in R.A : N° 03 (1859).

_ Dr. SHAW, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais par J.Mac.Carthy 2ème Ed; Bouslama, Tunis 1980 .

_ PEYSONNEL (J.A):VOYAGES DANS LA REGENCES D'ALGER ET DE TUNIS ,PARIS ,1838.

- وهذه المصادر أو المراجع يتعين على الباحث التعامل معها بحذر لكون النظرة الغربية تختلف عن ما يكتبه الرحالة أو المؤرخين العرب المسلمين خاصة في المجال الثقافي والديني، كما أنني وجدتُ بعض الصعوبة في ترجمة بعض النصوص.

- في هذا البحث كذلك استعنتُ ببعض المقالات التي تم نشرها في الدوريات والتي كانت لها علاقة بالموضوع ومن ذلك نذكر :

- حمزة بوقادوم: الحضور الصوفي الجزائري بمدينة الكاف خلال القرن 19م، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلة (05)، العدد(2)، 2021م.

- ذهبية بوشيبة : العلم والعلماء خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 3 و4 جامعة سعيدة، (د ت) .

- رشيد بگاي :تأثير الطرق الصوفية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني ، مجلة الباحث ، ع 8، ديسمبر 2011 م .

- لزغم فوزية :العلماء الجزائريون بتونس خلال عهد الدايات(1671م/ 1830م) ودورهم في مدّ جسور التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ، مجلة الخلدونية ع2 السنة 12، 2020 م، مقال نُشر بتاريخ 2020/12/27 م.

- محمّة عائشة: من مظاهر التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني(1519/1830م)، هجرة العلماء والطلبة الجزائريين إلى تونس أمودجا، مجلة المعارف والبحوث والدراسات التاريخية ، ع 19. الصُّعوبات:

لا تخلو أي دراسة علمية بطبيعة الحال من وجود بعض الصُّعوبات التي تواجه الباحث ومن الصُّعوبات والعراقيل التي واجهتني خلال بحثي أذكر :

- الإطار الزماني الواسع للدراسة بحيث أنها تتعدى ثلاثة قرون أي من التواجد العثماني أي بداية القرن 16م إلى نهاية الوجود العثماني أي الثلث الأول من القرن 19م.

- قلة المادّة العلمية أحيانا وصعوبة التّوفيق بين المتناقض منها أحيانا، ومن ذلك نذكر أنّ مصادر نجد فيها بعض رجال السُّلطة العثمانية في الجزائر كانوا قد وقفوا في وجه العلماء وساءت العلاقة بينهما حتّى

أنهم كانوا سببا في هجرتهم، غير أن جهود نفس هؤلاء من رجال السلطة في نشر العلم كان كبيرا من خلال إنشاء المدارس أو ترميمها أو بناء المساجد والجوامع وتأسيس الأوقاف لها.

- لم اطلع إلا على دراسات أكاديمية قليلة، والتي تناولت تراجم هؤلاء العلماء بشكل واسع ومستفيض سواء في الجزائر أو تونس التي حاولت مرّات الاتّصال بالباحث " إبراهيم السعداوي " الذي كتب حول المجال الثّقافي في الفترة الحديثة لتونس لكنّ دون جدوى.

- صعوبة مزاوله البحث العلمي والتّوفيق بينه وبين ضغوطات العمل والانشغالات الأسرية المتعددة.

- وفي الأخير لا يسعني إلا أن نشكر الله عزّ وجلّ أوّلاً على توفيقه لي في معالجة هذا الموضوع، كما أقف وقفة شكر وعرّفان ومعه اعتذار للمشرف الأستاذ الدكتور الشيخ " علي غنابزينة " على صبره معي وتوجيهاته ونصائحه القيّمة فجازاه الله عني كل خير، كما لا أنسى أن أشكر كلّ من أمدني بمعلومة أو نصيحة أو كلمة طيّبة لتشجيعي أو مساعدة من قريب أو بعيد لتحقيق هذا البحث.

- لا ندعي الكمال في بحثي هذا وحسي الاجتهاد في ذلك فإن أصبت من الله وحده، وإن كان غير ذلك فيكفي بنا شرف المحاولة مع الطمع في الاستفادة من توجيهات لجنة المناقشة الموقّرة، والله المستعان وهو حسي وبه التّوفيق والسّداد.

البشير بن العائش مقدود

الوادي : يوم الاربعاء 03 صفر 1446هـ

07 أوت 2024م

الفصل التمهيدي

الجذور التاريخية للروابط العثمانية المغاربية

أولا - العثمانيون والبحر الأبيض المتوسط

ثانيا- انتصاب الحكم العثماني في الجزائر وتونس

ثالثا- جذور وعوامل التواصل الثقافي بين الايالتين

عرف الفضاء المتوسطي مع بدايات القرن السادس عشر الميلادي، تحولات وتغيّرات على مستوى العلاقات البينية لبلاد المغرب فرضتها الظروف الجديدة والأحداث المتسارعة في هذا المجال البحري وكل المناطق المطلّة عليه ونخصّ بالذكر البلدين المتجاورين تونس والجزائر فعلى الصّعيد الداخلي وصلت السّلطة الحاكمة إلى الضّعف والانهيار بسبب الصّراع والتّناحر على الحكم وغرق حُكّام هذه الدويلات في المكائد والمواجهات العسكرية حول النزاعات الحدودية وغيرها، أمّا على الصعيد الخارجي فقد وصل المدّ المسيحي الصليبي إلى معظم سواحل البلاد المغاربية وقد عجزت تلكم السّلطات على مواجهة هذا الزّحف بل أسهمت في تثبيت أركانه على حساب سكّان بلاد المغرب الإسلامي حفاظاً على مصالحها وتشبّثاً في سدّة الحكم ، وذلك من خلال مدّ جسور التعاون مع هذا الاحتلال الصّليبي ، وفي ظلّ هذه الأحداث والظّروف ظهر وافدٌ جديد جاء لتلبية نداء سكّان بلاد المغرب ومُنقِذاً لصرخات مسلمي الأندلس حيث استطاع هؤلاء العثمانيّون صدّ هذا الغزو وعملوا على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المهجّرين والفارّين من الأندلسيّين ليؤسّسوا لمرحلة جديدة من تاريخ هذه المنطقة من العالم .

أولاً - العثمانيون والبحر الأبيض المتوسط:

الوجود العثماني في غرب البحر المتوسط مرتبط بقضية المسلمين بالأندلس وحملات الطرد والتكثير التي تعرّضوا لها بعد سقوط غرناطة أواخر القرن 15م¹، ولم يجد هؤلاء الضعفاء من ملجأ قريب لهم سوى بلاد المغرب التي كانت تعيش وضعاً سياسياً واقتصادياً لا يختلف عمّا كانت تعيشه معاقل المسلمين بالأندلس.

وإنّ هذه الوضعية المتدهورة التي كانت عليها منطقة بلاد المغرب اعتبرها المحرّضون الإسبان الفرصة المواتية لإنجاح مشاريعهم المعدّة سلفاً، فاشتدّت هجمة هؤلاء والتي كانت مُدعّمة بمباركة الباباوات لها²، وقد استطاعت هذه الهجمات تحقيق بعض أهدافها وذلك باحتلال العديد من المدن الساحلية لبلاد المغرب على غرار مدينة مليلية 1497م، والمرسى الكبير 1505م، ووهران 1509م³، والكثير من المدن الحصينة على طول سواحل بلاد المغرب، وأرغموا حكامها على الخضوع لسلطتهم أو السماح لهم بإقامة قواعد بحرية⁴، كما نجح الإسبان أيضاً في احتلال مستغانم، تنس، دّلس، شرشال، وبجاية، وختمت إسبانيا امتدادها الصليبي بطرابلس⁵، ولم يكبح جماح هؤلاء الغزاة أو يُفسد خططهم سوى ظهور الأتراك وتدخلهم السريع، فقد أصبح سكّان أغلب هذه المدن يُدين بالولاء للأتراك، وكما كان الأمر للإسبان فإنّ البرتغاليين استطاعوا احتلال مدن أخرى قبل ذلك، مما يبيّن مدى التنافس بينهما في مدّ نفوذهما بالمنطقة. وفي ظروف صعبة كالتّي عاشها مسلمو الأندلس، يضاف لها ظهور خطر

¹. مُجّد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الأخوة بربروس (1512 - 1543)، شركة الأصاله للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر، 2012، ص 176.

². بارك هذه الحملة البابا "إسكندر بورجيا"، كما أنّ الكاردينال "خيمينيس" تطوّع من ماله الخاص وجّهز الأسطول وأعانت الكنيسة بأموالها ثمّ شرع في الغزو والذي استمرّ نحو ثلاثمائة سنة أي ما بين (1492 م - 1792 م).

³. يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500-1830)، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، د.ت. ط، الجزائر 1985، ص 10.

⁴. إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، منشورات مكتبة العبيكان، ط 1، الرياض م. ع. السعودية. 1996، ص 66.

⁵. بالقاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830م، منشورات دار البعث قسنطينة، ط 1، قسنطينة -الجزائر، 1985، ص 57.

القراصنة الأوروبيين في البحر المتوسط، ظهرت قوّة الأخوين عروج وخير الدين مُتَنقِّلة في العروض الغربية للبحر المتوسط مُنْجدة للمستضعفين من المسلمين ، وعملت على نقلهم إلى سواحل بلاد المغرب ، وتمكّنوا من ذلك بعد الحصول على موطئ قدم على هذه السواحل من خلال التعاقد ودياً مع السلطان الحفصي (أبي عبد الله مُجَّد الحفصي)¹ .

- يقول خير الدين في ذلك : (...كنت أنا وأخي ويحي رئيس، وركب كل منا سفينة وأتينا تونس فدخلنا على السلطان وقدمنا له الهدايا ثم قلنا له : نريد أن تفضّل علينا بمكان نحمي به سُفُننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة (8/1) ما نحوزه من الغنائم، فأجابهم سلطان تونس قائلاً : (إنّ ما تقوله معقول جدّاً فأهلاً وسهلاً بكم البلاد بلدكم...) ² .

- نزل الأخوان بجزيرة (جربة)³ ثم (حلق الوادي)⁴ بتونس فانتشرت سمعتهما وأصبحت سطوتهما مُهابة في عرض البحر الأبيض المتوسط ، ولاشكّ أنّ هذه التسهيلات التي قدّمها السلطان الحفصي لكل من عروج و خير الدين لها أهميّة كبيرة على مستقبل الأحداث في المنطقة بامتلاكهما قاعدة قريبة من مسرح عمليتهما في سواحل بلاد المغرب وكذا الشواطئ الإسبانية والإيطالية، فأصبحا محطّ الأمل والرجاء للمسلمين قاطبة في بلاد المغرب ⁵ .

كان التُّجار العثمانيون يجوبون البحر الأبيض المتوسط بصفة منفردة ⁶ ، وقد انتشر اسم عروج في سواحل إفريقيا ينشر الرُّعب والخوف في قلوب أعدائه من القراصنة أو المعتدين الإسبان ، وكانت معظم

¹ . عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، المطبعة العربية، ط1، الجزائر، 1955، ص 176.

² . خير الدين بربوس، مذكرات خير الدين بربوس، تر، مُجَّد دراج، الأصالة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2010 ص : 46.

³ . جربة : جزيرة على خليج قابس تشتهر بزراعة الحبوب وصيد الأسماك .

⁴ . حلق الوادي: بلدة ومرفأ على المتوسط كما تعتبر مركز تجاري مهم.

⁵ . جمال قنان ، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830)، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2007، ص 20 .

⁶ . مُجَّد درّاج ، الدخول العثماني إلى الجزائر، المرجع السابق، ص 178 .

السفن المسيحية تستسلم فور سماع اسم الإخوة بربروس¹ ، ولاشك أنّ المجال البحري للدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط فيما يتعلّق بشمال غرب إفريقيا هو السّاحل الذي ظل القاعدة الرئيسية للنفوذ العثماني حيث سيطر العثمانيون على طرابلس الغرب (ليبيا) ، وفي تونس وبعد تمكّن العثمانيين من طرد الإسبان منها ، بسطوا سيطرتهم على كل مراكز السّاحل مثل المهديّة، حلق الوادي 1574م ، أمّا في الجزائر فقد أخضع العثمانيون كل السّاحل، والمدن المطلّة عليه بحيث كان لها الدور الكبير في عمليات الجهاد البحري، والسيطرة على البحر المتوسط، غير أنّه لا يمكن إغفال الدور الذي أدته المدن الأخرى وهو ما يفسّر الصّراع المستمر بين العثمانيين والإسبان² وتركيز العثمانيين في السيطرة على هذه المدن السّاحلية يعود إلى موقعها الاستراتيجي الممتاز، فشكّلت -بذلك لهم - قواعد دفاعية عسكرية، إضافة إلى ذلك أهميّة هذه المدن اقتصاديا ودورها التجاري مع دول أوروبا ، وبإشراف العثمانيين على هذه المدن والمناطق البحرية في البلاد المغاربية تمكّنوا من الرّبط بين جميع ممتلكاتهم في القارات الثلاث (إفريقيا - آسيا - أوروبا) . هذه المدن السّاحلية كانت مدعومة بموانئ ذات أهميّة اقتصادية وتجارية.

إنّ الوظائف المختلفة لهذه المدن والتي اعتُبرت كقواعد بحرية، كانت كلّها تؤكّد الوجود العثماني في البحر الأبيض المتوسط التي كانت أولويتها للأعمال العسكرية نظرا لأطماع الإسبان وحلفائهم فهي بذلك تختلف عن القواعد بشرق المتوسط المهتمّة بالتجارة³ ؛ وبذلك فقد فكّر العثمانيون جدّيا بالاستقرار وإلحاق أجزاء من هذه المنطقة بدولتهم.

¹ . عزيز سامح ألتّر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر، مُجد علي عامر، دار النهضة العربية، ط1، بيروت ، 1989، ص 45-47 .

² مصطفى الغاشي، "البحر المتوسط في الإستراتيجية العثمانية خلال القرن 16م"، مجلة التاريخ العربي، العدد: 25، 2003، كلية الآداب، تطوان المغرب، ص 85 .

³ . المدن والقواعد العسكرية الموجودة على البحر الأحمر، والبحر الأسود، وبحر مرمرة وإيجة، وكل المناطق التي تسيطر عليها الدّولة العثمانية.

ثانيا- انتصاب الحكم العثماني في الجزائر وتونس:

أ/ الجزائر :

إنّ الهجوم الإسباني على بلاد المغرب لم يكن في غالبه يحمل مضامين اقتصادية بل كان هدفه الرئيس الانتقام من المسلمين، ولاشك أنّ وصايا الملكة إيزابيلا¹ التي كان لها الدور في مواصلة هذه الهجمات والحملات - حتى بعد وفاتها - تؤكّد ذلك، وقد اشتدّ الصراع بين المغاربة والإسبان خاصة بعد استقرار الأندلسيين المهجّرين في سواحل بلاد المغرب²، وأثناء هذه الظروف ظهر الإخوة بربروس، ويشير عدد من المؤرخين أنّ الكثير من البحارة الأتراك كانوا يجوبون البحر المتوسط بمبادرة فردية مدافعين عن موانئ البلاد المغاربية ضدّ هجمات العزّة الأوروبيين، وبالنظر إلى الدور الدفاعي الذي كان يقوم به هؤلاء البحارة صار الأهالي ينظرون إليهم على أنّهم أبطال ومدافعون عن المسلمين³. ولاشكّ أنّ الأعمال الوحشية التي ارتكبتها الإسبان ضد المسلمين ولدت لدى عروج وخير الدين الرّغبة في خوض المغامرة بالعمل على إنقاذ من بقي من المسلمين⁴، وفي هذا يذكر "خير الدين" في مذكراته ما يلي: (...في الوقت الذي كان فيه بيبري رئيس في اسطنبول خرجت أنا وأخي في عشرة مراكب وكان مقصدنا الذهاب إلى مضيق سبته "جبل طارق" على أن نمرّ بالأندلس لنقوم بإنقاذ من نُقدر عليه من إخواننا في الدّين..)⁵، غير أنّ ظهور الأخوين بربروس في غرب البحر المتوسط اختلف عن ظهور الأتراك الآخرين الذين سبقوهم سواء من حيث سبب المجيء أو النتائج المترتبة على ذلك⁶.

¹. الملكة إيزابيلا (1451-1504م) : والملقبة بـ ((الكاثوليكية)) ملكة قشتالة تزوّجت بالملك فرديناند ملك أراغون فتوحّدت بهذا الزواج الدولة الإسبانية، في أيام مُلكها اكتشف ((كريستوف كولومبس)) قارة أمريكا، ينظر: بطرس حروفش وآخرون، المنجد في الإعلام، دار المشرق، 1986، ص 101.

². عزيز سامح ألتر، لأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص ص 17-18.

³. مُحمّد دراج، المرجع السابق، ص 178.

⁴. مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، (د ط)، الجزائر، 1964، ج 3، ص 134.

⁵. خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 67.

⁶. مُحمّد دراج، المرجع السابق، ص 186.

إنّ الأعمال التي قام بها عروج وخير الدين أكسبتهما سمعة كبيرة وأصبح اسمهما يتردّد في سواحل وموانئ البحر الأبيض المتوسط ممزوجا بشيء من الخوف والإعجاب، لذا فكّر أهل بجاية بالاستنجاد بهما لطردهما إلى إسبانيا وكان ذلك في سنة 1512م، حيث قابل وفد من هذه المدينة خير الدين حاملين له رسالة يطلبون فيها العون والاستنجاد للتخلّص من يد الإسبان وأهمّ ما جاء فيها (... إن كان ثمة مُغيث فليكن منكم أيها المجاهدون... فما نحن نضعُ أمرنا بين أيديكم ... فَتَفَضَّلُوا بتشريف بلدنا ..)¹.

بعد وضع حُطّة محكمة لفتح المدينة استطاع خير الدين فتح حصن مدينة بجاية ليتمّ بعد ذلك فتح المدينة، ليسارع بعدها شيوخ وقوّاد المنطقة لمنح الولاء والطاعة لسلطة خير الدين².

إنّ الأوضاع المضطربة للمدن الجزائرية في خلال هذه المرحلة كان لها الأثر الواضح في خروج أهلها عن طاعة الزيّانيين ومنها مدينة الجزائر التي بقيت تحكمها هيئة من الثعلابة، ثمّ آل الأمر في حكمها إلى أولاد سالم وبسبب التضييق على الأهالي من خلال الضرائب والإهانة والذلّ، تنادوا بخير الدين لحماية بلدهم ومبايعته كأمر على بلاد الجزائر³، كذلك الأمر أيضا بالنسبة لمدينة تلمسان التي أعدّ خير الدين لها جيشا للزحف عليها وتمّ تحريرها من الإسبان الذين تمكنوا من استعادتها بمساعدة حاكمها "أبي حمو" الموالي لهم، وقد لقي "عروج" حتفه بعد دفاع مستميت عن المدينة وكان ذلك في شهر ماي سنة 1518 م.

إنّ حادثة استشهاد "عروج" كان لها الأثر البالغ في نفس خير الدين الذي قرّر ملاحقة الإسبان والتضييق عليهم والسّير في الطريق الذي سلكه أخوه، يقول خير الدين: (... عندما وصل خبر استشهاد أخي ... قررتُ أن أعيش لغاية واحدة هي المضي في نفس الطريق الذي سار فيه أخي... التضييق على الكفار في أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط ..)⁴، إضافة إلى ذلك إلحاح أهل الجزائر على خير الدين بالبقاء⁵.

¹ خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 67.

² نفسه، ص 72.

³ عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 294-295.

⁴ خير الدين بربروس، نفسه، ص 93.

⁵ علي مُجدّ الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار الجوزي، ط1 القاهرة، 1995، ص 375.

إنّ الغاية التي سَطَّرَهَا خير الدّين تحتاج إلى بذل المزيد من الجهد لإيجاد سند وقوّة تؤيِّده وتدفعه نحو تحقيق ذلك، فأوفد خير الدين أقرب رجاله وأوثقهم "حاجي حسين آغا" إلى السلطان سليم خان¹، كما أنّ أهالي الجزائر أرسلوا رسالة إلى هذا السلطان، وغرضها ربط الجزائر بالدولة العثمانية²؛ هذه الرسالة التي كانت تفيض بالولاء للدولة العثمانية، فسارع السلطان بالاستجابة لطلب أهل الجزائر حيث سلّم إلى "حاجي حسين آغا" فرماناً³، ورد فيه تعيين خير الدين برتبة "بيتر باي" على الجزائر كما سلّمه سيّفاً وخلعةً مذهبة وراية الإمارة (... سلّم هذا السيّف لخير الدين باشا ليتقلّده بعزّة وشرف ... دعواتي لكم أن يتولّاكم بنصره وأن يبيّض وجوه جميع خدمي المجاهدين بالجزائر في الدارين..)⁴. كما أذن بصرف الخطبة والسكّة إليه وقد فرح بذلك فرحاً شديداً وبهذا صارت الجزائر إيالة عثمانية وذلك بعد عودة الوفد من إسطنبول حوالي 962هـ / 1520م وأصبح ما يعرف بالجزائر العثمانية.⁵

ب/ تونس :

حكمت الدولة الحفصية تونس والمعروفة بالمغرب الأدنى ما يزيد عن 300 سنة⁶، وتميّزت بخصوصية الأسبقية في الانفصال عن الدولة الموحدية نتيجة الضّعف الذي شهدته هذه الأخيرة، وقد عرفت الدولة الحفصية خلال عمارتها قوة ومنعةً حتى صارت تنافس الحواضر الإسلامية الأخرى، غير أنّها عجزت عن توحيد بلاد المغرب الإسلامي، ثم شهدت تونس مرحلة ضّعف، وقد حاولت عبثاً مجابهة عوامل الضّعف الذي كان من أهم مظاهره :

¹. سليم خان أو سليم الثاني : هو تاسع السلاطين العثمانيين (1512-1520م) قضى على دولة المماليك في مصر "موقعة مرج دابق" 1516 م وفتح سوريا ومصر .

² . الرسالة مؤرخة في أوائل ذي القعدة 925هـ/نوفمبر 1519م، ينظر عبد الجليل التميمي ، المجلة التاريخية المغاربية العدد (06) جانفي 1976، ص ص 116-120.

³. فرمان : كلمة فارسية الأصل ومعناها الأمر، وكانت تستعمل في الدولة العثمانية للأوامر السلطانية أو ما يسمى بالمراسيم الملكية.

⁴ . خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 97.

⁵ . خليفة إبراهيم حمّاش، العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي ما بين (1798-1830) ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، الماجستير، إشراف : د. خليل عبد الحميد عبد العال، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب قسم التاريخ (1408 هـ - 1988 م)، ص 30.

⁶ . عمّرت الدولة الحفصية ما بين (1229م/626هـ - 1573م/978هـ) .

* بروز ملامح العداة والنفور بين الرعيّة والحكّام الحفصيين.

* ضعف الحكّام في العهود الأخيرة، واشتغالهم بالصّراعات الدّاخلية.

* ظهور الخطر الإسباني، وتمكّنه من التّواجد على الساحل التونسي.

وهو ما جعلها محل صراع (حفصي إسباني ، عثماني) بسبب هذا الضّعف والاضطراب الذي حلّ بها، الأمر الذي جعل خير الدّين يعزم على امتلاك تونس¹ فنازل تونس وأخذها ليُفَرَّ منها الحسن الحفصي،² ودخل خير الدّين إلى تونس وكان ذلك في سنة 941هـ (1534م)³ ، وتوجّه الحسين إلى إسبانيا مستنجدا بمملكها - شارلكان - الذي أجابه لندائه " ولما تمكّن خير الدّين من تونس جاءت عمارة من بلاد النصرارى استنجد بها الحسن ."⁴

ونزل الإسبان منطقة "حلق الوادي" ودخلوا تونس التي أُسْتُبِيحت الأعراض بها وأُنْتَهكت حرمة المساجد والجوامع فيها ومنها جامع الزيتونة، وبددوا ما فيه من نفائس المخطوطات⁵ ، وأمّا خير الدّين فلم ينجح في الدّفاع عن تونس رغم محاولاته فوّلّى وجهه نحو الجزائر هو ومنّ معه إلى أن وصل بلد العتّاب وترك تونس لصاحبها الذي وقّع معاهدة مع المحتلين في شهر صفر سنة 942 هـ / جويلية 1535م الذين أمّنوا شروطهم الظّالمة ، وقد أباح البلد لهم مدة ثلاثة أيام⁶ بين سبّي ونهب وسفك للدّماء ، غير أنّ هذه الشّروط لم يقبلها من نجّا من هذه الواقعة، وتعاونوا مع أبي العبّاس أحمد بن الحسن الحفصي (حميدة)⁷، ودخلوا تونس وأمّسكوا بالحسن وسجّن مدة ثم سُمِلت عيناه ، كنوع من أنواع العقاب

1. حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ص 152.

2. الحسن الحفصي : هو أبو مُجّد الحسن بن المسعود حكم تونس ما بين (932هـ - 941هـ) .

3. قاسم أحمد، إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظّوم (1574 م - 1600 م)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان- تونس، 2004، ص 72 .

4. ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تح، وتع، مُجّد شمام، المكتبة العتيقة، ط3، تونس ، 1967م، ص 163.

5. حسن حسني عبد الوهاب ، مرجع سابق، ص 153.

6. ابن أبي دينار ، مصدر سابق، ص 164.

7. أبي العبّاس حميدة حكم تونس ما بين (1535م-1569م) .

العقاب ومكث مُدَّةً بالقيروان وتوفي سنة 942هـ/1535م¹ ، غير أنّ المصادر لم تذكر لم أعرض عنه الإِسبان ؟ ولماذا لم يتدخّلوا لإنقاذه وإعادته لسلطته؟

كان السُّلطان الحفصي "أحمد بن الحسن" في نزاع خفي مع إخوتِه خاصة مع الذي يعمل على انتزاع بعض المناطق والاستقرار فيها كتابع لملك إسبانيا "فيليب الثاني"² والسُّلطان الحفصي هذا دخل في صراع وحرب مع الإِسبان ، ومنعَهُم من توسيع حصن حلق الوادي آملاً في وصول نجدة ومساعدة عثمانية تعينه على مقاومتهم³ .

وبتعيين "قُلُج علي" واليا على الجزائر سنة 1568م الذي كان يعتبر أنّه لا يمكن إخضاع كامل بلاد المغرب إلا بإخضاع تونس نظراً لموقعها الاستراتيجي ، فإنّه استطاع أن يستخوذ على باجة في سنة 977هـ/1569م ، وانخذل "أبو العباس" رغم استنجاهه بالإِسبان لذا تمّ إرسال أسطول وضرب الحماية على تونس وفرض الجباية ، غير أنّ أبا العباس أنكر هذه المطالب ولم يقبلها ، وانتقل إلى صقلية حتى توفي بها سنة 1575م⁴ ، لكن "مُحَمَّد بن الحسن" أخ السُّلطان قَبِل بشروط الإِسبان وقدموه سلطاناً على على تونس⁵ فلما علم أهل تونس بمجيئه هربوا من البلد⁶ ، وخلت المدينة من سكّانها خوفاً من جور السُّلطان وجنود الإِسبان ، وتوجّه أهلها إلى الجبال والغابات القريبة فأنهم الجوع والعطش وكُشف الستر⁷ ، وعمّر المدينة الجنود المحتلين ، وسكّن القائد الإِسباني⁸ مع السُّلطان الحفصي "مُحَمَّد بن الحسن" وهو ما دلّ على ازدواجية في الحكم بين الإِسبان والحفصيين ، وفي هذا السِّياق يقول ابن أبي دينار في كتابه "المؤنس في أخبار افريقيا وتونس" :- (...ويجلسان معاً في سقيفتها "القصبه" للحكم ،

1. حسن حسني عبد الوهاب ، مرجع سابق ، ص153.

2. فيليب الثاني هو ملك اسبانيا وابن شار لكان حكم اسبانيا ما بين (1527 م – 1598 م) .

3. قاسم أحمد، المرجع السابق ، ص: 48 .

4. حسن حسني عبد الوهاب ، مرجع سابق ، ص 154.

5. قاسم أحمد، المرجع السابق 53.

6. ابن أبي دينار ، المصدر السابق، ص 175.

7. أحمد بن أبي الضياف ، إتخاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ،الدار التونسية للنشر، تح، لجنة من كتابة الدولة

للشؤون الثقافية والأخبار، تونس ، 1977، ج2، ص 18.

8. هو الكونت سربلوني .

واستمال الثبطن قلوب الناس وسأسههم بعدله ومكره (...)¹؛ ثم أمّن السلطان "مُحمّد بن الحسن" الأهالي وأمرهم بالرجوع إلى البلد، وتناول المحتلون على السكّان وهو ما أثار الحقد في النفوس، فكانوا ينتهزون الفرصة للإيقاع بالمحتلّين ومن والاهم (الحفصيين)، وقد آلم العثمانيون ما أصاب تونس وأهلها وما لحق بمقدّساتها، لذا استعدّوا لاسترداد تونس وإنقاذ أهلها من الأعداء، فكانت الأوامر السلطانية من اسطنبول إلى أمراء الشّمال الإفريقي تطالبهم بالاستعداد للحرب، وتحرك الجيش العثماني بقيادة سنان باشا في محرم 982هـ²، والأسطول بقيادة "العلاج علي باشا" ووصلوا تونس، ودارت الحرب ليضطرّ الإسبان بعد دفاع عنيف إلى التخلّي عن قلاعهم³، وفي 25 جمادى الأولى 982 هـ / سبتمبر 1574م 1574م تمكّن العثمانيون من فتح واستعادة تونس، وأزالوا البؤس عن أهلها وتمّ تطهيرها من الكفر⁴، كما تمّ أسر السلطان الحفصي "مُحمّد بن الحسن" وأرسل إلى الأستانة واعتُقل بها حتى وفاته⁵.

وهكذا انتهى حكم الحفصيين في تونس ولما تمّ فتحها أُحقت تونس بالجزائر بقيادة "علاج علي" وأصبحت بذلك جزءاً من ولاية عثمانية، وعيّن "رمضان" ولقب بـ "قائم مقام"، وهذا التعيين هو استجابة لالتماس رفعه سُكّان تونس بتقليد "رمضان". الولاية وهو ما يؤكّد تبعية تونس للجزائر العثمانية خلال هذه الفترة الأولى من تاريخ تونس العثمانية.

لقد كان للظهور العثماني في هذا المجال البحري المتوسطي في جُزئه الغربي منه وتحكّمه فيه وسيطرته على الضفة الجنوبية باستثناء المغرب الأقصى عاملاً من عوامل اشتداد الصراع والتنافس لإيجاد موطئ قدم في هذه المنطقة المهمّة سواء من خلال القرصنة⁶ البحرية أو محاولة التقرب من هذه القوة، وإمّا طلباً للحماية أو سعياً لتكوين علاقات اقتصادية، نظراً لما لهذا المجال من أهمية اقتصادية.

¹. ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 176.

². عزيز سامح أتر، المرجع السابق، ص 246.

³. حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 157.

⁴. ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 177.

⁵. حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 158.

⁶ رغم ارتباط مصطلح "القرصنة" باسم الأتراك أو "العثمانيون"، فإنّ هؤلاء ليسوا هم من أوجدوها في بلاد المغرب بل كانت سابقة على وجودهم في المنطقة حيث تعود للعهد الفينيقي والروماني، كل ما هنالك هو أنّهم نشطوها ونظّموها وجعلوها من مهام

ثالثا - جذور وعوامل التّواصل الثّقافي بين الإيالتين :

يُمثّل البحر الأبيض المتوسّط مجالا استقرت حوله شعوبٌ مختلفة أنتجت أولى الحضارات الإنسانية، كما اعتبر جسراً للتّواصل الثّقافي والاقتصادي لهذه الشّعوب، وخلال العصر الحديث انخرطت بلدان شمال إفريقيا عموما ودول المغرب بصفة خاصة ضمن هذا التّفاعل من خلال ظهورها كطرف فاعل للأحداث الاقتصادية والثّقافية التي تشهدها المنطقة ولعلّ سبب ذلك ما ينفرد به هذا المجال الجغرافي من خصائص أبرزها أنّه وحدة واحدة زادتها الأحداث التاريخية التي عرفتها خلال هذه المرحلة منعة وقوة، ولا يمكن لكلّ من يدرس تاريخ منطقة بلاد المغرب، ومن خلال مراحلها المختلفة أن ينكر التّواصل القائم بين أجزائه المختلفة في جميع مظاهره السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافية، ممّا يمكن رصده في هذا المجال، ولا نستطيع طمسه هو ذلك الرّصيد الحضاري والعلمي المشترك بين دول بلاد المغرب عبر العصور التّاريخيّة، ونخصّ بالذكر من هذه المنطقة الجزائر وتونس، بحكم الجوار وعدم وجود حواجز طبيعيّة تمنع الاتّصال والاحتكاك والتّأثير والتّأثر أحدهما بالآخر، فكان هذا العامل الجغرافي عامل عزّز من قيام علاقات متعدّدة وخاصّة في جوانبها الثّقافية، نظرا للموروث الثّقافي المشترك لهذين المنطقتين من البلاد المغاربية ، دون أن تحول النزاعات السّياسيّة بينهما، والتي كانت تحدث من حين لآخر في استمرار هذا التّواصل سواء خلال فترة العهد العثماني أو حتّى ما قبلها، ونعني بها هنا خلال العهدين الحفصي (المغرب الأدنى) والزّيّاني (المغرب الأوسط)، فعلى الرّغم من العلاقات العدائيّة بين الدّولتين فإنّ العلاقات الثّقافية ومظاهر التّواصل في هذا المجال سواء الاجتماعي منه أو الثّقافي بقيت بينهما مستمرة ولم تنقطع، وهذا يعود بالطبع لتأثر هذه العلاقات وهذا التّواصل بظروف وعوامل أخرى، ومن ذلك:

الدولة ، ونوعاً من الجهاد البحري ، تدخل ضمن الحروب البحرية الدفاعية (Course) ، وهدفها ضرب اقتصاد العدو واطعاف قوّته، وصدّ العدوان الصليبي وإنقاذ مسلمي الأندلس ، وأما القرصنة بالنسبة للأوروبيين والتي مارسها خصوصاً . خلال هذه الفترة - الاسبان والبرتغاليون فهي قائمة على السّلب والنهب والسّبي (Piraterie) ، يُنظر : أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 - 1792م ، دار البصائر ، ط1 ، 2007 ، ص65.

- العامل التاريخي : وتمثل ذلك خصوصا في الهجرة الأندلسية، والتي كان لها الأثر الكبير على بلاد المغرب وأهلها، حيث ساهم الأندلسيون في تنشيط الحياة العلمية والفكرية والأدبية، كما جلبوا تقنيات جديدة في المجال الاقتصادي سواء في الزراعة، الصناعة أو حتى التجارة ، فساهموا في تطوير ميناء بجاية وتقوية أسطول الدولة الحفصية البحري على أيام السلطان "أبي العباس أحمد"، مما زاد في فعاليته على مواجهة الأساطيل الأوروبية ، فكان لهذه الجالية الأندلسية الوافدة على هذا المجال الجغرافي (بلاد المغرب) بعد سقوط الأندلس وحروب الاسترداد وعمليات الهجرة القسرية التي تعرضوا لها، ونزوحهم نحو العديد من مدن بلاد المغرب خاصة الساحلية منها على غرار تلمسان، وهران ومدينة بجاية وتونس وغيرها، الأثر الواضح والكبير في الحياة العامة عموما اجتماعيا وسياسيا وغيره، إلا أن التأثير الأندلسي كان أبلغ في الميدان الفكري والعلمي¹.

- العامل الديني : وظهر ذلك من خلال الوحدة المذهبية والتيار الصوفي؛ حيث انتشرت النزعة المذهبية في بلاد المغرب، وكان المذهب المالكي هو المذهب المنتشر والمرحّب به في هذا المجال الجغرافي، إلى جانب المذهب الإباضي في كل من جربة في تونس، ومنطقة ميزاب في الجزائر، كما كان للتيار الصوفي تأثيره الواضح في بلاد المغرب، فاصطبغت مؤلفات العلماء بالنزعة الصوفية.

- العامل الجغرافي والبشري : ويتضح ذلك في الموقع الطبيعي الجغرافي وتشابه العنصر البشري؛ فالدولتان الحفصية والزيرية متصلتان ببعضهما ولا يوجد بينهما حواجز طبيعية تعرقل هذا التواصل، لقد اجتمعت عوامل عدة كان لها تأثير مباشر في التواصل الثقافي والعلمي بين هذين المجالين خلال العهد العثماني، حيث كان من ضمن هذه العوامل العامل الطبيعي والمتمثل في الوحدة الطبيعية بين الإيالتين، وعدم وجود حواجز تضارسية تمنع أو تعرقل هذا التواصل .

- يقع كل من البلدين الجزائر وتونس على ضفاف البحر المتوسط، وهما بلدان متجاوران، وهناك تشابه كبير في المظاهر التضاريسية للبلدين، ومن أبرزها الجبال، كما تغطي الصحراء المناطق الجنوبية منهما،

¹ محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، دار أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ط1، المملكة المغربية ، المغرب ، 1991، ص ص 45،25.

وأما المناخ بالنسبة للبلدين فيمكن التمييز بين ثلاث مناخات رئيسية؛ فهناك مناخ البحر الأبيض المتوسط في المناطق الساحلية والذي من مميزات أنه مناخ دافئ وممطر شتاءً وحر وجاف صيفاً، وفي المناطق الداخلية يسود المناخ الشبه جاف، أو ما يعرف بالمناخ القاري، أما في المناطق الجنوبية يسود المناخ الصحراوي الحار والجاف، إن هذا الامتداد الجغرافي سهل من حركة انتقال الأفراد والجماعات، وجعل من هذين المجالين في منطقة بلاد المغرب فضاءً مفتوحاً أمام التيارات العلمية لتكون سهلة في عملية التفاعل الثقافي ودافعاً في عملية التأثير والتأثر المتبادل بينهما، وعاملاً رئيسياً التي تدعم وتساعد على التواصل العلمي، هذا العامل الطبيعي سهل كذلك حركة قوافل الحجيج التي كان لها دورها الثقافي والعلمي المعتبر في ترسيخ التفاعل الثقافي وتعميقه، فكان ركب الحجيج من أبلغ الصور التي تظهر التواصل العلمي بين الأقطار، حيث كان بمثابة مكتبة متنقلة لما يحتويه من علم غزير، سواءً كان في الكتب أو في الصدور، وذلك بتواجد العلماء في ركب الحجّ يحملون معهم الكتب ومؤلفاتهم ورسائلهم ومدوناتهم لكي يبيعونها، هذا فضلاً عن المناظرات والمناقشات العلمية وحتى الإجازات.¹

- كما أن التشابه في العنصر البشري الذي عمّر هاته المنطقة عامل آخر من عوامل هذا التواصل، حيث أنّ قبيلتنا زناتة وصنهاجة قد تشابهت عاداتهم وتقاليدهم ومرّوا بنفس الظروف التاريخية، والعنصر الأمازيغي والعربي يعتبران عنصراً رئيسياً، أما العناصر الفرعية فنجد؛ الزنوج والأندلسيين وقلة من اليهود، وقد ساهم الإسلام في تعميق الروابط اللغوية والثقافية بين العناصر المسلمة المكوّنة لهذا المجال الجغرافي، خاصة خلال التاريخ الحديث من تاريخ هذه المنطقة، حيث وفد عنصر آخر وهم العثمانيون الأتراك أو حتى من دخل في عهدهم، وكان غير عثماني.

- وتجانس العنصر البشري الذي زادت في تثمين العلاقات بينهما، وحدة الدين الإسلامي، واللغة العربية، وعامل المصاهرة الاجتماعية، كما لا ننسى الولاء لنفس الخلافة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية، وذلك خلال الفترة الحديثة طبعاً، هذه الوحدة اللغوية والثقافية الدينية ساهمت مساهمة فعالة في مدّ

¹ - دهّان سليمان، "تنظيم ركب الحجّ الجزائري خلال العهد العثماني بين تلبية المقدّس والتواصل الحضاري"، مجلّة أفكار وآفاق، العدد 9، 2017م، ص ص 63، 64.

جسور التّواصل التّقافي وتثمينه، كما أنّ بصمة الوجود العثماني واضحة، وذلك من خلال المنشآت العمرانيّة الحضاريّة خاصّة المساجد والمدارس والكتاتيب التي ساهمت في عمليّة التّفاعل التّقافي.

إنّ هذه العناصر السّكّانيّة التي تكوّن وتسكن هذا المجال الجغرافي متشابهة، فغالبية هؤلاء السّكّان يتكوّنون من العنصر الأمازيغي والعربي، والذي وحّد بينهم الإسلام واللّغة العربيّة وزادتها رابطة المصاهرة.

ومنذ زمن بعيد اشتركت وتقاطعت منطقة بلاد المغرب الإسلامي ومجتمعاته في الكثير من الموروثات الحضاريّة، وكان أبرزها تقارب شعوبها في العادات والتقاليد والميزات التّقافيّة واللّغويّة، ووحدة الفكر والمذهب الدّيني والعقائدي، هذه الوحدة شكّلت في مجملها قواسم مشتركة ودوافع رئيسيّة لتنشيط وإنعاش التّبادل والتّواصل التّقافي والمعرفي والحضاري بين مكّوناته جميعا، وقد ظلّت مظاهر هذا التّواصل قائمة ومستمرّة، لم تتأثّر بمختلف الطّروف عبر تاريخه، خاصّة الطّروف السّياسيّة منها، ففي العهد الحفصي مثلا عرفت تونس ارتفاعا محسوسا في توافد عدد كبير من العلماء الجزائريين باعتبارها قبلة علميّة، وتوفّر المراكز الثقافيّة بها، ومنها؛ مدينة القيروان وحاضرة أو مدينة تونس التي بها جامع الزيتونة، والذي أضحي منارة علميّة يؤمّها العلماء وطلبة العلم من كلّ أنحاء العالم الإسلامي ولاسيما علماء الجزائر باعتبارها أقرب مركز علمي من بلادهم، فكان لهؤلاء العلماء دورهم في تنشيط الحركة التّقافيّة والفكريّة في تونس، وقد ساعدتهم ثقافتهم الواسعة وغزارة علمهم بتقلّد مناصب في مختلف الحواضر التّونسيّة مثل الخطابة والتّدريس والقضاء.

- لقد عرفت هذه المنطقة مع مطلع القرن 16م تحولات وتغيّرات على مستوى العلاقات البينيّة، هذه التّغيّرات فرضتها المعطيات الجديدة، ونخصّ بالذّكر الجزائر وتونس، فتبعيتهما للدّولة العثمانيّة وتنامي الخطر الأوروبي المسيحي على معظم سواحل البلاد المغاربية كانت كلّها أحداث أسهمت في التّأسيس لمرحلة جديدة في تاريخ هذه المنطقة، فقد كان ارتباط الجزائر وتونس بالدّولة العثمانيّة نقطة انعطاف مهمّة في تاريخ هذه المنطقة لما شهدته وما تميّزت به من أحداث على مختلف الأصعدة والتّواحي، ومن ذلك الصّراعات العميقة التي كانت تهدف إلى تكريس نفوذ كلّ منهما على الأخرى، وغرضها هو ضمان مساندة حكّام تونس للزعامة الجزائريّة، وذلك ضمن الإطار العام للحكم العثماني من طرف

"العلج علي" و"سنان باشا"، ففي سنة 1574م تأسست الإيالة التّونسيّة تحت نظام حكم البايات في شكل حكم عائلي أدّى إلى عدّة احتكاكات بين أفراد الأسرة الحاكمة استغلّه حكام الجزائر للتّدخل في هذه الخلافات العائليّة لمصلحتهم، وظلّت هذه العلاقات البينيّة تتراوح بين المدّ والجزر فترات للصّح والتّعاون، وأخرى للتّوتر والتّوسّع، كلّ على حساب الآخر، فقد حاول "حمّودة باشا" الاستيلاء على قسنطينة لكنّه فشل، ومن جهتها حاولت الجزائر الاستيلاء على تونس عن طريق البحر ثلاث مرّات إلّا أنّها فشلت في ذلك، غير أنّ مثل هذه الأحداث وعلى فترة ثلاثة قرون متتالية لم تتأثّر العلاقات البينيّة في جانبها الثّقافي رغم ما تميّزت به الحركة العلميّة والثّقافيّة في المنطقة، وبنسب متفاوتة، فقد عرفت هذه الحركة العلميّة والثّقافيّة نوعاً من الجمود، واقتصرّت هذه الحركة على الأخذ بما تركه السّلف، وقد عبّر علماء كثر عن حالة الرّكود هذه التي صاحبت الوجود العثماني، ومن ذلك ما ذكره الشّيخ "عبد الرّحمان الأخضرّي"¹ دفين منطقة الرّاب بقوله:

لا سيما في عاشر القرون *** ذي الجهل والفساد والفنون

هذا رغم أنّ الدّراسات التّاريخيّة جميعها تذكر بأنّ "ظاهرة انتشار العلوم في القرون السّابقة للعهد العثماني كانت ظاهرة بارزة"، وأجمعت معظم هذه الدّراسات أنّ الرّكود الثّقافي وتراجعته كانت سببه إهمال العثمانيّين للمساجد والمدارس والمراكز الثّقافيّة، وهذا ينطبق بالخصوص على الجزائر، وهذا الحكم ليس عامّاً، فقد اعتنى بعض حكام الجزائر بهذه المراكز العلميّة والمساجد والمدارس، غير أنّ المراكز العلميّة في إيالة تونس ظلّت مراكز إشعاع حضاري وعلمي تقوم بدورها الحضاري والعلمي والثّقافي، ممّا جعل رجال العلم من الجزائريّين يتوجّهون نحو هذه المراكز العلميّة والثّقافية للنّهل من خزائنها وللاستزادة من علمائها، وتجسّدت الصّلات الثّقافيّة والعلميّة، واستمرّت في وجودها حتّى خلال فترات الحروب والتّوترات بين الإيالتين.

¹ هو عبد الرحمان بن محمّد الصغير بن محمّد ابن عامر الأخضرّي المالكي (920 - 953 هـ / 1512 - 1545 م) ، أبرز وأشهر علماء الجزائر في القرن العاشر الهجري ، له عدّة مؤلفات في شتى المعارف العقلية والشرعية والفقهية واللغوية ، ومن أشهرها " مختصر الأخضرّي في العبادات " .

إنّ هذا التّواصل والتّفاعل التّقافي بين الإيالتين والذي جسّده هجرة وزيارة علماء الجزائر نحو تونس خصوصاً، أدّى إلى تمّتين العلاقات بينهما، رغم أنّ عدد قليل فقط من العلماء التّونسيين الذين زاروا الجزائر، وقد ذكر ذلك أبو القاسم سعد الله بقوله: "أنّ العلاقة بين علماء الجزائر وتونس كما تصوّرها الإجازات، فقط كانت أيضاً وطيدة، ولكننا لا نحفظ منها إلّا القليل، ورغم رحيل الجزائريين إلى تونس لطلب العلم والإقامة والتّجارة، فإنّ القليل من علماء تونس قد زاروا الجزائر نسبياً خلال العهد العثماني"¹.

- هذه وغيرها كانت بعض العوامل والظّروف التي ساعدت في التّواصل والتّفاعل التّقافي والعلاقات البيئية في جانبها التّقافي والعلمي بين الإيالتين والتي لا يمكن أن ننكر أن لها جذور تاريخية عميقة عمق ظهور الفاتحين المسلمين بالمنطقة والتي تحوّلت حتى تسميتها من منطقة شمال أفريقيا إلى منطقة بلاد المغرب الاسلامي والتّغيرات السياسية والدينية بها التي صاحبت هذا التحوّل والمراحل التي مرّت بها للوصول إلى المرحلة الحديثة وظهور وافدٍ جديد وهم العثمانيون وانتصاهم لحكم هذه المنطقة هذا الظهور وبقوّة فرضته ظروف تاريخية واقليمية ودينية، فالهجمات المتكرّرة على سواحل بلاد المغرب خاصّة من طرف إسبانيا التي لم تكن لتتمّ بسبب التفوّق العسكري لها ولكن يعود لتشتت المسلمين وتفرّقهم ممّا مكّنها من تنفيذ خطّتها والتسلّط على البلاد والعباد²، فقد كان هذا العدوان والتي شاركت فيه كذلك البرتغال هدفه عزل الأندلس ومسلميها عن اخوانهم في الضّفة الجنوبية للبحر المتوسّط واغتنام التفكّك الذي يعيشونه والتمزّق للبنية الداخلية بسبب الصراع والتفكّك الداخلي وقد مكّنها ذلك كلّ من تنفيذ مخطّطهم بنجاح باستيلائهم على العديد من المدن السّاحلية لبلاد المغرب واحتلالها، إضافة إلى تنامي ظاهرة القرصنة في حوض البحر المتوسّط والتي مارسها أطرافاً مختلفة ولكل منها أهدافها، ممّا مهّد لظهور القاعدة البحرية في تونس من طرف البحار والقائد "عزّوج" ثمّ شروع الأخوين "عزّوج وخير الدين برباروس" في تحرير سواحل بلاد المغرب من القبضة الاسبانية والقضاء على نفوذه في المنطقة،

¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التّجديد الإسلامي محمد العنّابي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 2000م، ص 46.

² - علي غنابزية، تاريخ العلاقات العثمانية المغاربية وأثرها الجيوسراتيجي على ضّفتي البحر المتوسّط (1492 - 1911)، دار رؤى حضارية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2018، ص 36.

وتقديم يد المساعدة لأولئك المضطهدين والمهجرين من الأندلس والعمل على إيجاد موطن آمن لهم في هذه المنطقة التي كانت لها خصائص معيّنة ومميزات وأوضاعاً ثقافية وغيرها أثراها هذا التواجد الأندلسي - وحتى العثماني - في مختلف أوجهه خاصّة في الاهتمام بالمراكز العلمية والثقافية بالإيالتين تونس والجزائر.

الفصل الأول:

الأوضاع الثقافية وأثرها على الحياة العلمية

والفكرية في الإيالتين

أولا - الأوضاع الثقافية في الجزائر العثمانية

ثانيا - الأوضاع الثقافية في تونس العثمانية

ثالثا - المراكز العلمية في الجزائر وتونس (المساجد والجامع - المدارس -

الزوايا - الكتاتيب

- إن انتشار العلوم والمعارف في القرون السابقة للعهد العثماني في كلِّ من الجزائر وتونس ظاهرة بارزة، غير أنه وبعد دخول العثمانيين وانتصاب الحكم فيهما عرفت الحياة الثقافية والعلمية نوعاً من التراجع واقتصرت المعارف على الأخذ والنقل على ما تركه السلف ونزّر قليل من التجديد .

أولاً - الأوضاع الثقافية في الجزائر العثمانية:

الأوضاع الثقافية هي الحالة الثقافية أو مظهر الحياة الثقافية لبلد ما ، والتي تمثل وعاء هذا البلد أو الدولة ومجتمعها وبه تُرسي دعائم الثقة بين أفرادها لذا فإنّ الأمم المتحضرة تُولي اهتماما كبيرا بالجوانب الثقافية من خلال الاهتمام برجال العلم والثقافة والعناية بالمراكز والمؤسسات الثقافية والتي تنتشر في حواضرها المختلفة والسهر على تطويرها¹ ، فقد عمل العثمانيون ومن قبلهم الزيانيون على الاهتمام بهذه المراكز والحواضر العلمية المختلفة والتي تراجع عطاء البعض منها واستمرار البعض الآخر في أدائها الثقافي والعلمي بل ازداد تألقا كما شهدت الفترة العثمانية بروز حواضر أخرى كان لها التأثير الواضح في الرّخم الحضاري في المنطقة ودور مهمّ في التواصل الثقافي بين بلدانها.

1 - الحواضر الثقافية:

- في الجزائر كانت الحركة الثقافية والتعليمية . قبل دخول العثمانيين . تركز في حواضر أساسية، وكانت هذه الحواضر تعدُّ بحق مراكز للتعليم والثقافة والإشعاع الفكري والحضاري، وفي هذا الصدد يذكر أبو القاسم سعد الله : أنّ "هناك بعض المدن تنمو بعدد سكّانها وتشعّ بمدارسها ومساجدها ثقافة يتغذى منها المجتمع روحيا وعقليا"². وتتمثل أهمّ هذه الحواضر في تلمسان في الغرب الجزائري وقسنطينة في الشرق الجزائري وقد ازدهرت فيهما العلوم والمعارف والآداب والفنون لعدة قرون، ومن

1 مسعود بقّادي، العلماء الجزائريون في المغرب الأقصى ودورهم في الحياة الثقافية خلال القرن 10 هـ / 16م ، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراة في التاريخ الحديث والمعاصر ، اشراف (أ . د) مُحمّد الزين ، جامعة الجيلاني اليايس، سيدي بلعباس، 2020/ 2019 م ، ص 72.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1998، ج 1 ص 44.

هذه الحواضر ذاع صيت العديد من البيوتات والأسر العلمية التي توارثت العلم والمعرفة¹، ومن هذه البيوتات والأسر:

- **بيت المقرّي:**² وأسرته بتلمسان الذي يعدّ من البيوتات العريقة التي ذاع صيتها وانتشرت شهرتها من خلال العلماء الذين أنجبتهم وكان لهم الدور الكبير في تنشيط الحركة العلمية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي³، ومن العلماء الذين يُنسبون إلى بيت المقرّي العالم المجتهد مُحمّد المقرّي الذي يُعتبر من أبرز علماء المدرسة المالكية، والنحويّ أحمد المقرّي صاحب كتاب "التحفة المكّية" إضافة إلى مفتي تلمسان سعيد المقرّي (928هـ / 1522م - 1011هـ / 1603م)⁴.

- **بيت العُقْباني:** الذي ينسب إلى أسرة العُقْباني التُجَيْبِيَّة⁵ التي هاجرت من بلاد الأندلس نحو المغرب الإسلامي ونزلت بجاضرته تلمسان واستقرت بها وقد برز من هذه الأسرة علماء كان لهم الفضل في ازدهار الحركة العلمية وتنشيطها، والإسهام الحضاري للمنطقة ومن ذلك نذكر القاضي المجتهد سعيد العُقْباني، ومحمّد بن أبي يحيى العُقْباني، وأحمد بن محمّد العُقْباني المتوفى سنة 980هـ / 1571م⁶. كما كانت بجاية ومازونة ووهران والجزائر وعنّابة والخنقة⁷ وغيرها من الحواضر الهامة، ففي كل

¹ سعدية رقاد، "الحواضر العلمية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني"، مجلة عصور جديدة، العدد 23، أوت 1437هـ / 2016م، ص 363.

² من البيوتات العريقة بتلمسان والتي ذاع صيتها وانتشرت شهرتها من خلال العلماء الذين أنجبتهم، وينسب لجدهم الأكبر "علي بن داوود القرشي المقرّي" والمقرّي نسبة إلى بلدة مقرّة التي هي قرية من قرى الزاب، وقد ذُكرت. مقرّة. في كتب الرحالة والجغرافيين ومن ذلك اليعقوبي بقوله "ومدينة يقال لها مقرّة لها حصون كثيرة والمدينة العُظمى مقرّة أهلها قوم من بني صَبّة، وبها قوم من العجم وحوها قوم من البربر يقال لهم بنو زنداح" يُنظر كتاب البلدان لليعقوبي ص 191، كما ذكرها الإدريسي حيث قال: "وتُخرّج من المسيلة إلى مقرّة مرحلة وهي مدينة صغيرة وبها مزارع وحبوب وأهلها يزرعون الكتان وهو عندهم كثير" يُنظر نُزهة الأنظار، ص 164.

³ نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ / 13م إلى القرن 10هـ / 16م، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، تحت إشراف الأستاذ الدكتور مُحمّد بن معمر، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، 2009 / 2010م ص 58.

⁴ نصر الدين بن داود: بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ / 13م إلى القرن 10هـ / 16م، المرجع السابق ص ص 65 - 72.

⁵ العُقْباني: نسبة لإحدى قرى الأندلس يقال لها "عقبان"، فأصوهم تعود لذلك، ينظر نيل الابتهاج للتنمبكتي، ج 1، ص 204، وتُجيب النسب، وبنو تُجيب بطن من بطون كِنْدَة، يُنظر القلقشندي في كتابه نهاية الأرب، ص 185.

⁶ نصر الدين بن داود: المرجع نفسه ص ص 58 - 88.

⁷ الخنقة: المقصود بها هنا هي خنقة سيدي ناجي، والخنقة تعني "الفتح" أو المضيق بين جبلين، وهذه المنطقة تقع في منخفض حيث يمرّ وادي العرب الذي ينزل من جبل "ششار" ويشق الجبل في مستوى البلدة، توجد الواحة بالزاب الشرقي جنوب شرق الأوراس وهي تبعد 110 كلم عن بسكرة، و120 كلم عن خنشلة، وهذه البلدة حديثة النشأة تعود إلى العصر العثماني، أسّسها زاويةً وحاضرةً علميةً = الشيخ "المبارك بن قاسم" المتوفى سنة 1622م / 1031هـ، وكان قد أسّسها سنة 1602م / 1011هـ، وتسمى الزاوية على اسم جدّه

مدينة من هذه المدن عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس أو بالزهد والتصوّف¹.
ومّا زاد في نشاط هذه المدن بروز مؤسّسات علميّة ودينيّة ومنها المساجد التي ساهمت في
تعليم المجتمع وتربيته، إضافة إلى المدارس التي بناها سلاطين بني زيان، كما كان للزوايا دورٌ تعليمي
مهمّ ممّا أدّى إلى نشاط في حركة التأليف².

وما يمكن ملاحظته أنه رغم اضطراب الحالة السياسيّة وتدهورها خلال الفترة التي سبقت
الوجود العثماني فقد كان هناك إنتاج ثقافي وفير، ويعود سبب هذا الاضطراب للصراع القائم بين
القوى القائمة في منطقة بلاد المغرب زارها تدهوراً ظهور الأخطار الخارجية من الاسبان والبرتغاليين
واحتلالهم لكثير من ثغور بلاد المغرب ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل تعدّاه إلى التدخّل في الشؤون
الداخلية لهذه الأقاليم ممّا نجم عنه انعدام الأمن وتراخي قبضة السُلطان، وهكذا أصبح العلماء
والقضاة هم الذين يسهرون على تنفيذ القوانين³.

– وخلال العهد العثماني عرفت الإيالة الجزائرية ظهور حواضر علميّة وثقافيّة أخرى مع
استمرار الحواضر العلمية السابقة الذكر في عطاها ونشاطها العلمي والثقافي ومن ذلك نذكر:
– مدينة الجزائر والتي أصبحت من أشهر الحواضر العلمية في الجزائر فبالإضافة عن كونها دار السلطان
من الناحية السياسيّة ومركزاً تجاريّاً مهمّاً من الناحية الاقتصاديّة، فهي أيضاً تُعدّ حاضرة علمية بامتياز
فقد قصدها العلماء وطلبة العلم من المشرق والمغرب وتحدّث عنها الرّحالة أثناء مرورهم بها ومن ذلك

"سيدي ناجي" تبرّكا به، ينظر: خنقة سيدي ناجي أو تونس الصغيرة، حاضرة علم وفن وجمال، د. عبد الحليم عسّاسي، و. د. مروان
سمير قَدّوح، مجلّة جماليات، المجلّد 05/ العدد 01، (2019 م)، ص 114، 143.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 45.

² مسعود بقادي، هجرة علماء تلمسان إلى فاس ودورها الثقافي خلال القرن 10هـ/ 16م، مذكرة مكملّة لنيل شهادة
الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف الدكتور عبد المجيد قدور، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة قسنطينة
2013/2014 م، ص 54. 57.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع نفسه، ص 39. 43.

الرحالة المغربي أبو علي بن مُحمَّد التمجروتي¹ ، وهذا العالم الكبير "ابن زاكور الفاسي" (ت1120هـ/1708م) مكث مدة بها ، وتلمذ على علمائها وأجازوه ومن شيوخه العالم الربّاني "مُحمَّد بن سعيد قدّورة"² والذي ينتسب إلى أسرة "قدّورة" والتي ارتبط نفوذها العلمي والثقافي بهذه المدينة، و قد خلد ابن زاكور الفاسي رحلته العلمية لهذه المدينة في كتابه المعروف بـ " رحلة ابن زاكور " المسماة " نشر أزاهير البستان في من أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء وأكابر الأعيان " .

- أمّا قسنطينة: فقد حافظت هذه المدينة على مكانتها العلمية وظلت مركزا يقصده العلماء وطلبة العلم خلال هذه المرحلة وذاع صيت العديد من العلماء الذين أثروا النشاط الثقافي والعلمي ، وبرزت العديد من الأسر والعائلات العلمية التي ساهمت في الحركة العلمية والثقافية في المدينة ومن ذلك "عائلة الفكون" ومن أبرز علمائها الشيخ " عبد الكريم الفكون " و "سيدي قاسم بن يحيى الفكون"³. إضافة إلى عائلة ابن باديس والتي تعتبر من أشهر البيوتات العلميّة وقد تولّى بعضاً من أعلامها مهمة القضاء والإمامة . كما لا ننسى عائلة "المسبح" والتي أنجبت كثير من العلماء ومن أشهرهم : " حميدة المسبح " و " عبد اللطيف المسبح " و " مُحمَّد بركات المسبح "⁴ .

- وهذه بجاية: والتي كانت من أشهر المدن العلميّة خلال العصر الوسيط نظراً لكثرة معاهدها ومدارسها وجوامعها، ومساجدها العامرة ، وزواياها وشهرة علمائها وفقهاءها وأدبائها⁵ ، رغم تعرّضها للاحتلال الاسباني لمدة تزيد عن أربعين سنة والتهديم الذي تعرّضت له المدينة ولحق بعض

1 التمجروتي علي بن مُحمَّد ، النفحة المسكية في السفارة التركية ، تق تح ، عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 1423هـ / 2002.

² هو أبو عبد الله محمّد بن سعيد بن ابراهيم قدّورة وُلد في ليلة الاثنين 27 رجب 1034 هـ / 05 ماي 1625 م بمدينة الجزائر ونشأ ودرس بها ن وتلمذ على علمائها ومنهم والده ، تولّى عدّة مناصب والوظائف الرسميّة منه الخطابة والإمامة والإفتاء ، وتلمذ على يديه علماء عدّة ، توفّي الشيخ سنة 1107 هـ / 1695 م .

³ عمّار بن خروف ، العلاقات بين الجزائر والمغرب (923 - 1069 هـ / 1517 - 1659 م) ، رسالة ماجستير في التاريخ جامعة دمشق، 1983، ص 394 .

⁴ أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ، مطبعة بيبير فونتانة ، (د ط) ، 1906، الجزائر ، ص 77 .

⁵ راجع ، " عنوان الدراية في من عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية " لأبي العباس الغبريني .

مساجدها وجوامعها¹، فقد استردت نهضتها العلميّة بعد تحريرها من طرف صالح باي سنة 962هـ /1555م²، لتصبح إحدى مقاطعات بايلك الشرق .

هذه هي أهم الحواضر العلمية والثقافية في الجزائر والتي كانت لها مكانة كبيرة خلال العصر الوسيط وقد استمرّ اشعاعها الحضاري في العهد العثماني. كما برزت خلال هذه المرحلة أيضا حواضر أخرى منها منطقة ميزاب في الجنوب الجزائري نظراً لما عرفته هذه المنطقة من تواصل علمي وحضاري مع جزيرة " جربة " التونسية ، ويعود ذلك لوحدة المذهب الإباضي وظهر هذا التّواصل واضحاً من خلال الزيارات المتبادلة بين علماء المنطقتين والرحلات العلميّة وتبادل المؤلفات والكتب والقصائد والخطب. ومن هذه الحواضر الأخرى أيضا حاضرة وادي سوف والتي وفدتها القبائل العربية منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وكانت حاضرة سوف تتبع شيخ تقّرت مع أنّها في غالب الأحيان في عداءٍ مع سلطة بني جلاب وترفض الاعتراف بسلطتهم ، ومن النّاحية العلمية كانت منطقة سوف من الحواضر العلمية خلال العهد العثماني في منطقة الجنوب الجزائري وخلال هذه الفترة مرّ بها الرحالة المغربي العياشي ووصفها بأنّها بلاد ذات رمال كثيرة يُضرب بها المثال في كثرة الرمل³، ومن تونس كان العديد من علمائها في تواصل دائم مع هذه الحاضرة واعتبروها محطة للعبور نحو تقّرت وتماسين ومن أشهرهم العالم التّونسي ابراهيم الرّياحي .

كما نجد حاضرة تماسين وهي مدينة قديمة ذكرتها المصادر وكتب عنها الرحالة الذين عبروا منطقة الصحراء ومنهم العياشي، وكانت هذه الحاضرة تستقبل بعض علماء تونس ومن ذلك الشيخ مبارك المازقي التوزري الذي كان يدرّس الفقه والنحو والصرف والحديث والفرائض لأهل تماسين

¹ وقد سجّل ذلك التمجروتي خلال رحلته وحديثه عن بجاية بقوله : " ..وبجاية إلى الآن خراب هدمها النصارى - دمرهم الله - لم يبق منها إلاّ ديار قلائل على طرف البحر وقلعة صغيرة تُسمّى اللؤلؤة " ، مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ، ص 49.

² نبيل بومولة ، صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني ، إمارة المقرانيين في القرن 10هـ / 16 م ، دار هومة ، الجزائر، 2013 م ، ص 85 .

³ مولاي بالحميسي ، مرجع سابق ، ص 92.

التي كان يزورها كل سنة وينزل بمحلّ الشيخ الفاضل "أحمد بوبكري"، كما أنّ وجود الزاوية التيجانية بهذه الحاضرة جعلها مقصدا للعلماء وطلبة العلم على حدّ سواء، وقد أدّت الزاوية دوراً مهمّاً في الحفاظ على القيم الاسلامية والروح العربية في هذه الربوع¹.

- ومن الحواضر العلمية في منطقة الصّحراء كذلك "خنقة سيدي ناجي" والتي كانت من بين الحواضر العلمية المهمّة، وهي قرية صغيرة من أعمار بسكرة ذات نخيل وأشجار تتوسّط بين جبلين² بها زاوية قامت بدور علمي وديني كبير في منطقة الجنوب الشرقي خلال العهد العثماني، ويعود سبب شهرة هذه الزاوية وهذه الحاضرة العلميّة إلى تراجع مكانة حاضرة بسكرة خلال هذه المرحلة وتدهور الحياة الثقافيّة بها وهذا نظراً لوقوع حاضرة بسكرة ضمن الصّراع القائم بين العثمانيين والأعراب، وقد سجّل الرحّالة العياشي ذلك بقوله: "...والمسجد في غاية السّعة وإتقان البناء إلاّ أنّه قلّ عامّروه وضعّف ساكنوه فلا ترى به مدرّساً ولا قارئاً مع أنّ هذه المدينة من أعظم المدن .."³، وفي القرن 18م/12هـ ذكر الورتيلاني وخلال زيارته للخنقة بأنّ لها فضل عظيم في إظهار العلم وأهلها منشغلون بالنّحو كثيراً كبيرهم وصغيرهم إضافة للفقّه والحديث⁴، وقد كثرت مساجدها وزواياها فكانت الخنقة مقصدا للطلبة والعلماء على حدّ سواء يأتون إليها من أماكن عدّة من الأوراس والزّاب والصحراء، وقسنطينة وبلاد زواوة وحتى من تونس وطرابلس⁵.

إذن كانت هذه أهمّ الحواضر العلميّة في الجزائر خلال العهد العثماني ورأينا كيف أنّ بعض هذه الحواضر قامت بدور كبير خلال العهد الذي سبق مجيئ العثمانيين واستمرت في عطائها ومنها ما تراجع عطائها لأسباب مختلفة وفسحت المجال لظهور حواضر أخرى أدّت نفس الدور وربما أكثر.

1 إبراهيم بن مُجّد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تع، الجيلاني بن ابراهيم العوامر، (د ط)،

1977م، 1376 هـ الدار التونسية للنشر، تونس، ص ص 32، 33.

2 الورتيلاني، نزهة الأنظار، أو الرحلة الورتيلانية، ج1، مصدر سابق، ص251.

3 العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج2، ص411.

4 الورتيلاني، نزهة الأنظار، المصدر نفسه، ج1، ص254.

5 لزغم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، مرجع سابق ص ص 126، 127.

2 - المؤثرات على الوضع الثقافي:

أ- المهجرات الأندلسية: لا يمكن إهمال المهجرات الأندلسية بعد سقوط غرناطة أواخر القرن 15م وتأثيرها الواضح في الجزائر على مختلف جوانب الحياة عموماً وعلى الحياة الثقافية خصوصاً، فقد اختلف المهاجرون والمهجرون الأندلسيون من حيث الجاه والثروة والثقافة ففيهم البسيط وأبناء الملوك وأهل الصنائع والحرف وأصحاب القلم من العلماء والقضاة وغيرهم، وفي هذا الصدد فإن التأثير السياسي والاقتصادي له علاقة غير مباشرة بموضوع بحثنا بقدر التأثير الثقافي فقد تكوّنت بفعل هجرة الأندلسيين على بلاد المغرب عامّة وعلى الجزائر خاصّة، مراكز علمية كان للجالية الأندلسية دور الريادة فيها وعامل الإبداع فكان النشاط الثقافي والإشعاع الفكري والعلمي لهذه المراكز والحواضر مثل تلمسان وبجاية والجزائر وغيرها استمراراً للإسهام الفكري والإنتاج العلمي الأندلسي الذي تعرّض للمحاصرة والاستبداد الأيبيري بفعل حروب الاسترداد.¹

ومن المدن التي تأثرت ثقافياً باستقرار الأندلسيين نجد مدينة بجاية التي كانت محطة شبه آمنة للهاربين والفرّارين من بطش الأيبيريين، فأضحوا يشكلون نسبة كبيرة من سكانها، الذين طبعوا الوسط البجائي بثقافتهم وذوقهم ولربّما يعود عامل تماسكها وقوة تأثيرها إلى بعض الشخصيات العلمية التي كانت لها مكانة أدبية وكلمة مسموعة²، وكانت بيوت هؤلاء الأندلسيين مكاناً يجتمع فيه العلماء للمذاكرة والمناقشة والمناظرة في المسائل العلمية والأدبية واللغوية والمشورة في ما يهمّ جماعتهم.³ كما أنّ الحاجة ألجأت الكثير من المهاجرين من الأندلسيين إلى الاستزاق عن طريق التعليم سواءً من العلماء الذين كان دورهم مقصوراً على التعليم العالي أو ممن احترفوا التعليم الابتدائي الذي كان يستهدف الصبيان في الكتابيب ولا شك أنّ الأندلسيين لتفوقهم الثقافي وانتشار المعرفة بينهم كانوا

1 ناصر الدين سعيدوني ، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 الجزائر، الجزائر ، ص 101.

2 ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني ، م . و . ك ، ط 1984 ، الجزائر، ص ص 128-129 .

3 ناصر الدين سعيدوني ، دراسات أندلسية ، مرجع سابق، ص 107.

مُهيَّين لذلك فوجدوا في إفريقية سوقاً مستعدّة لاستيعاب بضاعتهم ورواجها¹. وقد نقلوا طريقتهم الخاصّة بهم في تعليم الأطفال إلى هذه الديار، ومن ذلك عدم الاقتصار في تعليمهم على حفظ القرآن كما كان الحال قبلهم بل أضافوا إليه تعليم الحديث والقواعد العامّة لمختلف العلوم وتدارس بعضها، كما علّموا روايات القرآن وأنواع قراءاته كما نشروا حطّهم فسّاداً وانتشر على الخط المغربي، وأما التّعليم العاللي فكان في المساجد ودور العلماء والزّوايا، ويُعهد به إلى كبار العلماء.²

واعتمدوا في أغلب الأحيان على النّقل والرّواية لا على الرّأي والاجتهاد³، كما استمرّت هذه الطّريقة خلال العهد العثماني لكن مع ضعف، وشمل هذا التأثير ميادين النّحو والأدب والعلوم والموسيقى⁴، وغيرها من العلوم والفنون التي ألّفوا فيها وأثروا بها على من جاء بعدهم.

وأما تلمسان عاصمة الغرب الجزائري فقد عرفت ازدهارا علمياً كبيراً باعتبارها كانت هي الأخرى مأوى الهاربين والفازيين من الأندلس حيث استقبلت عدداً كبيراً من المهاجرين قُدّر بحسب بعض الرّوايات خمسين ألف مهاجر كان منهم خيرة علماء الأندلس⁵، وقد ذكر القلصادي ذلك بقوله: "كان علماء الأندلس لشعورهم بسوء العاقبة يعملون في الهجرة إلى ما جاورهم من بلدان وكان مقصدهم من ذلك تلمسان والمغرب الأقصى ثمّ تونس، وبدخول رجال الأندلس أصبحت هاته الأقاليم وارثة العلوم الأندلسية"⁶. وقد كان أحد علمائها وممن أثروا الحياة العلمية والثّقافية وأثروا فيها فقال عن نفسه: "...وأدركت فيها كثيراً من العلماء والصلحاء والعُباد والرّهّاد وسوق العلم حينئذٍ

¹ محمّد الطالبي، "الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين"، مجلة الأصالة، العدد 26، الجزائر، 1976، ص 65.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 47.

³ محمّد الطالبي، لهجرة الأندلسية، المرجع السابق ص 66.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع نفسه ص 47.

⁵ مفيدة بن يوسف، الجالية الأندلسية بالجزائر وتأثيراتها الحضارية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني القرنين السادس عشر والسابع عشر (16-17 م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور أرزقي شويّتام، جامعة الجزائر (2010-2011 م)، ص 143.

⁶ أبو الحسن علي القلصادي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق مُجدّ أبو الأجنان، الشركة التونسية للتوزيع، ط 1978، تونس، ص 26.

نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة والمهم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجِدِّ والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذتُ فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان¹.

إنَّ نزوح الأندلسيين إلى تلمسان بعد استيلاء الإسبان على غرناطة وألمرية²، كان تأثيرهم واضح على هذه المدينة فقد حملوا إليها معهم العلوم والآداب والفنون وكذا عوائدهم وأزيائهم فقد نظّموا حلقات التّعليم بالمدارس والمساجد وخاصة المسجد الجامع³، فأصبح مركزاً من مراكز الثقافة العربية الإسلامية ومعهداً للتّدرّيس يُضاهي جامع الزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب الأقصى، فبرز عدد وافر من العلماء في التّفسير والأصول والتوحيد والعلوم اللّسانية والرياضية⁴، ونذكر من بين هؤلاء العلماء الذين ورّدوا عن تلمسان "عبد الله بن الحداد الوادي آشي" الشّاعر والأديب والذي كان كثير النسخ والتقييد⁵، والقاضي الشّهير "أبو عبد الله بن الأزرق" ولم يدم بها طويلاً حيث توجه نحو المشرق، ويضاف إليهم "أبو جعفر أحمد البلوي الوادي آشي" وقد ارتحل مع أبيه وإخوته نحو المشرق⁶.

ولا يمكن لنا فهم الحياة التّقافية بتلمسان وتأثير الجالية الأندلسية في ذلك وتصوّرها إلا من خلال ما ذكره حسن الوزّان في كتابه - وصف أفريقيا - بقوله: "وتوجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة صيّنة لها أئمّة وخطباء، وخمس مدارس حسنة... والمدينة يوجد بها قُضاة ومحامون وعدد كبير من

¹ أبو الحسن علي القلصادي، رحلة القلصادي، المصدر السابق، ص 94. 95.

² ألمرية: ألمرية مدينة حديثة النشأة نسبياً مقارنة بباقي مدن الأندلس أمر بنائها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة 344هـ، وجاء اسمها من وظيفتها فقد كانت تُتخذ مرأى ومرصداً لمدينة بجاية، وقيل اسمها مشتق من المرأة لأن المدينة ومعالمها تنعكس على المياه من حولها كأنّها مرآة. وكانت لها مكانة كبيرة تضاهي قرطبة وغرناطة.

³ المسجد الجامع بتلمسان، شيّده يوسف بن تاشفين أول خليفة لدولة المرابطين سنة 1136 م، وأما المغننة فبناها سنة 1236م يُعْمَرُاسِبُ بن زيّان، وبُني من الحجارة والطوب والجصّ، أما الزخارف المعمارية فشملت الرخام والجصّ المنحوت والخزف والخشب.

⁴ مُجَدُّ الطمار، تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 215.

⁵ قال عنه - المقرّي - صاحب كتاب "نفع الطيب...": «كان كثير النسخ آية الله في ذلك حتى أرى رأيت في خزائن أهل تلمسان بخطه نحو مائة سفر» ، نفع الطيب، ص 317.

⁶ المقرّي شهاب الدين، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج 1، المطبعة الرسمية، تونس، ص 71.

العدول يدخلون في الدعاوي ، وكثير من الطلبة والأساتذة في مختلف المواد سواء الشريعة أو العلوم الطبيعية وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة.¹

ب- انتشار الزوايا وظهور المرابطين: وهي من أهم المؤثرات على الحياة الثقافية في الجزائر خلال هذه المرحلة ، وبرز التصوف كظاهرة والتي عرفت انتشاراً وتوسّعا أكثر خلال القرون اللاحقة أي خلال العهد العثماني، وعرفت بصورة أخرى حيث المبالغة في الاعتقاد في الشيخ وابتداع الحضرة والأوراد وغيرها، وذلك بحماية من السلطة مما زادها ازدهارا وتفرّعا²، هذه المعتقدات المتنوعة والمستغربة في كثير من الأحيان ، ورغم أنها تختلف في مجملها من طريقة إلى أخرى غير أنها تحرص على نشر معتقدات تمجد صاحب الطريقة وتقدّسه، وتنسب له خوارق وقدرات لا تحظر على بال³ . إن ظاهرة انتشار الزوايا والأضرحة وتقدّيس الأولياء والشيوخ والمبالغة في الاعتقاد فيهم أدت إلى بعض الآثار السلبية على الحياة الثقافية في الجزائر، ومن ذلك تبسيط المعرفة وغلق باب الاجتهاد، فنقل التعليم إلى الزوايا يؤدي بطالب العلم إلى الاكتفاء بالحد الأدنى من العلوم أو النهل منها بطريقة جافة ضيقة ، كما أصبحت هذه الزوايا تنافس المدرسة والجامع في نشر المعرفة، وبدل أن يجلس الناس حول العلماء المتوّرين في المدارس أصبحوا يلتقون حول شيخ أو مقدّم في الزاوية تغلب على عقله الخرافة وعلى أحواله الزهد⁴، هذا الأمر أدى بالعلماء إلى تبسيط أفكارهم وآرائهم حتى لا يفتر الناس إلى الزوايا والمرابطين ، ومع ذلك فقد تكوّنت الرّباطات والزوايا ومن ذلك زاوية محمد بن يوسف السنوسي

¹ حسن الوزان ، وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، و محمد الأخضر ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج2 ، صص 21.19.

² أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ص 48 .

³ عبد الحكيم مرتاض: الطرق الصوفية بالجزائر في العهد العثماني (924 . 1246هـ/ 1518. 1830 م) تأثيراتها الثقافية والسياسية ، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات ، جامعة وهران ، (2015. 2016) ، ص23.

⁴ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، المرجع نفسه ، ص48.

بتلمسان¹ ، الذي كان له تأثير كبير على أهل عصره بكونه كان يدعو الناس للعزلة والهروب من الدنيا وعلومها والاهتمام بعلوم الآخرة ، ولم يكن يدعو لنقد أحوال الناس والتنبيه على ما يَحْدِقُ بالمجتمع من أخطار. ومنها زاوية سيدي بومدين وزاوية عين الحوت ، بالإضافة إلى زاوية الثعالبي بمدينة الجزائر² ، هذه المدينة التي كانت تعج بالزوايا والأضرحة والقباب المقامة على الأولياء والصالحين. ومنها كذلك زاوية عبد القادر الجيلاني³ ، وزاوية سيدي مُحَمَّد الشريف، وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري⁴ وغيرها ، ولم تكن قسنطينة استثناءً فانتشرت بها الزوايا غير أنها لم تكن بالعدد الموجود في كل من تلمسان والعاصمة، ونذكر من ذلك زاوية سيدي مخلوف، وزاوية سيدي مسيد⁵ وزاوية سيدي راشد وغيرها .

إن التغيّرات التي طرأت على الخارطة السياسية للجزائر خلال هذه المرحلة - بمجيء العثمانيين من تاريخها أدّت بدورها إلى تغيير مراكز الإشعاع الحضاري والعلمي والثقافي من مدينة تلمسان وبجاية إلى مدن أخرى ، فلقد كانت هاتين المدينتين (بجاية وتلمسان) مركزين مهمّين للثقافة والعلم قبل

¹ الزاوية تنسب إلى العالم الزاهد " محمّد بن يوسف بن عمر بن شعيب أبو عبد الله السنوسي " هو أحد كبار علماء تلمسان ولد سنة 832هـ/1428م ، عالم في التفسير والحديث له " عقيدة أهل التوحيد " ، و " العقد الفريد في حل مشكلات التوحيد " وهو شرح للامية الجزائري ، وله كذلك " أم البراهين في العقائد " و " المنهج السديد في شرح كفاية المرید " وغيرها من المؤلفات ، وتوفي بتلمسان سنة 895هـ/1490م .

² نسبة إلى العالم الزاهد الشيخ أبو زيد عبد الرحمان بن محمّد بن مخلوف الثعالبي ولد بمنطقة يسر التابعة لمدينة بومرداس سنة 785هـ -1384م، مفسر وفقه مالكي على طريقة أهل السنة من الأشاعرة ، تأثر الشيخ بالإمام أبي حامد الغزالي، وله عدّة آثار توفّي الشيخ سنة 1471م /872هـ ، و تقع زاويته في قصبه بني مزغنة (حي القصبه) والتابعة إداريا لدائرة - باب الوادي - بالجزائر العاصمة تأسست هذه الزاوية سنة 1455م ، وبها ضريح الشيخ وهي تعتبر اليوم من أهم المعالم الإسلامية في العاصمة الجزائر .

³ الشيخ عبد القادر الجيلاني عالم جليل عرف بالتصوف والزهد والكرامات ، تنسب إليه الطريقة القادرية وهو دفن مدينة بغداد بالعراق .

⁴ هو أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي (800هـ -1398م/884هـ - 1479م) ، من كبار العلماء في وقته له نظم أصله من قبيلة زواوة سكن مدينة الجزائر وتوفي بها ، من آثاره منظومة لامية في علم الكلام تعرف ب " كفاية المرید " من 400بيت ، وتعرف أيضا ب " الجزائرية في العقائد الإيمانية " شرحها الإمام مُحَمَّد بن يوسف السنوسي .

⁵ المسيد: مفرد وجمعه "المسايد" ، تعبير محلي دارج يطلق على مدارس التعليم الابتدائي ، ومازال متداولاً إلى اليوم لدى سكّان عدّة مدن في الجزائر .

هذه المرحلة ، فأما بجاية فقد ذكرها الغبريني بأنها كانت تحظى بازدهار ثقافي ونبغ فيها العديد من العلماء في مختلف العلوم والمعارف خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي¹ واستمر هذا الوضع في بجاية إلى غاية الاحتلال الإسباني للمدينة سنة 915 هـ/1510 م²، وتلمسان هذه المدينة القديمة النشأة فهي ثالثة ممالك البربر³، ويقول عنها ابن خلدون "... كلمة بربرية مركبة من تلم ومعناه تجمّع ، وسان معناه اثنان أي الصحراء والتل⁴، ويضيف قائلاً: هي مدينة عريقة في التمدن لذيدة في الهواء ، عذبة الماء كريمة المنبت⁵ ، وقد استفادت أيما استفادة من تراث الأندلس بحكم موقعها حيث قصدها الكثير من المهاجرين الأندلسيين، فاستفادت من ثقافتهم وأدبهم وانعكس هذا التأثير حتى على الأحواز والمناطق الريفية القريبة منها فانتعشت الحرف والصنائع والزراعة وغيرها⁶. ومن هذه المدن المدن التي سطع نجمها بمجيء العثمانيين مدينة الجزائر التي تعد من أقدم المدن، حيث يذكرها حسن الوزان في كتابه " وصف أفريقيا " بقوله : " معناها الجزر... والمدينة قديمة من بناء قبيلة افريقية تُدعى مِرْغَنَّة، فأطلق عليها القدماء هذا الاسم "، ويضيف قائلاً: "وهي كبيرة جدا تضم نحو أربعة آلاف كانون أسوارها رائعة ومتينة جداً... ويُشاهد من جملة بناءاتها جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطئ البحر .."⁷، وسميت هذه المدينة باسم الجزائر نسبة إلى تلك الجزر الصخرية القريبة من ساحلها وأمام

1 الغبريني أبو العباس أحمد ، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار ، ش و ن ت، الجزائر ، 1970 ، ص 21 وما بعدها .

2 بومولة نبيل، صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني، إمارة المقرانيين في القرن 10 هـ / 16 م ، دار هومة للنشر والتوزيع ، (د ط) ، الجزائر، 2013، ص 62 .

3 مارمول كاربخال ، أفريقيا ، ترجمة مُجَّد حجي وآخرون ، دار نشر المعرفة (د ط) ، 1989 م ، ج 2، ص 291.

4 أبو زكريا يحيى ابن أبي بكر بن الحسن بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، مطبعة بيبير فونتانا الشرقية في الجزائر ، 1903 ، ص 9 .

5 أبو زكريا يحيى ابن أبي بكر مُجَّد بن الحسن بن خلدون ، نفس المصدر، ص 9 .

6 الواليش فتيحة ، الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير ، إشراف الدكتور مولاي بالحيمسي ، جامعة الجزائر 1993 / 1994 ، ص 157 .

7 حسن بن مُجَّد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي): وصف أفريقيا ، ترجمة مُجَّد حجي ، ومُجَّد الأخضر ط2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 ، ص 37.

مركزها حيث كانت تقيم قبيلة بربرية تدعى قبيلة " بني مزغنة " فسُمِّي المكان ب " جزائر بني مزغنة " لتختصر بعد ذلك وتصبح الجزائر¹، كما عُرِفَت المدينة في عهد سابق باسم " أكسيوم " خلال العهد الروماني، وبعد استيلاء العثمانيين عليها وبسط نفوذهم فيها وخاصة خلال القرن 11هـ / 17م عُرِفَت مدينة الجزائر ازدهارا ورخاء كبيرين نتيجة الأموال القادمة من البحر بالإضافة إلى الذهب المجلوب من بلاد السودان²، فتحوّلت المدينة من مرسى صغير إلى مرسى كبير يستقبل مختلف السفن والبضائع ويقصدها تجار الداخل والخارج وتحوّلت من قرية صغيرة إلى عاصمة البلاد، واحتلت هذه المدينة مكانة الصدارة وانتزعت الأهمية التي كانت لتلمسان وبجاية خلال القرن السادس عشر وقبله، وصارت من المدن المعروفة بثقلها الثقافي فحملت في طياتها مختلف الفنون الثقافية لانتشار مختلف الحرف والصنائع، والتنوع في الحرف يعني التنوع في الثقافات³، إضافة إلى كثرة حوانيتها وحماماتها، وقد كانت هذه المدينة مقصدا للطلبة من داخل الجزائر وخارجها رغم أنها كانت تفتقر إلى معهد رئيسي يضاهي جامع القرويين أو الزيتونة والأزهر⁴، ويعود ذلك لكثرة مساجدها وزواياها المنتشرة ومختلف مدارسها التي تقوم بمهام التعليم.

ج- الطابع العسكري العثماني: لقد دخل الجزائريون في الرابطة العثمانية باسم العقيدة الإسلامية والولاء للسلطان بعد طلب منهم⁵، وربط العثمانيون مصيرهم بمصير أهل الجزائر وتحالفوا معهم تحالفا تحالفا شديدا سياسيا وعسكريا فكثرت عدد الجنود الجزائريين الذين خاضوا الجهاد براء وبحرا جنبا إلى جنب مع العثمانيين، وظلّ الوجود العسكري السمة المميّزة للحكم العثماني في الجزائر فقد كان الجهاد

1 لمعرفة المزيد عن تاريخ هذه المدينة يُنظر: كتاب الجزائر، أحمد توفيق المدني ص 206 وما بعدها.

²EMERIT;(M) un doucement inédit sur Alger au 17^{ème} siècle ; Alger 1959; p 233

³ للمزيد حول هذا ينظر: عائشة غطاس ، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700م - 1830 م) ، أطروحة دكتوراة في التاريخ التاريخ الحديث (مخ) جامعة الجزائر 2001/2000 ، ص 152.

⁴ رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر - فترة الدايات (1671. 1830) ، مذكرة ماجستير إشراف د، د، فلة موساوي القشاعي : مخ ، جامعة الجزائر ، 2005. 2006 ، ص 39 .

⁵ الطلب كان عبارة عن رسالة مرسله من طرف أهالي الجزائر مفادها ربط الجزائر بالدولة العثمانية والرسالة مؤرخة في أوائل ذي القعدة 925هـ /نوفمبر 1519م، للمزيد حول هذه الرسالة وهذا الطلب ينظر عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 06، جانفي 1976م ، ص ص 116. 120.

البحري باعث وجودهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط بسبب استمرار التهديدات البحرية المستمرة على هذه الشواطئ وملاحقة مسلمي الأندلس من طرف الخطر الاسباني، وهي كفيلة بأن تلقي بظلالها على الحياة الثقافية بالجزائر¹، مما جعل معظم الدراسات الأجنبية تعتبر أن إيالة الجزائر خلال العهد العثماني تفتقر لكل مظاهر التحضر والتمدن والتي يُفهم من سياق ذلك عدم الاهتمام بالثقافة والعلوم والفنون كون المجتمع الجزائري في تلك الحقبة كان مجتمعا عسكريا في فكره وأعماله²، حيث عرفت الحركة العلمية والثقافية نوعا من الجمود فاقتصرت الدراسات على الأخذ بما تركه السلف والعناية بما تداوله الأُولون ونقلوه عنهم، فكان رجال هذا العصر وعلماءه - إلا القليل منهم - لا يُحْكَمون العقول بل استسلموا إلى من سبقهم من العلماء أصوب ، وأطلق على علماء ذلك العهد بعلماء السوء من المبتدعين المتزاحمين على قصور الملوك³، وقد أطلق عليهم ابن الفكون اسم اللصوص⁴ وقد عبّر عن ذلك "عبد الرحمان الأخضرى"⁵ عن حالة الركود الثقافي الذي صاحب الوجود العثماني في الجزائر بقوله:

" لاسيما في عاشر القرون *** ذي الجهل والفساد والفنون".

3 - الركود والانحطاط الثقافي:

أ-الاقتصار على العلوم النقلية الشرعية: إن حالة الركود والتدهور الثقافي المعبر عنها ربما يعود لحصر الاهتمام بالعلم المنقول دون غيره لأن مفهوم العلم في ذلك العصر قد كان اتقانا لفهم الذكر الحكيم ،وحفظا لمرويات الحديث الشريف ومعرفة أصول العقائد والفقهيّات وتعمّقا في فن الأصول ،

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، المرجع السابق ج1 ، ص ص 140. 142 .

² ذهبية بوشيبة ، " العلم والعلماء خلال العهد العثماني " ، مجلة الحوار المتوسطي ، العدد 3 و4 جامعة سعيدة ، (د ت) ص 114 .

³ فتيحة عبد النور ، الروابط الثقافية بين الجزائر وتونس (1830 - 1954) ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، إشراف . د:صبيحة بَجُوش ، جامعة الجزائر ، (2013. 2014) ، ص 7.

⁴ عبد الكريم الفكون ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ، ت ، أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، بيروت ، 1987 ، ص ص 128 . 129 .

⁵ هو أبي زيد عبد الرحمان بن صغير أو مُجَد الصغير الأخضرى وُلد في منطقة بنطوس بنواحي بسكرة حوالي 920 هـ ، وأخذ العلم عن والده كما ارتحل إلى كل من قسنطينة وتونس للاستزادة من العلم، كان عالما عاملا تُخرَج على يديه تلاميذ أكثر من مؤلفاته " القدسية " في التصوّف وغيرها توفّي حوالي 953 هـ :أنظر " منشور الهداية " للفكون ص 74 ، وأبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ص ص 500 - 503 .

أما فن المنطق قد جرى فيه خلاف بين العلماء لأنه يمدّ إلى الفلسفة التي حرم الخوض فيها بعض العلماء ، وحذروا منها تلاميذهم ومنعوهم أن يتعلموها لاسيما الذين لم ينالوا قسْطا وافرا من عقائد أهل السنة خوفا عليهم من أن يتيهوا في دروب الكفر ومزالق الإلحاد¹ ، فالثقافة والعلم محصوران في علوم الشريعة فأُنصبَ الاهتمام على الفقه والتفسير والحديث لذا كانت الثقافة دينية أكثر من غيرها، وهي الميزة التي صبغت الحياة الثقافية بالجزائر خلال هذه المرحلة² ، وقد اعتمد العلماء في ذلك على الحفظ وتقليد من سبقهم، وهذه هي الطبيعة الذهنية التي لازمت المشهد الجزائري في هذا العهد من خلال احتكامها إلى النقل أكثر من العقل، ولهذا نحت الممارسة التعليمية منحى تلقينيا دون جهود أو إسهامات في علوم العقل³ وهذا على نقيض ما تشهده أوروبا من نهضة علمية، ورغم ذلك فقد كانت في الإيالة حركة تجديدية فكرية منبعثة من علماء جزائريون تركوا بصماتهم الأدبية والتعليمية في حفظ التراث الإسلامي وفي استمرار عمران المساجد والزوايا والكتاتيب والمكتبات التي زخرت بأدب الرحلات⁴.

ب-الزهد في العلوم الإنسانية والطبيعية: والثقافة التي تعني في مفهومها العام الإنتاج العلمي والأدبي والتاريخي والعلوم بصفة عامة⁵، كما أنها مجموع المكاسب العقلية والأدبية وغيرها فتعريفها يخضع إلى المعتقدات الدينية والسياسية والمذهبية⁶، ولما كانت الثقافة إذ ذاك تتركز على العلوم الدينية

¹ درقاوي منصور : الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين (10 هـ و13 هـ / 16 م و19 م) بين التأثير والتأثر ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، إشراف فغور دحو ، جامعة أحمد بن بلة ، وهران ، 2014/ 2015 ص 40.

² أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ص 178.

³ فتيحة بردي: الممارسة التعليمية في الجزائر أثناء الحكم العثماني ، دراسة في الواقع والمعطيات ،مجلة الذاكرة ،جامعة الجيلاني بونعامة ،خميس مليانة - عين الدفلى، الجزائر، العدد 11 ،جوان 2018، ص129.

⁴ حسان كشرود : رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية بالجزائر العثمانية ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ، إشراف: فاطمة الزهراء قشي ،جامعة منتوري قسنطينة ، 2007/ 2008، ص22 .

⁵ يُعرّف المؤرّخ الإنجليزي " أرنولد توينبي " (1889 - 1975) الثقافة في كتابه " الثقافة والفوضى " بأنها : «هي محاولتنا للوصول إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني ممّا يؤدّي إلى رقي البشرية » أنظر مسعود بقادي :

هجرة علماء تلمسان إلى فاس ...، مرجع سابق ص ص52-53.

⁶ عبد العزيز فيلاي : تلمسان في العهد الزياني ، ج2، موفم للنشر،(د.ط)، 2007، الجزائر ،ص317

من تفسير وحديث وفقه¹ وعلوم الشريعة عموما ومن علوم قريبة من ذلك كالأدب والسير وتُهمَل العلوم العقلية مثل الفلسفة والرياضيات والطب مما جعل الإنتاج الثقافي في هذا العصر يكون ضئيلا حتى أن أبا راس الناصري يصوّر لنا هذه الحالة بقوله: "إنني في زمن عُطّلت فيه مشاهير العلم ومعاهده، وسُدّت مصادره وموارده وخلت دياره ومراسمه، وعُقت أطلاله ومعامله لاسيما فن التاريخ... واستوطن فحولها زوايا الخمول، يتلهفون عن مدارس العلم والفضائل، ويتأسّفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل و إلى الله المشتكى.."²

ويؤكد ذلك (د. شو³) بقوله: " أن الحياة الفكرية مازالت كما كانت منذ وقت طويل في حالة متدهورة فالفلسفة والرياضيات والطبيعات والعلوم الطبية التي اشتهر بها العرب قديما أصبحت الآن من العلوم التي لا يُعرف عنها شيء"⁴، وكذلك (شالر) يعتبر "أن العلوم غير موجودة وإن وُجدت فهي ضئيلة فعلم الطب لا يجد من يمارسه باستثناء المشعوذين وكتاب الحُرُوز* .."⁵، وأما الإنتاج

¹ المهدي البوعبدلي وناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ج4، ص126.

² أبو راس الناصري الجزائري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دراسة وتحقيق، مُجد بوركبة، منشورات (و. ش. د والأوقاف)، الجزائر، 2011، ج1، ص45.

³ الدكتور توماس شاو (Shaw): هو رجل دين ورحالة بريطاني وُلد سنة 1694م يُلقب كذلك بالدكتور رغم أنه ليس بطبيب ولكن كانت هذه عادة بريطانية في تلقيب رجال الدين الحكماء أصحاب الدرجات العلمية العالية بذلك فدكتور تعني حكيم، وهو كاهن بالوكالة الانجليزية بالجزائر (1720 م - 1732م)، عضوا في الجمعية الملكية، استطاع أن يقدم عملا بعنوان " جولات متعددة من بلاد البربر والشرق " ترجم إلى الفرنسية، ونشر الجزء الخاص بالجزائر تحت عناوين مختلفة ومن جملة الأفطار الاسلامية التي زارها: مصر والحجاز تونس والمغرب، كما يعتبر " توماس شاو" شاهد عيان لواقع المجتمع الجزائري في العهد العثماني، ومصدر رئيسي للمعلومات التي يقدّمها حول نظام التعليم وأشكال العمران، وذهنية المجتمع الجزائري وبعض الجوانب من الحياة اليومية للأسر الجزائرية، ينظر <http://dspace.univ=tiaret.dz> تاريخ الاطلاع 18/ماي/2023م.

⁴ Dr. SHAW, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais par J.Mac.Carthy 2ème Ed. Bouslama, Tunis 1980, pp84, 85.

* الحُرُوز: جمع مفرد حِرْز، والحِرْز هو « ما يُكتب ويُجمل فيقي حامله من المرض والخطر كما يزعمون باطلا»، أنظر: قاموس المنجد في اللغة والأعلام، ط28، دار المشرق، بيروت، 1986، ص126.

⁵ شالر وليام، مذكرات قنصل أمريكا (1816 - 1824) ترجمة وتعليق العربي إسماعيل، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص81.

العلمي والثقافي في هذه المرحلة التاريخية فلم يخرج عن الشروح والحواشي للمصادر الفقهية الكبرى ، ورغم حالة الجمود والتراجع التي تميّزت بها الجزائر خلال هذه المرحلة فإنّها لم تمنع بعض العلماء من البروز في علوم عصرهم سواء من استقروا بالجزائر أو آثروا الهجرة إلى بلدان عربية وإسلامية أخرى وقد دون ذلك ابن زاكور الفاسي حينما كان يصف ويمدح مدينة الجزائر وعلمائها فيقول: "...عُرِّزُ أعلام ينجلي بهم الإظلام وشموس أئمة ، تنفرج بهم كل غمّة وتفتخر بهم أحبار الأمة من رجال كالجبال وأحبار كالأقمار طلوعوا في بروج سعودها بدورا ألبسوها رواء ونورا فاهتديت بأنوارهم السنّية ..."¹.

إن هذا التراجع العلمي والثقافي ومن الناحية المنطقية لا يمكن أن نُحمّله للسلطة والسياسة العثمانية في الجزائر لأن معظم البلدان العربية قد عرفت هذا التراجع والجمود خلال هذه الفترة نتيجة العزلة التي فُرِضَتْ على المجتمعات العربية² وعلى العكس فلو أن الثقافة كانت نشطة في دول العالم العربي والإسلامي لاستفاد علماء الجزائر منها بحكم رحلاتهم وتنقلاتهم في طلب العلم والاستزادة منه في المعاهد الإسلامية، ثم إن العثمانيين في هذه البلدان قد دافعوا عن الإسلام بنظرة تعبديّة محضة لذا شجّعوا تيار التصوّف فأوقفوا الأوقاف على المؤسسات الدينية وقاموا ببناء المساجد والكتاتيب والزوايا في هذا البلد لكن النظرة لم تستفد منها الثقافة بأي حال من الأحوال³.

والحق أن فترة الانحطاط والظروف الصعبة من الناحية الثقافية لم تكن خاصة بالجزائر وحدها ولا تونس أو غيرها من دول المغرب العربي بل كانت حالة ووضعية عامة سادت العالم العربي والإسلامي كلّ الذي بدأت تظهر عليه بوادر التأخر والتراجع ليترك المجال فسيحا أمام حضارة الغرب الزاحفة، والعديد من المؤرخين يُحمّلون الخطأ والمسؤولية للدولة العثمانية ما أصاب الايالات المغاربية

¹ ابن زاكور الفاسي: نشر أزاهر البستان فيمن أجازي بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، المعروفة ب « رحلة ابن زاكور الفاسي » المتوفى 1120 هـ / 1708 م تحقيق : مُحمّد ضيف ، ومحفوظ بوكراع ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع الجزائر، (د ط) ، 2011 م ، الجزائر ، ص40.

² محمّد غانم ، التاريخ والمؤرخون في الجزائر خلال القرن الثامن عشر ، و حدة البحث في الانثروبولوجيا والثقافة والفنون ، جامعة وهران ، 1988 ، ص4.

³ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ص ص 18 .19.

وغيرها خلال تواجد هذه الدولة بما ذلك الكساد والفساد الثقافي والعلمي وغيره غير أنه يمكن طرح الإشكال التالي : هل كانت أوضاع الدولة العثمانية في عقر دارها أحسن ؟ هل كانت السياسة التعليمية والثقافية التي مارستها في مختلف ايالاتها هي ليست ما كانت تمارسه في منطقة الأناضول مثلا ؟ والجواب القطعي لذلك هو لا، إذن فهذه السياسة وهذا السلوك كان عاما ؛ ولربما يعود ذلك لنشأة هذه الدولة نشأة تقليدية¹، كما أنّ الطابع العسكري للدولة العثمانية وظروف ظهورها في منطقة شمال أفريقيا والمتمثلة في الهجمات المتكررة للمسيحيين من الإسبان والبرتغاليين واحتلالهم لعدد المدن الساحلية لهذه المنطقة²، وحالة التفكك التي شهدها الدويلات القائمة هناك وضعفها، والتناحر والتدافع بين القوى المحلية وقيام الايالات المغاربية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب) هذا العامل - الطبيعة العسكرية للحكم العثماني - لا يمكن إهماله كذلك، وكان له الأثر الكبير والواضح على الجانب الثقافي في هذه المنطقة.

ج- انتشار الدجل والخرافة: وهو فكر لا يساعد على التطور والابداع، فكانت تلك الفترة تربة خصبة أنبتت أعدادا هائلة من المرابطين وشيوخ طرق صوفية، وأدعياء ومن ذلك ما ذكره أبو القاسم سعد الله من تصرفات أحد أدعياء الولاية وهو القاسم بن أم هاني الذي اتخذ طريقة الشعوذة من خلال الاكثار من الصلاة والصوم، ولبس الغرارة المرقعة وأكل الشعير حتى اشتهر أمره بين الناس في قسنطينة ونواحيها ولكي يتجنب مضايقات الولاة ومنعهم إيّاه من ممارسة تدجيله كان يلجأ الى إرشائهم ليكفّوا أيديهم عنه، وكان أتباعه يذهبون الى البوادي وينادون بأن شيخهم "يرى من العاهات ونحو ذلك من أنواع الكرامات " ³ . ومنهم الحاج محمد الذي ظهر في البوادي نواحي أم دكال الذي اتخذ لنفسه زاوية وتبعه كثيرون أخذ منهم الأعشار والجبايا وكان من شدة اعتقاد الناس فيه أنهم قدّموا له التعازي عندما مات له أحد القطط بعدما أظهر تأثيره لتلك الحادثة⁴ ، فلم يكن الناس يهتمون بدرجة العلم لدى

¹ عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (3/ 14 هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية (د ط)، 1995، الجزائر، ص ص 74-75.

² استطاعت اسبانيا احتلال مدن ساحلية عدّة على طول الشريط الساحلي لدول المغرب العربي مثل: مليبية 1497م، المرسي الكبير 1505م، وهران 1509م، طرابلس 1510 م، تونس 1535م، وغيرها من المدن.

³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مرجع سابق، ص 489.

⁴ أبو القاسم سعد الله: نفسه ص 476.

مرابطهم بل استوى عندهم الجاهل والعالم، وكان مقياس الصلاح والولاية في نظرهم هو خرق العادة من إعلام الغيب والإبراء من الأمراض خاصة، لأن ما كان يرجوه الناس من الأمور النفعية ويلبّيه الولي هي التي تدل على ولاية الشخص وبركته¹، وهو ما لاحظته ونقله وعابه الأب "دان" على شعوب شمال إفريقيا بانتشار ظاهرة الخرافات وخلطها بالدين - رغم أنه مدحهم في مواضع أخرى - حيث قال عنهم: "ولعل أسوأ ما لا حظته لدى الشعوب البربرية هو ذلك الاعتقاد بالخرافات والشعوذة التي تغمر عقولهم والتي ابتدعوها واعتبارها ضمن أحكام الشريعة الإسلامية، وهي معتقدات تعتمد على كثير من التصرفات الشاذة والزندقة والكفر لدرجة احساسهم بالسعادة، والتضحية بأرواحهم من أجلها، تلك خصائص تميّز مدناً بمملكة الجزائر، تونس، سلا، وطرابلس والتي تُعدّ من أبرز مناطق بلاد البربر"².

وقد نسجت الأساطير والحكايات الشعبية والخيال الاجتماعي حول بعض الأولياء والأشياء الخاصة بهم قصصاً غريبة وطريفة تُعبّر عن ميول العامة وتأثرهم بالغيبيات والخرافات مما جعل هؤلاء الأولياء مقصداً للمحتاجين والقاصدين للشفاء والباحثين عن الذرية والمتسولين لحفظ الانتاج واستدرا الماطر، ومثال ذلك ما تقوم به المرأة العاقر عند زيارتها لسيدي الطالب بجامع كوكو حيث تقوم بتحريك عصاه في ثقب بوسط المسجد رغبة في الإنجاب أو يحك بها المريض ظهره طلباً للشفاء وغيرها وكل من يتجرأ على الكذب في حق المرابط أو إهانة ضريحه فإنه لا محالة هالك، ويتم تداول هذه الروايات الشعبية في حق تعظيم المرابطين والأولياء³، لذا يمكن أن يتم تسجيل أهم سلبات هذه الظاهرة وهي:

- مساهمة بعض رجال التصوّف في انحطاط النشاط العلمي وانتشار الركود الأدبي بسبب زهد هؤلاء وتغلغل أفكارهم حتى بين العلماء في تعصّبهم ومقاومتهم للأفكار الجديدة.

¹ رشيد بكاي، "تأثير الطرق الصوفية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني"، مجلة الباحث، ع 8، ديسمبر 2011، ص ص 227، 228.

² DAN(P), histoire de la barbarie et ses corsaires, récollet imp. Du Roy, 2ème, édit., Paris, 1973 p 265 .

³ ناصر الدين سعيدوني، مؤسّسة الزوايا في الجزائر العثمانية (نموذج بلاد القبائل)، العلم والمعرفة في العالم العثماني، أعمال بحوث المؤتمر الدولي أبريل 1999، مرجع سابق، ص ص 50، 51.

- أصبح الكثير من أهل التصوّف يندر بقرب الساعة ، ويطلبون النجاة من شرور زمانهم ومجتمعهم فساعدوا على الضعف السياسي والانحلال الخلقي والاجتماعي والتلف الفكري . مع تميّز بعض أتباع هذه الطرق الصوفية بالدروشة والخرافات والبدع والأباطيل¹ .

وهكذا كانت الأوضاع الثقافية في أيالة الجزائر، كغيرها من الولايات في البلاد المغاربية فضلا عن الآستانة، وهو الحالة التي عاشها العالم الإسلامي آنذاك ، وما تميزت به الثقافة في الجزائر وما أثر عليها.

-وجود حواضر علمية ورثت تلك المكانة من العصر الوسيط، وتطور حالها في العهد الثماني، وكانت مصدر الثقافة والعلم بداية من دار السلطان ، وبجاية وتلمسان في الشمال، وفي الوسط قسنطينة بالخصوص، وفي الجنوب، الخنقة، وواد سوف، وتماسين وغيرها من المناطق التي برزت فيها معارف ثقافية.

-تأثرت الثقافة بعدة مؤثرات وافدة أو نشأت محليا، إذ ساهم المورسيكيون في ازدهارها في الشمال، بينما، كان تأثير الزوايا ورجال التصوف من المرابطين سلبيا، وزاد الطابع العسكري ذلك زهدا في الاقبال على العلوم، والركون إلى العبادات بمفهوم ساذج من الاتكالية وترك الاجتهاد.

-ظهور حالة من الركود والانحطاط الثقافي - مقارنة بما كانت عليه بلاد الأندلس وأوروبا - وتركيز الاهتمام والاقتصر في التدريس والتأليف على العلوم الشرعية التقليدية، والزهد والتأخر في الإنتاج في العلوم الإنسانية، وعلوم الطبيعة كالطب بالخصوص، والذي تولاه السحرة والمشعوذون، واختلط العلم بالدجل والشعوذة والخرافة.

ولكن تلك الظروف والعوامل، لم تمنع من وجود ثقافة، أهلت جمعا من العلماء على المنافسة في الحواضر الثقافية في بلاد المشرق، أو في البلاد التونسية.

ثانيا- الأوضاع الثقافية في تونس العثمانية :

حكم بنو حفص² تونس والمعروفة بالمغرب الأدنى ما يزيد عن 300 سنة¹، ثم شهدت الدولة الحفصية مرحلة ضعف، وقد حاولت عبثا مجابهة عوامل هذا الضعف لكنها عجزت عن ذلك، مما جعلها

¹ مسعود بقادي، هجرة علماء تلمسان ، مرجع سابق ، ص 72.

² عمّرت الدولة الحفصية ما بين (1229م/626 هـ - 1573م/978 هـ).

محل صراع (حفصي إسباني ، عثمانى) ، وهو الأمر الذي أدى ب " خير الدين " بالعزم على امتلاكها فنازل تونس وأخذها ليفرّ منها السلطان "الحسن الحفصي" ، وكان ذلك إيذانا بانقراض هذه الدولة التي سبقها نزاع طويل حيث فقد أمراؤها كل مظاهر النفوذ في الأراضي التي كان يملكها أجدادهم حتى عاصمتهم ، وأصبحت المدن الكبرى مستقلة تدير شؤونها أسر تنتسب لطرق دينية مختلفة ، وأما البوادي والأرياف فسيطر عليها الأعراب الرحّل مثل " أولاد سعيد "2.

لقد كان الإسلام - وهو دين غالب أهل البلد - في تونس يمر بمحنة في القرن السادس عشر، فقد كان يواجه هجوماً من البلاد المسيحية وخاصة إسبانيا التي اتخذت مراكز عسكرية في بلاد المغرب واستطاعت أن تفتن الناس عن دينهم فتكروا لإسلامهم وآزروا الدخيل وهو دليل على ضعف العقيدة الإسلامية لدى كثير من سكان هذا البلد خلال هذه الفترة³ ، إنّ هذا الضعف والتقهقر الذي عمّ كل شيء في آخر الدولة الحفصية قد أصاب في جملة ما أصاب الحياة الفكرية والمؤسسات التي تستند إليها، ومن مظاهر عقم النشاط الفكري والعلمي خلال هذه المرحلة إعراض الناس على العلوم الدينية وإحجامهم في العلوم الدينية عن الاجتهاد بجميع صوره، واستفحال أمر الطرق الصوفية وسيطرتها على الناس سيطرة لا تتطلب إلا مستوى متواضعا من الحياة الفكرية⁴ ، وقد زاد الأمر تعقيدا بعد ذلك تفكك

¹ عملت الدولة الحفصية في أول عهدها على بناء المدارس والمعاهد العلمية، وشجعت الفكر حتى ظهرت فئة مميزة من العلماء فارتقى الفكر معها إلى أعلى درجاته، ولعل أبرز علمائها، عبد الرحمان بن مُجّد بن خلدون الذي أصبح رمزا من رموز التاريخ والفلسفة وازدهرت العلوم الإسلامية، وفي آخر عهدها تلاشت المكتبات، وبيعت الكتب واندثرت بعض المدارس، وزاد التدخّل الإسباني في البلاد في تأزم الفكر التونسي فقد أحرقت خزائن الكتب ودُيست الكتب، وخربت مراكز العلم وتفرّق العلماء وهاجر بعضهم إلى المدن الداخلية أو خارج البلاد مشرقا ومغربا ، فتوقفت الحركة الفكرية ولم يبق مجال للعلم ولا للأدب. ينظر دلندة الأرقش ، "جدلية التجديد والتواصل في الحياة الفكرية بإيالة تونس" ، أعمال مؤتمر العالم الثالث للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، ج1 و ج2 ، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي سنة 1990، ص ص 84 - 85 .

² أحمد عبد السلام ، المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19م ، ترجمة أحمد عبد السلام و عبد الرزاق الحليوي ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون . بيت الحكمة قرطاج تونس، 1993، ص ص 19. 20 .

³ أحمد قاسم ، إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عَظُوم (1574. 1600م)، أطروحة لنيل درجة الدكتوراة ، إشراف عبد الجليل التميمي، الجامعة التونسية ، 1982 ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان تونس، 2004، ص 265.

⁴ أحمد عبد السلام ، المرجع السابق، ص 22.

الوحدة السياسية للدولة الحفصية الذي لم ينعكس فقط على تقلص نفوذ الدولة جغرافيا بل كان أثره على جميع الصعد، ومنها التدهور الفكري، والتراجع الفكري والحضاري . إن مجيء العثمانيين واستقرارهم في المنطقة وإلحاق تونس بالخلافة العثمانية كان له الأثر الإيجابي سياسيا وثقافيا وحضاريا .

1-العوامل المؤثرة على الوضع الثقافي التونسي:

يمكن الوقوف على مرحلتين من الحياة الثقافية المتقهقرة في أواخر العهد الحفصي، ثم التي عرفت انتعاشا في الفترة العثمانية، ويجمع ذلك لعوامل مختلفة:

أ-الوضع في أواخر العهد الحفصي: إن التراجع والتقهر الذي مس الحياة الثقافية الموروثة من العهد الحفصي، له جملة من الأسباب والعوامل أدت إلى تديني المعرفة ولعل أهمها :

- الاضطرابات والفتن والهجمات الخارجية : التي اعترت البلاد التونسية خلال هذه الفترة كانت سببا في انقطاع أخبار العلماء وهجرتهم نحو دول المشرق أو نحو دول المغرب الأخرى، وخاصة المغرب الأقصى، وقد استمرت هذه الأوضاع السيئة حتى زمن الفتح العثماني، وكان من جملة هؤلاء العلماء الذين رحلوا " أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن الخلوف التونسي " الذي يعتبر من فحول العلماء والأدباء والشعراء، والأمر كذلك ينطبق على " الشيخ محمد ماغوش "، الذي قصد تركيا ولم يتحمل البرد بها فاستقرّ في مصر حتى مات، وكذلك الشيخ أبو الفضل محمد خروف الذي نزل بفاس في المغرب الأقصى ووصف بشيخ الجماعة بها حتى توفي بها سنة 1554م/961هـ¹.

- مشاركة العلماء في الجهاد واستشهادهم في المعارك ضد الهجمات المسيحية: ونذكر من ذلك "سيدي علي المحجوب" الذي استشهد في معركة المهديّة،² ضد الإسبان سنة 1550م/657هـ، والأمر ينطبق على "أبو الفضل بن قاسم الرصاع" في معركة حلق الوادي، وبذلك تكون الحروب والاضطرابات ساهمت في القضاء على أهل العلم حتى خلت تونس منهم ، وقد ذكر ابن أبي الضياف في ترجمته لأئمة

¹ أحمد قاسم، المرجع السابق، ص ص 273،274.

² المهديّة بلدة على الساحل التونسي تابعة إداريا لولاية سوسة ، بناها المهدي عبيد الله ، لجأ لها الزيريون هربا من غزوات الهلاليين .

جامع الزيتونة أن أول من تولّى الإمامة في ذلك الوقت هو أبو عبد الله مُحَمَّد الأندلسي¹، وينقل ابن أبي الضياف عن أحد فضلاء المغاربة وصف هذا الشيخ قوله: "وفيه إذ ذاك إمام خطيب يقال له سيدي مُحَمَّد الأندلسي رجل خير فقيه، عليه سمت أهل الخير ووقار أهل العلم وليس في البلد من تُقْبَل عليه النفس ويرتضيه العقل غيره..."².

- **قضاء الإسبان على الكتب:** حيث لم تقتصر هذه الحروب على موت العلماء وقتلهم، بل عبث الإسبان بالتراث الفكري فالتفوا الكتب الموجودة في جامع الزيتونة وفي المدارس، وألقوا بها في الطرقات تدوسها الخيول وكان ذلك سببا آخر في ضياع العلوم حتى نَعَتَهُ بعض الدارسين بعصر الانحطاط³.

- **تدهور وتراجع العلوم العقلية:** وكان من بين جملة أسبابها انتشار الطرقية ومظاهر الدروشة حيث يقوم بعض الصلحاء وكتبة التعويذات والوصفات الطبية الغربية، بتشخيص العلاج للمرضى، وصار الاهتمام منصبا على القضايا الروحية والغيبية. والحاصل أن هذا التأخر والتراجع قد أصاب علوم الدين والأدب والتاريخ والحساب والطب والصناعة وغيرها حيث يذكر ابن دينار أن سنان باشا قد احتفظ بالنصارى الذين ظفر بهم لمهارتهم في مجال الصناعة وغيرها⁴، ويعتقد في ذلك قلة حيلة أهل البلد في هذه الصناعات. وبالرغم من هذا الضعف والتراجع فإن العلوم الشرعية لم تندثر فقد انقطع رجال كثيرون للاعتناء بها وذلك لحاجة الناس إليها في دينهم ودنياهم فقد بدأت هذه العلوم تنبعث مع استقرار الوضع نسبيا ولربما يعود ذلك لعاملين هما هجرة بعض الدارسين لجامع الأزهر بهدف النهل من علومه والجلوس لعلمائه ومن ذلك "محمّد الشريف السّوسي"⁵، إضافة لتوافد بعض من ذوي المكانة العلمية من الأتراك

¹ أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1999، ج7، ص66.

² أحمد ابن أبي الضياف، نفس المصدر، ص66.

³ أحمد قاسم، المرجع نفسه، ص274.

⁴ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، مطبعة الدولة التونسية، الطبعة الأولى، 1870 م، ص175.

⁵ محمّد الشريف السّوسي أصوله من أشرف الأندلس كان شاعرا وعالما ولد في سوسة ودرس في الأزهر سعى ليكون نقيبا للأشراف لكن لم تعط له، كان يشتغل بنسخ الكتب، قال عن نفسه: محمّد مغربي الأصل منشأه بسوسة لم يزل في مصر مشتهرا.، وقد قال ذلك لما كان عائدا من الحج سنة 1617م. ينظر ابن عظّوم، مصدر سابق، ص277.

لتوليّ المناصب القضائية ومن ذلك "أحمد أفندي"¹ الذي قديم في عهد عثمان داي، و كذلك العالم الفقيه "أحمد شلبي"².

ب-الوضع الثقافي في العهد العثماني:

بمجيء العثمانيين بدأت مظاهر الاستقرار في تونس حيث ارتبطت تونس رسميا بالخلافة العثمانية سنة 982 هـ - 983 هـ/1574م عرفت خلالها معطيات جديدة في مختلف الميادين سياسية واقتصادية واجتماعية³، وكان لذلك أثره الواضح على الحياة الثقافية والفكرية في البلاد التونسية، وكان من وراء ذلك عدة عوامل:

-هجرة الأندلسيين لتونس: فقد أعانت الأحداث وتطور المجتمع - خاصة بظهور فئات جديدة في المجتمع التونسي وخاصة الأندلسيين - على حلّ المشاكل وأوجدت مناخا ملائما أكثر من ذي قبل للنشاطات العلمية والثقافية والفكرية، ومن أول هذه الأحداث والمعطيات استقرار سلطة شبه مستقلة تعمل على ضبط الحياة العامة، وتمثّلت في سلطة الدايات ثمّ البايات التي عملت على إصدار جملة من التدابير لصالح التعليم وخاصة الديني منه وكان أول المبادرين في هذا المجال "عثمان داي"⁴، غير أنها بقيت قليلة ومنها ما تعلّق بالتعليم في جامع الزيتونة وبناء مسجد في نهج الصبّاغين⁵، وما قام به من حلقه في

¹ أحمد أفندي : قديم من بلاد الروم في أوائل المائة الحادية عشر على أيام عثمان داي وقد مكث في تونس لمدة، وكان عالما بالفقه والنحو والتفسير والمعاني والبيان والمنطق، وهو أول قاضي حنفي أرسل إلى تونس، وعنه أخذ جماعة من أهل تونس منهم محمد الغمّاد (1704م) وأبو يحيى الرصاع (1624م) والشيخ محمد براو الذي عاصر يوسف داي.

² أحمد شلبي : فقيه من فقهاء الحنفية، وهو من الأتراك، وقد مدحه ابن عظوم وقال فيه أنّه من "فضلاء الترك" ينظر ابن عظوم المصدر نفسه، ص278.

³ ليلي غويني، التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، إشراف الدكتورة عائشة غطاس، جامعة الجزائر2، 2010/2011، ص121

⁴ عثمان داي: حكم ما بين (1007 هـ /1599م إلى 1019 هـ/1610م)، كان ذا حزم وشجاعة وفتنة ومقدرة لمعالجة العديد من الأمور، مما مكّنه على السيطرة على الديوان والانكشارية، كما أحسن وفادة المهاجرين الأندلسيين فاستفادت منهم البلاد التونسية في مختلف المجالات وكان له وافر الأثر على مختلف جوانب الحياة اجتماعيا، اقتصاديا وثقافيا. وقد انتشر في عهده الوباء والقحط.

⁵ أحمد عبد السلام، المرجع السابق، ص35.

الحكم وهو "يوسف داي"،¹ لأمّ محمد حيث شيّد الجامع المشهور به وجعل إمامه من الطائفة الحنفية وجعل له أوقافاً²، كما بُنيت بجواره مدرسة التي تُعرف به أيضاً وألحق لها عدّة بيوت للقاطنين بها وجعل لهم مرتباً وأوقف عليهم وعلى المدرّس بها الذي كان على المذهب الحنفي هو أيضاً³.

ولا شكّ في ما للهجرات الأندلسية من تأثير على الحياة الثقافية في تونس حيث وبعد عمليات التهجير القسري التي تعرّض لها مسلمي الأندلس، عرفت تونس هجرة عشرات الآلاف من الأندلسيين المطرودين من اسبانيا أوائل القرن السابع عشر⁴، فازداد بذلك عدد سكان تونس ازديادا كبيرا خاصة السكّان من أصل أندلسي،⁵ وكان لهم الأثر الواضح في الحياة التونسية، فقد كانوا يتميّزون عن بقية السكان بلغتهم وزيّهم وعوائدهم، كما أنهم جلبوا معهم أموالهم⁶، وصنائعهم وكانوا حريصين جدّاً على أن يعيشوا حياة كريمة في موطنهم الجديد من خلال التغير الذي أحدثوه في بيئتهم الجديدة والمناطق التي أحيوها بالزراعات المسقية والأشجار المثمرة، مستغلين النواير والطواحين الهوائية لضخ المياه من الآبار فتنوعت محاصيلهم وازدادت منتجاتهم، كما كان لهم الفضل في تعمير مواقع مهجورة بإحياء أراضيها بالزراعة والاستقرار فيها فاستتبّ الأمن بهذه الأماكن، ونجحت استثماراتهم في صناعة الشاشية وتجارة العبيد، والصناعة اليدوية مثل تجليد الكتب وزخرفتها بأبداع أسلوب وغيرها، إضافة لتسقيف المنازل

¹ يوسف داي: حكم ما بين (1019هـ/1610م إلى 1047هـ/1637م)، وكان من عسكر طرابلس الغرب، وفي عهده تحصّرت البلاد وكثرت عمارتها وكان يجهّز المراكب للغزو في البحر وكانت لمراكبه سمعة وهيبة.

² الجامع هو المعروف اليوم بالجامع اليوسفي نسبة لصاحبه، وأما إمامه هو الشيخ المفتي "رمضان أفندي".

³ ابن أبي دينار، المؤنس، المصدر السابق، ص 194.

⁴ يقدر القبطان الإنجليزي "روبرت إيلين" أن عدد الأسر الموريسكية بلغ في تونس حوالي 8000 عائلة، سنة 1615م. ينظر: محمّد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17م، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 4، المغرب 2014، ص 156.

⁵ وصل تونس عدد هام من الأندلسيين بڑا وبحرا قبل عمليات الطرد النهائي التي كانت بعد صدور قرار الملك فيليب الثالث (1006 هـ - 1598م/1030هـ-1621م)، وكان صدوره بتاريخ 09/ديسمبر/1609م.

⁶ وكانت إما نقدا أو جواهر وهو ما جعلهم عُرضة لعمليات السلب والنهب من طرف أصحاب السفن التي استأجروها لحملهم من اسبانيا حتى شواطئ وسواحل بلاد المغرب وغيرها.

بالقرميد وزخرفة الجوامع والزوايا والصوامع حسب الطابع الأندلسي، فكان امتزاج الأندلسيين بأهل تونس كلقاح خصيب للأمة التونسية¹.

وقد عمل بعض دايات تونس مثل "عثمان داي" على توطين أهل الأندلس وتشجيعهم على الاستقرار في البلاد التونسية فأواهم وأوسع لهم وفرّق ضعفاءهم على الناس وسمح لهم بالتعمير حيث شاءوا²، فاستوطنوا عدّة أماكن ومن بلدانهم المشهورة سليمان، وزغوان وتستور والعالية والقلعة وغير ذلك.³

-بروز فئة من الكتاب الأندلسيين: فقد أمكن التعرف على بعض الكتاب الأندلسيين الذين اهتموا بالتعليم الديني فيما ألقوا أو اقتبسوا في هذا المجال من ذلك الكاتب والشاعر المعروف "إبراهيم التيلي" المعروف باسم "خوان بيريث" الذي نظم قصيدة من 4608 بيت بالإسبانية مع بعض التعليقات العربية في الدفاع عن الإسلام والردّ على النصارى، والكاتب الرحّالة "أحمد بن قاسم الحجري"⁴ الذي ألف كتابه "معجزات النبي ومكارم الخلفاء والشرفاء"، وكتابا آخر هو "ناصر الدين على القوم الكافرين"⁵، كما نجد من بين أفواج هؤلاء المهاجرين الأندلسيين من كانوا قد تلقوا في الحفاء تعليما إسلاميا متينا رغم الاضطهاد ولما حلّوا بتونس نجدهم شاركوا في النشاط الثقافي بها، ومنهم كذلك من أقاموا في البلدان الأخرى من الشمال الإفريقي وخاصة المغرب الأقصى أسرة ابن عاشور التي نجد فيها عددا من الفقهاء والعلماء، فكان جدّهم "محمد بن عاشور" الذي انتقل من مدينة "سلا" المغربية إلى مدينة "تونس"

¹ أحمد الحمروني، الهجرات الأندلسية إلى البلاد التونسية، ميديا كوم، ط1، تونس، 2009، صص، 11.13.

² لم يقتصر الأمر على السلطات الرسمية في تقديم المساعدة لهؤلاء المهاجرين فقد بادر التونسيون بتقديم يد العون لهم وهو ما سجّلته حتى المصادر الموريسكية في حدّ ذاتها "الولي الشهير سيدي أبو الغيث القشّاش يعطيهم كل يوم نحو ألف وخمسمائة فرصة من الخبز صدقة"، ينظر محمد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب، مرجع سابق، ص 156.

³ ابن أبي دينار، المؤنس، المصدر السابق، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط3، (1387هـ-1966م)، ص 204.

⁴ ولد بمدينة طليطلة بالأندلس وعاش في مدينة تستور(تونس)، في الثلث الأول من القرن 17م، وتوفي بعد 1640م، وقد كتب ما يُشبه سيرة ذاتية عبّر فيها عن مشاعر المضحّي بوطنه في سبيل دينه، ووصف حال المسلمين المضطهدين المهجّرين من بلادهم الأندلس وجوئهم إلى سواحل بلاد المغرب وغيرها من بلاد المسلمين. ينظر: أحمد الحمروني، ص 21.

⁵ أحمد الحمروني، المرجع السابق، ص 15.

في أواسط القرن السابع عشر ، وكان رجلا تقيا نقيا ورعا اشتهر بين التونسيين بزهده وتصوّفه¹ ، ومنهم كذلك "شعبان الأندلسي" الذي كان أوّل مدرّس بالمدرسة الأندلسية ، والشيخ مصطفى (شيخ الأندلس) والذي كان من بين أعيان علماء الأندلس والذين حضروا عقد الصلح بين يوسف داي وعسكر الجزائريين في (1037هـ/1628م) بعد وقعة السطّارة² ، وحيدة الهزمير خطيب جامع زغوان ومدّرّسها ، ومحمّد القلشاني الواعظ بجامع الزيتونة ، ومحمّد الحجيج الذي كان يوصف بأنّه غزير العلم واسع المعرفة بالعلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث وكلام وأصول وفرائض وغيرها وحتى الطبّ والحساب ، ومحمّد بن سليمان الأندلسي الذي كان يحدّث بالبخاري ، وسليمان الكفيف ومحمّد الحجّام وإبراهيم السرقسطي ومحمّودة الريكلي ومحمّد بن مصطفى الأندلسي³ .

ولا نبالغ إذا قلنا أنّ التأثير الأندلسي أبلغ وأوضح في الميدان الفكري عنه في الميدان السياسي بحيث أنّ المدّ الحضاري الأندلسي كان من القوّة حتى أنّه أدخل من التغيير على الساحة الفكرية على حساب غيرها من الميادين الأخرى بتونس ، ويظهر ذلك في انتعاش الفكر والثقافة وبداية بروز علماء وقُضاة بعد خمول وخمود وجمود مسّ هذا الجانب ،

-الاهتمام بنشر المذهب الحنفي: ظهر اهتمام بعض زعماء السلطة الجديدة والمقصود بهم العثمانيون ، ببروز رموز جديدة والمتمثلة في فئة مثقفة ثقافة حنفية لتعيد للفكر وللعلم نشاطه في البلاد مع "سنان باشا"⁴ ، ورغم محدودية نتائجها بسبب ضعف المستوى العلمي لهذه الفئة التي كانت تطغى عليها النزعة العسكرية بالإضافة إلى عدم وجود مراكز لتدريس المذهب الحنفي ، كانت هذه المحاولة الأولى ، لتتجدّد المحاولات بمجيء "عثمان داي" ، - من بعده - وتضمن حظاً أوفر للدوام ، ذلك أنّ مستوى الوافدين من

¹ أحمد عبد السلام ، المرجع السابق ، ص39.

² كانت الواقعة العظمى بين عسكر الجزائر وعسكر تونس ، ومات فيها خلق كثير ، وكانت في شهر رمضان ، وتدخّل العلماء بهدف الصلح أمثال الشيخ الغرياني والشيخ مصطفى شيخ الأندلس وغيرهم وتم ذلك ، ينظر المؤنّس ، مصدر سابق ، ص208.

³ هو ليس محمّد بن مصطفى الوزير السراج الأندلسي صاحب كتاب "الحلل السندسية" .

⁴ هو خوجة سنان باشا صدر أعظم ، وهو أحد وزراء السلطان سليم الأول بن سليمان ، انتصر في بلاد الشام واليمن ومصر وتونس وحارب المجر تويّ سنة 1596م.

العلماء كان أرفع ، كما أن السلطة العثمانية عملت على توفير المراكز والمؤسسات لذلك¹ ، وأوقفت عليها الدكاكين وغيرها لضمان النفقة على الأئمة والأساتذة والطلبة على السواء لنشر وتدريس المذهب الجديد فخصّصت له في هذه المباني المستحدثة حصص متعدّدة ، وعلى سبيل المثال "أحمد الشريف" الذي تولّى بعد ذلك الإفتاء على مذهب "أبي حنيفة" قد بدأ تعليمه بقراءة كتاب الفقه الحنفي المعروف "درر الأحكام" وهو شرح "غرر الأحكام"² ، والذي بقي أكثر الكتب استعمالاً في دروس الفقه بمدرسة يوسف داي وغيرها من معاهد التعليم بتونس³ ، ويظهر أنّ المقصد الأصلي من إقامة هذه المعاهد التعليمية هو رغبة أولي الأمر - من العثمانيين - في إعداد فئة صالحة من الشباب للقيام بمهام الدواوين الإدارية ومصالح الحكومة ثمّ أنهم أقاموا هذه المدارس والمعاهد في العاصمة وفي كبرى المدائن التونسية⁴ ، كما جرّ الاهتمام بشؤون القضاء إلى العناية بكتب الفقه المالكي ودراستها ذلك أن التونسيين في معظمهم بقوا على مذهب الإمام "مالك بن أنس" ، وكانت قضاياهم تجري على مذهب المالكية لذا فإنّ كثير من الوظائف الشرعية مخصّص للفقهاء المنتسبين لهذا المذهب ومن جملتها غالب مناصب الإفتاء ومنصب نائب القاضي في العاصمة ، وغالب مناصب قضاة المدن في الإيالة التونسية⁵ .

– اهتمام البايات بالثقافة: إن سلطة البايات في تونس وتوسّع نفوذهم عملوا على توفير الأمن واستخلاص الجباية داخل الإيالة التونسية ، كما عملوا على تشييد وبناء الجوامع واهتموا بالمذهبيين المالكي والحنفي على السواء فاستفادت بذلك عدّة مدن في الإيالة فهذا حمّودة باشا المرادي⁶ شيّد

¹ دلندة الأرقش ، جدلية التجديد والتواصل في الحياة الفكرية بإيالة تونس ، المرجع السابق ، ص 88 .

² كلا المؤلفين للمولى وقيل الملا " خسرو التركي" قاضي القضاة وشيخ الإسلام قيل أنه من أصل رومي فقيه حنفي من الكبار نال شهرة واسعة بمهذين المؤلفين وهما في أصول العبادات ، كما له أيضا " مرعاة الوصول في علم الأصول " ، توفّي في اسطنبول سنة 885 هـ / 1480 م .

³ أحمد سالم ، المرجع السابق ، ص ص 35،36 .

⁴ حسن حسني عبد الوهّاب ، كتاب العمر في المصتفات والمؤلفين التونسيين ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 بيروت ، 1990 ، ج1 ، ص 43 .

⁵ أحمد سالم ، نفسه ، ص 37 .

⁶ هو ابن مراد الأول واسمه الأصلي مُجَدّ وكنيته " أبو عبد الله " ولفظ حمّودة تصغير في مقام تلطيف لاسم محمّد ... ينظر: محمّد بن بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس ، تق ، وتح ، حمّادي الساحلي و الجيلالي بن الحاج يحي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت ، 1986 ، ص 50 .

جامعه المعروف به، وأما مراد الثاني¹ فقد بنى مسجدا بمدينة قابس وآخر بمدينة باجة الذي أصبح مركزا لتدريس الفقه الحنفي، ومدرسة بها بيوت للقاطنين وأوقفت لها حوانيت وأوقافا أخرى في مدينة تونس سمّاها باسمه²، ويتّضح مما سبق أنّ البايات المراديين لم يهتموا بالعاصمة فقط بل اهتموا بمدن أخرى وذلك لأسباب مختلفة³، هذه العناية التي أبدتها البايات من بني مراد قد أعادت الازدهار لعدّة مدن وأصبحت مراكز للإشعاع الثقافي والعلمي، وقد أثر بناء المساجد والمدارس أو ترميمها بصورة خاصة في إنعاش التعليم الذي ظهرت آثاره بصورة أوضح في أول الدولة الحسينية، كما كانت القيروان⁴ في القرن 17م تضمّ أسرا من رجال الدين والعلم والعلم⁵ وكانت الدروس تُلقَى في جامع عقبة⁶، كما كانت تقام حلّقا أخرى في مساجد المدينة أيضا وبالمدرسة وبالمدرسة كذلك التي أنشأها حمودة باشا بجانب ضريح "أبي زمعة البلوي" رحمته الله⁷، كما أصبحت مدينة جربة⁸ مركزا للتعليم ونشر المذهب المالكي بفضل مجهودات الشيخ إبراهيم الجميني⁹، والتي قد بقي فيها خلال ذلك

¹ هو مراد باي أبو النصر، كانت مدّة حكمه ما بين (1076هـ - 1665 م / 1086هـ - 1675م)، كثرت في عهده الفتن، ينظر المؤنّس، المصدر السابق، ص ص 242، 248.

² شُيّدت المدرسة عند باب الربع بمدينة تونس، وأشتهرت باسم "المرادية"، وسمّاها البعض مدرسة "التوبة"، لأنها كانت في الأصل مسكنا للجنود، ويقع فيها الفجور.

³ أحمد سالم، المرجع السابق، ص ص 43، 44.

⁴ مدينة القيروان: مدينة أنشأها عقبة بن نافع سنة 675 م/ 56 هـ، كما اتخذها الأغلبة (800م / 910م)، والفاطميون إلى جانب المهديّة المهديّة عاصمة لهم، مشهورة بمسجدها، كانت دارا للصناعة وسوقا للتجارة، فهي ملتقى القوافل التجارية بين مصر والمغرب و تنمبكتو (مالي)، وقّع هدمها عدّة مرّات وقام بإصلاحها على أحسن وجه "الباي حسين بن علي" (1117هـ - 1153هـ / 1705م - 1740م)، الذي قام بتعميرها وإحياء معالمها ثمّ تعرّضت بعدها للهدم في عهد الباشا علي باي، ليأتي أبو عبد الله محمّد باي بن حسين بن علي ليصلح أمور المدينة وأقام سورها ورّم معالمها.

⁵ مثل أسرة "آل عظوم" و "آل الصّدّام" و "آل الزواي" و "آل العواني الأشراف".

⁶ هو عقبة بن نافع الفهري مؤسس مدينة القيروان ومن كبار قادة المسلمين وهو ابن أخت عمرو بن العاص، و من الفاتحين المسلمين لبلاد المغرب استشهد في منطقة "تهودة" بمنطقة الزاب - بسكرة - (63هـ / 683م)، ومازال ضريحه في المنطقة إلى اليوم.

⁷ أبو زمعة البلوي: هو أبو زمعة عبيد بن أرقم البلوي، نسبة إلى قبيلة "بلى" من قضاة، وقيل عبد الله بن آدم وقيل مسعود بن الأسود، من الصحابة الذين كانوا مع جيش المسلمين في فتح بلاد المغرب، وكان من الصحابة الأوائل الذين حضروا بيعة الرضوان مع الرسول. صل الله عليه وسلم - مات بالقيروان ودُفن بها، والمقبرة تعرف به إلى اليوم "مقبرة البلوية" ويُقال أنّ من كراماته قد تمّ دفن بعض من شعرات الرسول. صل الله عليه وسلم - معه.

⁸ جربة: جزيرة تونسية في خليج قابس حدثت على سواحلها معركة بين الأسطول الإسباني والأسطول العثماني أدّت إلى سحق الأسطول الإسباني وكان ذلك سنة 1590م واستسلام الحملة البحرية.

⁹ الشيخ إبراهيم الجميني: إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي بكر ..، واشتهر ب "الجميني" نسبة إلى "جمنة" قرية بجبهة نفاوة بالجنوب التونسي ولد سنة 1038 هـ / 1626م، وانتقل في صغره إلى القيروان لطلب العلم، ثم إلى مصر ودرس بالأزهر، وذكره الورتيلاني في رحلته، وبعد استقراره في جزيرة "جربة" باشر التعليم بها والتدريس مقاوما المذهب الإباضي المنتشر في الجزيرة فقلّد على يديه نصف سكان الجزيرة المذهب المالكي، توفي في 05 ربيع الأول 1134هـ / 1722م.

العهد بقايا المذهب الإباضي¹. يتّضح مما سبق التباين الواضح للحياة الثقافية في الإيالة التونسية ما بين ما كانت تعيشه في أواخر العهد الحفصي وحتى النصف الأول من القرن السابع عشر وما عرفته من نُقْلة نوعية في النصف الثاني من نفس القرن أي -17م، فقد أصبح العلماء،² أكثر عددا سواء في العاصمة العاصمة - مدينة تونس - وغيرها من المدن في الإيالة التونسية، كما أن تشجيع الحكام للعلم وأهله بدا جلياً تأثيره الواسع، ورغم أن الجهل كان مسيطراً على عدد كبير من الرعيّة إلا أن حبّ العلم لذاته لم يكن مفقوداً³، وأنّ الاحترام للعلماء الذي كان ضرباً من التقديس تخالطه نزعة من التبرّك بهم والخوف من غضبهم ودعائهم أصبح خلال هذه المرحلة احتراماً حقيقياً للعلم والمعرفة والموهبة وأهلها، وتاقت النفوس لمعرفة أخبار الأولين وطبائع الأمم والملوك وأخلاقهم والاطّلاع على كتب السير والتراجم والتاريخ، ولا يمكن أن نغفل عن الصلات الحضارية بين تونس وباقي جهات العالم الإسلامي، ومنها الدولة العثمانية ومع المغرب والجزائر ودول المشرق وخاصة مصر وبلاد الحجاز من جهة أخرى، لكن رغم جميع هذه المؤثرات بقيت الثقافة التونسية في القرن السابع عشر متأثرة بالماضي مستمدة مقوماتها مما ورثته عن إفريقية الحفصية⁴، إذن يبدو أنّ الحياة الثقافية قد انتعشت وخرجت شيئاً فشيئاً من حالة الجمود والركود التي أدّت بها الأزمة التي عرفتها تونس خلال القرن السادس عشر فنشطت الدراسات وكثرت المؤلفات الدينية في مختلف المدن التونسية مثل: القيروان و صفاقس⁵، جربة.. وغيرها وازداد عدد العلماء من مالكية، أو حتّى من العلماء الحنفيين الوافدين مع رجال السلطة، إلا أن هذه اليقظة العلمية

¹ أحمد عبد السلام، نفسه، ص ص45، 49.

² من أهم وأشهر العلماء الذين يمكن ذكرهم وكان لهم شأن عظيم خلال هذه المرحلة الأخيرة من القرن 17م الشيخ علي النوري وهو علي بن سالم بن محمّد بن أحمد ابن سعيد النّوري، ولد في مدينة صفاقس خلال 1053 هـ / 1643 م، تعلم في تونس ومن أشهر شيوخه عاشور القسنطيني، برع في علوم القرآن والفقه، كان له دور علمي و جهادي فحث الناس على الجهاد وإنشاء السفن وتجهيزها لمحاربة نصارى مالطا وقرصانها، وقد جرّ عليه عمله هذا المحن والآلام فقد تمّت الوشاية به فناله العسف ممّا أدى به إلى الاختفاء، توفي في 12 ربيع 1118 هـ / في جوان 1706 م، من أهم مؤلفاته " غيث النفع في القراءات السبع "، ينظر كتاب العمر، مرجع سابق، ص ص 179، 180.

³ ويظهر هذا التعلّق وكذا حب العلم وأهله في المجالس التي كانت تُعقد لقراءة كتب الحديث وإحاطتها بمالهة من الاحترام والتقدير والتعظيم يقول ابن دينار في المؤنس: " ولحتم جامع البخاري في القيروان بلدنا شأن عظيم ومشهد كريم، ومن تعظيمهم له وإجلالهم إياه أنهم يشتغلون به عن أهم شيء من جميع شغائهم ويغلقون حوانيتهم....". يُنظر المؤنس، المصدر السابق، ص318.

⁴ أحمد عبد السلام، نفسه، ص ص55، 61.

⁵ صفاقس: مدينة وميناء على البحر المتوسط، قال عنها الرحالة "جون أندريه بيسونال" في كتابه "الرحلة إلى تونس" 1724 ما يلي: "إن صفاقس مدينة صغيرة تقع عند بداية خليج الجرابة - أي خليج قابس -، المسمّى في الماضي سيرت الصغرى، وهي محاطة بأسوار قليلة الارتفاع وهي ليست قديمة وليس لها ما يميزها، ويوجد بها ميناء هام نسبياً. ينظر: الرحلة إلى تونس (1724م)، جون اندريه بيسونال، ترجمة وتحقيق، مجّد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003م، ص 76.

لا تعدو عن كونها نقل وتكرار ما جاء به الأوّلون فلا هي محدّدة طرقها ولا موسّعة لميادين اهتماماتها مقتصرة عن العلوم الدينية خاصة.¹

2 - دور الأسرة الحسينية في العناية بالمراكز والحواضر الثقافية:

إنّ التغيّر في المشهد السياسي الذي عرفته تونس مطلع القرن الثامن عشر وذلك بمجيء الأسرة الحسينية² على هرم السلطة بما كان له الأثر الواضح على الحياة الفكرية والثقافية في الإيالة فقاموا بإنشاء المباني الجديدة أو رّموا الموجود منها سواءً لإقامة الشعائر الدينية أو للتعليم ، فهذا مؤسس الدولة "الحسين بن علي"³ نجده قد أعاد للقيروان معالمها التي هُدمت وأعاد النشاط في زواياها ، كما أنشأ بها زاوية جديدة في عام 1720م - 1721م/1133هـ، وزوايا أخرى في كل من صفاقس وسوسة⁴ وأضاف لها مدرسة ونسبهما إلى الولي الصالح عبد القادر الجيلي، وحتى العاصمة حيث أقام بها مدرسة " الحسينية " أو ما تعرف بمدرسة "النخلة" ليست ببعيدة عن جامع الزيتونة الذي أوقف له عدّة أوقاف لمشايخه وطلبة العلم به، ومن ذلك ما يجمعه من جزيرة على أهل الذمّة وجزءاً من الغنائم البحرية، كما أوقف كتب الحديث والفقّه والكتب الدينية الأخرى، وكان يجتمع بالعلماء في مسامراته للبحث معهم في

¹ محمّد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمّد الشاوش، ومحمّد عجينة ، دار سراس للنشر ، ط3، تونس، ص76.

² تُنسب إلى مؤسسها الحسين بن علي الذي حكم ما بين (15 جويلية 1705م، و07 سبتمبر 1735م) ، واستمر حكم هذه الأسرة الحسينية ما يزيد عن قرنين ونصف القرن أي ما بين (1705 م - إلى 1957) أي حتى إعلان الجمهورية ، ومن أشهر حكّامها المؤسس ، إضافة إلى "محمّد الرشيد باي" (1756م-1759م) ، و "حسين باي الثاني" (1824م-1835 م) ، و " محمّد الأمين باي (1934م-1957 م) .

³ هو الحسين بن علي المولود سنة 1086 هـ / 1675م، والده قديم من جزيرة كريت (اليونان) متطوعاً للخدمة العسكرية في الدولة المرادية وحذا حذوه ابنه في خدمة الدولة، وأخذ يرتقي في سلّمها شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح مؤسس العهد الحسيني بمبايعته للحكم في جويلية 1705م - كما سبق ذكره . من مآثر هذا الباي أنّه تجنّب الحرب مع الجزائر وحافظ على السلم خاصة مع الإيالة الجزائرية ، واهتمّ ببلاده اهتماماً كبيراً وأعطى العمران حقّه فأعاد بناء القيروان التي خرّبها مراد بوبالة آخر البايات المراديين (1699م-1702م، كما أقرّ الحسين بن علي الأمن والعدل فازدهرت في عهده الفلاحة والصناعة وخفّف من عبء الضرائب وحارب التبذير والإسراف فحقّق الكثير من الرخاء والازدهار الاقتصادي ، كانت عدّة دول أوروبية في عهده تدفع جزية سنوية لتونس مقابل السماح لها بممارسة النشاط التجاري ، كما تمتّعت تونس خلال هذه المرحلة بنوع من الاستقلال، وقد حكم تونس ما بين (1705م - 1735 م)، وتوفّي سنة 1740م .

⁴ سوسة: مدينة تونسية مرفأً على المتوسط أسّسها الفينيقيون نحو القرن 09 ق. م ، قال عنها حسن الوزان : " مدينة كبيرة عتيقة.... تحيط بالمدينة أسوار جميلة... والمدينة نفسها أنيقة وموقعها حسن...وأهل سوسة مهذبون آدميون يتقبلون الغريب بحفاوة... " ينظر حسن الوزان، وصف أفريقيا، المصدر السابق ، ص 83.

مسائل علمية وفقهية وغيرها¹، ويبدو أن من خلفه في الحكم وهو منافسه "علي باشا"² شارك هو الآخر في تنشيط الحركة الفكرية، فقد كان له اشتغال بالأدب والعربية حيث صنّف "شرح التسهيل لابن مالك" في النحو³، وخلال مرحلة حكمه كان مولعاً بجمع المخطوطات وأنفق الأموال بهدف اقتنائها، ومنها "تاريخ ابن خلدون"⁴، كما شيّد أربعة مدارس تعليمية ثلاث منها مالكية مثل "السليمانية" والرابعة حنفية وهي "الباشية" وأوقف عليها الأملاك والكتب ومنها "تفسير الكشاف" للإمام الزمخشري⁵، كما كان يجالس العلماء والشعراء⁶.

لقد كانت العلاقات السياسية بين الإيالتين "الجزائر وتونس" بين مدّ وجزر⁷ بسبب عدم الاستقرار في هذه الأخيرة "تونس" والصراع بين أبناء العمومة في الأسرة الحسينية على الحكم، وبعد تقلد محمّد بن حسين باياً على تونس وهو الملقّب بالرشيد لاشتهاره بالأدب وقرضه للشعر⁸، وقد كانت فترة حكمه قصيرة (1756 م/ 1169 هـ - 1759 م/ 1172 هـ) استكفى بأخيه في تدبير شؤون الحكم بسبب مرضه فقرب إليه الشعراء والأدباء كما نال العلماء منه كل الحظوة والاحترام⁹.

¹ أحمد سالم، المرجع السابق، ص 65، 67.

² علي باشا: هو علي بن محمّد تركي (أبو الحسن)، ثار على عمّه (الباي حسين بن علي) واستعان بداي الجزائر في ذلك الوقت "إبراهيم خوجة"، وقاتل عمه حتى انتصر عليه، واعتلى على العرش الحسيني في تونس والتي حكمها ما بين (1740م - 1756م).

³ خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 2002، ج5، ص15.

⁴ تاريخ ابن خلدون (1332م - 1406م) المعروف وهو "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر"

⁵ الزمخشري: محمود بن عمر أبو القاسم إمام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير، له "أطواق الذهب" و"أساس البلاغة" ومن أشهر آثاره تفسير "الكشاف عن حقائق التنزيل"، توفي سنة 538 هـ / 1144م.

⁶ أحمد سالم، المرجع نفسه، ص 68.

⁷ للمزيد حول العلاقات السياسية بين الإيالتين ينظر كل من: حصام صورية، العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، إشراف الدكتور عبد المجيد بن نعيمة، جامعة وهران، (2012 - 2013م)، وأيضاً: كوثر العايب، العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات 1830.1711م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، إشراف الدكتور محمّد السعيد عقيب، جامعة الوادي (2013 - 2014م)، وكذلك: عمار بن خروف، "علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات (1671 - 1830م)"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، العدد العاشر، 1977م.

⁸ أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 177.

⁹ أحمد سالم، المرجع نفسه، ص 69.

عمل البايات الحسينيون بعد محمد باي بن حسين أيضا بنفس السياسة الثقافية التي سار عليها وأسلافه من الأسرة الحسينية لكنها لا ترقى إلى ما قاموا به هم أنفسهم، رغم أنهم لازموا احترام العلماء ورجال الدين وطلبة العلم، وتمكينهم من الحياة الكريمة بتخصيصهم وظائف هامة وبمراعاة حُرمة الأوقاف التي كانت عائداتها مخصصة لهم :

أ-عهد علي بن الحسن: فهو الباي الرابع من هذه الأسرة قد أمر ببناء مدرسة هي " المدرسة الحسينية الكبرى"¹، كما أعاد ترتيب المدرستين "الجاسوسية"² وكذلك المدرسة " التوفيقية"³، وأوقف على هذه المدارس الأوقاف وأجرى عليها مرتبات لصالح المشايخ والطلبة بها من المذهبين المالكي والحنفي، وذلك حسب ما يوافق حاجات أهل البلد من المذهبين، وتُلقي بهذه المدارس دروسا في الفقه على المذهبين المالكي والحنفي وفي الحديث "قراءة وشرح صحيح البخاري"، وفي علم الفرائض، وكذا اللغة والأصول وعلم الكلام والمنطق، إضافة إلى علم التجويد وقراءة القرآن الكريم وهو أشد ما اهتم به أيضا المشايخ وطلبة العلم في جامع الزيتونة فأجزل لهم العطاء من مال الجزية والأوقاف وشملت هذه الإجراءات والمنافع مختلف المدن في الإيالة التونسية مثل القيروان، سوسة، صفاقس، المنستير⁴ ومدن باجة⁵ والكاف⁶ وقفصة⁷، وقد سجّل الورتيلاني هذا كله بإعجاب في رحلته بقوله: "إنّ سلاطين

¹ سُميت بهذا الاسم لتميزها عن المدرسة الحسينية الصغرى التي بناها والده.

² الجاسوسية : هي مدرسة من مدارس مدينة تونس، تقع تجاه الولي سيدي أبي الغيث القشاش و سُميت كذلك نسبة إلى الشيخ الولي الصالح أبي أبي عبد الله الجاسوس، كانت تسمى بالمدرسة الداسوسية لأن كلمة جاسوس بالعامة التونسية تُقال 'داسوس' و قد ذُكر هذا الاسم لأول مرة سنة 1293 هجري الموافق ل 1876 م ، في النزهة الخيرية. يُقال أنّ علي باي الثاني قد خصص لها أوقافا تتمثل في ثمانية ذكاكين بسوق العزافين. أو العسافين .

³ التوفيقية : تعود هذه المدرسة للعهد الحفصي ، وقد أمرت بيناتها امرأة هي أم الأمير الحفصي " ابن زكريا بن أبي محمد عبد الواحد حفيد مؤسس الأسرة الحفصية (647 هـ / 675 هـ) واسمها " عطف " كما أمرت ببناء جامع التوفيق .

⁴ المنستير : مدينة تونسية تابعة إداريا لولاية "سوسة"، قال عنها "جون أندريه بيسونال" في كتابه " الرحلة إلى تونس 1724م" ما يلي : " إن المنستير مدينة صغيرة محاطة بأسوار بما بعض الأبراج المربعة .. ولا توجد علامة على أن هذه المدينة قديمة .. إن ريف المنستير جميل جدًا به الكثير من الزياتين والكروم والتين والتخيل " أنظر كتاب الرحلة إلى تونس 1724 م ، المصدر السابق ، ص74.

⁵ باجة :مدينة تونسية مركز ولاية باجة تقوم على أنقاض مدينة " فيغا" الواقعة في الشمال التونسي بين حوض مجردة وجبال خمير خضعت للرومان بعد نهاية الحرب البونية الثانية، كما تعرضت للتخريب من طرف الوندال، ثم استولى عليها البيزنطيون وعملوا على تحصينها، وفتحها المسلمون في أيام زهير بن قيس البلوي .

⁶ الكاف : مدينة تونسية مركز ولاية الكاف أسسها الفينيقيون وكانت تُعرف ب " سيكا"، ثم أصبحت مستعمرة رومانية ومدينة الكاف قال عنها بيسونال أيضا : " وهي إحدى مفاتيح هذه المملكة مكونة الحدود الفاصلة مع مملكة الجزائر، وأقيمت المدينة على سفح جبل ...وبها عين مياه عذبة جميلة وهامة تنبع من وسط المدينة وتسقي الجنان" ينظر الرحلة إلى تونس 1724م ، مصدر سابق، ص83 .

⁷ قفصة : مدينة تونسية في الجنوب، مركز ولاية قفصة .

تونس وأمرائها وأصحاب الدولة فيها صرفوا همهم إلى العلم وأقاموا منابر عزّه فبنوا المدارس وأوقفوا الأعباس واعزّوا العلماء وأغنوا للدرس الجلاس وأسهموا كلا على قدر همته واشتغاله فإذا كان كل شيء على أصله وفصله ومنواله فمن لم يصبه منهم كثير وصل إليه نزر قليل لمثل العلم فيعمل العاملون¹. وإذا كان حديثنا عن الحياة الثقافية - خلال هذه الفترة - فإنه يمكن تسجيل ملاحظة وهو أن بعض طلبة العلم من أهل المدن الأخرى ومنها صفاقس كانوا يسافرون نحو القاهرة وغيرها لطلب العلم بسبب تراجع واختلال أحوال العلم والتعليم جرّاء تأثير بعض الاضطرابات الداخلية أو نمو التعليم في العاصمة تونس وقد دوّن الورتيلاني ملاحظته هذه أيضا في قوله: "فمررنا عليها ذاهبين إلى مدينة صفاقس فنزلناها بعد الزوال... وهي مدينة قديمة طيبة عليها سور جيّد وفيها مسجد عظيم يجتمع فيه القراء والعلماء للتدريس، وقد باحثت البعض في علم الكلام لأني وجدته مدرّسا فيه فلم يستطيع فهم الإشكال فضلا عن الجواب لضعف ملكته، ثم انتقلت إلى مجلس آخر في الفقه غير أن صاحبه منصف فاقر بالعجز والتقصير... ثم انتقلت إلى مجلس آخر في النحو غير أنه تأدّب معي وهو يقرأ ويسأل ويسمع منّي وينقل إلى أن شاع أمرى ذلك اليوم في مدينة صفاقس فصار الطلبة يخرجون إلى الخيمة يقصدون الاستفادة في العلم والاختبار على حسب قصد كل واحد ولكل امرئ ما نوى"². غير أن هذا الأمر لم يدم طويلا فتغيّرت الأحوال وتطوّرت وذلك بعد الاستقرار الذي عرفته الايالة فقلّت الهجرة نحو مصر وغيرها لطلب العلم، وأصبحت مدينة تونس مقصدا لطلبة العلم والعلماء تستهوي الجميع للتعليم أو التعلّم على حدّ سواء، ويعود فضل ذلك إلى ما بذله البايات الذين حكموا تونس في آخر القرن الثامن عشر الميلادي وأوائل القرن التاسع عشر لفائدة التعليم وأهله وكذا لطلبة التعليم.

ب- عهد حمودة باشا: فهذا الباي "حمودة باشا"³، الباي الحسيني كانت مآثره عديدة أقل من أن

¹ الحسين بن محمد الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المعروفة ب "الرحلة الورتيلانية"، مطبعة فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908، ج2، ص662.

² نفسه، ص 656.

³ الباي حمودة باشا: هو أبو محمد حمودة بن علي بن حسين بن علي ولد في (1 ربيع الثاني 1173 هـ / 08 ديسمبر 1759م) أمّه جارية واسمها محبوبة اعتنى به والده بتربيته وتعليمه وتعلم القرآن والفقه والحساب والنحو والتاريخ، كما تعلّم التركية، تمّت مبايعته بعد وفاة والده في 18 جمادى الثانية 1196 هـ الموافق 31 ماي 1782 م، تميّز بمخاض حميدة جعلت منه شخص يُفتخر به، وقع في عهده الوباء والقحط والكوارث الطبيعية خاصة سنتي 1803م و1804م، وكانت له مآثر عدّة فكان حازما في حكمه عمل لصالح البلاد والعباد قام بعدة إصلاحات اقتصادية وغيرها، وتوفي في رمضان 1229 هـ الموافق 16 سبتمبر 1813م، ودامت فترة حكمه ما بين (1813/1782 م)، للمزيد يُنظر، الإتحاف لابن أبي الضياف، ج 2 ص ص 11، 88.

تُخصي، فمن مآثره احترام الأوقاف لاسيما أوقاف الحرمين ، وتعظيم الشريعة والوقوف عند حدودها ، كما أنه حكّم المذهب المالكي في ثبوت أهلة الشهور، كما تولّى بنفسه تعيين أهل القضاء والإفتاء وأئمة الجوامع الكبيرة كجامع الزيتونة، ومن ذلك أنه بعد وفاة الشيخ الإمام علي البكري في 01 جمادى الأولى 1227هـ /22ماي 1812م، وترك ابنه أبا الغيث صغيرا لا يُحسّن قراءة ولا معرفة بفرائض الصلاة - وقد بقيت الإمامة في البيت البكري أكثر من مائة سنة واستمرت الإمامة في بيتهم غير معتبر فيها إلا هذا النسب - فقال الباي: "لا تبقى إمامة جامعنا الأعظم ملعبة بين الجهّال والأطفال وأقدم من لا يتكلّم في تقديمه مسلم، وهو شيخ الشيخ... أبو محمّد حسن ابن الإمام الشيخ عبد الكبير الشريف"¹. كما عهد إلى وزيره الشهير يوسف² صاحب الطابع في الاهتمام بشؤون التعليم وكذا المرتبات التي تُدفع للأئمة والشيخ والمؤدبين والنفقات التي تُنفق على المساجد ومشاريع البر³، لذا يعتبر الباي "حمودة باشا" من البايات الحسينيين الأوائل الذين حاولوا النهوض بإيالة تونس وكان ذلك من خلال إصلاحاته التي مسّت مختلف المجالات وقد أولى العناية الفائقة بالجانب الثقافي، وعلى عكس هذا الباي فإن الوضع الثقافي قد بدأ في التراجع في عهد عثمان باي⁴ غير أنّه من حُسن الحظّ لم يدم حكمه إلا عاما واحدا، وربّما يعود ذلك لعدم قدرته على التحكّم في الأمور نظرا لضعفه واستبداد أعوانه ومستشاريه ووضع حُجابا بينه وبين الناس لضعف إدراكه⁵، وخلفه ابن عمه محمود باي⁶، الذي أشرك ابنه في أمور الحكم نظرا لكبر سنّه والهدف من ذلك اكتساب الخبرة.

¹ ابن أبي الضياف ، المصدر السابق ، ج2، ص 57.

² الوزير يوسف: هو يوسف خوجة أبو المحاسن وزير تونسي من المماليك أصله من منطقة البغدان ، خدم الباي حمودة باشا كما كان أمين سرّه ، كانت له تجارة كبيرة أنفقها في فعل الخير، ومنها الجوامع والمساجد، من أشهرها جامع في بطحاء الحلفاوين بتونس، وحصن باب الخضرة، وأوقاف على مستشفى مدينة صفاقس، وتوفي مقتولا غدرا في ليلة الاثنين 11 من صفر 1230هـ /23جانفي 1815م.

³ أحمد عبد السلام ، المؤرخون ، المرجع السابق ، ص 76.

⁴ هو أبو النور عثمان بن علي بن حسين ولد في (14 ذو القعدة 1176هـ/27ماي 1763م)، وأمه جارية ونشأ في حجر أبيه، ثمّ رباه أخوه حمودة باشا، تمّت مبايعته بعد وفاة أخيه حمودة باشا، وكان ذلك في سبتمبر 1813م ، وكان أوّل من بايعه الوزير يوسف صاحب الطابع ، وعمره 52 سنة لكنه لم يكن حازما مثل أخيه فاستبدّ به أعوانه، وأشرفت الدولة على الانحلال لئتم بعد ذلك خلعه ، ولم يدم حكمه إلا فترة قليلة. وتوفي مقتولا في 21ديسمبر 1814م.

⁵ حفيظة بوتوقوماس، الحياة الاجتماعية في تونس خلال العهد الحسيني (1705م - 1835) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف د. أرزقي شويتام، جامعة الجزائر2، (2010 - 2011) ، ص 207.

⁶ هو أبو التناء محمود بن محمّد باي، وهو الباي السابع ولد سنة 1757م، وبويع في أواخر ديسمبر 1814م، ودام حكمه عشر سنوات ، وتوفي في مارس 1824م.

ج-عهد محمود باي: وهذا الباي وحتى ابناه اللذان خلفاه¹ لم يذكر لهم في ميدان إنشاء المباني لفائدة العلم والدّين سوى الزاوية التي بناها حسين باي بن محمود في ربض (حول) باب الجزيرة وجعلها مقاما للولي سيدي البشير الزواوي الذي كان معتقد عساكر زواوة²، وفي أيام ولاية حسين باي عرفت إيالة الجزائر حدثا خطيرا هو احتلال فرنسا لأراضيها وهو ما جعل الحياة الثقافية في الإيالة التونسية تتأثر بالثقافة الأوربية الوافدة جزئيا لدفعها نحو تفتح أوسع على العالم العصري، وهذا أحمد باي نجح في تحقيق بعض الإصلاحات الثقافية من خلال إصدار أمر بتعيين شيخ إسلام مالكي بجانب شيخ إسلام حنفي الذي كان يتمتع لوحده بهذه الحظوة وساوى في مُرتبّات أعضاء المجلس الشرعي المالكية والحنفية على السواء، وأما في مجال التعليم أصدر هذا الباي عام (1842م/1257هـ) أمرا بضبط عدد المدرّسين ليكون 100 مدرّس في جامع الزيتونة وحدّد مرتباتهم، وجعل مدرّسي الدرجة الأولى وعددهم ثلاثين مدرّسا نصفهم من المالكية والنصف الآخر حنفي، كما أظهر احترامه للمدرّسين ورفع شأنهم من خلال الزيارات المتكررة للجامع وأبرز أهمية العلم وهيبته للطلبة، ومما يُحسب له أيضا عدم إغائه للتعليم في هذا الجامع بعد فتحه للمدرسة الحربية في باردو³ التي كانت تُدرّس فيها العلوم العصرية المعتمدة على برامج ومناهج أوربية حديثة بل عمل على تنظيم وتطوير التعليم فيه وهو المعروف على هذا الباي التآثر والانبهار الشديد بالحضارة الغربية وإتباعه لسياسة الاحتواء للخطر الفرنسي المجاور⁴.

كما أن وزير البايات الثلاثة⁵ الذين تولّوا الحكم قبل الحماية الفرنسية على تونس وهو مصطفى خزنة دار عمل على إنشاء وبناء مدرسة تعليمية ضخمة على أنقاض زاوية صغيرة كان يسكنها شيخ ينسب للصالح وهو الشيخ محمّد بن ملوكة، وهذه الزاوية واقعة في الجنوب الغربي من العاصمة غير أن

¹ هما على التوالي حسين باي المولود سنة 1784م ودامت فترة حكمه ما بين (1824م-1835 م)، ومصطفى باشا المولود سنة 1787م، ودامت فترة حكمه ما بين (1835م-1837 م).

² أحمد عبد السلام، المرجع نفسه، ص 77.

³ المدرسة الحربية باردو: من أهم انجازات أحمد باي في المجال العسكري، كانت تلقن الجنود وضباط الجيش التونسي النظامي الجديد العلوم العسكرية الحديثة على الطريقة الأوربية..

⁴ أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع، ط1، تونس، 1987، ص 68، وفي هذا الصدد ينظر الإتحاف لابن أبي الضياف، المجلّد الثاني، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص ص 65،67.

⁵ البايات الثلاث هم على التوالي: أحمد باشا حكم ما بين (1837م-1855م)، ومحمّد باشا بن حسين (1855م-1859 م)، ومحمّد الصادق باي (1859-1882م).

المدرسة لم يكتمل بناؤها بسبب وفاة الشيخ وتطيّر الوزير من ذلك¹، إن مساندة البايات الحسينيين للثقافة كانت متواصلة وإن كانت محدودة وقد كان النشاط الثقافي على غرار الواقع الاجتماعي الذي ظهر فيه أو المؤثرات الداخلية والخارجية لهذا الواقع على السواء.

3- دور العلماء في بعث الحركة الفكرية والعلمية في تونس:

بالإضافة إلى دور حكام الإيالة التونسية في تطوير الحياة الثقافية بها وتنشيطها، فقد عمل العلماء والصلحاء والأولياء وساهموا في ذلك أو حتى في تمثيل الإيالة في الخارج أحسن تمثيل:

أ- التمثيل العلمي الحسن خارج بلادهم: حيث نجد وعلى مرّ الحقبة المدروسة (العهد العثماني) عدّة علماء وفي مختلف المجالات العلمية النقلية منها والعقلية عملوا على نشر هذه العلوم وتلقينها لطلبة العلم أو للهجرة نحو المشرق والمغرب بهدف الاستزادة من العلوم أو حتى نشرها، ففي خلال القرن السادس عشر الميلادي اشتهر أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن الخلوف التونسي (توفي سنة 910 هـ/1504م) الذي اعتبر خاتمة فحول العلماء والأدباء والشعراء في زمانه كما وصفه محمد بن محمد مخلوف في كتابه "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"²، وكان الشيخ أبو عبد الله محمد ماغوش التونسي أعلم أهل تونس بالمعقولات نحوياً حافظاً لصحيح البخاري ولما التحق بإسطنبول وصفه من قرأ عليه بأنه من مفردات الدنيا وبأنه "آية من آيات الله في الفضل والتدقيق والحفظ والتحقيق وبأنه " جبل من جبال العلم " لكنه غادرها بسبب عدم تحمّل البرد وقصد مصر وتوفي بها سنة 1543م/950هـ، وهذا أبو الفضل محمد خروف الذي هاجر نحو المغرب الأقصى ونزل فاس ووصف بأنه شيخ الجماعة بها، وقد دخلها دون كتبه لابتلائه بالأسر في البحر وغرقت كتبه وتوفي بفاس في سنة 1558م/966هـ³، ومنهم كذلك أبو الفضل قاسم ابن عظم القيرواني وهو من بيت أهل علم وفضل، ولد بالقيروان وأخذ عن علمائها، ثم انتقل إلى العاصمة تونس وقد باشر خطة الإفتاء بها، وكان سبب ولايته الفتيان هو أن

¹ أحمد عبد السلام، المؤرخون، نفسه، ص 78.

² محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1 ص 394.

³ أحمد قاسم، إيالة تونس، المصدر السابق، ص 273.

"عثمان داي" طلب منه أن يشهد له في نازلة على غير الوجه الشرعي فامتنع ولما استدعاه الداى لم يتهيب أن وعظه ، ولما رأى مكانته في الدين ولاه الفتيا في ذلك المجلس إلى أن توفي¹ ، وله نوادر تُحكى عنه وبالرغم من كثرة عياله وفقره الشديد فإنه كان لا يتقاضى عن فتاويه إلا قدر ما يكفيه ليومه، له مؤلفات مختلفة منها "برنامج الشوارد" الذي أنهاه في مارس 1576م / صفر 984هـ، ونال به شهرة علمية واسعة واعتمده أهل الفتوى والقضاء من الحنفية والمالكية على السواء في تونس خلال هذه المرحلة، ورسالة أخرى في " المعرفة والتعريف" ولديه رسالة أخرى هي "نعوت المشهود عليه" و "كتاب الأجوبة" ، ويُعتقد أنه توفي خلال 1009هـ، الموافق لشتاء أو ربيع سنة 1601م²، وغيرهم من العلماء والفضلاء خلال هذا القرن.

ب- نشاط العلماء ومكانتهم داخل تونس: كما عرف القرن السابع عشر كوكبة من العلماء الذين كانت لهم إسهامات علمية منهم أبو يحيى الرصاع الذي كان عدلا وفقهيا أصوليا ومفتيا، وهو ابن الوزير المعظم قاسم الرصاع وزير حميدة الحفصي، وقد وُلِّي الإمامة والخطابة في الجامع سنة 1017هـ/1608م في عهد عثمان داي³، وتخرَّج عليه تلامذة اشتهر بعضهم بعده ومنهم أبو الفضل المسراقي كان عالما بالفقه المالكي والحنفي، وقد عُرف عنه ذاكرته القوية جدًّا، فكان يُسأل عن المسألة فيجيب بأنها في الكتاب الفلاني ويحدّد مكانها بالتدقيق سواء في كتب الفقه المالكي أو الحنفي وتولّى الفتوى على مذهب مالك وعُزل عنها مرارا وفي طريقه إلى الحج سُئل عن مسألة حيّرت علماء الأزهر فأجاب عنها بسهولة وقد توفي الشيخ سنة 1085هـ/1675م⁴. ويجدر بنا كذلك أن نذكر الشيخ تاج الدين البكري (كان حينًا سنة 1628م / 1037هـ)، وهو من تلامذة الشيخ أبو يحيى الرصاع ، وكان يقرئ ويشرح أحاديث صحيح البخاري بجامع الزيتونة ويلقي به دروسا أخرى في علوم الدين، وكان مجلسه من أجلّ المجالس

¹ محمد بن عثمان السنوسي :مسامرات الظريف بحسن التعريف ، تحقيق وتعليق ،محمد الشاذلي النيفر ،دار الغرب الإسلامي ،ط1،1994، بيروت لبنان ، ص 155.

² أحمد قاسم : إيالة تونس ، مصدر سابق ، ص ص 38،45.

³ ابن أبي الضياف : الإتحاف ، مصدر سابق ، م 4، ج7، ص 66.

⁴ محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ،ط1، 1985، ج4، ص 324.

ويحضره الأجلاء من أهل العلم ولا يخلو مجلسه من الفوائد المختلفة، وقد جرى بينه وبين صديقه عبد الكريم الفكون القسنطيني مراسلات عدّة¹ وهو من العلماء والصلحاء الذي كان واسع الأملاك والمداخيل ينفق زكاة ما يملك على زاويته كما قويت مكاتته بتزوجه ابنة أبي الغيث القشّاش، وحينما حصل النزاع والتشاجر بين عساكر الإيالتين تونس والجزائر في مسألة الحدّ الفاصل بينهما أوفده داي تونس مع جملة العلماء للسعي في الصلح بين الطرفين فكان الشيخ أحد العاقدين على نص هذا الصلح².

ولعلّ أبرز شاهد على ذلك النفوذ والتأثير للعلماء والصلحاء في مجتمع الإيالة التونسية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر النفوذ الذي تحصّل عليه أبو الغيث القشّاش المعروف بالقشّاش المغربي التونسي قال عنه مُجّد أمين بن فضل الله المحبي الحنفي صاحب كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: " الأستاذ العالم الرحلة الكبير القدر .. كان آية من آيات الله الباهرة... وله الجلالة التي ما زُرّقها أحد .. ومآثره وصفاته الحسنة... أنشأ اثنين وثلاثون موضعا زوايا ومساجد وجوامع ، وبني ما لا يُعدّ من المدارس الرفيعة والقناطر المنيعة... وجمع من نفائس الكتب ما لا يُعدّ ولا يُحصى، ومن جملة ما وُجد في خزانة كتبه ألف نسخة من البخاري... وكان مُفرط السخاء مبدول العطاء وأكثر ما كان يُنفق ماله على أسرى المسلمين .."³، وقد ازدادت شهرته وكثُر عدد مريديه بسبب حمايته للأندلسيين المطرودين في أوائل القرن السابع عشر وبإعانتته لهم على النزول في مختلف جهات الإيالة التونسية وإرشادهم إلى كل ما يفيدهم وفي هذا الصدد يذكر أحمد بن قاسم الحجري وهو من عاصر المرحلة وكتب عنها، وأثنى على جهود هذا العالم والولي بقوله: "...وأكثرهم خرجوا بتونس، وكان عثمان داي أميرا فيها، وتكفل أمورهم بالسكنى في المدينة وغيرها ... وكذلك الولي الشهير سيدي أبو الغيث القشّاش كان

¹ مُجّد محفوظ، مرجع سابق، ج1، ص116.

² حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة وإكمال، مُجّد العروسي المطوي، وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، مج 1، ص 820.

³ مُجّد أمين بن فضل الله المحبي الحنفي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تحقيق مُجّد حسن مُجّد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص 140، 141.

يعطيهم في كل يوم نحو ألف وخمسمائة فُرصة من الخبز صدقة جزأها الله خيرا كثيرا¹. وقال عنه مُجدد بن الحاج الإفرائي: " الفقيه الورع الزاهد أبو الغيث القشاش من أهل تونس أحد الأفراد المشار إليهم بالخصوصية العظمى كان رحمه الله على قدم السلف الصالح منقطعا عن الدنيا مصارما لأبنائها وهو مع ذلك مجيب إلى العامة والخاصة... بنى بتونس مدارس كثيرة لا يقدر على بنائها إلا أكابر الملوك ، وترك زوايا عديدة ، واستخلص من الأسرى من يد العدو الكافر وله في ذلك كرامات ماثورة .."²، وقد تويّ هذا الولي العالم بتونس سنة (1031هـ/1621م) ، بعد أن قدّم لمجتمعه وللإيالة التونسية الكثير، كما اشتهر في هذا القرن السابع عشر كذلك "أحمد الريغي" الذي ولد في مدينة سوسة في (رجب 1048هـ/ديسمبر 1638م)، ورحل إلى مصر بعدما تحصل على علم الفقه والبيان وعلم التفسير والقراءات والتوحيد وغيرها، تصدّر للتدريس في سوسة وغيره استفاد منه كثير من الناس متمسك بالشرعية المحمدية، تقي صوفي مدافع لمنكرات الشرع بيده ولسانه وعند الحكام تتلمذ على شيوخ أجلاء بالأزهر الشريف بمصر منهم مُجدد الخرشبي ويحي الشاوي ثم رجع إلى سوسة وحارب البدع وكسّر آلات الطرب وما أشبهها³.

ج- هجرة العلماء المؤقتة إلى خارج تونس لطلب العلم: ومن العلماء من قضى مدّة كبيرة لأخذ العلم في خارج الإيالة، ورجع أغلبهم للمساهمة في النشاط العلمي في بلادهم، ومنهم:

- **علي بن موسى الأزهري الأندلسي:** فقد قضى ما يزيد عن ثلاثين سنة ينهل من فحول علماء جامع الأزهر في علوم التوحيد والنحو والبيان والأصول والمنطق وغيرها ، ليعود بعدها إلى مسقط رأسه سوسة

¹ أحمد بن قاسم الحجري، رحلة أفوقاي الأندلسي، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب (1611. 1613)، تحرير وتقديم محمد رزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2004، ص 58.

² مُجدد بن الحاج بن مُجدد بن عبد الله الصغير الإفرائي، صفوة من انتشار من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق د عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، ط4، الدار البيضاء -المغرب، 2004، ص ص 57، 58.

³ حسين خوجة بن علي بن سليمان الحنفي، ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1908، ص ص 40، 41.

ويتصدّر التدريس بها، وقد استفاد منه الكثير من طلبة العلم فيها¹، وفي أواخر هذا القرن يمكن ذكر نماذج ثلاث من العلماء مّن كان لهم تأثير واضح وذاع صيتهم داخل الإيالة وخارجها من خلال المراسلات العلمية أو الإقامة والتدريس أو نشاطهم العلمي والجهادي ونقصد هنا كل من:

- الشيخ عبد العزيز الفراتي: وهو أبو فارس عبد العزيز بن مُجّد ولد بمدينة صفاقس سنة (1050هـ/1640م) وحفظ القرآن بها ثم رحل إلى مصر وأقام بها وأخذ عن علماء فيها منهم يحيى الشاوي، كما أقام في اسطنبول ومكة وجاور الحرم هناك وأقرأ الحديث، ثم عاد إلى مسقط رأسه ودرّس بالجامع الكبير وتلمذ على يديه جماعة من العلماء ومنهم الأديب الفلكي مُجّد بن المؤدّب الشرفي والفقير عبد الله الجموسي وغيرهما له تأليف عدّة منها "عقيدة التوحيد" و"شرح مقدّمة السنوسي" و"شرح على ألفية السيوطي" وله كذلك كتاب "ديوان خطب" توفيّ سنة (1100هـ/1689م) وقيل سنة (1131هـ/1719م)².

- أبو الحسن بن أبي بكر بن أحمد الكرّاي: العالم الصوفي الولي الصالح كان تقيّاً ورعاً ولد بمدينة صفاقس وبها نشأ ودرس عن فقهاء المدينة ومنهم والده ثم ارتحل إلى مصر وقرأ في الأزهر ثم رجع إلى مسقط رأسه وأنشأ زاويته المشهورة واشتغل بنشر العلم وانتفع به خلق كثير، كانت له مراسلات مع علماء الأزهر، وتوفيّ سنة (1105هـ/1694م)³. غير أن الشيخ الذي لا يضاهيه أحد في المنزلة التي كانت له بمدينة صفاقس في أواخر هذا القرن وبداية القرن الثامن عشر إنما هو:

- الشيخ علي النوري: عُرف عنه براعته في الفقه وعلوم القرآن، وهو العالم الفاضل والكمال المرّبي والفلكي، ولد ببلدة صفاقس سنة (1053هـ/1644م)، قاسى في سبيل طلب العلم شظف العيش بسبب فقر والده الذي عارضه على السفر نحو مدينة تونس غير أنّ عزيمته لم تُثنيه على ذلك لكنّه صبر

¹ حسين خوجة بن علي بن سليمان الحنفي، ذيل بشارات أهل الإيمان، المصدر السابق، ص 42.

² مُجّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق ص 25. ذكر حسين خوجة في ذيل البشارات بأن وفاته كانت سنة 1100هـ، مصدر سابق، ص 37. وأما مُجّد بن قاسم مخلوف في شجرة النور، مرجع سابق، فيذكر وفاته سنة 1131هـ، ص 223.

³ أحمد سالم، المؤرخون، مرجع سابق، ص 48.

وقبض الله له من أهل الصلاح والخير وتكفلوا ببقوته وإرساله نحو مصر لطلب العلم في الأزهر وقرأ العلم على شيوخ كثير وأجيز في علوم عدة ومنها الحديث، ثم عاد إلى بلده صفاقس أواخر 1078هـ/1668م، واتخذ من مقر سكنه زاوية لنشر العلم ونصر السنة وقاوم البدعة وأحسن إلى الضعفاء والمكروبين بسبب عدوان فرسان مالطا (فرسان القديس يوحنا)، فأنشأ السفن وحث وحرّض على جهاد الكفار لردّ العدوان ومحاربتهم، ثمّ التنكيل به في آخر حياته بسبب وشاية كاذبة إلى بايات زمانه من المراديين، وبعد حياة حافلة بالعلم والجهاد توفّي الشيخ الجليل يوم 12 ربيع الأول 1118هـ/25 جوان 1706م.¹ كما أصبحت جربة مركزاً للتعليم ونشر المذهب المالكي بفضل الجهود الذي قام العالم المجتهد:

- إبراهيم الجمّني: الذي ولد سنة 1038هـ/1629م وهو فقيه فاضل ينسب إلى بلدة جمنة بصحراء الجريد ولأهلها اهتمام عظيم بحفظ القرآن، أخذ بعض العلوم عن شيخه عبد الله بن بلقاسم الجلال في خنقة سيدي ناجي، وقد ارتحل إلى طرابلس ثم مصر وتلمذ على علماء أجلاء منهم الزرقاني والخرشي وغيرهما وتحصّل على عدة إجازات هناك في الفقه والنحو والبيان والمنطق والتوحيد كما أجيز في الحديث وفي عودته من حجّ بيت الله غرقت كتبه فأقام بالقاهرة مرّة ثانية، ثم عاد إلى مسقط رأسه جمنة، وما لبث أن غادرها لسكنى جربة والتدريس بها وقد تعرّض لعداوة من أحد شيوخها ومُنِع من التدريس، فأنشأ مع مجموعة من تلاميذه أكواخاً وأقاموا بها إلى أن بنى لهم الباي مراد بن حمودة باشا (مراد الثاني) مساكن ومسجداً ومدرسة سنة 1115هـ، وصدّره للتدريس بها، وقصده الناس من كل جهة وانتفعوا به وبعلمه ومن تلاميذه ابن أخيه إبراهيم بن محمّد الجمّني وعلي الشاهد والشيخ محمّد الغرياني، وكثير من الطلبة الذين كُلموا رأى من أحدهم نجابة أجازه وأرسله إلى الجبال من تلك النواحي ويأمره بإرشاد الناس لدين الله فينوّر ظلمة جهلهم بسراج الدين ويرفع عنهم حجاب الجاهلين فكان هذا دأبه مدّة حياته، ويؤثر عنه أنه لم يأكل من مرتّب المدرسة ولا من أوقافها لشدة ورعه، وانتشر تلامذته فنشروا المذهب المالكي

¹ محمّد محفوظ، تراجم المؤلفين، مرجع سابق، ج5، ص ص 49، 57.

وأضعفوا مذهب الخوارج في تلك الجهة توفّي الشيخ وعمره 95 سنة، وكان ذلك في 5 ربيع الثاني 1134 هـ، ودُفن بمدرسته وبُني على قبره قبة وهي مزار للتبرّك¹.

د-العلماء والصلحاء في الحواضر التونسية: وأما في القرن الثامن وقد عرفت فيه تونس تحوّلًا سياسيا حيث بدأ العهد الحسيني الذي شهد أيضا تحوّلًا وازدهارا علميا وأديبا² ، فقد اشتهر من العلماء الذين كان لهم الدور في تنشيط الحركة الثقافية ونشر العلم ، وقاموا بما تتطلبه الحياة الاجتماعية منهم في مساعدة الغير وإغاثة المحتاج وغيرها فيمكن أن نذكر:

-الشيخ محمد عزوز: العالم الفضل القارئ المقرئ ،ابن الشيخ العلامة أحمد عزوز ولد بمدينة تونس سنة 1160 هـ ،وأخذ القرآن عن والده وعلم القراءات وأتقنها ، كما أخذ الفقه والنحو والأصول عن عدّة مشايخ منهم الشيخ محمد زيتونة وسيدي علي سويسي ، وله عدّة إجازات وبعد وفاة والده تولّى الخطابة والإمامة في جامع الحلق خارج باب الجديد ، كما تصدّر القراءة والتجويد بجامع الزيتونة واستفاد منه خلق كثير³.

-الشيخ أبو العباس أحمد بن مصطفى الطرودي: ولد بمدينة تونس وحفظ القرآن وجوّده على يد الشيخ أحمد عزوز كما أخذ الفرائض والفقه والحديث ومصطلحه خاصة صحيح البخاري ومسلم دراية ورواية عن الشيخ سيدي سعيد المحجوز وقد وُصِفَ بأنّه عالم ورع وُليّ القضاء الحنفي سنة 1156 هـ ، وُوّليّ إمامة جامع القصر وخطبته، وتوفّي في 29 شوال 1174 هـ⁴. وخلال هذه المرحلة برز كذلك :

¹ عبد الوهاب بن منصور ، أعلام المغرب العربي ، المطبعة الملكية ، الرباط ، المملكة المغربية، 1979، ج1، ص، 157، ينظر كذلك شجرة النور الزكية ، ص 324، وذيل البشائر ، ص ص 37،38.

² محمد النيفر، عنوان الأريب عمّا نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب ،تذييل واستدراك ، علي النيفر ، ط1، 1996، دار الغرب الإسلامي ،بيروت لبنان ،ج1، ص515.

³ مجّد بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية ، ص 347.

⁴ محمد النيفر، عنوان الأريب ،ج1، مرجع سابق ، ص ص 502،503.

-الشيخ أحمد بن علي النوري: الذي حَكَفَ أباه في مَشِيخَةِ الزاوية وسافر إلى فاس والحجاز وألقى دروسا في التفسير بتونس وتوفي بها سنة 1150هـ/1738م¹، كما نذكر كذلك آل الفراتي² ومنهم: - الشيخ أبو فارس سيدي عبد العزيز الفراتي : وهو من أَجَلِّ أعيان فقهاء مدينة صفاقس أخذ الفقه في مسقط رأسه ثم ارتحل إلى مصر وتلمذ عن علماء كبار منهم "يحيى الشاوي"³، وبعد حصوله على عدّة إجازات رجع إلى مسقط رأسه وتفقه على يديه جماعة من الناس ومن أعظمهم الشيخ مُجَدِّ ابن المؤدب الشرفي، له تأليف كثيرة ومنها "عقيدة على مذهب أهل السنّة" ، و "مقدمة السيوطي في النحو" وله "ديوان خطب" ، وقد توفي الشيخ سنة 1131هـ/1719م⁴، إضافة إلى آل الشرفي ونخص بالذكر: - أبو عبد الله مُجَدِّ الشرفي: بن المؤدب الصفاقسي الإمام الفاضل الكامل الفقيه العالم المتفنن الفلكي الصوفي ولد سنة 1072هـ /1662م تلقى العلوم الأولى في مسقط رأسه على يد الشيخين عبد العزيز الفراتي وعلي النوري ثم رحل إلى مصر وأخذ عن الشيخ أحمد الشرفي نزيل مصر العلوم الرياضية وأتقن عمل الأرباع الجيبية وانفرد بتلك الصناعة في صفاقس بعد رجوعه إليها فأخذ عنه كثير من الناس، وقد بنى له حسين بن علي مدرسة على مقربة من الجامع الكبير وهي مدرسة كبيرة وقد نظّم لها هذا الشيخ شعرا جاء فيه :

سعد الزمان وأشرقت أنواره *** وبدا السرور وهذه آثاره

بحسين بن علي باي الذي *** طابت بطيب فعاله أخباره

يا حبذا للعلم مدرسة بنى *** بصفاقس فعلا بذاك مناره

¹ أحمد سالم ، المؤرخون ، مرجع سابق ، ص ص 73، 72.

² عرفت هذه العائلة نبوغ عدة علماء فضلاء نذكر منهم :أبي عبد الله مُجَدِّ بن علي الفراتي - الشيخ أبو العباس أحمد الفراتي - الشيخ أبو زيد عبد الرحمان الفراتي - الشيخ عبد السلام الفراتي .

³ هو يحيى بن مُجَدِّ بن مُجَدِّ بن عبد الله بن عيسى النائلي نسبة إلى قبيلة أولاد نايل الملياني الشاوي تسمية لا نسبا .

⁴ محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ، ومُجَدِّ محفوظ ، ج 2 ، ط 1 ، 1988، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،ص ص380، 385.

لا زلت أصلاً للفضائل والعلل *** ما دام دهر ليله ونهاره

وقد تولى مشيخة هذه المدرسة وأخذ عنه بها خلق كثير ومنهم أبناؤه الذين كانوا من النبهاء الفضلاء وكذا تلامذة أحمد النوري وغيرهم من الوافدين على صفاقس وقد توفي في شهر ذي القعدة 1157هـ/ أواخر ديسمبر 1744م¹.

-الشيخ محمد بن عمر سعادة: العالم المؤرخ العالم الأديب الشاعر ولد بمدينة تونس سنة 1088هـ/1678م، وأصله من مدينة المنستير²، وقد ذكر بنفسه أن أجداده استقروا بتونس منذ العهد الحفصي وأن هو وأسرته كانوا يعيشون تارة في بلده الأصلي المنستير وتارة في مدينة تونس، وقد نشأ بمسقط رأسه (تونس) وحفظ القرآن الكريم وتفقه بها ثم رحل إلى مصر واستكمل العلوم على أجلاء علماء الأزهر هناك وحصل عنهم النحو والصرف والمنطق والحديث وغيرها من العلوم وله إجازات عدّة، ثم رحل إلى بلاد الروم ومنها عرج على مدينة اسطنبول وحصل على علوم مختلفة ورجع بعدها إلى مدينة تونس ثم توظيفه مدرّساً بجامع الزيتونة واستفاد منه خلق كثير، وقد كان لدرسه حضور كبير لطلاقة لسانه وحسن عبارته صاحب تدقيق وتحقيق، جيد القرحة له خبرة بعلم التاريخ وأخبار الناس ويلي المدرسة المنتصرية³، وكان ذلك حوالي 1125هـ/1747م.

كما أسندت له حُطة العدالة وقبل هذا تمّ إطلاق لقب القاضي عليه سنة 1738م، وبذلك تقلّد قضاء المالكية بتونس، من آثاره: تنوير المسالك في شرح نهج المسالك إلى ألفية ابن مالك وهو

¹ محمد محفوظ، تراجم المؤلفين، مرجع سابق، ج3، ص ص 174، 173.

² المنستير: مدينة تونسية تقع على ساحل الشمال الشرقي لتونس، والمنستير لفظ يوناني قديم يعني محل التعبّد المنفرد، وفي العهد الإسلامي بنى فيه المسلمون رباطاً وأقروا التسمية واللفظ، وزاد الأغلبة ببناء عدّة رباطات في المدينة، تشتهر بأشجار التين والزيتون وأشجار الكروم والنخيل تتبع إدارياً بمدينة سوسة.

³ مدرسة المنتصرية: هي إحدى مدارس مدينة تونس وقد بنيت خلال العهد الحفصي. وهي من المعالم التاريخية بالمدينة العتيقة، تقع المدرسة المنتصرية في المحيط القريب من جامع الزيتونة، وتحديدًا قرب سوق النحاس، أقيمت هذه المدرسة في أواسط القرن الخامس عشر للميلاد، إذ شُرع في بنائها في عهد السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي حوالي عام 1434م، ومنه استمدت اسمها، ووقع الفراغ من بنائها في عام 1437م.

حاشية على شرح الأشموني، تحفة المعتبر من كل حاج ومعتبر (نظم لمناسك الحج) ، وله كذلك فُرة العين بنشر فضائل الملك حسين الذي أتى فيه بكل غريب من النظم والنثر العجيب ، وذكر أنه انتهى من تأليفه في أواخر شهر محرم 1136هـ/أكتوبر 1723م ، وقد احتوى على مقدمة وبابين كبيرين وفيه عدّة فصول وخاتمة وفيه ذكر لمآثر وفضائل الأمير حسين بن علي باي، وتوفي بتونس سنة 1171هـ/1758م¹.

-الشيخ أبو الحسن علي الغراب الصفاقسي: هو الشاعر والأديب والفقير العدل، الذي ولد بصفاقس كما تدل عليه كنيته كان والده ثرياً ميسور الحال ، قرأ على مشايخ بلده التحق بجامع الزيتونة وقرأ على أعلامه ومنهم عبد الله السوسي المغربي، ومحمد سعادة ومحمد الغرياني وغيرهم ، ثم عاد إلى مسقط رأسه وبعدها انتقل إلى تونس من جديد واستقر بها وكان ذلك سنة 1156هـ/1733م، واحترف في تونس خطة الشهادة ، كان له حظ وافر من علم التاريخ وأيام الناس وعلوم البلاغة ، ويعتبر من أجَلّ أدباء صفاقس كان مشاركاً في عدّة علوم من رياضيات ومنطق ، كما كان شاعراً امتدح الأمراء وحاز جوائزهم وله مقامات في غاية الحُسن ومنها المقامة العباية والمقامة الهندية ، وكانت وفاته سنة 1183هـ /1769 - 1770م².

- أبو محمد حمودة بن محمد بن عبد العزيز: الوزير الكاتب والمؤرخ الذي نشأ بين يدي أبيه العالم الفقيه وأخذ عنه كما أخذ عن جملة من العلماء منهم الشيخ المفتي أبي الفضل قاسم المحجوب ، وأبي عبد الله محمد الشحمي وغيرهم من علماء حاضرة تونس ، ثم تصدّر للتدريس وانتفع به خلق كثير وتخرّج على يديه أفاضل من العلماء ومنهم أبي عبد الله محمد بيرم الثاني ، وعبد الله محمد المحجوب وأخيه أبي حفص وغيرهم، وكان من أفراد العلماء وأعلام الكتاب متمكناً من الفقه والأدب والتاريخ واللغة، تولّى الوظائف

¹ حسين خوجة ، ذيل البشائر، مصدر سابق ، ص ص 160،162. ينظر أيضا ، مُجد محفوظ : تراجم المؤلفين ، مرجع سابق، ج3، ص ص 29،34.

² محمود مقديش، زهرة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، مصدر سابق ص ص 430،436. مُجد محفوظ ، تراجم المؤلفين ، مرجع سابق، ص ص 449،454 . مُجد بن مُجد مخلوف، شجرة النور الزكية ، مصدر سابق، ص 348.

الدينية والرسمية ومنها التدريس بجامع الزيتونة كما أُسندت له رئاسة الكتاب ومُنح له لقب وزير قلم الإنشاء ونال من الحظوة والإقبال.

ولكن انقلب حال هذا الفاضل في آخر حياته وسلقته الألسن من رجال الدولة وقيل أنه مات مكروها من الجميع وقد وافته المنية سنة 1202هـ/1787م-1788م، ومن أهم آثاره الكتاب الباشي، والذي أُرّخ فيه لعهد الباي¹، وحاشية على الوسطى في علم الكلام².

- الشيخ أبو الثناء محمود مقديش : عالم فاضل ومدرّس زانت به مدينة صفاقس التي ولد بها سنة 1154هـ/1742م، وهو الفقيه المتكلم الورع العلامة المؤرّخ أخذ ببلده عن الشيخ اللومي ومحمد الفراقي وكذلك عن إبراهيم الجمني الحفيد في زاوية جربة وأخذ بتونس عن الشيخين الشحمي وقاسم محجوب ، وكان من خواص أصحاب الوزير أبي المحاسن صاحب الطابع ، صنّف عدّة شروح لاختصاصات مهمة ومنها "المرشد المعين لابن عاشر" في الفقه المالكي، و"العقيدة الوسطى" للسنوسي في علوم الدين، وتبقى أشهر آثاره كتابه الممتع في التاريخ "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار"، ويعتبر من المؤلفات التاريخية التي تؤرّخ لنهاية القرن الثامن عشر إذ أنّ آخر الأحداث المذكورة فيه كانت بتاريخ سبتمبر 1790م/ شهر محرم 1205هـ، توفّي الشيخ خلال رحلته إلى القيروان سنة 1228هـ/1813م، وحمل جثمانه إلى مسقط رأسه ودُفن هناك³.

- الشيخ أبو عبد الله محمد السنوسي: الكافي وأصله من مدينة الكاف⁴ كما تدل على كنيته رحل إلى

¹ الباي المقصود هنا هو : "الباشا علي بن الحسين باي" المولود سنة 1124هـ/1712م، والذي حكم تونس ما بين (1172هـ/1759م - 1196هـ/1782م).

² ابن أبي الضياف ، الإتحاف ، المصدر السابق ، مج 4 ، ج 7 ، ص ص 24، 22.

³ أحمد عبد السلام ، المؤرخون ، مرجع سابق ، ص ص 306 ، 307. ابن أبي دينار: الإتحاف، مصدر سابق ، م 4، ج 7، ص 86، 85، ومحمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين ، مج 4، مرجع سابق ، ص ص 364، 356.

⁴ مدينة الكاف : مدينة تونسية تقع مدينة الكاف في الشمال الغربي من البلاد التونسية 160 كم غرب العاصمة تونس. موقعها حصين بطبيعته الجغرافية إذ تنتصب على ظهر جبل وعر المنحدر (جبل الدّير)، يقع بها حصن شيده العثمانيون عام 1600 م، إنه "حصن القصبه" أو "قصبه الكاف"، نسبة للمدينة .

مدينة تونس لطلب العلم في جامع الزيتونة فأخذ عن علمائه في ذلك العصر وجدّ في تحصيله ومن شيوخه الشيخ الشحمي والشيخ الغرياني والشيخ الكوّاش الذي لازمه وانتفع به ، كان عالما فقيها حافظا واسع الاطلاع عفيفا تقيا حسن الأخلاق محببا إلى الناس، وتقدّم للتدريس فقرأ عليه كثير من فحول المالكية والحنفية منهم الشيخ فرج التميمي وباشا مفتي المالكية الشيخ أحمد بن حسين والمفتي المالكي الشيخ محمد البنا، كما تقدّم لمشيخة المدرسة الحسينية في صفر 1235هـ، ولخطة القضاء في بنزرت ثم قضاء باردو ومنها نُقل إلى قضاء الجماعة بالحاضرة سار فيها سيرة أهل الفضل له رجز في الأحكام سماه "لفظ الدرر" توفي الشيخ في أواخر شعبان 1255هـ / نوفمبر 1839م¹.

- الشيخ إبراهيم الرياحي: وهو إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد بن إبراهيم المحمودي الرياحي، وقد ولد هذا الفاضل في منطقة تستور سنة 1180هـ/1767م، وحفظ القرآن الكريم وتلقّى فيها مبادئ العلوم ثم ارتحل إلى تونس طلبا للعلم وتفريغ له وأخذ على جملة من العلماء والفضلاء شيوخ جامع الزيتونة منهم الشيخ أبي الفلاح صالح الكوّاش، وأبي محمد حسن الشريف وأبي يعلى حمزة الجبّاس وغيرهم كثير ، وأثناء ذلك أظهر نباهة ونجابة في طلب العلم وقد أثنى عليه شيخه أبو عبد الله محمد الطاهر بن مسعود وقال فيه: " هذا الرجل ننتفع به أكثر مما ينتفع بنا"، ولما اتّسع في العلوم وشهدت له شيوخه بذلك تصدّر للتدريس وكانت له طريقة فريدة في ذلك فكثرت عدد طلابه وجلسائه وبقي لمدة طويلة، غير أنه عزم على الخروج للهجرة بسبب ضيق العيش لكن الوزير يوسف منعه من ذلك وترجّاه واشترى له دارا والتزم له بالنفقة عليه ، فنال الحظوة عند الأمراء الحسينيين فاطمأنت به الدار وطاب له القرار ليتم اختياره من طرف الباي حمودة باشا في سفر للمغرب في غرض جلب الميرة (الطعام) بسبب المسغبة التي عرفتها الايالة التونسية وكان ذلك سنة (1218هـ/1803م) ، ليعود الشيخ بعدها مقضي الحاجة مشكور المسعى، كما عُرضت عليه خطة القضاء لكنه امتنع، غير أن الباي ألزمه ، كما اعتلى المنبر للخطبة في الجامع الأعظم وجامع صاحب الطابع وتولّى رئاسة الفتوى المالكية سنة

¹ ابن أبي دينار ، الإتحاف ، مصدر سابق ، م 4، ج 8، ص 41. مُجدّ النيفر ، عنوان الأريب ، مرجع سابق، ج 2، ص 707، ومُجدّ بن مُجدّ مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، مصدر سابق، ص 386.

1248هـ/1832م، كان الشيخ رحماني الطريقة وانتقل بعدها للطريقة التجانية وتعمق فيها بعد سفارته للمغرب ولقائه بصاحب الطريقة هناك، ترك آثارا منها المخطوط والمطبوع نذكر على سبيل المثال ديوان شعر، وحاشية على مجيب الندى على قطر الندى، نظم الأجرومية، والنجسة العنبرية في الصلاة على خير البرية، وغيرها من الآثار، توفّي الشيخ في 28 رمضان 1266هـ / 7 أوت 1850م¹.

كما برز عدّة علماء في علوم مختلفة خلال هذه المرحلة وكان لهم التأثير الواضح على الحياة الثقافية والاجتماعية وفي الحياة العامة لحاضرة تونس بل وامتدّ تأثيرهم حتى الجزائر بسبب رحلاتهم العلمية أو المناصب التي تولّوها وهو ما يدلّ على نبوغهم العلمي ونضجهم الفكري نذكر منهم :

- الشيخ أبو العباس أحمد بن حسين بن علي الشريف: من بيت علم وشرف من الأعلام المشهود لهم رحل إلى مصر والحجاز وغيرها، أجاز وأفاد واستفاد، كان من المحافظين على رواية المسند وتخرّج على يديه ثلة من العلماء وتوفّي سنة 1092هـ / 1680م².

- ابن أبي دينار: المؤرخ التونسي أبو القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن دينار: صاحب كتاب "المؤنس في أخبار افريقية وتونس" و "هداية المتعلم" وقد كان حيّا سنة 1110هـ/1698م³.

- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم فتاتة: المتبحر في علوم عدة من المعقول والمنقول واستفاد منه في ذلك خلق كثير فهو المحقق والمدقق كما كان ينشد الشعر وتوفّي سنة 1115هـ/1703م⁴.

- أبو عبد الله محمد زيتونة: الملقب بمستجمع العلوم والمعارف والذي ولد بمدينة المنستير سنة 1081هـ/1671م وحفظ القرآن بها ومكث بالقيروان وتفقه على علمائها ثم رحل إلى تونس فقرأ بها

¹ ابن أبي الضياف : الإتحاف ،المصدر نفسه ،مج4، ج7، ص ص ، 73 ، 81 ، ينظر كذلك : كتاب العمر ، مج 1 ، ص ص 869 ، 874.

² ابن أبي دينار: المؤنس ،مصدر سابق ،ص 314، وينظر أيضا محمد مخلوف: شجرة النور الزكية ،مرجع سابق ، ص ص 306 ، 307.

³ محمد مخلوف: شجرة النور الزكية ،مرجع سابق ، ص 307.

⁴ حسين خوجة : ذيل بشائر أهل الإيمان، مصدر سابق ص ص ، 105 ، 106.

على عدّة مشايخ هناك ليتصدّر التدريس بالجامع الأعظم جامع الزيتونة، وقد قدم إلى الجزائر بطلب من الداى محمد بكداش¹. وبهدف استشارته في بعض الأمور وذلك خوفاً من وقوع تمرد في الجيش الانكشاري .

- محمد بن محمد الصغير بن يوسف: صاحب كتاب "المشروع المُلْكِي في سلطنة أولاد علي التركي" والذي ولد تقريباً حوالي 1105هـ/ 1693م وهو كرغلي الأصل وقد عانى المؤلف بسبب المحنة والفتنة التي أصابت تونس وعرفتها في عهد الأسرة الحسينية والصراع على الحكم فيها بين أبناء هذه الأسرة ، وقد قضى آخر أيام حياته في مدينة باجة ويعتقد أنه توفي بها سنة 1184هـ/ 1770م².

- محمد بيرم الثاني: الذي ولد في (1162هـ/ 1749م)، وهو من أسرة شريفة أعطت لتونس أربعة من كبار مفتي الحنفية³، وقد اشتهر هذا العالم بأنه حجّة المذهب الحنفي وبأنه مجتهد ونظم العديد من القصائد التعليمية بهدف تسهيل حفظ دروس الفقه وغيرها من المواد ، كما اعتنى بتقعيد الأحداث وفق التسلسل الزمني وكأنّه يؤرخ للأحداث ومن ذلك منظومته المشهورة " عقد الدرّ والمرجان في سلاطين آل عثمان" ، وله كتاب هو " التعريف بأجداد البيرميين " وتوفي في 16 جمادى الأولى 1247هـ/ 23 أكتوبر

¹ الداى محمد بكداش :هو عربي قرشي من كبار العلماء والأدباء. هو ابن نور الدين أبو الحسن علي بن مُجَدَّ القرشي النسب، العربي الإقليم، النكداني الدار والمنشأ، سُمّاه والده بكداش ومعناها الحجر الصلب ، حكم الجزائر ما بين (1707م -1709)، استطاع استرجاع مدينة وهران من الاحتلال الإسباني بعد إرساله في نفس السنة التي بويغ فيها دايا على الجزائر أي سنة 1707م بقوات كبيرة لها بقيادة صهره " وژان حستان" وعادت هذه القوات إلى مدينة الجزائر منتصرة في ماي 1708م ، غير أن الأمور سارت على عكس ما كان يأمله هذا الداى حيث وقع ضحية تمرد للجيش الانكشاري سنة 1709 م ، وتم قتله من طرف " دالي إبراهيم " الذي أعلن نفسه دايا على الجزائر. للمزيد ينظر، مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر، (د ت ط) ، ج 3، ص ص 205،206 .

² أحمد عبد السلام، المؤرخون، مرجع سابق ، ص ص 267 ، 270.

³ وهم على التوالي : محمد بيرم الأول تولى المشيخة سنة (1186هـ / 1772م) ، وأما محمد بيرم الثاني فتولّاها سنة (1216هـ / 1801م) ، محمد بيرم الثالث وتولّاها سنة (1247هـ / 1831م) ، وأما محمد بيرم الرابع فقد تولّاها سنة (1259هـ/ 1843م)، للمزيد ينظر، محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، مرجع سابق ص ص 211،216 .

1831م¹. وهؤلاء العلماء وغيرهم ممن لم نذكرهم كانت دُور العلم والعبادة من الكتاتيب والمدارس والمساجد والجوامع والزوايا ، هي مراكزهم العلمية ومنابرهم الي سطعت بها نجومهم فأثروا وأثروا في الحياة الاجتماعية والثقافية لتونس خلال هذه المرحلة وقد امتدّ هذا التأثير إلى الحياة الاقتصادية وحتى السياسية منها.

وخلاصة الوضع الثقافي في تونس، التي ورثت في أواخر العهد الحفصي تركة برز فيها التقهقر العلمي بسبب الاضطرابات، ومشاركة العلماء في صد العدوان الصليبي الخارجي واستشهاد بعضهم في ساحات الوغى، فجمعوا بين فضل العلم والجهاد، ولكن الاسبان احرقوا الكتب، فتدهورت العلوم، وانتشرت الخرافة.

ولكن ظهور الحكم العثماني في تونس، أدى إلى انتعاش الثقافة، وكان لهجرة الاندلسيين نصيبهم في ذلك، فظهرت طبقة من علماء الأندلس في تونس، اثروا في الحياة العلمية، والكتابة والتدوين، كما بدأ الاهتمام بنشر المذهب الحنفي ولاسيما في عهد البايات. وتجلّى الاهتمام الأكثر في العهد الحسيني، الذي أولى فيه البايات عناية بالمراكز الثقافية في شتى الحواضر، وفتح المجال على مصراعيه للعلماء، وخصوصا في عهد علي بن الحسين باي، وعهد حمودة باشا، ومحمود باي.

كما قام العلماء بمهمتهم في بعث الحركة الفكرية خارج البلاد، وهاجروا للاستزادة من العلم، وكان رجوعهم فتحا علميا، والذي ساهم في تلك النهضة الفقهاء والصلحاء، وتم استعراض ذلك ضمن العشرات من الأسماء العلمية ذات الفضل والعلم والدين.

ثالثا - المراكز العلمية والدينية في الإيالتين:

إن جود هذه المؤسسات الثقافية وهذه المراكز العلمية الدينية وظهورها ارتبط أساسا بالفتوحات الإسلامية للمنطقة منذ القرن السابع الميلادي، والمسجد أعتبر مركزا يؤدّي مختلف الأدوار العلمية

¹ أحمد عبد السلام، المؤرخون ، ص ص 325،335.

والتعليمية والثقافية والدينية في آن واحد خلال هذه المرحلة الأولى من الوجود الإسلامي في منطقة شمال إفريقيا، وباتّساع رقعة الإسلام بها وازدياد عدد المسلمين وما ترتّب عليه من زيادة حاجاتهم وتفرُّع نشاطاتهم وتوسُّع مشاكلهم والحاجة لوجود حلول لها، ظهرت مؤسّسات أخرى تدريجياً تُكْمِل وظيفة المساجد والجوامع وتخفف العبء في أداء رسالتهم فظهرت المدارس والكتاتيب وحتى الزوايا، غير أنّه لا يمكن أن نغفل في دراستنا عن ذكر مؤسّسة كانت تُعَدّي هذه المؤسّسات جميعاً ألا وهي مؤسّسة الأوقاف، والمعروف أنّه وفي خلال العهد العثماني أصبح وجود هذه المؤسّسات والمراكز العلمية وانتشارها ميزة وخاصيّة تميّز المدن الهامة في الإيالتين تونس والجزائر على حدّ السواء.

أ) **المراكز العلمية والدينية في الجزائر:** إنّ وظيفة المساجد، والجوامع، والمدارس، والكتاتيب، والزوايا، والمكتبات؛ لا تعدى وظيفة التعليم، أكثر مما عليه الثقافة بمفهومها الحالي، ولا تكاد تخرج المؤسّسات الثقافية عمّا ذُكر، إضافة لمؤسّسة الأوقاف والتي كانت وظيفتها خلال هذه المرحلة لا تقل أهمية عن ذلك، ونتعرّض في هذه الدراسة على هذه المراكز والمؤسّسات الثقافية بالتفصيل نظراً للدور المهم الذي قامت به خلال هذه المرحلة.

-المساجد والجوامع : المسجد هو مَفْعَل بالكسر اسم لمكان السجود، والمسجد جبهة الرجل حيث يصيب السجود¹، والمسجد جمعه مساجد وهو عموماً كل مكان يسجد فيه، ويتعبد وهو من الألفاظ الإسلامية التي لم تعرفها الجاهلية، وهو يدل على مصلى الجماعة، والمسجد نوعان واحد لا تقام فيه صلاة الجمعة، بينما تجري في الآخر وهو المسجد الجامع أو الجامع الكبير أو مسجد الجمعة²، وبين المسجد والجامع تتحدد الوظيفة، فالجامع اصطلاحاً أكبر حجماً من المسجد فهو الذي تؤدى فيه صلاة الجمعة والعيدين كما يُسمى جامع الخطبة³، ذلك أن عمر بن الخطاب لما افتتح البلدان كتب

¹ الزركشي بن بدر الدين بن بھادر، إعلام المساجد بأحكام المساجد، تقديم أمين صالح شعبان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1995، ص13.

² عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، جروس برس، ط1، بيروت، 1988، ص381.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص245.

إلى أبي موسى الأشعري، وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص، وهو على الكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بنفس الكتاب، كما كتب إلى أمراء أجناد الشام بمثل ذلك فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده¹، وقد ورد ذكر المسجد والمساجد والمسجد الحرام في القرآن الكريم بلفظها ثمان وعشرين مرة ووردت الإشارة إلى ذلك اسم مقام إبراهيم ومصلى مرة واحدة فقط أما الإشارة بلفظة بيوت فمرة واحدة كذلك ولكل مرة مناسبتها².

والمساجد والجوامع هي مكان للعبادة والتعليم ولا زالت كذلك وحتى لمعالجة مشاكل الناس والتحريض على الجهاد والدعوة له، وتقرأ على منابرها نتائج المعارك والفتوحات، ونظرا لأهميتها فقد كثرت العناية بها فلا نكاد نجد قرية أو حيّا في المدينة من دون مسجد أو جامع، والجوامع والمساجد فيها ما هو ملحق للزوايا والعكس، والمساجد والجوامع تختلف حسب حجمها وهو يحدد وظيفته فهو إضافة لمكان للعبادة فهو لتحفيظ القرآن وتعليم الفروض الدينية وحتى للقضاء بين الناس، أما من حيث النوع فالمساجد تحدد حسب نوع بانيها، فبعض المساجد بناها الحكّام ونوع بناه الأثرياء وآخر بنته الجمعيات والهيئات الخيرية³ وبمساهمة المحسنين، ويقوم الحكّام من الخلفاء والملوك والأمراء بتأسيس المساجد والجوامع وبنائها وينفقون عليها من أموالهم الخاصة ويضعون لها الأوقاف من ريعهم وأملاكهم ويعتبرون هذا كله في نظرهم من واجبه الديني وخدمة للمجتمع الإسلامي وكسب عاطفة الرعيّة وحتى للشهرة أحيانا، والملاحظ على حواضر الجزائر خلال العهد العثماني كثرة مساجدها، وقد انفردت كل مدينة كبيرة بجامعها الأعظم⁴، وقد بُنيّت المساجد في الجزائر خلال هذا العهد وفق طرازين رئيسين هما

¹ سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971، ج 1، ص ص 30، 31.

² حسين مؤنس، "المساجد"، عالم المعرفة، عدد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981، ص 11.

³ أحمد مريوش وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، دار القصة للنشر، 2007، ص 12.

⁴ رشيدة شدرى معمري، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر العثمانية فترة الدايات (1671 - 1830)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف د. فلة موساوي القشاعي، جامعة الجزائر (2005 - 2006)، ص 53.

الطرز المحلي وهو الطراز التقليدي الذي يقوم بيت الصلاة على الأعمدة والدعامات سواء كان يشتمل على صحن للصلاة أو يخلو منه، ومعظم هذه المساجد متوسط أو صغير الحجم منتظم التخطيط أو غير منتظم التخطيط وينتشر هذا النوع في معظم المدن ، بينما الطراز الثاني ويُعرف بالطرز الوافد فقد تعددت أنماطه وأشكاله التخطيطية وأغلبها قد اعتنى وأمر بنائها الحُكّام العثمانيون، وأنفقوا الأموال الكثيرة من أجل بنائها وزخرفتها وتجهيزها، وأوقفوا عليها الرياع والضياع و هذا النوع من المساجد أو الجوامع يوجد في المدن الكبرى أو الرئيسية¹ .

-مساجد مدينة الجزائر: بمبادرة من الأوجاق (العسكر) تمّ في سنة 1070هـ /1660م بناء جامع الجديد (جامع السمكية) ، لصالح المذهب الحنفي² ، وعُرف أيضا هذا الجامع بمسجد الصيادة ويعد مسجدا فريدا من حيث تأسيسه نظرا للطابع الجماعي لإنشائه وبناء فريدا من حيث تصميمه فيبدو أنه مستوحى من الفن البيزنطي، وكان لهذا الجامع إمام خطيب وإمام للصلوات الخمس وبالمسجد أيضا فقيه ومدرس للفقهاء المالكي، وهو دليل على عدم وجود تعصب مذهبي وشيخ للفقهاء الحنفي ومحدثين للأحاديث النبوية مع الرواة³.

كما أن المسجد الجامع الكبير بمدينة الجزائر يعتبر أفخم بناء معماري في المدينة وكان هذا مقرا للمفتي المالكي، وبه مجلسا شرعيا ينعقد أسبوعيا كل يوم خميس يضم المفتي المالكي والحنفي والقاضيين المالكي والحنفي، ويضم كذلك كبار العلماء والقضاة ومن مهامه الأساسية الفصل في القضايا الشائكة⁴. وهذا هابنسترايت يصف مساجد مدينة الجزائر خلال رحلته إلى الجزائر خلال القرن الثامن

¹ بن بلة خيرة: المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني ،أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراة دولة في الآثار الإسلامية ،إشراف د/ عبد العزيز لعرج، جامعة الجزائر، (2007. 2008) ص 143 .

² أندريه ريمون: العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية ،تع ،قاسم طوير،ط1986، 1، دار المجد ،ص 115.

³ منصور درقاوي : الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين (16م /19م)، ص 126.

⁴ أحمد مريوش وآخرون : الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص 12.

عشر بقوله : " أما المساجد فهي متقنة البناء منها عشرة مساجد كبيرة ذات منارات أما التي تقل عنها شأنًا فعددها يفوق الخمسين،... وهذه المساجد تظل مفتوحة طيلة اليوم لأداء الصلوات " ¹.

كما توجد مساجد وجوامع أخرى ذات مكانة دينية وثقافية ومنها مسجد " علي بتشين " الذي تم بناؤه من طرف العلوج بعد إسلامهم ، وهو واحد منهم وقد بناه بماله الخاص وحمل اسمه وتم إنشاؤه سنة 1032هـ/1622م ²، إضافة إلى جامع كتشاوة ³ وغيره من المساجد والجوامع في هذه المدينة باعتبارها هي مركز الإيالة وهي دار السلطان.

-مساجد الشرق الجزائري: كذلك الأمر في المدن الكبرى والرئيسية الأخرى فهذه قسنطينة مثلا ذكر الورتيلاني أن بهذه المدينة مساجد للجمعة نحو الخمسة وبعضها في غاية الإتقان ⁴، ومن أهمها جامع الباي، والجامع الأخضر الذي شيّده الباي حسن بن حسين المدعو (أبو حنك) وكان ذلك سنة 1156هـ/1743م. وهذا كما تدل الكتابة الرخامية الموجودة فوق باب مدخل بيت الصلاة، وجامع سيدي الكتاني الذي أنشأه صالح باي سنة 1775م، هذا الباي الذي اعتنى بإحصاء المساجد وترميمها وتشبيدها بلغت كما جاء في السجل الذي أمر به خمسة وسبعين مسجدا وجامعا بالإضافة إلى سبع مساجد تقع خارج المدينة ، وتختلف الإحصاءات حول مساجد قسنطينة فقد تم إحصاء خمسة وثلاثين جامعا قبل الاحتلال الفرنسي ⁵.

¹ جوهان أورنيست هابنسترايت، رحلة العالم ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م)، تر، تع، تق ، ناصر الدين سعيدوني ، دار الغرب الإسلامي ، ط1، تونس، 2008، ص ص 37،38.

² منصور درقاوي، الموروث الثقافي العثماني، المرجع السابق ، ص ص 126، 127.

³ جامع كتشاوة: يعتبر من أهم مساجد وجوامع مدينة الجزائر وحمل هذا الاسم نسبة إلى الكلمة التركية "كتشاوة" وتعني " الماعز" باللغة العربية ويعتقد أن الاسم هو نسبة للهضبة التي شيّدت عليها الجامع التي تعرف بهضبة الماعز أو قيل نسبة لسوق كان يقام في ذلك المكان ، وقد تم تشييده من طرف حسن باشا سنة 1794م/1209هـ، تم تحويله إلى كنيسة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر بسنوات قليلة ، حاليا موجود بساحة ابن باديس .

⁴ الحسين بن مُجدّ الورتيلاني ، نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار أو الرحلة الورتيلانية ، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، القاهرة، 2008، مج 2، ص 791.

⁵ أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 248

وأما عنابة فقد كان بها سبعة وثلاثون مسجدا أهمها مسجد أبي مروان¹، ومسجد صالح باي أيضا في نفس المدينة وقد عرف باسم الجامع الجديد، وهذه بجاية التي تم بناء الجامع الكبير بها وقد اشتهرت بمساجدها القديمة والحديثة².

-مساجد الغرب الجزائري: في المنطقة الغربية كذلك اشتهرت عدة مساجد وجوامع تم إنشاؤها في مختلف حواضرها ومدنها المختلفة وعلى وجه التحديد نذكر منها مدينة وهران التي شُيِّد فيها "جامع الباي" الذي أسَّسه مُجَّد الكبير³ سنة 1793م في مكان يسمى خنق النطّاح بوسط مدينة وهران، وكذلك الجامع الكبير ويعرف أيضا "بجامع الباشا" الذي أسَّسه الباي مُجَّد الكبير أيضا سنة 1796م، ولكن كان بأمر من الداوي بابا حسن، وهذا تخليدا لفتح مدينة وهران واستعادتها من الأسبان، وأوقف لهذا الجامع عدّة متاجر وحمّامات، وقد تم جلب الماء لهذا الجامع من عين قريبة⁴. وهذه تلمسان التي بلغ عدد مساجدها خمسون مسجدا وجامعا منها الجامع الكبير⁵، وجامع سيدي بومدين، وجامع مُجَّد السنوسي، وجامع ابن زكري، وجامع أولاد الإمام⁶. وأما مدينة معسكر فأهم مسجد بها هو مسجد السوق، والمسجد العتيق، والتي استفادت من إصلاحات الباي مُجَّد الكبير العمرانية. وأما المسجد الكبير فقد تم تشييده في عهده، ويعتبر هذا الجامع من أبهى المساجد معمّارا وقد وصفه ابن

¹ سمي الجامع بهذا الاسم نسبة للولي الصالح سيدي مروان (توفي سنة 1111هـ)، وقد ذكره الشيخ أحمد بن قاسم البوني المتوفى سنة (1139هـ/1726م)، وهو صاحب الدرة المصونة في صلحاء وعلماء بونة في مطلع قصيدته فقال:

أسأل ربي الحفظ والإتقان +++ بالعارف القطب أبي مروان.

² أحمد مريوش وآخرون، الحياة الثقافية، المرجع نفسه، ص 13.

³ الباي مُجَّد الكبير: هو محمّد بن عثمان الكردي ولد بمدينة مليانة، كان والده بايا على منطقة التيطري، وأطلق عليه لقب "الكبير" الداوي "حسن" عرفانا وإكراما له على أعماله الجليلة، ومنها تحرير مدينة وهران والمرسى الكبير من الأسبان سنة 1792م، كما كان يسمى ب "محمّد الاكحل" فقد كان أسمر اللون، وعرف بأخلاقه الحسنة، للاطلاع أكثر حول شخصية هذا الباي ينظر: سعدية رقاد، المؤسسات العلمية في الغرب الجزائري، رسالة دكتوراة اشرف أ د / مُجَّد دادة، جامعة وهران، ص ص 50، 56.

⁴ يحي بوعزيز، مدينة وهران عبر التاريخ، طبعة خاصة، 2009، الجزائر، ص 94.

⁵ الواليش فتيحة، الحياة الحضريّة في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص 167.

⁶ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 250.

سحنون الراشدي واعتبره من العجائب وقال : " إن الناس كانوا يقصدونه للتنزه والتعجب " ¹ ، وأما الأغا بن عودة المزاري فقال بشأنه : " وبني رحمه الله-الباي مُجد الكبير الجامع الأعظم قليل الوجود بالعين البيضاء من بلدة معسكر" ² ، والمعروف عند أهالي معسكر باسم "جامع العين البيضاء " ، وقد أقام فيه الباي ستة عشر حوضا للوضوء جلب له الماء عن طريق القنوات من أرض تتوفر عن ينابيع ماء اشتراها لهذا الغرض ³ ، ويبدو أنه كان يخطط له ليكون قاعدة كبيرة لنشر التعليم في المنطقة لينافس به القرويين في فاس، ولكن تسارع الأحداث لم تحقق له ذلك ومنها فتح وهران واستعادتها من الأسباب ونقل عاصمة الإقليم لها واندلاع ثورة الطريقة الدرقاوية ⁴ ، وحلول فرنسا في المدينة بعد حوالي أربعين سنة ⁵ ، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة مازونة ، وكذلك مدينة مستغانم التي كان بها إحدى عشرة مسجدا وأهمها المسجد الكبير الذي تم تشييده سنة 1341هـ فوق صخرة على الطريق المؤدي إلى حي تجديد ⁶ .

كما تم تشييد مساجد في مدينة المدية التي عرفت بعد ذلك بأنها عاصمة بايلك التيطري فقد تم فيها إحصاء إحدى عشرة مسجدا أواخر العهد العثماني منها الجامع الكبير وجامع سيدي المزاري الذي بناه الباي مصطفى بومزراق آخر بايات التيطري . وكذلك الأمر في مدينة بسكرة وعين ماضي وسيدي عقبة وتماسين وغيرها من المدن، وإلا ما لفت انتباه الرحالة المغاربة وغيرهم ذلك ، وحتى الرحالة

¹ ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح و تق ،المهدي البوعبدلي الجزائر، مطبعة البعث، 1973، ص128.

² الأغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح ،يجي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1990، ج1، ص، 295.

³ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر - العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 249.

⁴ الثورة الدرقاوية: قام بهذه الثورة أنصار الطريقة الدرقاوية، وهذه الطريقة تنسب إلى الشيخ (مُجد العربي الدرقاوي)، تأسست الطريقة وانتشرت في الوقت الذي تفاقم فيه الضعف السياسي للحكم العثماني في الجزائر الذي كان رده عنيفا على هذه الطريقة ، والتي بدورها لم تدخر جهدا في اضعاف السلطة ، وكان من أشهر قادة الثورة ابن الأحرش في الشرق الجزائري ، توفي مؤسس هذه الطريقة سنة 1223هـ.

⁵ أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه ، ص 260.

⁶ الواليش فتيحة ، المرجع نفسه ، ص 168.

الأوربيين كتبوا عن هذه المساجد والجوامع وعمرانها وزخرفتها ودورها التي كانت تقوم به خلال هذه الفترة وهو ما يدل على عناية المجتمع الجزائري المسلم بالمساجد فلا تكاد تخلو قرية أو حي في المدينة دون مسجد، فقد كان المسجد ملتقى العباد، ومجمع الأعيان، ومنشط الحياة الاجتماعية والعلمية¹، فالمساجد كانت ولا زالت وظيفتها إقامة الصلاة وتحفيظ القرآن، وتعليم الفروض الدينية، وبعض العلوم الإسلامية، والتعرّف على شؤون الناس وعلاج مشاكلهم وقضاياهم اليومية فهي تمثل النواة الأولى كمؤسسة دينية وعلمية وتعليمية في آن واحد، لذا كان الاهتمام في تأسيسها وبنائها وتشبيدها والعناية بها وصيانتها محل اهتمام الحكام وعامة الناس على السواء، وحوّلها تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب والمدارس وغيرها .

-**الزوايا والأضرحة:** الزاوية لم تظهر في تاريخ المسلمين كمركز ديني وعلمي إلا بعد الرباط والرابطة ، والرباط لغة مصدر رباط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان وعند الفقهاء والصوفية يطلق المصطلح على شيئين منها البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد، ورد هجوم العدو ، والثاني المكان الذي يلتقي فيه الصالحون والزهاد والعباد لعبادة الله والذكر والتفقه في أمور الدين ، والزاوية عبارة عن مكان أو بناء معدّ للعبادة وإيواء الواردين المحتاجين واطعامهم ، وتعرف في المشرق باسم "خانقاة" وهو اسم أعجمي وتجمع على أنها "خوانق". كما أنّ الزاوية مدرسة دينية ودار مجّانية للضيافة²، وأما من حيث تسمية الزاوية فقليل أنها جاءت إما لانزوائها عن المدينة باعتبار أن العديد من الزوايا كانت في مناطق قروية، أو أن وجودها أيضا كان دوما في زاوية وأطراف المدينة أو ركن منزو بها³. كما أن الزاوية هي ركن البناء ويطلق اسم الزاوية على نوع من الأبنية ذات الطابع المعماري الديني، وهي تشبه المدرسة أو الدير، وهي تتكون من مكان للصلاة ومحراب وضريح لأحد المرابطين أو ولي من الأشراف وهو في اعتقاد الناس، - وقد لا يكون كذلك - ويعلو هذا المبنى قبة، كما نجد في المبنى غرضا لاستقبال

¹ أبو القاسم سعد الله، نفسه، ص 246.

² محمّد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني العلمي والسياسي، المطبعة الوطنية بالرباط، 1964، ص ص 35، 23.

³ محمّد علي دّبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة العربية، ط1، الجزائر، 1971، ج 1 ص 43.

الضيوف وعابري السبيل والطلبة، ويلحق بالزاوية قرابة، وهي عبارة عن مكان مخصص لدفن من أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها¹.

ولقد تطوّر مفهوم الزاوية بتطوّر المراحل التاريخية وأصبح مفهوم ومصطلح الزاوية في بلاد المغرب في القرن -13 هـ- مرادفاً للرابطة أي الخلوة التي كان يعتزل الولي ويعيش مع تلاميذه ومريديه ولم تبق فكرة الزاوية الرباط الذي يجمع بين الدين والجهاد ونشر الإسلام، وتعليم الفقه ونحوه، لذا عرّفت الزاوية بأنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية يجتمع فيها المرید للذكر والأوراد وسماعها للآخرين، كما أن مأوى أيضاً لطلبة العلم ورجال الدين ولبقية الزوّار الذين يقصدونها للاستفتاء أحياناً وعقد الصلح أحياناً أخرى وازداد عددها وذاع صيتها في بداية العصر الحديث وخاصة بعد التحرّشات الإسبانية على سواحل بلاد المغرب، ومن أشهرها الزاوية الدلائية بالمغرب الأقصى والزاوية السنوسية بليبيا وغيرها²، والزاوية هي الأخرى لم تكن أقل شأناً من المساجد ودليل ذلك انتشارها الواسع بين الأوساط الشعبية في المدن والأرياف في الجزائر خلال العهد العثماني، وزعماءها من الرجال المتصوّفة يجلبون إليهم مريدين، ويعتبر بن ميمون الجزائري في كتابه "التحفة": "الزاوية خلال هذه المرحلة بأنها تحتل مكان الصدارة بين مراكز الثقافة من ناحية تثقيف المعوزين والفقراء من أبناء الشعب المتعطشين إلى العلم والمعرفة"³.

ويقوم المتصوّفة القائمين على أمر هذه الزاوية على بثّ عقائدهم بين المريدين وتلقين أتباعهم الأذكار والأوراد مبتعدين عن صخب الحياة وزخرفها، مؤثرين العزلة والعبادة، وإذا مات مؤسس هذا المكان أو هذا المركز الذي كان يستقبل فيه العامة والفقراء وعابري السبيل يدفن في هذا المكان، ويصبح الضريح علامة لهذه الزاوية ويرث الأبناء والأحفاد مكانة وعمل هذا الشخص، وتزداد قداسة هذه الزاوية أو هذا الرباط بين أهل الناحية وكانت لكل منطقة ومدينة محروسة بولي من الأولياء⁴.

¹ محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، (د ط)، الجزائر، (د ت ط)، ص 27.

² أحمد مريوش، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص 150.

³ محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية، مصدر سابق، ص 58.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 1، ص 262، 263.

يمكن أن تصنّف الزوايا من حيث الشكل إلى صنفين أساسين فالصنف الأوّل يعرف بالخلواتي يدّعي فيه شيوخه المعرفة بالأسرار الدينية الغيبية الخاصّة ولهم القدرة على توزيعها لأتباعهم ومريديهم، ويفرض عليهم أذكارا خاصة في صلوات معزولة ومحدودة تعرف بأذكار الورد، ويعرف شيوخ هذا الصنف من الزوايا بالطرفيين بسبب أن لهم طريقة خاصة ومفروضة على الأتباع والمريدين¹.

وأما الصنف الثاني من الزوايا فعرف بأنه غير خلواتي، وهو أيضا يعدّ لأتباعه وردا معيّنا من الأذكار التي تتلى عقب الصلوات واهتمام هذا النوع كان منصبًا على تعليم القرآن الكريم وتلاوته للناشئة، وتدرّس بعض العلوم الدينية واللغوية من طرف شيوخ هذه الزوايا، وهذا الصنف يعتبر بمثابة الكتاتيب القرآنية وهي تنتشر بمختلف المناطق الريفية والحضرية منها بالجزائر²، ولكن تقسّم الزوايا من حيث الدور إلى قسمين فالقسم الأوّل يقوم بوظيفة تحفيظ القرآن الكريم ويؤمّه غالبا الأفراد الغرباء الذين سبق لهم أن تعلموا الحروف الهجائية واستظهروا بعض السور القرآنية، وأما القسم الثاني فإنه يقوم بتدرّس بعض فنون الفقهيات وبعض المبادئ في علم الفلك والعقائد وقواعد النحو والصرف وفنون اللغة والمنطق وهذا القسم يؤمّه غالبا المستظهرون لكتاب الله³ ومن أبرز ميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الطرق الصوفية وكثرة المباني المخصصة لها من الزوايا ونحوها، ومنها:

- **الزوايا في مدينة الجزائر:** فهذه مدينة الجزائر كانت تعج بالزوايا والأضرحة والقباب المقامة على الأولياء والصالحين، ومن أشهرها زاوية وضريح عبد الرحمان الثعالبي⁴ وزاوية عبد القادر الجيلاني، وزاوية سيدي محمّد الشريف، وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري، وكذلك زاوية سيدي الفاسي وفي النواحي

¹ أحمد مريوش، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص 22.

² ابن زكري محمّد السعيد بن أحمد، أوضح الدلائل على وجوب اصلاح الزوايا في بلاد القبائل، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1913، ص ص 127، 128.

³ محمّد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية، المصدر سابق، ص 59.

⁴ والتي تعرف بالزاوية الرحمانية وهي تحتوي على مسجد صغير ذو منارة أنيقة مربعة الشكل وقبة مثمثة الزوايا وهو الشكل الذي نقله العثمانيون للجزائر، وبالزاوية وضريح الشيخ، شيّدت الزاوية بمدينة الجزائر سنة 1696م / 1107 هـ.

المجاورة للمدينة كانت زاوية القليعة، وزاويتا النملي وخير الدين ببني موسى، وزاوية البركاني قرب شرشال¹. إضافة الى زاوية القشقاش الخاصة بتدريس التوحيد والفقہ وزاوية الشبارلية المتخصصة في العلوم العقلية والنقلية، وزاوية سيدي محمد الشريف².

-**الزوايا في بايلك الشرق ونواحيه:** فقد اشتهرت قسنطينة وضواحيها، بالعديد من الزوايا بلغت حوالي 16زاوية، وكانت تمثل العائلات المعروفة بالمنطقة والتي احتلت شهرة واسعة ومنها، زاوية سيدي الكتاني، وسيدي المناطق، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي مسيد، وزاوية سيدي راشد، وسيدي التلمساني، وزوايا أولاد الفكّون، وزوايا أولاد جلول، وزوايا بني مسعود . وزاوية مولاي الشقفة بمنطقتي القل وجيجل³. كما كانت منطقة زاوية وبجاية بمنطقة القبائل من أغنى المناطق في الجزائر تمركزا للزوايا إذ وصل عددها الى أكثر من 50 زاوية ومنها زاوية تيزي راشد وزاوية الشيخ محمد التواتي وزاوية الأزهري بمنطقة آيت إسماعيل، وزاوية بن علي الشريف بأقبو (بجاية)⁴ وزاوية أبو القاسم بوجليل وزاوية عبد الرحمان اليلولي⁵ والتي تعتبر من أشهرها إذ تخرّج منها العديد من علماء زاوية الذين أسهموا في قضايا الثقافة⁶، وزاوية سيدي عمر الحاج بالقبائل والتي تأسست في القرن 16م ولاتزال قائمة وعامرة ببني يجر⁷، وغيرها من الزوايا التي ظلت قلاعاً مشعة تنير بنورها طلبة العلم وتتصدى للكفر.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص ص 263، 264.

² أحمد مريوش، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص 164.

³ حميد بن سالم، "الثقافة الإسلامية ومكانة اللغة العربية في الجزائر قبل الاستقلال"، مجلة اللسان العربي، ع1، يونيو 1964، المغرب، ص37.

⁴ زاوية سيدي محمد بن علي الشريف تنتسب إلى مؤسسها سيدي موسى أوغلي سليل الوالي الصالح سيدي عبد السلام بن مشيش الذي عاش في القرن 10هـ/ 16م .

⁵ وهي تنسب إلى سيدي عبد الرحمان بن يسعد المصباحي اليلولي الذي توفي حوالي (1105هـ/ 1693م) من قرية خردوشن ببلولة أومالو ناحية عزازقة.

⁶ باعزيز بن عمر، "الزوايا بمنطقة زاوية"، مجلة الشهاب ج1، م9، جانفي 1933، ص 15 .

⁷ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر الحروسية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1995، ج1، ص 313.

-**الزوايا في بايلك الغرب ونواحيه:** ولم يختلف بايلك الغرب عن ذلك، ولم يتخلف عن الركب الثقافي فعرف هو الآخر بانتشار الزوايا ودور التعليم خاصة في منطقة معسكر وتلمسان وضواحيهما وكثير من الأضرحة التي أقيمت تخليدا لرجال الدين والتصوّف، ومن أشهر الزوايا نذكر زاوية سيدي بومدين، وزاوية محمّد السنوسي، وزاوية محمّد الغماري، وزاوية مولاي الطيّب الوزّاني، وقد استقطبت هذه المراكز الثقافية العديد من الطلبة الذين أصبح لهم شأن كبير في خدمة الثقافة العربية الاسلامية¹.

ولعل تواجد العدد الكبير من الزوايا في منطقة الغرب الجزائري يعود أيضا لجوارها بالمغرب الأقصى الذي اشتهر بدوره ببروز الكثير من الطرق الصوفية التي أثّرت جوارا عن الجزائريين الذين كانت لهم علاقة زواج ومصاهرة مع عائلات مغربية، ووجود جامع القرويين التي رحل لها العديد من علماء الجزائر وطلبتها خلال الفترة العثمانية²، كما اشتهرت زوايا أخرى منها زاوية الشيخ عبد الله بن عبد الرزّاق الادريسي، وزاوية الشيخ محمّد بن الأعرج السليماني وزاوية الشيخ سحنون بن أحمد الحسني³.

-**الزوايا في الصحراء ونواحيها:** كما أنّ منطقة الصحراء لم تخلو هي الأخرى من الزوايا التي كانت تنتشر في مناطق الواحات والقصور القديمة وكان من أبرزها الزاوية القادرية بمنطقة توات⁴ بالجنوب الغربي الغربي للصحراء، والزاوية التجّانية بمنطقة الأغواط وتماسين، والتي كان لها دور في نشر الإسلام.⁵

كما ذكر العيّاشي في رحلته فإنّ الصحراء ازدهرت بها سلسلة من الزوايا وعظم شأنها وزاد نفوذها

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 265.

² أحمد مريوش، الحياة الثقافية، ص 168.

³ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، المرجع السابق، ج2، ص229.

⁴ **منطقة توات:** إقليم توات مجموعة من واحات الصحراء الجزائرية الجنوبية الغربية التي تؤلّف في مجموعها إقليم عبور ما بين سفوح الأطلس الجنوبي وبلاد السودان، يحدّها من الشمال العرق الغربي، وهضبة تادمايت ومن الجنوب هضبة مويدير، ويشكّل واد الساورة الطريق التجاري لإقليم توات، كما ذكرت كلمة توات في المصادر العربية منها ما ذكره عبد الرحمان بن عبد الله السعدي في كتابه "تاريخ السودان" في ص -7- بقوله: " وعلى موطن توات تخلف كثير من أصحابه "، كما أشار إليها ابن بطّوطة في رحلته الشهيرة بقوله: " وصلنا إلى بودة وهي من أكبر قرى توات وأراضيها رمال وسبخ " ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2، ص، 210.

⁵ ابراهيم مياسي، "الدور التعليمي لزاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف"، مجلة حولية المؤرخ، ج1، الجزائر، 2000، ص39.

واستقطبت العديد من الرّحل من جهات عديدة، ومن ثمّ توسّع عمرانها حتى ظهرت بها مدن معروفة مثل عين ماضي وتماسين وطولقة، ومن هذه الزوايا زاوية سيدي أحمد بن موسى وزاوية سيدي عبد الله بن طمطم، وعمر بن محمد الصالح الأنصاري الخزرجي، وزاوية سيدي الأخضر، وكلّها دور علم وتعليم واشعاع فكري¹.

ونظم الزاوية وقوانينها تختلف من زاوية الى أخرى ويعود ذلك لطبيعة كل منطقة من الوجهة الاجتماعية والسياسية والثقافية وبنوع الزاوية في حدّ ذاتها، كما يحتفظ صاحب الزاوية أو مدير المعتمرة في أغلب الأحيان لنفسه، ولعائلته بدور الإشراف، والتوجيه والادارة العامّة وقبول الطلبة ويلتجأ الشيخ وهو صاحب الزاوية الى الاستشارة بمن حوله من الطلبة أو من المدرّسين وذلك للحفاظ على العلاقة الروحية، لأن الشيخ في الزاوية ليس مجرد ملقّن للدروس ونحوها بل يعدّ الأب الروحي للطلبة وللزاوية².

ومّا لا شك فيه أن الزوايا في الجزائر خلال هذه المرحلة كانت تعدّ إحدى مرجعيات الفعل الثقافي في تاريخ الجزائر، ومهما يكن من الأمر فالزوايا كثيرا ما عملت على التكوين الديني والاجتماعي والتربوي لمريديها وأتباعها، مع بعض الاختلاف الواضح من زاوية لأخرى، بحكم أذكار الطريقة وموضع الزاوية ومدى مقدرتها الاقتصادية ونحو ذلك. كما جمعت الزاوية في تعليمها بين التربية الروحية والعسكرية لكونها مبنية على نشر الدعوة الصوفية والتهيئة للجهاد كما كانت ولا زالت مخازن للكتب والمخطوطات، كما ساهمت في إزالة الفوارق الاجتماعية وتوطيد العلاقات بين أفراد المجتمع وحاربت السلطة المستبدّة وغيرها. غير أن اعتمادها للمنهج التقليدي في التعليم أدّى بها الى الركود والجمود الفكري وشيوع الدروشة والانحرافات³. وتعتمد هذه الزوايا في الإنفاق على المتمدرسين وعلى العلماء المدرّسين بها على أموال الزكاة والهبات والهدايا وتبرّعات المسافرين والزوّار الذين يقصدونها للتبرّك بضريح مؤسسها، كما

¹ مولاي بالحيمسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة خلال العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص30.

² أحمد مريوش، حياة الثقافة، مرجع سابق، ص ص 170، 171.

³ يحي بوعزيز، "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19م - 20م"، مجلة الثقافة، عدد 63، 1981، ص 19.

أن للزاوية حبوس وأوقاف لا يجرؤ أحد على التعدي عليها¹. وانطلاقاً مما سبق يتبين لنا أن الزاوية هي مؤسسة دينية روحية اجتماعية، وقد أصبحت بمرور الزمن مركزاً للحياة العلمية والدينية حيث عمل أهلها على تربية الناس، فأصبحت مراكز تستهوي القلوب من مختلف الفئات والطبقات يأتون إليها إما طلباً للعلم أو تقرباً إلى الله وطمعاً في العلاج، أو لحصول البركة في المال والولد .

- **الكتاتيب القرآنية:** كتاتيب القرآن والتي خصّصت لاستظهار كتاب الله العزيز وهي أول محل يتلقّى فيه الطفل الحروف الهجائية بواسطة اللوح المصلصل والقلم القصبي²، وجمعها كُتّاب والاسم مشتق من التكتيب وتعليم الكتابة ووظيفتها الأساسية تحفيظ القرآن الكريم للأطفال، ويعود تأسيسها إلى ضرورة فصل التعليم القرآني عن المسجد بغرض المحافظة على نظافته ووقاره³، كما أنّها كانت أقلّ وحدة للتعليم الابتدائي وكان يطلق عليها كذلك اسم " مسيد " - ولا سيما في العاصمة - وهي ممّا لا شك فيه أنّها تصغير لكلمة " مسجد " لأن الكُتّاب المخصص عادة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة للأطفال، وكان في الغالب وفي الأصل حجرة أو دكان في المسجد معدّ للغرض المذكور ، وكانت الكتاتيب منتشرة في جميع الأحياء وكثير منها يحمل اسم الحي الواقع فيه⁴، ويُقبل الجزائريون على إرسال أبنائهم إلى الكتاتيب دون تهاون أو تردد بهدف التحصيل العلمي الأولي من قراءة وكتابة لأنّ ذلك يمثّل في نظرهم رمزا لإسلام الجميع، وكانت هذه الكتاتيب القرآنية تتميز ببساطة المبنى وقلة الامكانيات المادّية، ومعلّمها من المشايخ، والطلّبة كانوا من الطبقة الفقيرة يقومون بمهمّة التعليم القرآني

¹ رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1830. 1671) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في

التاريخ الحديث ، اشراف فلة موساوي القشاعي ، جامعة الجزائر، 2005، ص، 58.

² ابن ميمون الجزائري، التحفة ، مصدر سابق ، ص 58.

³ يوسف الطيب ، العلاقات العلمية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني - رسائل أئمة التجانية إلى أعيان الجنوب التونسي أمودجا ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراة في التاريخ، إشراف أ/د مكحلي محمّد، جامعة الجليلي اليايس، سيدي بلعباس، 2020/2019، ص ص 81، 82.

⁴ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ص ص 276 ، 277.

قصد الحصول على لقمة العيش كما أن الأغلبية من الطلبة في الكتاتيب يقومون بحفظ القرآن دون فهمه وتدبر معانيه ومقاصده¹.

وقد انتشرت الكتاتيب انتشارا واسعا في الجزائر حتى لا يكاد يخلو حي من الأحياء في المدن والقرى وفي الأرياف منها، وللكتاتيب دور مهم في عملية التعليم خاصة من حيث التعليم الصبية القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم، وما يميّز الكتاتيب عن المدارس الابتدائية هو اختصاصها واقتصرها على تعليم وتحفيظ القرآن الكريم دون غيره من العلوم مثل الحساب واللغة والفقه وغيرها، ولم يكن تعليم القراءة والكتابة في حدّ ذاته هدفا بل كان باعتباره وسيلة لتحفيظ القرآن الكريم أو ما تيسّر منه². والملاحظ أن العديد من هذه الكتاتيب المنتشرة في الجزائر كانت تحمل أسماء مختلفة تدلّ على مؤسّسيها أو القائمين عليها مثل: مسيد سيدي بوقدّور، ومسيد سيدي بن علي بجلي القصبة وغيرها، وعلى الرغم من الأوضاع المزرية التي ميّزت هذه الكتاتيب القرآنية والأساليب البسيطة التي كانت تتبّعها فإنها قامت بدور كبير في تحفيظ القرآن الكريم الذي هو أساس الثقافة الإسلامية، كما أنّ تعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة يحفظ لسانهم ويحدّ مفاهيمهم، ويساهم في بناء رصيدهم المعرفي ورفع الأمية عن أفراد المجتمع الاسلامي بشكل أساسي وتُعدُّ مجتمعا متعلّما محصّنا ومحافظا على خصوصيته العربية الاسلامية ومقاوما لسياسة التمسّيح المسلّط على الشعوب الاسلامية في العصر الحديث³. وكان للعلماء واهل الصلاح دورهم الأساسي في الكتاتيب الممتدة في مختلف الربوع.

-المدارس العلمية الإسلامية: وهي عبارة عن مؤسّسات ثقافية وظيفتها تعليم مختلف العلوم الدينية وغير الدينية، وقد عرّفها "أبو راس الناصري" بقوله: "المدرسة المتعارف عندنا الآن وهي التي تُبنى لدراسة

¹ أحمد مريوش وآخرون، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص 19.

² دباح عائشة، الحياة الثقافية والدينية في الجزائر على عهد الدايات (1830/1671)، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراة، إشراف أ/د سعيد مزيان، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، ص 285، 286.

³ أحمد مريوش وآخرون، الحياة الثقافية، ص 19.

العلم أي تعليمه وتعلّمه¹، ولم يكن في الجزائر جامعات أو مدارس عليا بالمفهوم الحالي خلال العهد العثماني بل كانت دروس مساجدها وجوامعها وزواياها تضاهاي أو تفوق مستوياتها في بعض الأحيان دروس الجوامع الكبرى في المشرق العربي كالجوامع الأموي بدمشق والحرمين² أو حتى في جامع الزيتونة بتونس أو جامع القرويين بالمغرب الأقصى. ومهما كان الأمر فقد كثرت المدارس الابتدائية في الجزائر ووجدت في كل حواضرها، فلا يكاد يخلو حي من الأحياء أو في المدن أو حتى القرى والمناطق النائية في الأرياف، وانتشرت بين أهل البادية هذه المدارس وقد سجّل الرحالة الغربيون الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة بإعجاب كثرة المدارس المنتشرة مما أدى إلى ارتفاع نسبة التعليم وانخفاض نسبة الأمية بين السكان. وقد كان للأوقاف والصدقات دور كبير في انتشار هذه المدارس وارتفاع نسبة التعليم³، وقد كانت هذه المدارس موزعة على نوعين منها مدارس التعليم المتوسط وأخرى للتعليم الثانوي وأخرى بمثابة معاهد عليا بسبب المستوى العالي للدروس المقدمة غير أنّها قليلة العدد مقارنة بغيرها أي المتوسط والثانوي وملقن الدروس في هذه المدارس يسمّى المدرّس أو المعلّم أمّا الطالب فإنّه يتحصّل على إجازة بخطّ شيخه، وإذا واصل تعليمه في المعاهد العليا فيتخرّج برتبة عالم أو شيخ، ويمكن له بذلك الولوج إلى عالم الوظائف في سلك القضاء أو مفتي أو وكيل في إطار الخدمات الرسمية في المساجد والمؤسسات الوقفية وغيرها⁴.

اشتهرت المدن الكبرى والرئيسية خلال هذه الفترة بكثرة المدارس فمدينة الجزائر وحدها كانت تحتوي على 229 مدرسة يدرس بها 5583 تلميذا⁵، وتضاربت حولها الأقوال في العدد، ويعود ذلك بصورة أساسية إلى إدخال المساجد والزوايا في العدد، ونذكر من أهمها مدرسة سيدي رمضان التي كانت

¹ أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دراسة وتحقيق محمد بوركبة، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر 2011، ج1، ص، 91.

² أحمد مريوش وآخرون، الحياة الثقافية، ص 15.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 274.

⁴ رقية شارف، التاريخ والمؤرخون الجزائريون خلال العهد العثماني وإلى غاية 1850، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراة، إشراف أ.د/ أرزقي شويتام، جامعة الجزائر2، 2016/2017، ص 41.

⁵ Turin Yvonne : **Affrontements culturelles dans L'Algérie coloniale (1830/1880)**, Maspero, PARIS, 1971, p:131.

تدرّس الفرائض وعلم الفلك والهندسة. ونذكر أيضا مدرسة الجامع الكبير وتعدّ من المدارس المهمّة في التعليم العالي الذي كان يدرّس فيها 18 أستاذا و08 قرّاء وعدد آخر من العلماء وذلك خلال القرن الثامن عشر¹.

أما بقسنطينة فالمدارس الابتدائية كثيرة خلال الفترة العثمانية وقد وصل عددها 90 مدرسة وهو ما جعل بعض الباحثين يحكمون بأنه يدلّ على أنّ كل طفل ذكر بين السادسة والعاشرة كان له مقعد ومكان في المدرسة، وأما التعليم الثانوي والعالي فقد وجد الفرنسيون له في هذه المدينة سبع مدارس²، وكان من أشهرها المدرسة الكتانية وتسمّى بالصالحية نسبة إلى مؤسسها صالح باي³ حاكم بايلك قسنطينة، وتأسّست سنة 1775م، وكانت ملاصقة لمسجد الكتاني المدفون به صالح باي وهي مدرسة عليا تقدّم دروسا ذو مستوى عالي⁴، وقد كتب الجنرال الفرنسي "بيدو" سنة 1837م تقريرا عن التعليم في هذه المدينة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر وتمّ تقديم هذا التقرير لوزير الحربية المسؤول عن الجزائر وجاء في هذا التقرير " أنّ التعليم كان منتشرًا ولم يتوقّع الفرنسيون ذلك فمدارس الاقليم كانت تخدم جميع مستويات التعليم سواء الابتدائي أو المدارس الثانوية والعليا وعددها سبعة كانت تضمّ 700 طالب"، وكانت النفقات جميعها من الأوقاف وبعد الاحتلال تدهورت وضعية التعليم بسبب استيلاء الفرنسيين على الأوقاف وتفرّق الطلبة نتيجة الحروب والفقر واختفاء المؤسسات التعليمية⁵، فقسنطينة إذن كانت من أكثر المدن عناية بالمؤسّسات العلمية وذلك لاستقرارها السياسي نسبيا ولقربها من تونس وقد قدّر لهذه المدارس أن يكون لها دورها في الحياة الثقافية في الجزائر حتى في العهد الفرنسي⁶.

¹ حلّيمي عبد القادر علي، مدينة الجزائر نشأتها وتطوّرها قبل 1830، مرجع سابق، ص 272.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، نفسه، ص ص 275، 276.

³ صالح باي: قيل أن مولده كان سنة 1725م أصله من بلد أزميز، وكان رجلا عاقلا عارفا بأمر السياسة والسلطة لأنه من الأقدمين في الأوجاق وترقى من مرتبة إلى أخرى ليصبح بايا وبقي على رأسه لمدة 22 سنة (1771/1792)، وكان حسن السيرة وصاحب حق، وهو من أبرز بايات الجزائر في الشرق فقد كان ذو شهرة واسعة وذاع صيته بفضل إنجازاته، ومن مآثره اهتمامه بالمنشآت الدينية.

⁴ رقيّة شارف، التاريخ والمؤرّخون الجزائريون خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 42.

⁵ أبو القاسم سعد الله، "بعض التحوّلات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1830/1518)"، بحوث المؤتمر الدولي حول "العلم والمعرفة في العالم العثماني"، المقام في اسطنبول "تركيا" شهر أفريل 1999، مركز الابحاث للتاريخ والثقافة والفنون الاسلامية، (د ط)، 2000، اسطنبول، تركيا، ص ص 105، 106.

⁶ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، نفسه، ص 284.

ب) المراكز العلمية والدينية في تونس:

لقد عرفت تونس طلائع الفتح الإسلامي المبارك في وقت متقدم، والذي حرص الفاتحون، والولاة - منذ البداية - على تثبيت العقيدة، وترسيخ قيم الإسلام في المجتمع الجديد ببلاد المغرب، انطلاقاً من تونس، وكانت المراكز العلمية والدينية في مقدمة اهتماماتهم، وفي سلم أولوياتهم، وتطورت تلك المراكز على مدار الدول الإسلامية التي حكمت في تونس، وآخرها العهد العثماني الذي لم يقل اهتماماً بتلك المراكز عن سابقه، ويمكن الوقوف على ذلك من خلال النماذج المختلفة.

-المساجد والجوامع: تعتبر المساجد والجوامع عنصراً مهماً في عمارة المدينة الإسلامية لما لها من أهمية دينية وسياسية في المجتمع، كما أنّها تساهم منذ قيام الدولة الإسلامية بدورها التعليمي والثقافي وغيره، وعلى غرار الجزائر فقد جرى تشييد المساجد والجوامع في تونس منذ الفتح الإسلامي للمنطقة، وفي هذا الشأن قام الفاتح عقبة بن نافع والي إفريقية ببناء مسجد القيروان بعد تأسيسه لهذه الأخيرة¹، وقد أخذت المساجد والجوامع تزداد بمرور الوقت وتعاقب الدول التي حكمت تونس.

وخلال الفترة الحديثة عمل العثمانيون على بناء مساجد جديدة واعتنوا بالقديمة منها²، وذلك من خلال ترميمها والعناية بها وتوسيعها أو تخصيص أوقاف لها، ويبدو أنّ الصلاة في تلك الفترة قد أصبحت تقام على المذهب الحنفي في بعض المساجد بعد أن كان يُصلّى فيها على المذهب المالكي مثل جامع القصبية وجامع القصر³ هذا الأخير الواقع قرب باب المنارة والذي كان مالكيًا لكنّه تعرّض جزء منه للخراب نتيجة الاحتلال الإسباني فرمّمه وأخذوه جامعاً لهم.

وتزخر الإيالة التونسية بعدد كبير من المساجد والجوامع والتي تختلف في تاريخ تأسيسها وطابعها

¹ يوسف الطيّب، العلاقات العلمية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني رسائل أئمة التجانية إلى أعيان الجنوب التونسي

أموذجا، أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث، اشراف الدكتور مكحلي محمد، جامعة الجليلي اليابس - سيدي بلعباس - ص 93

² عائشة محمّة، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية (1519-1830) - مقارنة سياسية ثقافية، أطروحة

دكتوراة في التاريخ الحديث، اشراف الدكتور صالح بوسليم، جامعة غرداية (2019/2020)، ص 168.

³ أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون، مرجع سابق، ص 28.

الهندسي ودورها العلمي والثقافي، فقد كان بعضها - ولا يزال إلى اليوم - منارات علمية وفكرية مشهورة داخل تونس وخارجها، وقامت بدور علمي رائد، فكانت كجامعات يقصدها العلماء وطلبة العلم من كل حدب وصوب، وبدايتها مساجد القيروان:

-**مساجد القيروان:** وأشهرها على الإطلاق جامع القيروان الأعظم الذي يصفه الحسن الوزان بقوله: "كما شيّد بها جامعا عظيما عجيبا قائما على أعمدة بهيجة من المرمر اثنان منها قرب المحراب ارتفاعهما لا يتصوّره العقل ولونهما أحمر قان مع نقط بيضاء كأنه رخام سماقي"¹، ويُشير إليه بيسونال في رحلته إلى تونس حينما عرّج على مدينة القيروان بقوله: "... فالجامع الأكبر المسمّى باسم عقبة يضمّ مدرسة شهيرة يؤمّها تلاميذ من أقصى جهات هذه المملكة، وتدرّس فيه القراءة وكتابة النحو العربي والشريعة والعقيدة، وهناك موارد هامة لجراية الأساتذة، وهم بمثابة الأولياء الصالحين مثل رجال الدين لهم مقام كبير"².

كما ذكره الشيخ أبو راس الناصري المعسكري في كتابه (نبأ الإيوان) بقوله: " ودخلت بجامعها الأعظم وأنا ظمآن وتعبان، فوجدت من عجائب الدنيا مرفوعا على سوارى من رخام ومرمر على عدد أيام العام غير ما في الصحن والصومعة... ثمّ دخلت المقصورة التي كانت أمراء إفريقية تصلّي فيها الجمعة.... وهي عن يمين المحراب أنشئت من أعواد الساج³ في غاية الاتقان والنقش"⁴. ويعتبر هذا الجامع من أكبر المساجد الجامعة الباقية في الاسلام وأعظمها مظهرها وهو يتوسّط المدينة وتحيط به الأسواق⁵، كما يوجد في المدينة مساجد أخرى ومنها، مسجد الأنصاري، ومسجد أبي ميسرة، ومسجد الأبواب الثلاثة وغيرها من المساجد في هذه المدينة التي كان عقبة بن نافع قد دعا لها حينما اختطّها وكان معه زهاء خمس وعشرين من صحابة رسول صل عليه وسلم ومّا جاء في هذا الدعاء: " اللهمّ املاها علما

¹ الحسن بن محمّد الوزان، وصف افريقيا، مصدر السابق، ج2، ص88.

² جون أندريه بيسونال، الرحلة إلى تونس 1724م، مصدر سابق، ص 79.

³ الساج: خشب يجلب من الهند وله رائحة طيبة. أنظر لسان العرب ج2، ص 302.

⁴ أبو راس الناصري الجزائري، نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان، تح، وتع، محمّد الحبيب العلابي وسهيل الحبيب، تق، محمّد علي الحبيب، منشورات مركز الدراسات الاسلامية بالقيروان، القيروان، تونس، 2012، ص83.

⁵ محمّد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1988، ص ص 84، 85.

وفقها وأعزّ بها الاسلام وأمنعها من جبايرة الأرض¹.

- **جامع الزيتونة:**² فيعتبر من أشهر مراكز التعليم في حاضرة تونس والعالم الاسلامي وقد أجمع كل المؤرّخين على ذكر مكانته والتنويه بها ومّا يُذكر هنا ما نصّه "ما ضاق صدر مهموم ودخله إلا انفرج وفتحت له بلطيف عنايته أبواب الفرج"³، وقد عمل الحفصيون على ترسيخ تدريس العلم بجامع الزيتونة وأخذ حال التعليم في الانتظام، ويعود ذلك لما أوقفه أهل البرّ والاحسان على تدريس العلوم وخاصة الشرعية منها، غير أن هذا الأمر انقطع على عهد المراديين بسبب انتشار الأوبئة، ثم ساهم الحسينيون في إعادة الاعتبار للجامع برفع عدد المدرّسين به، فانتشر العلم وارتحل إليه الطلّاب من سائر الأقطار، ومن العلوم التي كان يدرسها الطلّاب العلوم الدينية كالتفسير وعلوم القرآن والحديث والفقهاء المالكي والحنفي والفرائض وعلم الكلام، والتصوّف والنحو والصرف واللغة والآداب، والسير والتاريخ والخطّ والعروض والقوافي وآداب البحث، والحساب والهندسة والمساحات وغيرها⁴، كما ذكره وامتدحه الورتيلاني في طريق عودته من رحلة الحج لما مرّ به ورأى من أهل العلم والفضل ومن الطلبة الذين ينهلون من صنوف العلوم فقال ما نصّه: "وكذا المجتمعون في جامع الزيتونة للإقراء والتدريس فتقّصّر العبارة عنهم وعن عدّهم.... فإنّ الجامع المذكور قد انتشرت عليه الأنوار وانبسطت عليه الأضواء والمعارف والعلوم والأذكار، كاد أن يكون جامعا للفنون ومحتويا للعلوم فما أحسنه من جامع أكرم به الطلبة الباحثين فشمس أنوار الفُهوم فيه مُشرقة وفوائده محقّقة ومدقّقة"⁵، وقد تجاوز اشعاع هذا الجامع حدود الإيالة ليصل إلى سائر المناطق الأخرى فقد درس فيه عديد العلماء وتخرّجوا منه واستمرّ يمثّل أعظم وأتقن

¹ أبو العرب مُجّد بن أحمد بن تميم التميمي، كتاب طبقات علماء تونس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د س ط)، ص 56.

² جامع الزيتونة: ينسب إلى الشجرة المباركة المذكورة في القرآن الكريم وهي شجرة الزيتون، وتذكر كتب التاريخ أن موقع الجامع كانت به زيتونة حوالي صومعة كانت يتعبّد بها راهب نصراني عند نزول المسلمين في هذه المنطقة، واقتضى الأمر لإيجاد مكان للصلاة حيث ابتدأ بناؤه في هذا المكان في سنة 114هـ/732م حيث قام والي إفريقية "عبيد الله بن الحبحاب بتوسعته واحكام وضعه على أساس فخم. ينظر: محمّد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 283، 284.

³ محمّد بن الخوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، مصدر سابق، ص 45.

⁴ محمّد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، المرجع نفسه، ص 292.

⁵ الحسين بن محمّد الورتيلاني، مصدر سابق، ج2، ص763.

جامعة تعليمية في البلاد التونسية ويكون شاهدا على تأصل تونس في اسلامها منذ قرون ومع دوره كمكان للصلاة والعبادة كان جامع الزيتونة منذ السنوات الأولى من تأسيسه منارة للعلم والتعليم على غرار المساجد والجموع الأخرى في الإيالة أو حتى المساجد والجموع الكبرى في مناحي العالم الاسلامي.

-**مساجد الحاضرة تونس:** لقد شيّد الأتراك بعد انتصاب حكمهم في تونس العديد من المساجد والجموع لتكون شاهدا على أعمالهم العمرانية ومدى حُبهم للدين وللعلم ومن ذلك نذكر: جامع يوسف داي¹، شيّده أحد أبرز دايات الأسرة المرادية في سوق الترك الذي هو كذلك وكان بناؤه سنة 1021هـ/1612م، وجعل إمامه من الطائفة الحنفية وهو المفتي الشيخ رمضان أفندي وجعل له أوقافا للمؤذنين والقراء كما بنى بإزائه مدرسة تعرف به أيضا وفيها عدّة بيوت للقاطنين بها، ويُعرف هذا الجامع اليوم بالجامع اليوسفي، ومنها جامع حمودة باشا المرادي الذي حكم تونس ما بين (1041هـ/1631م - 1077هـ/1666م)، وهو المعروف بجامع سيدي ابن عروس وذلك بسبب قربه من مقام الشيخ سيدي "أحمد بن عروس" وكان هذا المسجد على درجة كبيرة من الجمال حتى قال عنه ابن أبي دينار: "وبناؤه في غاية الحُسْن والضخامة بحيث لم يُر في المغرب أسرُّ منه، وضخامته تُنبئ عن ضخامة بانيه وأوقف عليه أوقافا جليلة لإمامه وللمؤذنين والقراء.... وجعل إمامه من السادة الحنفية"².

وهذا جامع "سيدي محرز" ويعرف بذلك لوقوعه أمام مقام وضريح الولي الصالح "محرز بن خلف"³،

¹ هو أحد عساكر الغرب من الأتراك العثمانيين، أعجب به عثمان داي وقربه ووثق به وعزم على تزويجه ابنته، وكان قد رشّحه في حياته ليكون خليفته وحينما أحس عثمان داي بدنو أجله نصح بأن يُؤلّى من بعده، وتولى منصبه هذا في رجب 1019هـ/سبتمبر 1610م، وفي عهده كثرت غنائم البحر فعم الرخاء وانتشر الهناء فازداد البناء، فُبُنيت في عهده الأسواق القناطر(الجسور) والجموع ومنها هذا الجامع المعروف باسمه، وشيّد الصوامع، وأجرى الأوقاف على المساجد والجموع، توفي هذا الداي في ليلة الجمعة 23 رجب 1047هـ/30 نوفمبر 1652م. يُنظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتون، مصدر سابق، ص ص 205، 208.

² ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مصدر سابق، ص، 240، 206.

³ محرز بن خلف: هو الولي الصالح الشيخ المرقي العابد محرز بن خلف بن رزين، يعود نسبه للخليفة الراشدي أبو بكر الصديق رضي الله عنه، توفي سنة 413هـ، ودفن بداره التي هي زاويته التي كان يقرئ الصبيان بها في منطقة أريانة، وبعد مجيء العثمانيين أعادوا بناء الضريح بعدما هدمه الإسبان، وفي العهد الحسيني أقام الباي حسين بن علي القباب على الزاوية.

وقد ابتدأ في بنائه سنة 1104هـ/1692م بأمر من الباي محمد المرادي¹ لذا فهو يُعرف ب"جامع محمد المرادي"، غير أنّ الباي أدركته المنية قبل إتمام البناء، فعمل أخاه رمضان باي على إكمال البناء سنة 1699م/1110هـ ولم تُبن الصومعة، ويختلف هذا الجامع في طابعه المعماري فهو يميل إلى الطابع المشرقي العثماني. وأمّا الجامع الجديد والذي يُعرف بجامع الصبّاغين أو الجامع الحسيني فقد أنشأه مؤسس الدولة الحسينية (حسين بن علي التركي)²، وأوّل صلاة أقيمت فيه ظهر يوم الأحد 14 شعبان 1139هـ الموافق ل06 من أفريل 1727م، وقد حضر الجماعة بنفسه وكان أوّل خطيب لهذا الجامع هو الفقيه أبو العباس أحمد بن مصطفى الحنفي، كما أوقف الباي على هذا الجامع أوقافا نافعة³.

كما أسس الوزير أبو المحاسن يوسف خوجة المعروف أو المشهور بلقب "صاحب الطابع" جامعا ضخما في مدينة تونس، ويعرف الجامع باسم "جامع الوزير" أو "جامع صاحب الطابع" وكان ذلك سنة 1813م/1229هـ، وأوّل صلاة أقيمت فيه كانت فريضة الجمعة، وقد حضرها حمودة باشا وكان خطيب الجامع وقتئذ الشيخ محمد بيرم الثالث، كما ألحق بالجامع مدرستين وأوقف لذلك أوقافا وأحدث الوزير في جامعه هذا هيئة علمية لتدريس العلوم الدينية، ومنها جامع الهواء وأطلقوا عليه هذا الاسم لحسن مناخه وارتفاع موقعه ويُعرف كذلك بجامع التوفيق وهو من مآثر المحسنة الأميرة "عطف" زوجة الأمير أبي زكريا الحفصي⁴، ومنها جامع باب البحر وكان يُعرف في البداية بجامع الزيتون ولكن غلب عليه هذا الاسم لقربه من البحر ودفعًا للالتباس بجامع الزيتون المعمور، أسسه أحمد بن مرزوق في حدود سنة 681هـ⁵ وجامع "سبحان الله" وقد تأسس الجامع بعد مجيء المهاجرين الأندلسيين للبلاد التونسية⁶.

¹ كان بايا على تونس ما بين (1099هـ/1688م - 1107هـ/1695م)، وقد سبق التعريف به.

² حكم تونس ما بين (1705م - 1735م / 1117هـ - 1148هـ)

³ ابن أبي الضياف، الإتحاف، نفسه، ص 84، 125.

⁴ حفيظة بوتوقوماس، الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ص 211.

⁵ محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، المطبعة التونسية، تونس، 1939، ص 67.

⁶ نفسه، ص 82.

كما انتشرت جوامع ومساجد أخرى في نواحي الإيالة ومنها "جامع الباي" الجديد بناه محمد الباي المرادي لأتباع المذهب الحنفي وقد أسسه سنة 1094هـ/1682م، ومن الجوامع والمساجد التابعة لأصحاب هذا المذهب أيضا جامع القصبة، وجامع القصر، وهذه الجوامع كلها بعاصمة الإيالة، وفي مدينة صفاقس نجد من الجوامع والمساجد الجامع الكبير، جامع سيدي عمر كمنون، مسجد علي النوري، مسجد سيدي بلخير وجامع الترك.¹

ويستفاد من هذا كله أنّ الجوامع والمساجد كانت منتشرة انتشارا واسعا في الإيالة وقد تمّ احصاؤها بأمر من "محمود باي"، سنة 1235هـ،

وكان عددها 294 مسجدا في مدينة تونس لوحدها من غير الجوامع²، التي لم تكن لوحدها تقوم بدور علمي وتطوير للحياة الثقافية حيث نجد كذلك الزوايا والمدارس العلمية والكتاتيب .

-**الزوايا والأضرحة:** برز أغلبها في تونس خلال العهد الحفصي، ومنذ ذلك العصر أصبحت الزوايا تشغل مكانة هامة في الحياة الدينية للبلاد³، وقد عملت الزوايا في تونس - والتي انتشرت انتشارا واسعا بمختلف أصنافها ووظائفها في المدن والأرياف - على تحقيق الاندماج الاجتماعي بين فئات المجتمع، كما أنّ العهد العثماني في تونس تميّز بانتشار الطرق الصوفية، وتعدّد المباني المخصصة لها من زوايا وقباب وأضرحة، وقد لقيت الزوايا تشجيعا من الحكام تجديدا أو تشييدا وأوقفوا عليها العقارات الكثيرة، وخصصوا لها جرايات دورية حتى أنّ عددها أصبح يفوق عدد المساجد. غير أنّ عمارة الزوايا والأضرحة تميّزت عموما بتواضعها⁴. فهذه مدينة تونس لوحدها ضمت ما يزيد عن تسعين زاوية خلال القرن الثامن الثامن عشر الميلادي وأشهرها زاوية سيدي محرز، زاوية أبي الحسن الشاذلي، وزاوية بن عروس وغيرها في

¹ عائشة محمّة ، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية، مرجع سابق، ص 178.

² محمد بن الخوجة ، تاريخ معالم التوحيد، نفسه، ص ص 147، 163.

³ عائشة محمّة ، التواصل الثقافي، مرجع سابق، ص 178.

⁴ أحمد السعداوي، " المدينة والوقف في تونس القرن السابع عشر من خلال وثائق الأوقاف " ، ضمن كتاب " العثمانيون في المغرب المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطة"، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، ط1، 2005، الرباط، المملكة المغربية، ص 129.

مناطق مختلفة من الإيالة مثل زاوية "سيدي علي المغربي الفاسي" ¹ بمدينة زغوان، ومن أهم زوايا مدينة القيروان نذكر زاوية الشيخ "أبو يوسف الدهماني" المتوفى سنة (621هـ/1224م)، والتي يُعتقد أنّها أوّل زاوية مستقلة عن المسجد نشأت في القيروان، و"زاوية علي العواني" المتوفى سنة (758هـ/1356م)،

وكان حمّودة باشا بن مراد قد أنشأ زاوية "الوحيشي" ²، وتمّ بناؤها سنة (1051هـ/1641م) وهي تعتبر أول زاوية أنشأها العثمانيون في القيروان. كما قام بتجديد زاوية "أبي زمعة البلوي" سنة (1661م/1072هـ)، كما قام الوزير "يوسف صاحب الطابع" بإنشاء زاوية الشيخ "سعد بن فرج" الذي توفّي سنة (1222هـ/1807م)، وهذا "أحمد باي" أنشأ هو الآخر زاوية "عمر عبادة" المتوفى سنة (1272هـ/1856م)، وقد سمّيت باسمه وتمّ بناؤها سنة (1276هـ/1859م) ³.

لقد أضحت الزوايا خلال هذا العهد مركزا من مراكز التأثير الروحي والاجتماعي بل ويتعداه الأمر حتى للتأثير السياسي، فتعددت وظائفها، ومن ذلك ما ذكره "هنري دونان" ⁴ عن الزوايا بقوله: "الزوايا هي مؤسسات دينية من جملة أهدافها العبادة والزكاة والتكوين، وفي هذه الزوايا إضافة إلى تعليم وتفسير القرآن يدرّس فيها الحسابات والهندسة وعلم الفلك والعلوم والآداب والحقوق الإسلامية" ⁵، كما اعتبرها "أندري بيسونال" "أماكن للتحصّن والاعتصام ويتمّ فيها توفير الغذاء والسكن للمسافرين ويجد فيها المساكين ملجأ مضمونا ولا يمكن القيام فيها بأي عمل عدواني ولا

¹ ينسب لمدينة فاس المغربية توفّي في (1120هـ/1710م).

² تنسب هذه الزاوية للولي الصالح "علي الوحيشي"، وقد اعتقد حمّودة باشا ببركة هذا الرجل ومكانته عند الله بعد وقوع حادث له أثناء زيارته لمدينة القيروان.

³ نجوى عثمان، "الزوايا والمدارس العثمانية في القيروان"، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، المقام في اسطنبول "تركيا" شهر أبريل 1999، مركز الابحاث للتاريخ والثقافة والفنون الاسلامية، (د ط)، 2000، اسطنبول، تركيا، ص 137.

⁴ هو هنري دونان ولد في مدينة جنيف بسويسرا سنة 1828م وعرف بمواقفه الانسانية، مؤسس منظمة (الصليب الأحمر) الدولية، متحصّل على جائزة نوبل للسلام، أقام في تونس لمدة سنة 1858م، وألف كتابه الأوّل "مذكرات عن الإيالة التونسية"، توفّي سنة 1910م.

⁵ هنري دونان، الإيالة التونسية 1858م، تر، محمّد فريد الشريف، المطبعة العصرية، تونس، 2012، ص 96.

إلقاء القبض على أي سجين إلا بأمر خاص من الملك ويقع فيها قبول المماليك مهما كانت ديانتهم ويمكن لهم المكوث بها إلى أن يقرر أسيادهم بيعهم¹، وفي هذه الزوايا ينتصب الشيوخ ويحيط بهم المريدون فيأتمرون بأوامرهم، وقد استطاع هؤلاء الشيوخ التأثير في مختلف فئات المجتمع وجذبوهم نحوهم لذا عمل حكام الإيالة وأعوانهم لاسترضاء هؤلاء الشيوخ فبنوا لهم أو رّموا لهم الزوايا وأوقفوا لها الأوقاف.

وهكذا أضحي للزاوية مكانة كبيرة في المجتمع نظرا لتعدد وظائفها فالبعض منها كانت تعتبر جامعا وزاوية في نفس الوقت مثل زاوية سيدي علي عزوز بمنطقة زغوان والتي أنشأها محمد باي، ومنها ما كانت تقوم بدور تعليمي مهم حيث مأوى لطلبة العلم فُتلقى بها دروس للعلم مثل زاوية سيدي المسطاري التي بناها المراديون بمنطقة بنزرت، وقد أوقفوا لها أوقافا تُصرف عن المدرّسين بها والطلبة القاطنين فيها أو ما تحتاج له الزاوية من رّم وبناء واستصباح وإطعام للفقراء والمساكين وغيرها². ومنها كذلك زاوية ابراهيم الجمني بجزيرة جربة التي كانت محلا ومأوى للعبادة ولتدريس الفقه المالكي في وسط يغلب عليه المذهب الإباضي³. كما كانت بعضا من هذه الزوايا تتعهد بتعليم القرآن، وحفظه ومنها زاوية "سيدي عبد الرحمان المجذوب"⁴، والتي حُصّصت لها أوقافا كثيرة فتتكفل بإيواء وإطعام المتعلمين وتلبية احتياجاتهم. ومنها ما كانت لها مهمّات اجتماعية فتقدّم الطعام لمن يأوي إليها. وضربت زاوية القشّاش المثل في هذا المجال⁵، ولقد أدّى تشجيع بايات تونس للزوايا وللقائمين عليها بأداء أدوار مختلفة اجتماعية واقتصادية وسياسية في المجتمع التونسي عدا عن دورها التعليمي والتربوي التي اشتركت فيه مع المدارس المختلفة التي انتشرت هي كذلك في الإيالة التونسية.

¹ جون أندريه بيسونال، الرحلة إلى تونس، مصدر سابق، ص 27.

² أحمد السعداوي، المدينة والوقف في تونس القرن السابع عشر من خلال وثائق الأوقاف، المرجع السابق، ص 129.

³ أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون، مرجع سابق، ص 75.

⁴ أحد رجال التصوّف قدم من المغرب الأقصى واستقرّ في بعض جهات تونس، و كان مجذوبا مخلصا صائما الدهر كلّه، وقد نشر بعض المغاربة طريقته بالبلاد التونسية. ينظر: إيالة تونس العثمانية، مصدر سابق، ص 248.

⁵ أحمد قاسم، إيالة تونس العثمانية، مصدر سابق، ص 247.

*المدارس العلمية الإسلامية: اهتمت الدول الإسلامية في مختلف العصور بإنشاء المدارس لنشر العلم والمعرفة وكانت ميزة من ميزات هذه الدول، وقد انتشرت المدارس في العديد من مدن البلاد التونسية وأقدم هذه المدارس هي المدرسة الشماعية¹، وبمجيء الأندلسيين ونزوحهم نحو البلاد التونسية عملوا على تأسيس المدارس ومنها "المدرسة الأندلسية"، وتعتبر من مآثر أهل الأندلس في البلاد التونسية، وتمّ بناؤها في أواخر رجب 1034هـ/1674م، وتُعرف بـ "مدرسة الشيخ شعبان الأندلسي" والذي كان أول من انتصب للتدريس فيها وهو من أشهر علماء الأندلس الوافدين على تونس في عهد "عثمان داي"². وعمل العثمانيون كذلك على ترميم بعض المدارس القديمة الحريّة وخصّصوها للطلبة الحنفية، كما قاموا بتشييد مدارس جديدة. وكان الحسينيون أوفر حظا في إنشائها والتي لم يقتصر الأمر على المدارس الحنفية بل إنّ البايات، ساهموا في إنشاء المدارس المالكية ومنها "المدرسة المرادية" التي بناها مراد الثاني (1666م - 1675م) وأوقفها على طلبة المذهب المالكي، وهي تقع عند باب الربع بمدينة تونس كما تُعرف بـ "مدرسة التوبة" لأنّها كانت مسكنا للأجناد، ويقع فيها الفجور فغيّر رسمها الأوّل وجعلها لتلاوة وحفظ كتاب الله تعالى والعلم³ وبها يعقد ختم الحديث النبوي في الثامن عشر من شهر رمضان، وقد تمّ بناؤها في سنة 1084هـ/1674م⁴.

كما شيّد المراديون العديد من المدارس في الكثير من مدن الإيالة مثل بنزرت، باجة، الكاف، القيروان، سوسة، صفاقس، قابس، جربة وتوزر، وفي هذه المدارس كانت تُدرّس بها بعض مبادئ العلوم السائدة في ذلك العهد ويكوّن فيها حفظة كتاب الله الذين يتخرّجون منها بعد ذلك كمؤدّبين للصيّان، على أن يكون مؤدب صالح للتأديب وتدريس العلم ويكون تدريسه عاما لكل مريد لطلب العلم.

¹ أسّس هذه المدرسة الأمير أبو زكريّا يحيى بن الشيخ أبي محمّد بن أبي حفص سنة 633هـ، ومنها في هذا العصر كذلك مدرسة المفرض وقيل المعرض، ومنها أيضا المدرسة التوفيقية، وسمّيت بمدرسة الشماعين نسبة لسوق الشماعين الذي كان حولها، وكانت صناعة الشموع من التجارة الراجحة في تونس في ذلك العهد.

² محمّد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد، مصدر سابق، ص 171، 186.

³ ابن أبي دينار، المؤنس، مصدر سابق، ص 248.

⁴ محمّد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد، نفسه، ص 188.

ومن هذه المدارس مدرسة باجة التي شيدها " محمد باي "، وأعدّها لقراءة القرآن وتدرّس العلم واشتملت على بيوت هياها للطلبة لتعلم العلم والقرآن¹، ومنها المدرسة اليوسفية والتي شيدها أبو الخيرات "يوسف داي" وكانت بجوار الجامع وقد أنشئت سنة 1121هـ الواقعة بالقرب من سوق البشامقية، وكان ينعقد بها ختم الحديث النبوي في 24 رمضان²، ومنها المدرسة الباشية والتي أسّسها الباشا "علي باي الأوّل" وهي تُعرف بمدرسة "القشاشين" غير أنّها اشتهرت باسم "الباشية" نسبة إلى مؤسسها وقد احتوت على قاعات عدّة لتدرّس الطلبة واشترط فيهم شروطاً عدّة، وقدم لمشيختها الشيخ محمد المحجوب الحنفي وكان ذلك سنة 1166هـ، وعمّرها بنفائس الكتب وجعلها وفقاً على طلبة العلم من الحنفية، كما شيّد مدرسة أخرى هي "مدرسة السليمانية" نسبة لابنه "سليمان" وقدم لمشيختها الشيخ محمد بن علي بن خليفة الغرياني³.

كما توجد عدّة مدارس أخرى في نواحي الايالة التونسية كان من أبرزها مدرسة سوسة والقيروان، ومدرسة سيدي علي النوري بصفاقس، ومدرسة حسين باي بنفطة والتي أطلق عليها اسم مدرسة الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني، وخصّص للمدرّسين والعاملين بها وللطلبة كذلك مرتبات على حسب مراتبهم ودرجاتهم العلمية⁴.

* **الكتاتيب القرآنية:** يُعتبر التعليم في الكتاتيب قاعدة التعليم العربي والاسلامي والنواة الأولى لظهور المؤسسات التعليمية والتربوية، كما تمثّل إرثاً ثقافياً، ورغم تواضعها فهي تشهد الإقبال المكثّف والأعداد المتزايد من التلاميذ فهي تؤدّي دوراً تعليمياً ودينيّاً متكاملًا للناشئة، فقليلاً ما تجد في تلك الفترة من لا يُحسن القراءة والكتابة، ولقد أُعتبر الكُتّاب القرآني إحدى المؤسسات التي تنتمي إلى منظومة التعليم

¹ أحمد السعداوي، المدينة والوقف في تونس القرن السابع عشر من خلال وثائق الأوقاف، المرجع نفسه، ص 130.

² محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد، نفسه، ص 194.

³ محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الطريف، مصدر سابق، ص 96.

⁴ هذه أسماء بعض المدارس التي بنيت في العديد من مناطق الإيالة من غير ما اشتهرت به تونس العاصمة من انتشار للمدارس العلمية ومنها: مدرسة بير الحجار، والمدرسة الجاسوسية، ومدرسة صاحب الطابع، مدرسة سيدي شبيحة، المدرسة القاسمية، والمدرسة الصالحية، ومدرسة الهداية وغيرها.

الديني أو الشرعي، هذه المؤسسة ظلّت لفترات زمنية طويلة الحلقة الأساسية والأولى التي ينهل منها الطالب الكتابة والقراءة والعلوم والمعارف الدينية وأساسها القرآن الكريم، و كانت هذه الكتابات تُلحق بالمجمّعات الدينية وتُخصّص لتعليم الأطفال القرآن، بحيث لا تكاد تجد مسجداً ولا زاوية بدون معلّم لتعليم الصبيان مبادئ الكتابة وحفظ القرآن فهذا "يوسف داي" أنشأ قرب جامعته كُتاباً وأحبس عليه جملة من الحوانيت على المعلّم ليكون عوناً له على تعليمه للأولاد الذين به، وكذلك فعل "محمد باي" الذي وضع وُقُفية كاملة عن خاصّة بالمكتب الذي أنشأه قرب جامعته¹.

لقد كان التعليم في الكُتاب يقوم أساساً على حفظ القرآن، فلا بدّ للطالب من الصبر الطويل وعليه حفظ القرآن بالتردّد على هذه الكتابات، فيدخل الطالب وهو في سن صغير ولا يغادره إلا وهو في سن العاشرة أو أكثر، ويبدأ في حفظ القرآن آية آية، وسورة سورة وهكذا، ورغم اندثار التعليم في الكتابات تدريجياً في عدد من مناطق الإيالة فقد بقيت البعض الآخر منها محافظة على هذا النوع من التعليم ومنها منطقة الجريد التي عُرف أهلها بحفظهم الكبير للقرآن لدرجة أنّهم كانوا يعقدون المباريات في الحفظ².

كما كانت نفطة تحتوي على عدد كبير من المساجد والجوامع والزوايا والكتاتيب ورغم صغرها ولكنها قبابها سُمّيت بـ "الكوفة الصُغرى"، كما تميّزت بكثرة علمائها وكثرة طلابها الذين يفتنون إليها من كلّ الآفاق للتعلّم والتفقه في الدين، فكانت "كعبة ثانية" يقصدها طالبوا العلم من الجزائر وطرابلس، غير أنّه من النقاط التي يمكن تسجيلها على هذه الكتابات أن التعليم بها يقتصر على حفظ القرآن الكريم دون ترك مجال أوسع لدراسة العلوم الأخرى كالفقه والأدب والنحو، كما أنّه كان يعتمد على الذاكرة دون الذكاء فتغيب هذه الملكة عند الطالب أو تضعف فالمؤدّب لا يقوم بطرح الأسئلة وتقريب الأفكار والعلاقة بين الأشياء وتسلسل الأحداث والعلاقة بين السبب والنتيجة لذا لا

¹ أحمد السعداوي، المدينة والوقف في تونس القرن السابع عشر من خلال وثائق الأوقاف، نفسه ص 132

² قاسم أحمد، "الكتاتيب بالبلاد التونسية"، المجلة التاريخية المغاربية، سنة 25، عدد 89، 90، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان -، ماي، 1993 ص 143.

يتعوّد الطالب على النقد أو القيام بمجهود فكري فكان يغادر الكتاب دون البحث أو التساؤل والتفكير¹.

والخلاصة أن الأوضاع الثقافية في كلا البلدين، كانت متشابهة، بوجود حواضر ثقافية ومراكز علمية منتشرة في مختلف الأنحاء، والتي ساهم في تشييدها أهل لفضل والخير والإحسان، منذ بداية انتشار الإسلام في البلدين، وكان للحكام العثمانيين مجهوداتهم المعتبرة في تأسيس تلك المراكز والجوامع والمدارس العلمية. كما كان لرجال التصوف دورهم في تأسيس الزوايا والرباطات، وبناء الاضرحة التي أحاط بها المسجد أو الكتاب القرآني، فكان التكامل بارزا في الشواهد التاريخية السابقة.

وقد سبق قدوم العثمانيين بعض الركود والتقهقر الثقافي، بسبب الهجمات الصليبية على بلاد المغرب عموما، ولكن الاستقرار واستتباب الأمن، فتح مجالا رحبا لانتعاش الثقافة، ونشر العلم، وساهمت مؤسسة الأوقاف كثيرا في تمويل ورعاية تلك المراكز والمؤسسات، والسهر على دعم القائمين عليها.

وكان للعلماء دورهم الفعال في تنشيط الحياة الثقافية، وهاجروا في الآفاق، وطلبوا العلم وجلبوه، ونشروه في ربوعهم، وغرسوا القيم الروحية المختلفة. كما كان لهجرتهم أثر في البلاد المجاورة، كما هو الحال في هجرة علماء الجزائر إلى تونس، وما أحاط بذلك من آثار، وانعكاسات ارتبطت بالجوانب المختلفة السياسية في مقدمتها، فضلا عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وتجمع هذا العقد النفيس العوامل الثقافية.

¹ Kraiem (Mustapha.), La Tunisie précoloniale , t2, Tunis 1973, p 162.

الفصل الثاني:

عوامل هجرة العلماء الجزائريين نحو تونس

أولا - اتصال العثمانيين بالعلماء في الجزائر

ثانيا- العوامل السياسية والاقتصادية

ثالثا - العوامل الثقافية والاجتماعية

أولاً - اتصال العثمانيين بالعلماء في الجزائر:

كانت علاقة العثمانيين بالعلماء في الجزائر حسنة - في المرحل الأولى - واستعانوا بهم في تحقيق الأمن والاستقرار للسلطة الجديدة، لأنهم أدركوا قدرتهم على ذلك، بسبب سلطتهم الروحية ومكانتهم الاجتماعية، فشاركوا في الجهاد وحثوا عليه. وكانت معاملة السلطة لهم حسنة، ففتحوا لهم المناصب، وأكثروا لهم العطايا، ووفروا لهم الامتيازات المختلفة، ولكن ذلك كان مؤقتاً، فسرعان ما وقع النفور، وحدث الصدام، وتآزمت العلاقات بين الطرفين، وكان سبباً في ارهاصات الهجرة الخارجية، وتطافرت العوامل العديدة، التي شجعتهم للمضي قدماً. ومما شجعهم الظروف السيئة، السياسية الصعبة، والاقتصادية والاجتماعية القاسية، والظروف الثقافية المتدهورة، والتي فقد بعض العلماء مكانتهم، وتعرض بعضهم للتضييق وخافوا على انفسهم، فوجدوا العزاء في ترك المكان، وأحدثوا التواصل مع البلدان القريبة وخصوصاً البلاد التونسية، وهذا ما نعرضه من خلال هذا الفصل.

1- التعاون بين العلماء والعثمانيين وحثهم على الجهاد ضدّ الاسبان:

عرفت الجزائر ولاسيما قبل الوجود العثماني، ظهور الخطر المسيحي الاسباني، وتهديده سواحل بلاد المغرب وهو ما أدى إلى بروز مجموعة من المرابطين جعلوا زواياهم ملجأً لمجاهدي البحر وللبحارة العثمانيين، وقد تحالف هؤلاء المرابطون والعلماء مع العثمانيين لردّ ذلك الخطر، فكانت الانتصارات التي حقّقها العثمانيون هي التي دفعت سكان مدينة الجزائر إلى مراسلة الاخوة بربروس وطلب النجدة منهم¹، ومن هنا بدأت تتضح معالم العلاقة الدينية والروحية بين العثمانيين وعلماء ومرابطي الجزائر آنذاك، وورثها يعود أول اتصال تمّ بينهما إلى اتصال عروج بالشيخ "أحمد بن يوسف الملياني"² سنة 1517م غرب مدينة وهران عندما قصده الأخوة بربروس مع أسير مغربي كدليل لهم، وقد نصّحهم بالاتّصال برجل ذو نفوذ روحي وديني، وبوصولهم إلى الشيخ قال له هذا الأخير: "عزمت إذن وأصحابك الهجوم على العدو

¹ مسعود بقادي، هجرة علماء تلمسان إلى فاس، مرجع سابق، ص 70.

² أحمد بن يوسف الملياني: صوفي شاذلي الطريقة لمعرفة أكثر عنه، يُنظر "تعريف الخلف برجال السلف" لأبي القاسم محمد الحفناوي، ص 97 وما بعدها، وتاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 495، 497.

"؟ ، عندها جثى عروج عند قدميه وأدرك العثمانيون أنّ رجال التصوّف والعلم هم خير حليف لهم في صراعهم مع الاسبان¹، وقد بارك العديد من شيوخ الزوايا والعلماء الوجود العثماني وتحالفوا معه لمحاربة هذا المحتل الوافد غير المرحّب به عندهم في المنطقة الغربية.

وكذلك فعل الثعالبية في العاصمة فقد عقدوا مع عروج معاهدة لصدّ العدوان الاسباني الذي تمركز بصخرة البنيون قرب شاطئ المدينة، لقد دعّم التواجد الاسباني فكرة التحالف بين الطرفين، فقد كان العثمانيون بحاجة لهؤلاء العلماء لمّد يد العون لرصّ الصّفوف وحثّ الناس على النفير ، والجهاد ضدّ العدو الاسباني المسيحي، فكانوا يلهبون الحماس في القلوب للقتال، لذا فهذه العلاقة بقيت تدعمها فكرة الجهاد ضدّ التواجد الاسباني حتّى إلى غاية سنة 1792م، وحتّى هذا التاريخ ما زالت الهيمنة المسيحية على مدينة وهران، خاصّة أنّ فكرة تحريرها منهم (الاسبان) تعدّ العامل المشترك بين الحكّام من جهة والأهالي من جهة أخرى، خاصّة أنّ العلماء يُعتبرون همزة وصل بينهما، لذا فشعبية الباي أو الداوي كان يحددها اهتمامه وعزمه على تحرير هذه المدينة فقد كانت الورقة الراجحة للحكّام العثمانيين لكسب الرعيّة وتأييد العلماء، وإذا لم يقم العثمانيون بالجهاد فإنّ العلماء سيتهمونهم بالتهاون في الدفاع عن الاسلام والخلود للرّاحة والتّغاضي عن العدو².

وكان من أكبر المحرّضين للحكّام العثمانيين على الجهاد ضدّ الاسبان واسترجاع مدينة وهران الشيخ محمّد أقوجيل³، الذي خاطب الداوي أحمد باشا (1695م - 1698م) وحثّه على تحرير مدينة وهران والسعي لاسترجاعها في قصيدة أهم ما جاء فيها :

¹ صادق محمّد الحاج، مليانة ووليتها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، (د ر ط)، 1964، الجزائر، ص 104.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مرجع سابق، ص 207.

³ محمّد أقوجيل : هو محمّد بن محمّد المعروف ب"ابن أقوجيل " عالم لامع من علماء مدينة الجزائر، كما أنه من أبرز شعرائها خلال القرن 11هـ/17م، تولى القضاء في عهد بكداش باشا، كما كان يقرض الشعر فخورا بنفسه، ناقدا لمعاصريه، لضعفهم في البيان والفصاحة، توفّي ابن أقوجيل حوالي سنة 1078هـ / 1667م، يُنظر الموسوعة الجزائرية - الأعلام، المجلس الأعلى للغة العربية، المجلد الأول الخاص بالأعلام دار بهاء الدين للنشر والتوزيع(د ر ط)، (د ت ط)، الجزائر، ص 574.

ولتلتفت نحو الجهاد بقوة *** والكفر أقطع أصله بذكور
أضرم على الكفار نار الحرب لا *** تقلع ولا تمهلهم بفتور
وبقربنا وهران ضرس مؤلم *** سهل اقتلاع في اعتناء يسير
فأنهض بعزمك نحوها مستنصرًا *** بالله في جدّ وفي تشمير

وهذا العلامة المحقق محمد بن عبد المؤمن¹ في قصيدته يحرّض الداوي حسن الشريف باشا عن
الأمر نفسه بقوله:

نادتك وهران فلبّ نداها *** وأنزل بها لا تقصد سواها
واستدع طائفة العساكر نحوها *** يغزونها ولينزلوا بفناها
أضحى الصليب مؤيدا والدين قد *** درست معاملة فلست تراها
جعلوا بها الناقوس في أوقاتهم *** بدل الآذان وغيروا معناها
ذاك الأمير أبو محمد الرضى *** حسن به قطر الجزائر تاهها
أنت الأمير المرتجى لكريهة *** يوم النزال فأنت قطر رحاها
قوموا لها يا معشر الإسلام قد *** آن القيام لها وحن لقاها
فالأُن أنُ الفتح إذْ ظهرت بها *** آثار تنبي أنه وافاها²

¹ محمد بن عبد المؤمن: هو أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن أحد قضاة المالكية بالجزائر توفّي سنة 1101هـ / 1690م ، يُنظر :
تعريف الخلف برجال السلف ، مرجع سابق ، ص 471.

² محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية ، تح محمد بن عبد الكريم ، مصدر سابق ، ص ص ، 301 ، 304.

وأما الشاعر أبو العباس أحمد أبي عبد الله، فقد حثّ العثمانيين واستصرخهم من أجل إنقاذ المدينة من يد الكفرة فقال :

أيا معشر الأتراك أيا كل عالم *** وكل ولي حافظ للأوامر
أناشدكم بالله ما عذر كلّمكم *** لدى الله في أمر الخنازير
أذلكم الله كيف رضيتم بسني *** العذارى من بنات الأكابر¹

لقد أصبح حثُّ العلماء للحكّام العثمانيين على الجهاد بمثابة تأييد لهم والقبول بوجودهم، كما قام العلماء كذلك بكتابة فتاوي وأحاديث نبوية وسير ومغازي تحرّض وتشحذ الهمم نحو مواجهة العدو النصراني، ومن ذلك ما خصّصه ابن زرفة الدخاوي في كتابه "الرحلة القمرية" حيث كتب فصلاً كاملاً حول (الترغيب في الجهاد والترهيب لمن تغافل عنه من العباد)، وذكر فضائله كما تحدّث عن مراتب الشهيد وفضائله أيضاً وأشار بوجود الجهاد في وهران ضدّ الوجود الإسباني².

2- مشاركة العلماء في الجهاد :

لم يكتف العلماء والشُعراء بالحثّ على الجهاد والدّعوة له أو التحريض عليه من خلال الشعر الذي يُعرف بشعر "الاستصراخ" بل هناك من شارك بنفسه في الجهاد أو ساهم فيه هو وأتباعه أو مريديه، لأنهم رأوا أن مصلحة الدين تقتضي محاربة الكفّار ومواجهة العدو، وهو شرف لهم وممّن نذكرهم في هذا الشأن العالم الجليل الشيخ عبد الله المشرفي³ الذي كان يُدعى شيخ الجماعة وشيخ الراشدية الذي أسّس لنفسه زاوية ومعهداً علمياً بمنطقة الكرط قرب مدينة معسكر، والذي شارك بنفسه في مقاومة النصارى

¹ توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1792-1492)، م.و.ك.، ط3، الجزائر، 1984، ص ص 438، 440

² بوجلال قّدور، مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بايلك الغرب فترة الدايات (1671 - 1830)، أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث، جامعة وهران، 2013/2014، ص 117.

³ هو عبد القادر بن عبد الله بن محمّد المشرفي الغريسي من فقهاء المالكية، توفي سنة 1778م/1198هـ، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 303.

الاسبان بوهران في محاولة التحرير الأوّل لها سنة 1708م / 1119هـ ، وهو من ألف رسالة في التّنديد والتّشهير بالقبائل التي كانت تتعاون مع الاسبان المحتلّين لوهران وسّمّاها "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الأعراب كبني عامر" ، وقد عدّد فيها القبائل التي كانت تتعاون مع الاسبان مثل قبيلة شافع وقبيلة أولاد عبد الله وغيرها¹. ممّا سبق يتبيّن أن الجهاد ضدّ الاسبان كان المرآة العاكسة للتحالف بين العثمانيين وسكّان الجزائر وعلى رأسهم العلماء الذين كانوا دُعاة الجهاد وحُماة البلاد وقد أدرك العثمانيون هذا الأمر فإن لم يقوموا بدور الجهاد تعرّضوا لسخط العلماء والعامّة على حدّ سواء، هذا ورغم خيانة ابن التّومي لهم الذي كان زعيما للأعراب القاطنين بسهل متّيجة وهو من قبيلة ثعلب وتمّ قتله من طرف عروج ، وأذعن له السكّان بالطّاعة² إلا أنّ ثقتهم بأهل العلم ورجال الدّين عامّة والصّوفية خاصّة بقيت ثابتة فقد عين العثمانيون "أبا عبد الله محمّد بن علي الخزوي"³ الذي كان من أهل ورجال الدّين والتصوّف سفيرا لهم لدى سلاطين المغرب لتحديد الحدود وتأمين العلاقات بين البلدين، والأمر نفسه كان في مدينة عنّابة حيث اتّصل العثمانيون بعائلة السّاسي البوني التي كانت تمثّل السّلطة الرّوحية والدينية هناك، وكان ردّها إيجابيا فتوثّقت العلاقة بينهما ويظهر ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين "محمّد ساسي البوني" و "يوسف باشا"، وملخص إحدى هذه الرسائل أنّ هذا الباشا يقدر البوني كثيرا ويعرف مكانته في بلده لذا مدحه وأثنى عليه، وطلب مشورته ومعونته وطلب منه التدخّل لجلب طاعة الرعيّة، وقد أبدى الشّيخ استعداداه لذلك مقابل العفو عن أهل المدينة⁴.

¹ آغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود ، مصدر سابق، ج 1، ص100.

² الحسن بن محمّد الوزان ، وصف افريقيا ، مصدر سابق، ج 2، ص39.

³ من علماء الجزائر أهله من طرابلس الغرب ، ولد في قرية صغيرة قرب طرابلس حوالي 880هـ/1475م ، ارتحل إلى الجزائر واستقرّ بها يعتبر من علماء المالكية والصوفية وفق منهج أهل السنّة والجماعة ، وهو من تلاميذ يحي العبدلي وأحمد زروق من أهمّ مؤلفاته "مزيّل اللبس عن أدب وأسرار القواعد الخمس" ، وقد كان صاحب حظوة عند العثمانيين ، تويّ سنة 1555م / 962-963هـ بالجزائر .

⁴ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1، المرجع نفسه ، ص412.

في منطقة مجّاجة ضواحي مدينة "تنس" أيضا رابطت عائلة أجهلول المجاجي¹ التي أسّست زاوية بالمنطقة كان من أهم أهدافها الجهاد ضدّ الغزو المسيحي تعاونت هي الأخرى مع العثمانيين وظلّت تؤدّي دورها في الجهاد معهم ضد الغزو الاسباني، كما قصد العثمانيون ابن المغوفل في ضواحي مدينة الشلف الذي كان من صلحائها وطلبوا منه مبايعتهم ومناصرتهم على الزيّانيين فجهّز لهم حملة وأرسل معهم ولديّه بعد أن اعتذر لهم على عدم الدّهاب معهم²، لكن الأمر كان مختلفا في منطقة القبائل فقد كان الاحتلال الاسباني لبجاية عَقَبَةً في تعميق هذه العلاقة وهو ما أدّى إلى تدعيم النظام القبلي في المنطقة ونفورها من السلطة المركزية في مدينة الجزائر³. وفي قسنطينة كانت لأُسْرَتِي الفكّون وابن باديس المكانة الكبيرة في المدينة فقد أثنى العثمانيون على أسرة الفكّون التي انتصرت للباشوات أثناء ثورة ابن الصخري⁴ أو في فتنة ابن الأحرش⁵. وأمّا أسرة ابن باديس فقد كانت علاقتها بالعثمانيين طيّبة فقد تولّى العديد من أفراد هذه الأسرة وظائف مرموقة في العهد العثماني¹.

¹ هو محمّد بن علي المجاجي: (945 هـ - 1002 هـ / 1538 - 1594م) المعروف ب (أجهلول) عالم من الزّهّاد العبّاد شريف من أصل أندلسي، له باع كبير في العلم كانت تُشدّد له الرحال في المسائل العلمية، هو من أهل مجّاجة وله فيها زاوية مشهورة، يُنظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 286.

² رشيد بكاي، تأثير الطرق الصوفية، مرجع سابق، ص ص 210، 211.

³ ناصر الدين سعيدوني، مؤسّسة الزوايا في الجزائر العثمانية، مرجع سابق، ص 43.

⁴ سبب ذلك أن باي قسنطينة مراد باي تحوّف من شيخ العرب " محمّد الصخري بوعكاز " شيخ الذواودة، واستدعاه إلى معسكره وأتممه بالتمرد والعصيان، وحكم عليه مع ابنه وبعضا من أعوانه بالإعدام ونقّده وكان ذلك في شهر جوان سنة 1637م / 1 صفر 1047 هـ، وهو ما أدّى بأخ القتيل "أحمد بن الصخري" بإعلان الثورة على السلطة، حيث تعرّض مراد باي إلى هزائم كبيرة رغم نجدة الباشا يوسف له، فتعطلّت التجارة، وشاعت الفوضى، وهو ما أدّى بيوسف باشا لاستغلال نفوذ العلماء ورجال الطرق الصوفية للحد من الثورة وتهدئة النفوس بالنصح والموعظة الحسنة. يُنظر: عطية محمّد، ثورة ابن الصخري في الشرق الجزائري، مجلّة العلوم الاسلامية والحضارة (مركز البحث في العلوم الاسلامية والحضارة الأوغاوط)، المجلّد 7، العدد، 1، السنة 2022م، ص ص 621، 640.

⁵ هو الحاج محمّد بن عبد الله بن الأحرش مغربي الأصل و الملقّب ب " البودالي " التي تعني أمير ركب الحج في العرف المغربي، مكث في الجزائر بمنطقة القبائل مدة من الزمن أثناء عودته من الحج، فالتفت حوله العديد من الخلق وازداد نشاطه مثل اطعام الفقراء وإمامة النَّاس وغيرها، لينتهاز الفرصة لإعلان ثورته وقيل أنّه بإيعاز من الانجليز ثار ضد العثمانيين، غير أنّ الزهار يشير بأن ابن الأحرش كان مُحَرَّضا من طرف " حمودة باشا " الذي كان على عداوة مع حكّام الجزائر. ينظر أحمد الشريف الزقار، مذكرات

تلك الصور والأحداث وغيرها بيّنت كيف استطاع العثمانيون كسب ثقة المجتمع والرعيّة من خلال معاملته بالدين واحترام مشايخه وعلمائه ورجال التصوّف منهم وتقريبهم منهم، وهو ما سمح بتقوية أركان سلطتهم وتمتينها وتوسيعها في الجزائر، وقد أدرك العثمانيون منذ تواجدهم بالجزائر قُدرة العلماء والمرابطين الهائلة في التأثير على العامّة، ولرُبّما مردُّ ذلك المكانة التي كان يُحظى بها العلماء بين النَّاس وعلاقتهم بهم فقد كان البعض من العلماء يجلس في المقاهي ويختلط بالناس في الأسواق وكان البعض منهم أيضا يَكثُر عليه الازدحام في الدرس والحُطْب فيلَفَت النظر إليه فتحشاه السلطة التي كانت صورتها ومكانتها ورجالها أقل درجة عند النَّاس - مقارنة بمكانة رجال الدين- لذا عمل العثمانيون على تقديرهم والتقرّب منهم بمنحهم الهدايا وحتى المناصب، كما كان بعضا من العلماء بحاجة إلى البايات والباشوات طمعا في مال أو وظيفة وغيرها².

3- دعم العثمانيين لرجال الدّين والتصوّف وإكرامهم:

لقد شجّع العثمانيون رجال الدّين والتصوّف حيث شاركوا في بناء القبب والأضرحة والمزارات والزوايا والرباطات، وأنفقوا في ذلك أموالا سخية ورتّبوا للكثير منها أوقافا خاصّة وأعفوا المقرّبين من هؤلاء من دفع الضرائب³، أو منّحهم حُرمة وحصانة فالمستنجد والمستجير بهم وبجماهم لا يلحقه الأذى ولو كان المستجير بهم مُجرّما⁴، ونعتقد أن علاقة وعناية العثمانيين بالمرابطين والعلماء لم تأت من أجل الاستفادة منهم كأداة سياسية أو تحقيق لأهداف شخصية فقط، بل كانت كذلك تعكس في كثير من الأحيان ميلهم الديني وحتى الصوفي أحيانا، غير أنّ ما يمكن ملاحظته أنّ هذه العلاقة لم تكن دائما كما ذكرنا علاقة طيّبة فهي في الواقع بين مدّ وجزر، حيث كانت أحيانا يَشُوها الثُّغور بين الطرفين ويعود ذلك لطبيعة الحُكّام العثمانيين في حدّ ذاتهم فهم يعتبرون أنفسهم رجال حرب وسياسة قائمة على الدّفاع عن

الحاج أحمد الشريف الزهّار، نقيب أشرف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، 1974، ش و ن ت، الجزائر، 1974، ص58.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مرجع سابق، ص416.

² نفسه، ص409.

³ من أمثلة ذلك عائلة ابن فكّون بمدينة قسنطينة.

⁴ رشيد بكّاي، تأثير الطرق الصوفية، المرجع نفسه، ص213.

الدين والجهاد في سبيله ، وأن أكبر عمل عليه أن يقوم به العالم نحو الحاكم هو نُصحه وتوضيح ما يمكن توضيحه في أمور الدين ، فقد وجد بعض العلماء فرصة التحريض على قتال الاسبان في وهران لطرح قضية انتشار الظلم في البلاد وسوء المعاملة على الحُكّام لأنهم يعتبرون أنفسهم حُماة الدين ومُثّلوا الرأي العام¹ ، كما كانوا ينقلون أحوال الرعيّة ومطالبهم للحكّام ويتوسّطون لحل بعض الأزمات التي قد تحدث بين الرعيّة والسلطة وكان لابدّ لهذه الأخيرة من كسب ثقة وولاء هؤلاء العلماء والمرابطين لا سيّما المنحدرين من بيوتات دينية وعلمية عريقة².

مما يمكن ذكره في مظاهر العلاقة الطيّبة التي كانت بين الحكّام والعلماء في العهد العثماني والأساليب التي اعتمدها هؤلاء الحكّام في التقرب من العلماء، أسلوب الاحترام، ويظهر ذلك في طلب دعواتهم كلّما أقبلوا على أمر مهمّ واستشارتهم والأخذ برأيهم، فقد استفتى عرّوج وخير الدين العلماء في قضية إعدام أمير تنس المتعاون مع الاسبان³، كما كان هؤلاء الحكام يقفون للعلماء والفقهاء عند الورود عليهم ويقبلون أيدي العلماء والصالحين ويودّعونهم عند انصرافهم، فقد ذكر ابن المفتي حسين بن رجب شاوش كيف أنّ "حسن شاوش الدولاتلي" يقبل يد والده، ويد العالم أحمد بن سعيد قدّورة مفتي المالكية ويد قاضي المالكية سيدي محمّد بن القوجيلي⁴. ومن ذلك أيضا عبارات الاحترام والتبجيل والتقدير التي خاطب بها الحُكّام العثمانيون العلماء وتعظيمهم فهذا مصطفى باي⁵ صاحب بايلك الغرب وفي رسالة له إلى المهدي بن أحمد بن خدّة الكتروسي⁶ مؤرّخة سنة 1124 هـ/1712م يخاطبه

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، نفسه، نفسه، ص 410.

² فوزية لرغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (1520/ 1830)، أطروحة دكتوراة في التاريخ والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، 2014/2013، ص 445.

³ للمزيد حول هذا الموضوع يُنظر "مذكّرات خير الدين بربروس"، تر، محمّد درّاج، مصدر سابق، ص 83.

⁴ ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق، فارس كعوان، بيت الحكمة، ط1، الجزائر، 2009، ص 89.

⁵ مصطفى باي بن يوسف بن محمّد بن اسحاق المسراقي المعروف ب "أبو الشلاغم"، ترقى في قصر الداوي محمّد بكداش داوي الجزائر في تلك المرحلة، وكان محبوبا لديه واختاره ليكون بايا على منطقة الغرب لإخضاع الاسبان، قام بنقل مقرّ البايك من مازونة إلى معسكر نظرا لأهمية المنطقة، حكم بايلك الغرب ما بين (1696م/1737م).

⁶ هو المهدي بن أحمد بن خدّة الكتروسي من أبرز علماء أسرة الكتروسي خلال القرن 12هـ/18م، مارس وظيفة الإمامة بجامع سيدي عيسى بمازونة.

فيها بألطف العبارات وأجل الكلمات وهي تدلّ على مدى تكريم العلماء وتعظيمهم والرفع من مكانتهم ومّا جاء فيها: "المكرم الوجيه المحترم العلامة الحبر الفهامة السيّد محمّد الصغير نجل البركة السيّد أحمد بن خدّة"¹، ومن مظاهر التبجيل والاحترام التي حظي بها العلماء المعاملة الحسنة وتقديمهم على غيرهم ومن ذلك ما ذكره ابن هطّال في وصفه لمعاملة الباي محمّد الكبير لعلماء منطقة عين ماضي أثناء زيارته لها بقوله " ثمّ أصبح مرتحلاً قاصدا عين ماضي فوصلها... وإذ بهم خرجوا بنسائهم وعلمائهم، وأذن للعلماء في التقدّم فتقدّموا وسلّموا عليه وسألوه أن يرفق بهم ويشفق من حالهم... فلما سمع كلامهم واستقصى خبرهم أدركته الحنّانة والشفقة عليهم وجعل لهم لزمة أقلّ من الأولى"²، كما كان هذا الباي يعمل على تقريب العلماء إلى ديوانه ومجالسه خاصّة في الأعياد والمناسبات³، أو ما فعله كذلك حال فتحه لمدينة وهران حيث أرسل إلى البلدان البعيدة فأوتي له بجميع أعلام (رايات) الأولياء والصالحين ليحضر بها القتال تبرّكاً بهم واستعانةً بأهلها ومنهم الشيخ عبد الرحمان الثعالبي، والسيّد أبي مدين، وأحمد ابن يوسف، والسيّد محمّد بن عودة وغيرهم⁴.

كما عمّد العثمانيون الذين لم تكن لهم قاعدة شعبية في الجزائر على التقرب من العلماء من خلال اعتبارهم كوسيط بينهم وبين الرعيّة وحلقة وصل بينهما نظرا لتأثيرهم الروحي على الأوساط الشعبية، وهي التي يمكن اعتبارها القوّة الوحيدة التي يمكن اللّجوء إليها لكسب طاعة الرعيّة خاصة في الأماكن البعيدة والمستعصية ومع القبائل الشبه مستقلّة المستقرّة في المناطق الجبلية والصحراوية وذلك لاعتبارات منها، أنّ العثمانيين غرباء عن البلاد وتُعد هذه القبائل وهذه المناطق عن مركز السلطة، كما أنّهم كانوا في حاجة إلى السكان في كثير من المناسبات فيلجأ (العثمانيون) لشيوخ الطرق الصّوفية

¹ بوجلال قدّور، مظاهر التقارب والقطيعة، مرجع سابق، ص 175.

² أحمد بن هطّال التلمساني، رحلة محمّد بن الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصّحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم، محمّد بن عبد الكريم، 1969، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص ص 72، 73.

³ محمّد الأمين شرويك، "جهود محمّد الكبير وصالح باي في تشجيع حركة الثقافة والتعليم في الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية"، مجلّة العلوم الاسلامية والحضارة، العدد الثامن، جوان 2018، ص 571.

⁴ ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، مصدر سابق، ص 285.

والمرابطين الذين اعتبروا أنفسهم سلطة موازية للسلطة المركزية بل ومنافسة لها، وفي هذا الشأن يذكر حمدان بن عثمان خوجة "أنّ العثمانيين كانوا يحترمون المرابطين ويمنحونهم الثقة المطلقة وهو ما يساعدهم في السيطرة على البلاد واستتباب الأمن فيها". كما أُعْتَبِر ذلك بأنّه سبب في عدم قيام أي عمل ضد السلطة العثمانية ، و "أنّ ذلك من شأنه أن يمنع الجميع أن يقفوا موقفا معارضا ، ولذلك فإنّ الأتراك لم يكتفوا بأن فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء المرابطين، بل صاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات وأثمنها، وصارت أماكن سكناهم وضرائحهم بعد الموت مقدّسة كما أنّ القانون لا يمس كل من لجأ إليها.

كانت هذه من إحدى الوسائل التي استعملها الأتراك لاكتساب ودّ العرب والبربر¹، ومن ذلك ما ذكره بيسونال في حادثة غرق سفينة الأنسة "دي بورغ de bourg" والتي شغلت الكثير وكتب عنها الرحالة الفرنسيون وغيرهم ، حيث انطلقت هذه السفينة من ميناء "سات" بفرنسا وكانت هذه الأنسة بمعية أمها التي كانت تريد الوصول إلى زوجها السفير لدى ملك اسبانيا في 23 أكتوبر 1720م، غير أنّها وقعت بين أيدي البحرية الجزائرية الذين قدّمت لهم جواز سفرها مع طاقم السفينة الأمر الذي جعلها تلقى المعاملة الطيبة والاحترام اللائق بها، وسمح لها بالبقاء في السفينة مع خدمها، هذه السفينة التي تحطّمت بفعل عاصفة بحرية قبالة السواحل بين بجاية وجيجل، وتمّت نجاتهم من طرف السكّان وتمّ الاحتفاظ بهم حيث طالب القنصل الفرنسي² من الداوي تحريرهم، فما كان من الداوي محمد بن حسّان³ إلا تكليف باي قسنطينة بتحرير الأسرى وتخليصهم وهدّد هذا الأخير بتجهيز جيش لذلك غير أنّ سكان المنطقة لم يعيروا هذا التهديد اهتماما وأعلنوا ولاءهم لدار السلطان ممّا أدى بالداوي والقنصل على

¹ حمدان بن عثمان خوجة ، المرأة ، مصدر سابق ، ص ص 72 ، 73

² كان في ذلك الوقت القنصل "دي سولت" وكانت مدّة قنصليته ما بين (1719 م / 1724 م).

³ الداوي محمد بن حسّان : حكم ما بين (1718/1729) ، وتولّى حكم الإيالة في ظروف مزرية ، بسبب الزلازل المتكررة ، وموجات القحط والجفاف، ورفض بعض القبائل دفع ما عليها من ضرائب ، حارب طائفة الرياس مما أدّى إلى التمرد والعمل على اغتياله وهو ما تمّ ، وحكم بعده الداوي كور عبدي .

حدّ سواء إلى طلب تدخّل شيخ واد زهور سيدي بغريش لتحرير الأنسة المحجوزة "دي بورغ" وحاشيتها وهو ما تمّ فعلاً¹.

كما طلب الداوي شعبان الذي حكم الجزائر ما بين (1688م - 1695م) من العلماء التدخّل والوساطة بينه وبين الجند في بايلك الشرق الذين رفضوا الحرب والقتال في تونس بعد عودتهم منها حينما قام بتنصيب أحمد شاکر الذي تمّ رفضه من طرف الجند هناك وثاروا عليه وكان في وفد العلماء هذا المفتي الحنفي حسين بن رجب شاوش، والمفتي المالكي سيدي محمّد بن سيدي السعيد، والقاضيين المالكي سيدي مُحمّد بن الحاج، والحنفي سيدي محمّد الزيتوني التونسي لكن ذلك لم ينفعه في شيء لأنّ العلماء في حدّ ذاتهم استحسنوا نزعه من السلطة².

أمّا آل المقراني فقاموا بدور الوساطة بين السلطة العثمانية وسكّان منطقة القبائل الصغرى الذين عملوا على طرد وإجلاء الفرنسيين من الوكالة التجارية بمنطقة القلّ التي رأوا فيها أنّها تخدم مصالح الفرنسيين فقط، وقد عمل سيدي المقراني من أجل إيجاد حل لهذه القضية³، والوساطة الناجحة التي كانت بين الباي بوكابوس⁴ الذي حاول تفجير خزينة البارود لتدمير مدينة وهران وتعود حيثيات القضية إلى الخلاف الذي كان بين باشا الجزائر والباي بوكابوس، هذا الأخير الذي كُلف بالزحف على تونس ولكنه حاول الثورة على باشا الجزائر والدخول في طاعة سلطان المغرب مولاي اسماعيل بن عبد الله (1792م/1822م)، وقام بقتل محلة العثمانيين فغضب الباشا من ذلك وأرسل له جيشاً لتأديبه بوهران لذا حاول الباي تفجير المدينة وتدخلّ العلماء وعملوا على إقناعه بالعدول عن قراره وكانوا حاملين المصاحف في أيديهم وتراجع الباي وأسفرت وساطتهم بنجاح ليتمّ بعد ذلك تسليم نفسه ليكون مصيره القتل من طرف الباشا⁵.

¹ PEYSSONNEL (J.A): VOYAGES DANS LA REGENCES D'ALGER ET DE TUNIS, PARIS, 1838, P482

² رشيدة شدرى معمري، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671 / 1830)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2006/2005، ص113.

³ عبد القادر صحراوي، الأولياء والتصوّف في الجزائر، مرجع سابق، ص123.

⁴ الباي محمّد بن عثمان: كان يُلقّب بالرقيق والمسلوخ وعُرف كذلك باسم "أبو كابوس" تولّى حكم بايلك الغرب سنة 1808 م، وبقي فيها نحو (05) سنوات فقط، حارب الدرقاويين، مات مقتولا سنة 1813 م.

⁵ الأغا بن عودة المازري، طلوع سعد السعود، ج1، مصدر سابق، ص ص333، 336.

وهذا يوسف باشا الذي تبادل الرسائل مع علماء بونة، ومنهم مُحمَّد ساسي البويني الذي أشاد به في إحدى رسائله وأخبره بِحُطَّته السياسية والعسكرية وطلب معونته والتدخل لجلب طاعة الرعيّة محاولة منه للقضاء على ثورة ابن الصخري وقد ردّ هذا العالم موافقته المبدئية شرط العفو عن أهل مدينة عنابة، وقد أستجاب يوسف باشا لطلب الشيخ نظرا لمكانته عنده ، وهكذا فكثيرا ما كان العلماء والمرابطون يقومون بدور الوسيط في هذه العلاقة بين الراعي والرعيّة¹.

ولم يقتصر دور العلماء والمرابطين على الوساطة بين السلطة العثمانية وأفراد المجتمع ومختلف القبائل بل شملت هذه الوساطة كذلك بين العثمانيين والدول الأخرى خاصة المجاورة منها فكثير من العلماء أرسلتهم السلطة كمبعوثين ووسطاء وسفراء في حالي السلم والحرب خاصة مع الايالة التونسية أو المغرب الأقصى فكان للعلماء دور كبير في عملية التفاوض والصلح ، ومن ذلك ما قام به حسن بين خير الدين² ، إذ وبعد استقرار الحكم العثماني بتلمسان وخضوع جميع أعمالها لسلطانها، انتدب وأرسل الشيخ العلامة أبو عبد الله محمّد الخروي لرسم الحدود بين إيالة الجزائر والمملكة المغربية ووفد على سلطان المغرب وأحسن وفادته وعقدت له هنالك مجالس علم ، وناظر فيها علماء المغرب كما تمّ على يده تخطيط الحد الغربي بين الايالة والمملكة³.

وهذا الداوي أحمد باشا (1805م / 1808م) كلّف ابن العتّابي الذي كان يشغل حُطّة القضاء الحنفي حينئذ بالكتابة إلى باي تونس حمودة باشا، وهو ما يدلّ على ثقة الداوي بهذا العالم رغم أنّ هذه المهمة من مهام الكُتاب الرسميين، والمعلوم أنّ العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس غالبا ما كانت

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1، مرجع سابق، ص 412.

² هو حسن باشا بن خير الدين يُعتبر أول من لُقّب بلقب "بيلر باي" حكم الجزائر لأول الأمر سنة 1544م / 950هـ ، وهو الذي أحدث مقاطعة (بايلك) التيطري سنة 1548م ، ولم يدم حكمه خلال هذه المرحلة إلا سنوات قليلة حيث تمّ عزله سنة 1551م / 958هـ، واستخلفه حسن آغا ، ثم أُعيد اختياره وحكم مرّة أخرى في شعبان 964هـ / 1557م، لكنه لم يدم طويلا ليُعزل مرّة أخرى بسبب الدسائس حوله، ولحُسن تدبيره أُعيد للمرة الثالثة سنة 1562م إلى أن تمّ اختياره ليكون قائدا للأسطول العثماني في 1567م.

³ عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ، المطبعة العربية، ط1، 1955، الجزائر، ج2، ص ص 331، 333.

متوترة ونظرا لقرب خنقة سيدي ناجي من تونس فقد ذاع صيت بعض علمائها (أسرة ابن ناجي) كما أنّ بعضا من علمائها كانوا على صلة بحكامها ومنهم الشيخ محمد بن محمد الطيّب الخنقي،¹ وهو من أبرز علمائها فقد أُعْتُمِدَ عليه ليكون وسيطا بين بايات قسنطينة وبين بايات تونس حيث ساهم كثيرا في تسوية الخلافات بين الايالتين تونس والجزائر، كما أنّ الداوي علي باشا أرسل العالم الشيخ علي بن النيقرو للصلح بين الايالتين وكان ذلك في سنة 1816م / 1232هـ، إلا أن هذا الصلح لم يتم إلا بعد تدخل السلطان العثماني محمود خان وكان ذلك سنة 1235هـ / 1820م².

واعتقد الكثير من الحكّام العثمانيين بالجزائر في بركة الأولياء ورجال الطرق الصوفية والعلماء فأصبحوا خاضعين لتأثيراتهم الصوفية وهذا رغم قوّتهم العسكرية وتميّزهم بالتنظيم فهم يشعرون دائما بأنهم في حاجة إلى سلطة روحية تعينهم لضمان السيطرة على السكّان وأعتقد أنّ هذا صادر ونابع عن عاطفتهم الدينية، ولا عجب كذلك فقد دخل الجزائريون أيضا ضمن إطار الخلافة العثمانية باسم العقيدة الاسلامية وكان هذا أساسا بطلب منهم .

لقد كان العثمانيون يحترمون العلماء والمرابطين فالعلاقة التي ربطت حكام الجزائر بعلمائها ليست جديدة عليهم بل هي راسخة فيهم، فالدولة العثمانية في حدّ ذاتها كانت ذات ميول صوفية - فال دراويش كانوا وراء تقدّم الأتراك في أناضوليا وفي فتح القسطنطينية³ - فالطريقة البكداشية كانت من الطرق التي اعتمدوا عليها في مناطق أخرى، لكن في الجزائر كانت الطريقة القادرية والشاذلية من أهم الطرق التي وجد فيها العثمانيون ضالّتهم وسندهم في بلاد اعتبروا أنفسهم غرباء فيها، ولا شكّ في أن الطريقة القادرية كانت الأقرب للعثمانيين في الجزائر لكون السلطان العثماني حاميا لها في المشرق لذا عمل أيضا خير الدين منذ البداية على الاتصال بأتباعها وحماية هذه الطريقة بالجزائر لهذا شجّع العثمانيون هذه

¹ هو أحد علماء بيت وأسرة " سيدي المبارك بن ناجي "، بمنطقة " الخنقة "، عالم فقيه وقاضي وحيه، ولد بالمنطقة سنة 1078هـ / 1667م، زار مناطق عديدة لطلب العلم ومنها تونس، وأُجيز بها وقد تولّى مشيخة الزاوية بعد وفاة والده التي عرفت في عهده حركة علمية كبيرة، توفيّ الشيخ سنة (1154هـ / 1741م).

² أحمد الشريف الزهّار، مصدر سابق، ص ص 138، 146.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مرجع سابق، ص 186.

الطريقة وكانت لها علاقات ودية معها¹، ومن هنا يتّضح أن العثمانيين كانوا يتقربون إلى هؤلاء المرابطين ويطمئنون لهم أكثر من غيرهم فيلجأ هؤلاء الحكام إليهم ويتبركون بهم، واستمروا في ممارسة عقائدهم الدينية وطقوسهم الصوفية فجددهم يزورون الأولياء طلباً للنصر والبركة، كما أنّهم كانوا يؤمنون بمعتقداتهم التي كانت تميل أحياناً إلى الخرافة أكثر منها للمنطق فهذا الباي محمّد الكبير ورغم ثقافته واستنارته فقد كان اعتقاده في الأولياء قوياً بحيث لما عزم على فتح وهران اطمأنّ قلبه إلا بعدما بشّره الأولياء بفتحها²، ولما حُدّد موعد الفتح وكان وقت حصاد طلب منه الناس تأجيل الأمر حتى فصل الخريف بعدما يجمعوا معاشهم لكنّ الباي فضّل استشارة العلماء والأولياء، فكان جوابه لهم: " رأيكم فيه الحكمة والصواب لكن أنتم ونحن في رأي الأولياء والعلماء أولي الألباب فهم أدري بالأمر، وبإشارتهم يكون الفوز والسرور"، وكان منه إلا أن أرسل للولي سيدي محمّد أبي دية الضير وهو بزوايته بجبل تسالة فأتوه به فأخبره هذا الأخير بأنّه سيفتحها في العام المقبل فلما حان موعد الفتح سار وهو مطمئن القلب³.

أدرك العثمانيون منذ البداية مدى نفوذ العلماء والأولياء والمرابطين ورجال الطرق الصوفية على

السكان وأدركوا دورهم أكثر أثناء دعوتهم للجهاد وردّ العدوان الأجنبي، كما أصبح الجهاد العامل الرئيسي في تطوّر منظومة التصوّف والشرعية التاريخية في قدوم العثمانيين وبسط حكمهم في الجزائر⁴، وشاع في الناس أنّ هناك تحالف بين العثمانيين والمرابطين وأعتبر ذلك بأنّه سياسة متبّعة من طرف السلطة القائمة فكثرت الأضرحة والمزارات والقباب ودخلت الطرق الصوفية من المشرق والمغرب وانتشرت أفكارهم وأورادهم بين الناس، وسلك العديد من الباشوات سياسة التقرب من المرابطين⁵، ويُعتقد أنّ

¹ نفسه، 514.

² ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، مصدر سابق، ص 206.

³ الآغا المزاري، طلوع سعد السعود، ج 1، مصدر سابق، ص 261.

⁴ عبد القادر صحراوي، الأولياء والتصوّف في الجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 74.

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، نفسه، ص ص 466، 470.

هذه السياسة كانت قد ارتكزت على جملة من الأسس تمنع إثارة أي نشاط أو عمل عدائي ضدها من طرف العلماء أو المرابطين ومن هذه الأسس نذكر :

-مراقبة شيوخ الزوايا ومقدمي الطرق الصوفية بحذر لتجنّب عدائهم خاصّة في المناطق النائية البعيدة عن مراقبة المحلّة.

- إقناع شيوخ الطرق الصوفية ومقدميها والعلماء أيضا بمحاولة العدول عن أمر يثير القبائل المعادية للسلطة¹.

- الاتصال المستمر مع رجال الدّين، وإظهار الاحترام الدائم، وتجنّب أي ضرر قد يلحق بالأضرحة أو الزوايا، واعتبارها ملاذا للفارّين، وتقديم ومنحهم امتيازات وضمادات مختلفة .

هذه الامتيازات لم تكن امتيازات معنوية مثل الاحترام والاستشارة والزيارات والمراسلات المختلفة والوساطة، كما ذكرنا آنفا بل تعدّتها إلى امتيازات مادّية ملموسة ومنها التعيين في المناصب والوظائف الدينية، ومنها الفتيا والقضاء، وكذلك الإمامة والخطابة، ومنها أيضا الكتابة والتعليم بمراحله المختلفة، ونقابة الأشراف وغيرها، والملاحظ بأن هذه المناصب الممنوحة للعلماء تعتبر مناصب محدودة فهي لا علاقة لها بالسلطة أو بالحكم، فكان الحكّام العثمانيون في الجزائر هم من يعيّنون العلماء في وظائفهم بينما لم يكن للعلماء دّخّل في تعيين الحكّام، ولم يكن رضى العالم أو سخطه أمرا ضروريا في بقاء الحاكم في منصبه أو الإطاحة به، بينما إذا وقف العالم موقفا سياسيا معارضا نحو الحاكم أو تدخّل في أمور سياسية فقد يكون مآله النفي أو حتى الإعدام رُبّما وهو ما حدث فعلا للمفتي والعالم أحمد قدّورة² مع الباشا محمّد بكداش¹، إضافة إلى الاعفاء من الضرائب.

¹ SAIDOUNI. NACER-EDDINE: L 'Algérois rural à la fin de l'époque Ottoman (1791-1830), Der-El-Gherb-El-Islami, Beyrouth, 2001, P396 .

² أحمد بن سعيد بن ابراهيم قدورة من أسرة سعيد بن قدّورة المعروفة بالعلم، من كبار فقهاء المالكية، له باع في النحو وأصول العقيدة، وكان أديبا نجيبا وخطيبا فصيحاً، له اشتغال بالسياسة من أهل مدينة الجزائر تولى إفتاء المالكية بها، حكم عليه الداى محمّد بكداش بالإعدام سنة (1118هـ / 1706م) بعد سجنه، حيث قبض عليه هو وأخوه السيد علال بن سعيد الذي كان قاضيا وقتلها في محبسهما، وكانت التهمة الموجهة إليه أنّ له يد في نفي محمّد بكداش حينما كان لايزال موظفا في حكومة الباشا

تعتبر أعلى وظيفة يتولاها العالم هي الفتوى هذا العالم الذي عليه أن تتوفر فيه شروط كثيرة للوصول لهذه الدرجة ومنها العلم العميق والفهم الواسع لأمر الدين من فقه وعقيدة ومعرفة قوية للقرآن وعلومه وعلم الحديث والقياس إضافة إلى قوة الشخصية والذكاء والنزاهة والصلاح والشجاعة والرأي الثابت على قول الحق والجهر به، وخطة الفتوى بالجزائر قديمة لأن هذه المدينة دار علم وصلاح وكان العلماء الذين يوثق بهم يُستفتون فيجيبون من غير تخصيص أحد في الفتوى²، فلم يكن الإفتاء وظيفة رسمية قبل مجيء العثمانيين وبعد مجيئهم أحدثوا في هذا النظام تغييرات واعتبروه وظيفة رسمية، وجعلوا الفتوى وهذا المنصب على مذهبين الأول على المذهب الحنفي وهو الرسمي ويمثل السلطة باعتبارهم على مذهب أبي حنيفة³، والثاني على المذهب المالكي باعتباره مذهب غالبية سكان البلاد وهو يمثل السلطة العلمية⁴، كما جعلوا صاحب المنصب الأول مقدما على زميله المفتي المالكي لاعتبارات كثيرة. وقد عمل العثمانيون بعد ذلك على إيجاد هيئة علمية عليا عُرفت باسم " المجلس العلمي الشرعي" وهو بمثابة هيئة تضم المفتي والقاضي الحنفيين، والمفتي والقاضي المالكيين إضافة إلى موظفين آخرين ودور هذا المجلس هو تجاوز الخلاف في الأحكام بين المذهبين المالكي والحنفي⁵، وتم استحداث منصب الإفتاء هذا الذي توارثته مجموعة من الأسر العلمية مثل أسرة قدورة، أسرة بن علي ذ، ابن

الذي سبقه وهو : حسين خوجة الشريف ، رغم أن ما أشتهر به محمد بكداش بتقديره العلماء وتبجيلهم غير أن الأكاذيب والدسائس على الشيخ كانت أكثر مما يُتصوّر .

¹ محمد خوجة بكداش داي تولى الحكم في سنة 1118هـ / 1707 م ، ومات مقتولا سنة 1122هـ / 1710 م .

² ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تاريخ باشوات الجزائر وعلماؤها، مصدر سابق، ص 93.

³ في بداية العهد العثماني بالجزائر عمل سلاطين الدولة العثمانية على تعيين الباشا والقاضي الحنفي لتمثيلهما في الجزائر وهذا نظرا لعدم وجود علماء من المذهب الحنفي في الجزائر، وحتى عدم الثقة السياسية الكاملة في هؤلاء العلماء، وبمرور الوقت أصبح المفتي يعين من فئة العثمانيين المولودين في الجزائر أي فئة الكراغلة، و كان أول من تقلد هذا المنصب " حسين بن رجب شاوش " المولود سنة 1661م / 1072هـ، وتقلد منصبه هذا سنة 1691 م / 1102هـ وعمره آنذاك ثلاثون عاما، ينظر ابن المفتي: تاريخ باشوات الجزائر وعلماؤها، مصدر سابق، ص 88 .

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص ص 392، 398.

⁵ مصطفى أحمد بن حمّوش، المدينة والسلطة في الاسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني، دار البشائر، ط1، دمشق، 1999، ص 86.

العنابي، وأسرة الكتروسي، حيث تولّى هذا المنصب سعيد بن أحمد بن سعيد بن ابراهيم قدورة¹ سنة 1710م، وأحمد زروق بن محي الدين سنة 1739م، وأبو عبد الله محمد بن المهدي الكتروسي بمنطقة مازونة سنة 1813م، ومع ذلك فقد عمل بعضا من هؤلاء العلماء على إعادة النظر في هذه المسألة لصالح السكان المحليين فكانوا يُستشارون من قبل العامّة ويخوضون في المسائل الفقهية فتعاضم دورهم وتحولوا من موظفين لدى السلطة إلى فقهاء ومفتيين ونُحْبٍ فاعلة مؤثرة في الحياة العامّة.²

كما أنّ منصب القضاء يعتبر منصب حسّاس ومهمّ عمل العثمانيون على الاهتمام به وذلك بحكم اتّصال القاضي مباشرة بالأمر الحياتية واليومية من زواج وطلاق وعقود بيع وشراء وكراء وغيرها، ولذلك كان العديد من الفقهاء والعلماء يعتذرون عن القيام بالمهمة نظرا لخطورتها³، وقد شاع على العديد من النخب الثقافية نبذ ونفور من تولّي هذا المنصب مثل: عبد القادر المشرفي وابنه الطاهر المشرفي⁴ الذي تولّى منصب القضاء في منطقة وهران مُرغما، هذا المنصب الذي كان في وقت سابق متاحا ومفتوحا على الجميع.⁵

وقد كان قضاة الجزائر قبل العثمانيين مالكية ومنهم الإباضية كذلك، لكن الذي يميّز المدن الجزائرية خلال العهد العثماني خاصة المدن الكبرى منها مثل الجزائر وقسنطينة ووهران، هو وجود محكمتين احدهما حنفية يتولّى فيها القضاء قاضي من المذهب الحنفي يطبّق فيها الأحكام على هذا المذهب في كل القضايا التي تُطرح عليه من طرف العثمانيين أو الأتراك المقيمين في الجزائر، وأخرى

¹ هو أحد علماء عائلة قدورة، وهو حفيد الشيخ سعيد قدورة تولّى منصب الإفتاء المالكي سنة 1122 هـ / 1710م، واحتفظ بوظيفته لأكثر من سبع سنوات إلى غاية 1129 هـ / 1716م ن حيث تناوب على هذه الوظيفة مع ابن عمّه عبد الرحمان المرتضى وغيره، أيّ أنّه عُيّن مرتين وعُزل مرتين، يُنظر لزغم فوزية، المرجع السابق، ص ص، 58، 59.

² طوبال فاطمة الزهراء، النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات (1671م / 1830م)، أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث، اشراف د/ رايح لونييسي، جامعة أحمد بن بلّة، وهران، ص 89.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، نفسه، ص 394.

⁴ الطاهر بن عبد القادر المشرفي أحد علماء الراشدية نشأ بمعسكر و أخذ العلم عن والده عبد القادر وغيره من العلماء، مارس وظيفة التدريس بمسقط رأسه، ثم تولّى القضاء بوهران خلال فترة حكم "الباي حسن" الذي خصّه بمرتّب شهري لممارسته لها.

⁵ طوبال فاطمة الزهراء، مرجع سابق، ص 90.

مالكية يتولاها قاضي مالكي يحكم بحسب ما يملكه مذهبه على كل القضايا المطروحة من طرف بقية السكّان من الجزائريين المتبّعين لمذهب الامام مالك¹. كما كان القضاء في الجزائر يتناسب مع وضعية المجتمع الجزائري فالمدينة لها قضاؤها والمناطق القبلية والريفية والممتنعة عن سلطة الأتراك لها قضاؤها الخاص أيضا، فالقضاء فيها يمثله شيوخ القبائل والمرابطين ورجال الطرق الصوفية، غير أنه ما يمكن ملاحظته أنّه في أواخر العهد العثماني بالجزائر أصبح هذا المنصب محل منافسة بين العلماء لما فيه من جاه ونفوذ والمال وغيرها فأصبح هذا المنصب يباع ويشتري لمن يُقدّم أكثر وهو ما جعل مكانة هذه المؤسسة تتراجع كما أصبح أصحابها يتّصفون بالجهل لأحكام الدين واصدار الأحكام جزافا²، ويمكن أن نذكر بعضا من أشهر القضاة الشرعيين مثل القاضي العالم والمؤرخ والفقير أبو راس الناصري، سيدي علي بن عبد الرحمان المتوفى سنة 1071هـ / 1661م والعلامة سيدي محمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة 1101هـ / 1690م، والعلامة سيدي عمر بن المانجلاتي المتوفى سنة 1104هـ / 1693م، سيدي محمد بن الهادي المتوفى 1108هـ / 1697م، وسيدي محمد الرحمتي المتوفى سنة 1112هـ / 1701م، ومنهم كذلك سعيد بن محمد العقباني الذي كان قاضيا وخطيبا في تلمسان خلال القرن (17م)، كما تولّى القضاء في كل من بجاية ووهران، كما يمكننا ذكر الشيوخ الحاج بن عبد القادر ومحمد بن الحاج ابراهيم وعلي بن محمد المانجلاتي. وهؤلاء العلماء والفضلاء كانوا قضاة مالكية، وأما من القضاة الحنفية فنذكر بعضا منهم وهم جميعا من أسرة ابن العنّابي، مصطفى بن رمضان العنّابي المتوفى سنة 1130هـ، ومحمد بن حسين بن محمد العنّابي المتوفى حوالي سنة 1203هـ / 1786م، إضافة إلى الحاج أحمد بن الحاج عمر، محمد بن شعبان، أحمد بن ابراهيم³

¹ الأمير بوغدادة، المؤسّسات في الجزائر أواخر العهد العثماني (القضاء نموذجا)، مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف احميدة عميراي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، قسنطينة، 2007/2008، ص 84.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، نفسه، ص 395.

³ أحمد بن الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد بن الشريف الزهار، ص 182.

إنّ صعوبة منصب القضاء جعلت من بعض العلماء يتهربون من تولّيها ويرفضونها ويرون أنّها مهمّة مسؤوليتها كبيرة وهذا الرفض يعطي للمعني بالأمر قيمة إضافية ونوعاً من الهيبة والوجاهة تجعله أكثر حركية وأكثر تأثيراً في وسطه، ومنهم الشيخ العلامة عمر بن مُحمّد الكمّاد المعروف بالوزّان المتوفّي سنة 965هـ / 1557م، ويعتبر من أبرز علماء قسنطينة في عصره الذي كان مُجانبا لمخالطة رجال السلطة رافضاً للوظائف الرسمية حيث اعتذر لباشا الجزائر "حسن آغا" عن قبوله لهذه الوظيفة حين عرضها عليه وكان ذلك سنة 948هـ / 1541م .

كذلك عائلة ابن فكّون التي تحفّظت عن هذه الوظيفة واعتبرتها وظيفة تخدم الحكّام وأوليائهم ، ويبدو أنّ الشيخ "قاسم الفكّون" هو الوحيد من هذه العائلة الذي تولّى وظيفة القضاء رغم رفض أخيه الشيخ "عبد الكريم الفكّون" لذلك ، وهو ما أدّى به حتى رفض أن يُدفن بجانبه ، وقد صرّح الشيخ العلامة الفقيه "عبد الكريم" بالسبب الحقيقي في قوله: "إن سيدي - يعني أخيه المذكور - سماحه الله - كان قاضياً ، ولا أحبّ الدفن هناك"¹.

كما أنّ وظيفة الإمامة والخطابة من المناصب ذات الامتياز والتي كانت رديفاً لفئة المفتين وقد عرفت الجزائر خلال هذه الفترة بروز نخبة تنتمي إلى الأسر العلمية المشهورة أدّت هذه الوظيفة بامتياز ومنهم الشيخ العالم أحمد بن سعيد بن ابراهيم قدّورة ، أحمد زروق بن السيّد محي الدين وكلاهما في دار السلطان ، ومن أشهر من تولّى هذا المنصب في بايلك الشرق بدر الدين بن مُحمّد الفكّون سنة 1767م وفي بلاد زاوة الحسين بن مُحمّد السعيد الورتيلاني 1779م ، وبمنطقة معسكر أبو راس الناصري ، وقد احتكرت بعض الأسر العلمية الخطابة في الجوامع الكبرى لارتباطها بالإفتاء كأسرة قدّورة بالجامع الكبير وأسرة الكتروسي² بجوامع مازونة بالغرب الجزائري³ ، أما أسرة الفكّون ورغم ابتعادهم عن وظيفة الإفتاء

¹ الفكّون عبد الكريم ، منشور الهداية ، مصدر سابق ، ص 50.

² أسرة الكتروسي من أشهر الأسر العلمية بمنطقة مازونة خلال القرن 17م ، تُنسب هذه الأسرة إلى الأشراف وقد حُظيت بدعم وتأييد من طرف بايات الغرب أنجبت العديد من العلماء الذين تولّوا مناصب دينية مختلفة مثل : القضاء والقُتيا والتدريس والخطابة والإمامة وغيرها .

³ طوبال فاطمة الزهراء ، النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات ، مرجع سابق ، ص 84.

إلا أنهم احتكروا وظيفة الخطابة بالجامع الكبير بالبطحاء وهو من أهم الأحياء في مدينة قسنطينة، ونافسوهم في ذلك أسرة ابن باديس بجامع القصبه أحد الجوامع الرئيسة في قسنطينة¹، وكان الخطباء والأئمة يؤدّون الصلوات الخمس وصلاة الجمعة والعيدين وقد يجمع الواحد منهم بين الإمامة والخطابة في الجامع الواحد ويعوض الخطيب أثناء غيابه من طرف أحد العلماء وتستلزم الخطابة شروطا منها الفصاحة وجودة الصوت والجرأة وسعة الاطلاع وقابلية الجمهور له والحكم عليه، فلأهالي دور في اختيار الخطيب فهم الذين يرشّحونه للباشا إذا استحسنوا صوته وفصاحته وعلمه وأخلاقه ليكون خطيبا عليهم²، من هذا المنطلق يتّضح بأنّ هذه الفئة كانت تتمتع بتقدير واجلال من طرف المجتمع ممّا يجعل الأئمة والخطباء أكثر تأثيرا وهذا الأمر يثير مخاوف السلطة وحذرهما ممّا حدا بها إلى اعتماد جواسيس عليهم للحدّ من حرّية ربط مواضيع خطبهم بالجانب السياسي وغالبا ما يتمّ عزل بعضهم لما يثبت تعلق هؤلاء بالسياسة³.

كان أيضا من بين الامتيازات المادية التي تُمنح للعلماء كذلك منصب التدريس، ولم تكن السلطة تهتم لفئة المدرّسين ولم تعمل على تحسين ظروفهم ولا أدائهم التربوي داخل المنشآت التعليمية لا ماديا ولا معنويا لكنهم كانوا يحصلون على ترقية شرفية من طرف المجتمع من خلال اتّصافهم بالقدوة والسلوك الحسن بين المتدرّسين⁴، وقد تكون هذه الوظيفة تابعة لوظائف أخرى فالمفتي والخطيب يتولّيان مهنة التدريس ولكن العكس غير صحيح، لذا فلم يكن المدرّسين مفتين ولا خطباء، ولأنّ هذه الوظيفة كانت الأكثر جلبا للفقير فلم تكن محلّ تنافس بين العلماء رغم أنّ المدرّسين في المدن الكبرى كانوا يعيّنون من طرف السلطة الحاكمة⁵، ومن أشهر العلماء المدرّسين الذين ذاع صيتهم خلال القرن

¹ لزغم فوزية، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (1520 - 1830)، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراة في التاريخ والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، 2013، 2014، ص 431.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 395.

³ طوبال فاطمة الزهراء، النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات، مرجع نفسه، ص 110.

⁴ عبد القادر حلّوش، السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر (1870 - 1914)، شركة دار الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع، (د ت ط)، الجزائر، ص 15.

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع نفسه، ص 397.

(17م) :الشيخ أحمد بن ساسي البوني ، والشيخ المفتي الصديقي في مدينة عنابة ،وفي قسنطينة اشتهر الشيخ المفتي بركات ابن باديس والشيخ علي الكمّاد والشيخ عبد اللطيف الكمّاد ،وأما في دار السلطان فاشتهر كُلاً من رمضان بن مصطفى العنّابي ،وعلي بن خليل ،ومُحمّد بن سعيد قدّورة، وفي منطقة زاووة اشتهر الشيخ الغربي الفاسي ،وعبد القادر بن الموهوب ،وأحمد بن عبد العظيم ومُحمّد بن صولة المشهور بتدريس القراءات السبع ،وأحمد بن مزيان الزواوي ،وقد يتنافس المدرّسون فيما بينهم لتقديم الأفضل لطلبتهم ممّا ينتج عنه حركة تعليمية يستفيد منها الطلبة لا محالة¹.

لقد عملت العائلات والأسر ذات النسب الشريف في الجزائر مثل باقي المناطق العربية الأخرى بالانتظام في تنظيم خاص يتصدّره أحد الأشراف ويُعرف ب "نقيب الأشراف " كما يُطلق عليه أيضا " مزوار الشُرفاء " ،ويأتي نقباء الأشراف في مقدّمة الفئات النخبوية التي تمثّل تأثيرا بارزا في نفوس العامّة وعلى مستوى السلطة² . ولم يقتصر هذا التنظيم في مدينة الجزائر فقد كان أيضا في مدن أخرى مثل قسنطينة وعنابة ومعسكر ، ومن الشخصيات التي تولّت هذا المنصب واشتهر منهم الحاج أحمد بن الحاج علي الزهّار³ الذي تولّى نقابة الأشراف في دار السلطان ، والسيد أحمد الشريف المرتضى وكذلك ابنه السيد عبد الرحمان المرتضى⁴ ، وأما في بايلك الشرق فنجد أنّ من تولّى نقابة الأشراف بمدينة قسنطينة منهم أبو عبد الله مُحمّد بن قاسم بن مُحمّد الشريف الحسني وهو جد الشيخ عبد الكريم الفكّون

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ،مرجع سابق ،ص ص 323 ،325.

² طوبال فاطمة الزهراء ، النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات ، مرجع سابق ، ص 85 .

³ ولد بمدينة الجزائر سنة 1196هـ /1781م أيام الداوي مُحمّد عثمان باشا ،تعلم وتفقه على يد العلماء ،تولّى نقابة الأشراف بعد وفاة والده ،حضر لاجتياح القوات الفرنسية للجزائر سنة 1830م ،أُبعد من بلده فأتمّ مدينة تونس وازداد تبحّرا في العلم والفقّه على يد الشيخ ابراهيم الريّاحي ، انتقل بعدها الى قسنطينة وتولّى الكتابة عند الباي الحاج أحمد باشا وبعد استسلامه انتقل إلى الأمير عبد القادر وأصبح كاتب سرّه ، بعد استسلامه انتقل إلى المغرب ، ثمّ رجع إلى مدينة الجزائر وتسلّم نقابة الأشراف من جديد وقد استأجر دكانا ليمارس التجارة ، كما اعتكف على الكتابة والتأليف وخاصة على مختلف أخبار الجزائر في العهد العثماني ،توفي سنة 1289هـ /1872م .

⁴ عبد الرحمان المرتضى هو ابن أحمد تولّى لمرتين حُطّة الفتوى والخطابة بالجامع الكبير، وكان عبد الرحمان حاذقا في علم الكلام وعلم الحديث ، ينظر ابن المفتي مصدر سابق ، ص 106 .

الحفيد لأمه وقد أشار إليه في "منشور الهداية" بقوله: "وَجَدِّي لِلأَمِّ مزوار الشرفا إذ ذاك وقائد جيش البلد"¹.

وأما في بونة "عناية" فقد تولّى نقابة الأشراف السيّد أبو العباس أحمد الشريف الخطيب ، وممن تولّى نقابة الأشراف فيها أيضا السيّد الشريف نور الدين مُحمَّد بن عيسى بن مُحمَّد وهو خال أحمد بن قاسم البوني صاحب كتاب " الدرّة المصونة في صلحاء وعلماء بونة " وقد ذكره وعرّج عليه لما ذكر أقرابه في أبيات قال فيها :-

بخالنا الشّريف نور الدين *** مُحمَّد ذي الجود واليقين
 قد كان مفتيا وكان قاضيا *** نقيب أشراف وحبرا ماضيا
 وذا دهاء وكان في الفرائض *** يفوق غيره كنهر فايض²

وأما في بايلك الغرب فنذكر في منطقة غريس³ بمعسكر أبو موسى الشريف، وعلي أبو الحسن الشريف ومُحمَّد بن مُحمَّد بن يعقوب .هؤلاء وغيرهم ممن تولوا هذا المنصب كانت لهم الصدارة على الوزراء من الناحية الشرفية أو التشريعية⁴، هذا المنصب الذي أدّى دورا مهمّا في تسيير المدن حتى اعتبره "حمدان بن عثمان خوجة" بمثابة الحاكم الثاني للمدينة في قوله :- "يوجد في كل مدينة حاكم ثان يُختار من بين الأسر الشريفية التي تنتمي إلى أحد المرابطين ، ويسمى هذا الشخص نقيب الأشراف وواجبه كلّما حدث أمر هام أن يجمع في بيته شيخ البلدة وسائر الأمناء التابعين له للبحث عن التدابير التي يجب اتخاذها"⁵، هذا الدور المهم والأفضلية التي منحها السلطة لهذه الفئة ساهمت ولو بطريقة غير مباشرة في تكريس نظام قائم على الفصل بين الدين والدولة من خلال توسيع الفجوة بين العلماء من الشرفاء والشرفاء

¹ الفكّون عبد الكريم ، منشور الهداية ، مصدر سابق ،ص49.

² أحمد قاسم البوني، الدرّة المصونة في صلحاء وعلماء بونة، تحقيق أد سعد بوفلافة، منشورات بونة للبحوث والدراسات عنابة ، ط1، الجزائر، 2007، ص78.

³ غريس مدينة صغيرة تابعة لمعسكر وتبعد عنها حوالي 18 كلم، عرفت استقطابا من طرف العلماء والشيوخ، عرفت خلال العهد العثماني هجرات كبيرة للعلماء نحو مدينة فاس بالمغرب .

⁴ عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر(1700م - 1380م)، أطروحة دكتوراة، اشراف مولاي بالحميسي ، جامعة الجزائر، (2000م / 2001م) ، ص88.

⁵ حمدان خوجة ، المرآة ، مصدر سابق ، ص 87.

من المرابطين حيث جعلت لهم الأولوية في تولّي هذه المناصب حيث يتم فتح وظيفة نقيب الأشراف وغيرها من الوظائف التي تؤطر القضايا التي لها علاقة بالدين كالإمامة والخطابة والإفتاء¹.

ومن الأساليب والامتيازات الأخرى التي عملت السلطة على التقرب بها من العلماء والمرابطين هو التجاوز والتغافل عن أخطاء بعض المرابطين وحتى الخطباء وغيرهم ، والتغاضي عن بعض تصرفاتهم التي تصدر منهم ولا يتضح ذلك عند المرابطين الرّهّاد العبّاد الصالحين ، بل عند الذين مارسوا التصوّف بجهل وعن جهل وهم المبتدعة ومن نشروا الدروشة والخرافات رغم أنّها كانت مضرة بالدين وبأخلاق المجتمع فكانت السلطة تصمّ آذانها ولا تتكلم لهم عن ذلك ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن المفتي في تقييداته عن الحاج مُحمّد النيار الذي تولى حُطّة الإفتاء مرّتين الأولى كانت لمدة خمس سنوات وخمسة أشهر، ووصفه بأنه رجل جاهل فإذا استفتيته في مسألة علمية فإنّه دائماً على رأيك ولم يكن لعلماء عصره أي اعتبار عنده، كما كان شخصاً مُرْتَشٍ قليل الدّين وقال عنه أيضاً : "كان أوّل مَنْ أهان العلم وأهله..." ، كما أنّه أوّل من ابتدع عادة تقبيل يد الأمراء من طرف العلماء، ولم تكن هذه العادة سابقاً وإنّما كان العكس ، كما كان يأخذ الهدايا من أصحاب الشكوى لما كان مفتياً² . أو ما ذكره ابن الفكّون فيمن ادّعوا الولاية ومنهم الذي ذكره باسمه وهو مُحمّد البلدي الذي اشتهر أمره بين الناس وصاروا يدخلونه دُورهم ولا يحبون منه نساءهم، وكذلك الأمر بالنسبة لرجل آخر هو بلقاسم الحيدوسي الذي سار على نهجه وصار يدخل إلى الدُور ويجتمع بالنساء في الغيب والحضور، وذكر آخر بأنه كان يُغيّر الأحباس (الأوقاف) ويبيعها، وفي معرض حديثه عن ادّعاء العلم الذين قدّموا رِشَى للحصول على مناصب قضائية وسياسية ذكر أبا عبد الله مُحمّد المسبّح وقال عنه: "ومنّ تعاطى نيابة القضاء أبو عبد الله مُحمّد بن الفقيه حميدة المسبّح تولى خطة النيابة بالبلد ومكث فيها زماناً وعزل مرّات أبا مُحمّد عبد اللطيف بن سعيد لاستظهاره عليه بأبي عبد الله بن نعمون المذكور... وكان مُحمّد المسبّح عامّي القلم والفكر لا

¹ فاطمة الزهراء طوبال ، النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات ، المرجع نفسه ، ص 87.

² ابن المفتي ، تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، مصدر سابق ، ص 89 ، 91.

يعرف ما يصلح به وضوءه وصلاته فضلا عما وراء ذلك¹، كما عمل بعض رجال الطرق الصوفية على استقطاب الأراضي الزراعية وتوسيع سلطتهم عليها، وفي هذا السياق تمكّن هؤلاء عن طريق تعدّد الزوجات من تولية ذريتهم على أراضي القبائل التابعة لهم².

ومن الأساليب التي اتّبعتها رجال السلطة للتقرّب من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية هي مصاهرتهم والتي كان لها تأثيرها ووزنها الكبير في المجتمع، ومن ذلك ما قام به الحاج حسين باشا ميزمورتو (1683م - 1688م) وزواجه بأميّنة بنت السيد أحمد الشريف³، وزواج الداوي علي باشا (1232هـ - 1233هـ/1816م - 1818م) بابنة الحاج مصطفى بن الشيخ مالك⁴، بالمقابل عملت العديد من البيوتات العلمية ورجال الطرق الصوفية والعائلات ذات النسب الشريف ومن أجل تعزيز مكانتها على مصاهرة رجال السلطة والحكم ومن ذلك: أسرة الشريف الزهّار، وأسرة عبد الرحمان الثعالبي، وأسرة بن واضح وغيرها⁵.

ومن الامتيازات الأخرى التي تتمتع بها العديد من العلماء ورجال الطرق الصوفية وهي تُعتبر من مظاهر الودّ بين السلطة والطرق الصوفية خاصّة هو تخصيص أنصبة ثابتة من غنائم البحرية لكثير من الأضرحة والمزارات في مدينة الجزائر وغيرها ويُحتفظ بهذه المقادير والأنصبة في صندوق خاص بقصر الحكومة ليتمّ توزيعها بعد ذلك بمناسبة المولد النبوي الشريف على الأضرحة أو القائمين عليها، ومن بينها ضريح الثعالبي وسيدي منصور وسيدي عبد القادر وغيرها وكلّها مسجّلة في وثيقة رسمية مؤرّخة في 04 ربيع الثاني 1114هـ ما يوافق 27 أوت 1702م⁶، يُضاف إلى ذلك أيضا الإعفاء من الضرائب التي فرضتها على مختلف فئات المجتمع، وهذا الإعفاء قد يكون كليّا أو جزئيا وكان هذا الاجراء يتم

¹ عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، مصدر سابق، ص ص، 88، 178، كما ذكر نماذج وأمثلة أخرى من هؤلاء وخصّص لهم فصلا كاملا هو الفصل الثالث في كتابه.

² عبد القادر صحراوي، الأولياء والتصوّف في الجزائر، مرجع سابق، ص ص 143، 145.

³ البحث عن مرجع للمعلومة أو مصدر لها.

⁴ أحمد الشريف الزهّار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهّار، مصدر سابق، ص 138.

⁵ لزغم فوزية، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 477.

⁶ De voux (A. _): Tachrifat .imprimerie du gouvernement ; Alger _ 1852; p 70.

بدافع ضمان السلم في المنطقة أو لضمان السير الحسن لجباية هذه الضرائب وجمعها وتسليمها أو لضمان ولاء الرعيّة أو لأغراض أخرى. ومنحت السلطة هذا الامتياز لفئة المرابطين وشيوخ الزوايا ورجال العلم الذين تصدّروا للإفتاء أو الإمامة والتدريس، ويكون الإعفاء عن طريق فرمانات أو الظهائر التي يصدرها الباي أو الداوي هذه الإجراءات التي يقوم بها الحكام قد تكون إيمانا منهم بكرامات المرابطين مثل ما فعله "الباي بوحنك"¹ بعدما تكلم مع أحد شيوخ ومرابطي المنطقة وهو الشيخ "الشليحي"، وأغلظ عليه فنظر من حوله من هول ما أحاط به واعتقد في كرامة الأولياء ومن ثمّ أعطاه بيتا وزاوية، كما منحه أرضا وأعفاه من الضرائب²، هذا الإعفاء قد يكون كليًا أو جزئيًا وهو ما اعتمد مع قبيلة أولاد سيدي الشيخ بالصحراء الذين كانوا لا يدفعون إلا نسبة قليلة على حمولة الإبل التجارية وحُدِّدَت بحوالي ستة فرنك على حمولة كل جمل ورُبَّمَا يعود هذا لكون هذه القبيلة هي من أتباع الطريقة القادرية أو بسبب نفوذها الكبير في المنطقة³. ومن الأمثلة كذلك في هذا الشأن إعفاء كل من أسرة الفكّون في قسنطينة وأسرة الكتروسي بمنطقة مازونة وأسرة بن حوّاء في مستغانم، هذه الأخيرة التي أمر الباي عثمان بن الحاج إبراهيم⁴ بذلك حيث جاء الأمر كما يلي: "أمر بتحرير العلامة السيّد مُحمَّد بن حوّاء⁵ وإخوانه، وبني عمّه التجاجنة من جميع التكاليف المخزنية وكتب لهم بذلك رسماً" وكان هذا الأمر محتوماً

¹ الباي بوحنك : الباي حسن كان رجلاً ذا هبة تولى حكم بابلك قسنطينة ما بين (1736م - 1754م) ، وهو الذي بنى الجامع الأخضر وجعل عليه أوقافاً وفيه دُفِن .

² أحمد بن المبارك بن العطار، تاريخ بلد قسنطينة، تح، تع، تق، د. عبد الله حمّادي، دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع ، قسنطينة - الجزائر، 2011، ص ص 129 ، 130.

³ رشيدة شدرى معمر ، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671 م - 1830 م) ، مرجع سابق ، ص 121.

⁴ عثمان بن الحاج إبراهيم : ويطلق عليه كذلك " عصمان " هو باي الايالة الغربية تولى حكم البايلك ما بين (1160هـ - 1170هـ / 1747م - 1756م .

⁵ هو مُحمَّد الموقّق بن قدار بن الجيلاني المعروف بـ " ابن حوّاء " نسبة إلى أمّه وتُنسب إليه أسرة "ابن حوّاء" العلمية بمستغانم، وهي من بني توجين القبيلة ذات الأصل البربري التي كانت تقطن بمعسكر والتي انتقلت بعدها إلى مدينة مستغانم ، أنجبت هذه الأسرة العديد من العلماء وهي من الأسر التي كانت لها حظوة عند بايات الغرب الجزائري حتى أنّها تمّ إعفاؤها من دفع الضرائب .

بتاريخ جمادى الأولى 1167هـ¹، وهو ما يوافق شهر مارس 1754م، ويتّضح من هذا الأمر المباشر إليه أنّ الإغفاء من الضرائب يسري على العالم وعائلته ويستمر حتى إلى الأبناء والأحفاد ما لم تُعلن هذه الأسرة أو العائلة التمرد أو العصيان والخروج عن طاعة السلطة، هذه السلطة التي انتهجت سياسة قامت على التقربّ منهم بكسب رضاهم عن طريق التعظيم والاحترام والزيارة وتولية المناصب والمراسلات المتبادلة والوساطة والإغفاء من الضرائب، وكان الهدف من ذلك هو الحفاظ على النظام العام وكسب ودّ الرعيّة نظراً لحاجة السلطة لها من خلال جباية الضرائب أو تعبئة الناس وتوجيه آرائهم لصد العدوان الأجنبي. كما استطاعت هذه السلطة أن تحقق عدّة مكاسب من وراء هذه السياسة المنتهجة خلال الفترة المدروسة، وحصد من خلالها العثمانيون ثمرة ذلك واتّضح في نظرة أهالي الجزائر لهؤلاء الوافدين الجدد العثمانيين باعتبارهم حُماة للدين ومُنقذين للبلاد والعباد فلقوا منهم المؤازرة والتأييد، واعتبرت هذه السلطة الجديدة العلماء ورجال الطرق الصوفية وسيلة للدعاية بالنسبة لها بهدف تثبيت أركانها وسيطرتها على الرعيّة والقابلية (القَبُول) بها نظراً لمكانة العلماء ورجال وشيوخ الطرق الصوفية عند السكّان، فعملت على التقربّ منهم بشتى الطرق والوسائل ونظير ذلك أيضاً عمل بعضاً من العلماء على التقربّ من السلطة تزلفاً وطمعاً في سلطة وظيفية أو مال، ويكون ذلك عن طريق المدح شعراً ونثراً، فهذا أبو عبد الله مُحمّد بن أحمد البوي² يمدح الداى "مُحمّد بكداش" بعدما ألزمه خطّة الفتيا وكان في ذلك خيراً فكاتبه ومدحه بقصيدة ومّا جاء فيها :

يا ربنا بالمصطفى العدنان *** وبآله وبصحبه الأعيان

¹ المزاري، طلوع سعد السعود، مصدر سابق، ص 284.

² أبو عبد الله مُحمّد بن أحمد البوي: هو أبو عبد الله مُحمّد بن أحمد بن قاسم بن مُحمّد ساسي التميمي البوي، ولد بمدينة بونة عناية حالياً سنة (1063هـ / 1653م) نشأ في أسرة ميسورة وتعلم على يد والده وتفنّن في عدة علوم فكان عالماً يرجع إليه للفتوى، وكان ممّن أُعترف لهم بالدراية والعلم والنفع، له عدّة مؤلفات في شتى العلوم، ومن أغرب مؤلفاته قصيدة من ألفي بيت في فن آداب السلوك سمّاها " تبيين المسارب في ما يتعلّق بالأكل والطب والمشارب"، توفي في مدينة بونة ودُفن بها سنة (1139هـ / 1726م)، ينظر "مُحمّد عثمان باشا داي الجزائر"، لتوفيق المدني ص 69.

والأنبياء والرسل والقرآن	***	والأوليا أهل التقى والشان ¹
متّع عبادك بالذي أمرته	***	فيما بلا ضُرّ ولا نقصان
هو الأمير مُجَّد ذو المجد والأ	***	سرار والآلاء والإحسان
الأعظم والأعلى الأعز الأ	***	رفع الشاني الذي ما مثله ثان
جمع التقى والعلم فيه بلا خفا	***	فاقصده صاح تجده بالبرهان ²

وهذا ابن ميمون الجزائري صاحب كتاب " التُّحفَة المرضية " كان يمدح حكاما ويذمّ آخرين حيث نجده يمدح ويؤثني على الداوي " حسين خوجة الشريف " ويصفه بجليف الصواب ملازم الطهارة معجز ببيانه وموجز في كلامه، والأمر نفسه قام به مع الداوي مُجَّد بكداش، بينما يصف الداوي "مصطفى أهجي"³ بالظلم والطغيان والبغي والعدوان⁴، وقد اعتبره "أبو القاسم سعد الله" - رحمه الله - بأنه شاعر البلاط الرسمي يتقرّب من السلطة بلا تذلل⁵، وأما نثرا فنورد ما ذكره ابن هطّال التلمساني⁶ الذي شغل عدّة مناصب في بايلك الغرب وهو الذي صحب الباوي " مُجَّد الكبير "⁷ في تنقلاته ومعاركه ورحلاته،

¹ المقصود في هذا البيت : الأنبياء والأولياء، والشأن، ونقلنا ذلك كما في المصدر للأمانة العلمية .

² ابن ميمون الجزائري، التحفة المرضية، مصدر سابق، ص175.

³ توفّي سنة 1112هـ / 1700م

⁴ ابن ميمون الجزائري، التحفة المرضية، المصدر نفسه، ص13.

⁵ كان هدف "ابن ميمون" من تأليفه لكتابه "التحفة المرضية" هو محبته الخالصة لهذا الداوي ولسيرته المرضية وقد قصد بكتابه هذا التزلف إليه ونيل رضاه ويستشف بذلك من قوله: " وبعد فإني لما رأيت مولانا الإمام الذي أنام في ظل الأمان جميع الأنام، عالم الأمراء وأمير العلماء مولانا فخر الدولة العثمانية...أبو النصر مُجَّد بكداش...أردت أن أخدم مجلسه العالي بزفّ هذا الكتاب إليه... " للمزيد ينظر: ابن ميمون، التحفة المرضية مصدر سابق، ص 113.

⁶ هو أبو العباس الحاج أحمد بن مُجَّد بن مُجَّد بن علي بن هطّال التلمساني، كان كاتباً ومستشاراً للباوي مُجَّد الكبير باي منطقة وهران ومبعوثاً له في المهمّات الخارجية توفّي في معركة خلال ثورة درقاوة على العثمانيين سنة 1219هـ / 1804م

⁷ هو مُجَّد بن عثمان الكردي كانت كنيته «أبو النصر» و يُلقَّب ب "الكبير" و " المجاهد المنصور «، إكراماً له عند فتحه مدينة وهران، وقد دام حكمه على المنطقة الغربية عشرون سنة بايا مستقلاً، وسبعة أعوام خليفة مفوضاً، توفّي الباوي " مُجَّد الكبير " وهو في طريقه إلى مدينة الجزائر سنة 1213هـ / 1798 م

وألف كتابه المعروف بـ "رحلة مُجَّد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري" ¹. ما ذكره بقوله: " أردت أن أذكر منه نبذة أخدم بها حضرة قانع المبعضين ومدوّخ المارقين ، من جمع الله له خصال الشرف والمجد ²."

علاقة التقارب هذه أثمرت كذلك نوعا من الاستقرار في الإيالة ولو نسبيا خلال القرون الأولى للوجود العثماني حيث عملت هذه السلطة الروحية من العلماء ورجال وشيوخ الطرق الصوفية على إخماد وإطفاء نار الثورات والتمردات والحركات المعادية للوجود العثماني ، حيث لجأ الحكّام العثمانيون إلى سياسة التحالفات مع هؤلاء بغرض إحكام سيطرتهم على أكبر عدد ممكن من المناطق النائية عن السلطة أو الخارجة عن طوعها فكثيرا ما كان العثمانيون يكثرّون من الهدايا والعطايا للمرابطين بهدف استمالتهم وتوظيفهم عند الشدّة ضدّ المعارضة³، وهو ما يساعد هذه السلطة على مدّ نفوذها على أقسام وجهات واسعة من البلاد مثل الأوراس والهضاب وحتى الصحراء وكان من نتائجه ربط العديد من القرى والأرياف النائية والغير خاضعة بالإدارة المركزية عن طريق هذه العلاقة ويتمّ تمتينها أحيانا عن طريق مصاهرة بعض الحكّام للعائلات النافذة في هذه المناطق خاصة منطقة القبائل وحتى في بايلك الشرق، ومن ذلك ما فعله "فرحات باي" الذي حكم ما بين (1647م - 1653م)، حيث عمل بفضولته ودهائه أن يخدم الفتن وإعادة الأمور إلى نصابها ووضع حدّا للاضطرابات وذلك بسبب وقوف عائلة ابن فكّون إلى جانبه وحثّ الناس على طاعته، إضافة لأعداد القوات التي وضعها الباشا تحت تصرفه⁴، لذا كثيرا ما اعتمد العثمانيون على جناح المرابطين في محاربة أي محاولة ثورية مقابل منحهم عدّة عدّة امتيازات، وهو ما أدّى إلى ازدياد عدد الزوايا والمساجد والأوقاف فبرزت حركة صوفية مرابطية واسعة النطاق ملكت العديد من الثروات وتحكمت في كثير من الأوضاع فأصبحت هذه الحركة الصوفية

¹ مصدر مهم من مصادر تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، ذكر فيه مؤلفه كثيرا من الأحداث المهمّة المتعلقة بتاريخ الباي " مُجَّد الكبير " ، وقد تمّ تحقيق الكتاب من طرف الشيخ " مُجَّد بن عبد الكريم " ، و طبع التحقيق ونُشر سنة 1969م ، وصدرت الطبعة الأولى منه عن مطبعة " عالم الكتب " بالقاهرة ، مصر .

² ابن هطّال التلمساني ، رحلة مُجَّد الكبير ، مصدر سابق ، ص 35.

³ رشيد بكّاي ، تأثير الطرق الصوفية على المجتمع الجزائري ، مرجع سابق ، ص 248.

⁴ مُجَّد الصالح العنتري ، فريدة منيسة أو تاريخ قسنطينة ، مصدر سابق ، ص 47.

قوة مالية وفكرية واجتماعية مؤثرة على الأحداث، هذا الأمر الذي ساعد على عدم استمرار هذا الوضع بل انقلب فظهرت التمردات والثورات من رجال وشيوخ الطرق الصوفية نفسها.

وأجبرت السلطة العثمانية على التفاوض والتفاعل معها القوة بالقوة كما سنرى لاحقا، إذن فعلاقة التقارب هذه التي كانت بين السلطة والعلماء والتي خلقت ائتلاف فعلي بين السلطة السياسية والسلطة الدينية لم تستمر بل عرفت فيما بعد توترا وقطيعة ونفورا لأسباب مختلفة كان أبرزها سياسة بعض الحكام في حد ذاتها التي كانت من الباشوات والدايات وحتى البايات في الأقاليم المختلفة من الإيالة، فازدياد نفوذ الطرق الصوفية بمرور الوقت نتيجة التنظيم الهيكلي الذي عرفته هذه الطرق أدى إلى توجس السلطة خيفة منها وحتى ممثليها في الأقاليم مما وتّر العلاقة بين الطرفين وتكررت الحوادث التي أدت لهذا التوتّر وظهرت جليًا خاصّة خلال القرن الثاني عشر الهجري أي الثامن عشر الميلادي واستمرّ إلى نهاية العهد العثماني، ولا شك أنّ لهذا التوتّر عدّة أسباب مختلفة ، كما كانت مظاهره على شكل تمردات بسيطة لينتهي على شكل ثورات قادها شيوخ الطرق الصوفية مثل الطريقة الدرقاوية والطريقة التجانية لترد السلطة العثمانية على ذلك بيد من حديد كانت نتيجتها سلبية على المجتمع وكان للعلماء وشيوخ الطرق الصوفية النصيب الأكبر فيها واتخذت هذه القبضة الحديدية أشكالا عدّة .

4- تأزم العلاقات بين العلماء والسلطة وارهاسات هجرة العلماء:

إنّ التقارب والتحالف الذي جمع الطرفين والذي سبقت الإشارة إليه لم يتواصل إلى نهاية الوجود العثماني إذ طرأت عليه تغييرات جذرية حالت دون استمرار هذه العلاقة بين السلطة وشيوخ الطرق الصوفية والعلماء الذين تحوّلوا من مؤيدين ومدافعين عن هذه السلطة إلى محرّضين عليها وأداة للخروج على طاعتها و يمكن حصر العوامل والأسباب التي أدت إلى تأزم هذه العلاقة وهذا التحالف إلى :

— حالة الانسداد السياسي الذي عرفته الجزائر منذ العهد الثالث من الوجود العثماني وهي مرحلة الأغوات (1659م /1671م) ، ورغم قصرها إلا أنّها تميّزت بالفتن والاغتيالات السياسية نتيجة عجز هؤلاء الأغوات على توفير الاستقرار الداخلي وهو ممّا أدى إلى زيادة في توتّر العلاقة بين السلطة والرعية، ورغم قدرة الداوي الحاج مُحمّد تريكي (1671م/1682م) على تجاوز هذه الانسداد بحدوء فإنّ حالة

الانسداد هذه عادت بتوليّ الداوي بابا حسن (1682م/1683م) وبدأت الأوضاع تتغير شيئاً فشيئاً حيث اصطدمت السلطة مع قبائل بني عامر في الغرب الجزائري¹، وكذلك الأمر بالنسبة لقبيلة أولاد سيدي الشيخ، ولعل هذا الاصطدام والتمرد كان من أسبابه سياسة التهميش والقمع وإبعاد الأهالي الجزائريين عن مراكز السيادة والحكم²، ورغم التلاحم النسبي والمؤقت بين السلطتين السياسية والدينية خلال هذه الفترة - مرحلة الدايات - والذي كان من أهم أسبابه تكالب الدول الأوربية وهجماتها المتكررة على الجزائر والتعبئة للجهد وخاصة ضدّ الاسبان المتواجدين بوهراّن فإن ذلك قد زال بزوال الاحتلال الاسباني وبتحرير وهران نهائياً من الوجود الاسباني سنة (1792م / 1207هـ) ، وبانتهاء هذا الخطر أصبح كل طرف ينظر للآخر بعين الريبة، ويتحسّن الفرصة لإقصائه، لاسيما مع إهمال العثمانيين لأغلب مجالات الحياة³.

إنّ حالة الانسداد السياسي هذه أدت إلى عدم وجود استقرار في نظام الحكم فكثر الاضطرابات ويتجلّى ذلك في كثرة تعاقب الدايات⁴ وشاعت ظاهرة الاغتيال من طرف الجند حتى تعاقب على حكم الإيالة في فترة وجيزة مقدّرة بتسع سنوات ما بين (1805م / 1814م) خمس دايات⁵، وقد تميّز جلّهم بالضعف وعدم الكفاءة ولم يتمكنوا من ضبط أمور الدولة، وكان هدف معظمهم الاستبداد بالسلطة وجمع الأموال وليس الرقيّ والازدهار الحضاري⁶، وأصبحت المناصب تُباع وتُشترى بدلا من مراعاة الكفاءة التي تسمح بتسيير شؤون الدولة بدراية وحزم، حتى أنّ حمدان خوجة وصف

¹ من أكبر القبائل في الجزائر وتنتشر خاصّة في منطقة الغرب الجزائري ويمتدّ نفوذها في كل من وهران وسيدي بلعباس وسعيدة وشرق تلمسان وغرب معسكر ومستغانم... وكانت تشكل خطرا على السلطة لأنّها تحوز على مجال جغرافي واسع زادها ذلك تحالفها مع الاسبان وتعاونهم معها على حدّ رأي السلطة.

² فاطمة الزهراء طوبال، النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات، مرجع سابق، ص 146.

³ فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر، مرجع سابق، ص 480.

⁴ تعاقب على الجزائر خلال فترة الدايات (1671م / 1830م) الأخيرة من حكم العثمانيين في الجزائر 26 حاكما أو دايا.

⁵ **الدايات هم**: أحمد باشا (1220هـ / 1223هـ) - علي باشا المعروف بالغسّال وكان رجلا وضيعا عديم الأخلاق واعتدى على أموال الأوقاف وكانت مدة حكمه أربعة أشهر (رمضان 1223هـ / محرم 1224هـ) - الحاج علي باشا الذي كان وزيرا عند السابق الذكر حكم ما بين (1224هـ / 1230هـ) - محمد باشا الذي لم يدم حكمه إلا أيام فقط سنة (1230هـ) - الداوي عمر باشا (1230هـ / 1233هـ)، وللمزيد حول أحداث هذه الفترة يُنظر: أحمد الشريف الزهّار: المذكرات، مصدر سابق، ص 95، 115.

⁶ -الغالي الغربي، "الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات، ثورة ابن الأحرش الدرقاوي ضد الأتراك في مطلع القرن التاسع عشر"، مجلة دراسات تاريخية عدد 23، 24، 1986، الجزائر، ص 167.

هذه الفترة بقوله: "لم يكن على الذي يريد أن يصبح بايا إلا أن يتجه لأقارب أحمد باشا ويمدّهم بالأموال"¹. - كما أنّ العثمانيين عملوا على احتكار السلطة وعاملوا السكان معاملة استعلاء واحتقار وخلقوا طبقة بيدها تكون السلطة الدائمة خوفا من انفلات الأمور بين أيديهم ، ورغم اشتراك فئة الكراغلة مع الأتراك في الأصل غير أنّهم لم يُشركوا في المهام الكبرى خوفا من سيطرتهم على شؤون البلاد لاسيما أن هذه الفئة وبحكم قرابتهم من الأهالي وارتباطهم بالبلاد كانوا قادرين على تكوين حلف وطني يهدّد امتيازات الطائفة التركية². ولم تستطع السلطة الحد من قوّة هذه الفئة³ إلا بعد أن سمح لهم بالمشاركة الفعالة في الجيش والإدارة فقد ارتقى البعض منهم إلى مناصب سامية إذ تولوا مناصب الباي أي حكاما للأقاليم ومنهم الكرغلي أحمد باي الذي تولّى بايلك الشرق ما بين (1826م / 1837م)، ونظرة الاستعلاء هذه والتي كانت من طرف جل الدايات الذين حكموا الجزائر خلال الفترة الأخيرة من وجود العثمانيين بها ارتكزت في تسيير شؤون البلد على تنظيمات قائمة على : توفير الأمن والطاعة ولو باستخدام القوّة، ثمّ الحفاظ على وضع اجتماعي واقتصادي يضمن امتيازات الطبقة الحاكمة وكل المتعاونين معها ولو كان ذلك على حساب الأهالي إضافة إلى جباية وجمع الضرائب منهم حتى وإن كانت بطرق تعسّفية .

- جمع الضرائب وجبايتها كان هو أيضا من أهم الأسباب التي أدّت إلى القطيعة بين العلماء والسلطة التي انتهجت سياسة ضريبية مجحفة في حق السكّان، وهو أمر طبيعي بالنسبة لها ، بسبب تراجع الموارد البحرية الجزائرية وجفاف مصادرها والتي كانت من أهمّها الرسوم المفروضة على الدول الأوربية مقابل حقّها في الملاحة والتجارة في حوض البحر المتوسط، وكذا الغنائم البحرية العائدة من عمليات الجهاد البحري أو ما يعرف بالقرصنة البحرية لدى الأوربيين وهو نتيجة حتمية لتحوّل طرق الملاحة والتجارة

¹ حمدان بن عثمان خوجة ، المرأة ، مصدر سابق ، ص ص 112 ، 113.

² ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792م / 1830م) ، م و ك ، ط2، الجزائر ، 1985، ص 44.

³ قامت هذه الفئة بمحاولة وضع مشروع للاستيلاء على الحكم ويهدف إلى طرد الأتراك ، الذين علموا بهذه المناورة واستطاعوا الوصول إليهم وعملوا على إحباط المشروع واجهاض الفكرة ، للمزيد حول هذه الحادثة يُنظر حمدان خوجة ، المرأة ، مصدر سابق ، ص 116.

العالمية فقلّت الموارد التي ازدهرت ازدهارا ملحوظا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر غير أن الاحوال تغيرت جذريا وجلت خصوصا منذ نهاية القرن الثامن عشر.

ولم تجد هذه السلطة مصدرا ثابتا آخر يمول الخزينة ، لذا عملت على إيجاد مصدر آخر لها من خلال إنهاك السكان بضرائب إضافية واخضاع القبائل الخارجة عن السلطة، ولو كان ذلك بطريقة تعسفية فغالبا ما تتم جباية الضرائب وخاصة في الأرياف والمناطق النائية في كثير من النواحي تحت الضغط والإكراه من خلال ارسال الحملات العسكرية التأديبية لإرغام الأهالي في حالة العصيان على دفع الضرائب المتوجبة عليهم، وتعتمد هذه الحملات على قبائل المخزن التي تدعم الفرقة التركية التي تقوم باستعراض قوتها وجبروتها على الأهالي العزل وفائدتها تكمن في تحصيل ذلك الكم الهائل من الضرائب وتنفيذ عمليات المصادرة واكتساب الغنائم من المناطق المستعصية على الحكام¹. ولو كان ذلك على حساب عيش وأرزاق الأهالي وهو ما أدى إلى انتشار تدمر كبير وسخط من طرف مختلف فئات عدّة هذا السخط الذي أصبح يزداد اتساعه يوما بعد يوم ويشمل خصوصا فئة الفلاحين التي تمثل أغلبية السكان التي تعتبر الأكثر تضررا نظرا لارتباطها بالأرض مما أدى إلى حدوث خسائر وركود اقتصادي خانق جزاء تراجع النشاطات الزراعية والرعوية والحرفية والتجارية²، لذا فالسلطة كانت حريصة على الانتفاع بنظام جبائي من خلال الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الأراضي، الأملاك، الأموال، المواشي، والمحاصيل الزراعية وغيرها، لذا قال فيرو (Feraud): "أينما ذهب أو حلّ التركي فإنّ الأرض تصبح جدباء"³.

¹ ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني ، المرجع السابق ، ص ص 66 ، 123.

² فاطمة الزهراء طوبال ، النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات ، مرجع سابق ، ص 152.

³ FERAUD: Le Sahara de constantine, A. Jourdan, Alger, 1887, p80

- من الأمثلة على ذلك ما قام به أحمد المملوك¹ باي قسنطينة أثناء قيامه بحملة كبيرة في جنوب البايك في الصحراء وبالضبط على مدينة توقرت التي كانت تحت حكم سلاطين بني جلاب²، فما كان من السلطان "محمد بن جلاب" أن استرضاه ومنحه 10000 ريال كضريبة سنوية، ولكن بعد أن قطع هذا الباي 200 نخلة انتقاما من عدم امتثال المنطقة لطاعته³. ويرصد الورتيلاني ما قام به العثمانيون حين دخولهم بسكرة وظلمهم لأهلها بسبب الإجحاف في المطالبة بالخراج وبذلك فقد اجتمعت عليهم غارات العرب من الخارج وظلم الأتراك من الداخل وقد أشرفت على الخراب⁴.

وتتنوع الضرائب فهناك ضرائب تُفرض على سكان المدن وأخرى على سكان الأرياف كما تختلف أسماءها ومنها: ضريبة دار السلطان، وضريبة المكوس التي تُفرض على التجار ومختلف الأنشطة التي تُقام في الأسواق، وضريبة المعونة والعسنة والحكور* واللزمة وغيرها هذا بالإضافة إلى الرسوم المفروضة على اليهود والنصارى دون أن ننسى الدنوش⁵ والعوائد التي تساهم بها، وتقدمها سنويا مختلف المناطق التي تكوّن الإيالة وهي (باييك قسنطينة - باييك التيطري - باييك وهران)⁶.

كما أن المصادرة والتغريم جميعها تنضوي تحت السياسة الضريبية المجحفة التي كانت تعتبرها السلطة من المداخل البديلة عن أرباح وغنائم الجهاد البحري أو ما سُمّي بمصطلح القرصنة، وقد كان

¹ حكم هذا الباي باييك الشرق مرتين الأولى سنة 1818م ولم يدم حكمه فيها إلا 6 أشهر فقط، والثانية سنة 1820م ودامت مدة حكمه هذه المرة سنتين، كان هذا الباي مثقفا عادلا طلب ممن حوله بخدمة الصالح العام، خرج خلال فصل الصيف لمحاربة قبيلة بني عامر لكنه فوجئ بقرار عزله من منصبه الذي بقي فيه مدة ستة أشهر ليعود بعدها إلى حكم البايك سنة 1820م.

² حكمت أسرة بني جلاب منطقة أو مدينة توقرت وضواحيها وتعود أصل هذه الأسرة إلى بني مرين حكام المغرب الأقصى، وقد أرسى سلطتها على المنطقة لمدة أربعة قرون، وتداول على سلطتها 36 سلطانا، وانتهى حكم هذه الأسرة للمنطقة بداية القرن 19م، للمزيد حول الموضوع يُنظر: معاذ عمراني، أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين 19 و20م، دراسة سياسية واجتماعية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، جامعة قسنطينة، 2003م، الجزائر.

³ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني، مرجع السابق، ص 124.

⁴ الورتيلاني، نزهة الأنظار، مصدر سابق، ج1، ص 89.

*الحكور: هي مبلغ مالي يُقدّر كحق إيجار يدفعه الفلاح مقابل استثماره لأرض الدولة.

⁵ الدنوش: هي ما يدفعه البايات من ضرائب مفروضة عليهم للخزينة العامة بمدينة الجزائر.

⁶ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي، المرجع نفسه، ص 104، 114.

الجباة من الجنود المأجورين الذين يستعملون العنف والإكراه والضغط خاصة ضد القبائل الممتنعة والتي شقت عصا الطاعة في وجه السلطة لذا وصف الحاج أحمد الشريف الزهّار هذا الوضع السيء لنظام الجباية وما ترتّب عنه وصفا دقيقا بقوله: "وهكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي والأواخر صاروا يخرجون المحلات لاستخلاص المغارم والظلمات ونهب أموال المسلمين، وما وقع هذا حتى صار الناس فُجّارا والأمراء ظالمين"¹، والأسوأ من ذلك فقد كانت السلطة تجمع هذه الأموال والضرائب لتدفعها كمرتبات للجند أو تلبية متطلّبات الداوي وحاشيته أو المقربين منهم، ولم تعمل على استثمارها لتنشيط الحركة الاقتصادية أو الاهتمام بالجانب الاجتماعي، عدا عن اهمال الحالة الصحية وعدم إعطائها العناية الكافية، ومّا زاد في بؤس وشقاء الأهالي وخاصة الفلاحين الذين أهملوا الأراضي بسبب ارتفاع قيمة الضرائب، وازداد الأمر سوءا بتعاقب الكوارث الطبيعية من المجاعات والأوبئة وانتشار موجات الجراد والزلازل وغيرها، وهو ما أثّر حتى على الوضع الديموغرافي للجزائر².

ولا يمكن أن نغفل عن دور اليهود المخزي في عملية جمع الضرائب من القبائل ومنها قبيلة بني عامر المارقة عن طاعة السلطة العثمانية حيث استخدم الاسبان المتحكّمين في مدينة وهران قبل استرجاعها منهم نهائيا سنة 1792م طائفة اليهود في جمع الضرائب وهو ما يصوّره لنا المشرفي ويؤكّده بقوله: "فكان اليهودي - لعنه الله - يخرج بمحلته لقبض الضريبة فيضرب خبائه بوسط دواوير بني عامر من أولاد عبد الله وغيرهم ثم يتصرّف فيهم تصرّف الملك في رعيته بما شاء أمرا ونهيا فيصنف هذا في الأغلال، ويضع على رجل هذا الأكال ويجلد هذا ويؤجلي سبيل هذا إلى غير ذلك دون متعرّض له وأما الفُحش فلا يُوصف"³. إضافة إلى احتكار الطائفة اليهودية لتجارة الحبوب وخاصة القمح وهو ما زاد الأوضاع الاجتماعية بؤسا⁴.

¹ أحمد الشريف الزهّار، المذكرات، مصدر سابق، ص35.

² ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، م.و.ك، الجزائر، 1988، ج2، ص 125، 130.

³ عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبان كبني عامر، تحقيق مُحمّد بن عبد الكريم، منشورات مكتبة الحياة، ب (در ط) بيروت لبنان، (د ت ط)، ص 11.

⁴ للمزيد حول مكر اليهود ونفوذهم ودورهم الاقتصادي في الجزائر خلال هذه الفترة ينظر: كتاب المرأة لحمدان خوجة، مصدر سابق، ص ص 120، 122، إضافة إلى رسالة الماجستير، النفوذ الاقتصادي والسياسي ليهود الجزائر (1516م / 1830م)، وداد بيلامي، اشراف د/احميدة عميراوي، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004.

إنّ حالة الانسداد السياسي التي عرفتھا الإيالة في آخر عهدها وتمادي جُلّ الدايات في تسيير أمور الإيالة غير الرشيد هذا أدّى إلى تدهور حالة الجيش وضعفه ، كما أن ارتفاع نسبة الضرائب بأنواعها المختلفة وتحكّم طائفة اليهود وبتواطؤ بعض الدايات والبايات أنفسهم¹ في إنتاج المحاصيل الزراعية وتجارتها - خاصّة القمح - وجني الأرباح منها ، والتي أدّت إلى ترديّ الحالة الاجتماعية للسكّان فهجروا أراضيهم وديارهم بسبب القحط والجوع وقد سجّل هذا أبو العباس الناصري في كتابه الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى بقوله : " ومع ذلك لم يترك للترك ما أرادوا من أجل القحط الذي كان قد عمّ، حتى عدت الأقوات وجلا أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب ورفضوا الرجوع إلى جنب الأترك أين يصيبهم الجوع والقتل"²، هذه الأوضاع المتردّية اجتماعيا وضعف الجانب العسكري وتدهوره ساعد على زرع بذور الانتقام وظهور التمردات وقيام الثورات الشعبية خاصّة في ضوء زيادة اتّساع الهوة بين الحكّام والرعيّة وقلة الثقة بينهما وقلة الأمن في مقابل تطوّر هيكلّة الزوايا .

- لقد عرفت الحركة الصوفية التي تمثّلها الزوايا ومنذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي تطوّرا وتفوّقا في ظل الطاعة المقدّسة خاصة في الأرياف التي كان لها دور ثقافي وتعليمي واجتماعي فيها، فالزاوية بالنسبة لسكان الأرياف المدرسة التي تعلّم الأبناء كما تمنحهم تربية إسلامية أساسية، وتطعم الفقراء منهم وتُؤوي المحتاجين وعابري السبيل وتصلح بين المتخاصمين وتشجّد الهمم وتعدّد للجهد وتقوده لردّ العدو فكانت العنصر المهيمن على حياة العديد من عناصر المجتمع ونظرا لطبيعة البنية القبلية في مجتمع الريف وبحكم الأعراف القبلية فإن انتساب زعيم القبيلة أو رئيسها لطريقة صوفية معيّنة يحتمّ وبفعل انسجام الروابط داخل القبيلة انتساب أغلب العناصر المكوّنة لها إلى نفس الطريقة أو الزاوية وهو ما يفسّر لنا العدد الكبير من أتباع الطرق الصوفية، والتي استطاعت أن تمارس به تأثيرا معتبرا على القبائل المختلفة خصوصا

¹ ازدادت سيطرة اليهود على اقتصاد الجزائر خلال هذه الفترة فأصبحوا أصحاب السلطة والقرار بفضل ثروتهم وأمواهم وتوسّع مجال تجارتهم وتغلغلهم السياسي كمستشارين ووسطاء ووكلاء اقتصاديين، لذا تصرفوا كأهمّ الحكّام الفعليين للإيالة وكانوا يعيّنون ويعزلون من شاءوا في الوظائف الحكومية ، كما يحدّدون قيمة الضرائب وأسعار السلع.

² أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،الدولة العلوية ، تح ،جعفر الناصري ، ومُجد الناصري ، دار الكتاب ،(د ت ط) ،1955م ،ص111.

من ناحية التخفيف من التعصّب القبلي وتؤثّر على العديد من السلوكيات والتقاليد الاجتماعية، فتوطّدت العلاقة بينها وبين القبائل ذات التوجه الصوفي والتي انضوت تحت سلطتها، واستطاعت بما تقدّمه للمجتمع من صهر العناصر المختلفة المكوّنة للمجتمع من البربر والعرب وظلّت هذه القبائل تتقرّب من بعضها البعض حتى تمكّنت من تكوين عالم ريفي منفصل عن نفوذ البايلك بإمكانه معالجة أموره المختلفة بعيدا عن هذه السلطة¹، ويقوم بدور يماثل أو يفوق الذي تقوم به الأجهزة الرسمية وأبسط مثال على ذلك مرافقة القوافل التجارية ومراقبة الأمن العام في الطرقات خاصّة في المناطق البعيدة عن هذه السلطة، كما استطاعت الزوايا بما تملكه من هيكلية ومن نفوذ روحي الذي اكتسبه المرابطون من مواجهة الأزمة الاجتماعية والاقتصادية واستغل القائمون عليها هذه الظروف لتنصيب أنفسهم كقوة قادرة على حمل الرّاية الشرعية والسياسية والاجتماعية، لقد تجلّت الحركة الصوفية أواخر العهد العثماني في ثوب جديد حيث كانت تهدف إلى تحقيق تجانس بين القبائل التي انضمت إليها الواحدة تلو الأخرى وهذا ما يفسّر الالتفاف الواسع حولها فالطرق الصوفية ورغم تعدد مشاربها وتوجّعاتها وقناعاتها فقد استطاعت إنشاء وتكوين ما يمكن أن نصلح عليه ب "الإقطاعية المرابطية"، فكان لكل طريقة صوفية مركزها ومجال نفوذها الذي يتوسّع باجتهاد التابعين لها من خلال بثّ أفكارها ونشر أورادها في ظل تراجع سلطة العثمانيين في الجزائر، هؤلاء العثمانيون الذين لم يكونوا أهلا للحكم في أواخر حكمهم ولم تكن سياستهم رشيدة، ولا كان حكمهم فيها عادلا على العموم فكان من الطبيعي أن يكثر الناقمون والثائرون عليهم²، ولربما كان من أهم الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء هو عدم محاولة ربط هذه السلطة بأفراد المجتمع وكانت علاقتهم تتسم بطابع نفعي بحت فضلا عن ارتباط هؤلاء الأفراد مع قادتهم المحليين من الطرق الصوفية، هذه الطرق الصوفية والعائلات المرابطية لم تتوقّف على إلحاق الأراضي بها والسيطرة على هذه القبائل روحيا بل عملت على توسيع نفوذها المحلي بمناطق القبائل التي تبعتها،

¹SAIDOUNI. NACER-EDDINE: L 'Algérois rural à la fin de l'époque Ottoman (1791-1830) ;Op cit, p31.

² مسلم بن عبد القادر الوهاري، خاتمة أنيس الغريب والمسافر في الطوائف والنوادر، تح، رابح بونار، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974، ص 55.

فاشتهرت بعض الزوايا حتى أصبحت محجا للزوّار والطلبة ومن ذلك زاوية خنقة سيدي ناجي بالقرب من بسكرة، وزاوية القيطنة قرب معسكر¹، وكان نفوذ بعض هذه الزوايا يعظم ويزداد إلى أن تتحوّل إلى مدن مثل عين ماضي، تماسين وطولقة²، وهذه الطريقة الشائبة التي انضوى تحت رايتها قبائل الحنانشة والنمامشة الذين سيطر بفضلهم "سيدي عرفة" على مدينتي قسنطينة وتبسة ومنطقتي الزيبان والأوراس، واعتبرت هذه الطريقة من أغنى الطرق الصوفية نظرا لملكيتها للواحات والقرى والعقارات كل ذلك سمح لها بتكوين جيش قوي³، وكان من أهم عوامل اتساع نفوذ هذه الزوايا هو ما تملكه من أوقاف فقد كانت بعض الزوايا غنية مثل زاوية المجاجي وزاوية القيطنة والزاوية الطيبية بتلمسان. وكانت هذه الزوايا تطعم الأعداد الكبيرة من الزائرين وتعلّمهم وتؤويهم⁴، لقد كانت هذه الزوايا عبارة عن رباطات ضدّ الأعداء تقود الأتباع والأهالي للجهاد ضدّ الأعداء وتُطعم المجاهدين والفقراء والمحتاجين فاكسبت بذلك خبرة وتجربة تنظيمية وأصبح لدى هذه الزوايا قوّة وخبرة عسكرية من خلال مواجهة العدو الأجنبي، لكنها أصبحت في ما بعد تشكّل خطرا حقيقيا على السلطة وهو ما حدث فعلا من خلال ثورة 1804م بقسنطينة، وثورة 1805م بوهران، ولعل ما أنشأه المرابطون في العهد العثماني الأخير من مؤسّسات لنشر التعاليم المضادّة للنظام العثماني مثل زوايا ومعاهد الطرق الدرقاوية والتجانية والقادرية والرحمانية وأصبحت هذه الزوايا مراكز لتدريب الأتباع على الثورة ضدّ السلطة فقد ثار "يحي الأوراسي" و "الزبوشي"⁵ وثار الدرقاوة ممثلين في "ابن الأحرش" و "ابن الشريف" وثار أتباع "التجاني"

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 268.

² مولاي بالحيمسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش. و. ن. ت، ط 2، 1981، الجزائر، ص 30.

³ عبد القادر صحراوي، "الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني (16م/ 19م)"، مجلة الحوار المتوسّطي، ع 3 و 4، ص 28.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع نفسه، ص 270.

⁵ هو عبد الله الزبوشي مقدّم الطريقة الرحمانية في منطقة ميله، وكان من أهم أسباب ثورته هو قرار إلغاء الاعفاء من الضرائب من طرف باي قسنطينة الجديد "عثمان باي".

في عين ماضي ونواحيها خاصة وأنّ الدوافع للجهاد ضعفت وانتهت تماما بانتهاء الوجود الاسباني من وهران¹.

- طرد الاسبان من وهران والمرسى الكبير وتصفيته نهائيا فقد كان الجهاد ضد الأوربيين عامّة والاسبان خاصّة من العوامل الرئيسة في التقارب الحاصل بين السلطة والعلماء، هؤلاء العلماء وشيوخ الطرق الصوفية كانوا يقودون الأتباع والأهالي في الحروب الجهادية ويلهبون حماسهم ورفع معنويات المجاهدين من أجل القضاء على الخطر والوجود الصليبي في المدن وعلى سواحل الجزائر، غير أن الدوافع الجهادية بدأت تضعف تدريجيا بعد القضاء على الخطر الخارجي خاصة منذ الاسترجاع النهائي لمدينة وهران والمرسى الكبير سنة 1792م / 1207هـ، وبذلك انتفت أهم العوامل والأسباب الداعية للتقارب بين العلماء والسلطة²، فزُعم المحاولات المتكررة للسلطة العثمانية في الجزائر للقضاء على الوجود الاسباني في مدينة وهران والمرسى الكبير الذي دام قرنين وثلاث وستين سنة في هذه المدينة وتحريرها منه إلا أنها عجزت في ذلك، فقد بذل كل من حسن باشا سنة 1563م ومُحمَّد قوصة سنة 1606م مجهودات كبيرة في ذلك وإنقاذ هذه المدينة والمرسى الكبير من هذا الاحتلال لكن لم ينجحوا في ذلك، كما عمد مُحمَّد بكداش على تهيئة جيش كبير لذلك وتحمس الكُتّاب والشُعراء والعلماء فألهبوا حماس النَّاس بمواعظهم وأشعارهم سواء الفصيحة أو الشعبية واستطاع بعدها هذا الباي من تحرير هذه المدينة من الاسبان للمرة الأولى وكان ذلك في مطلع سنة 1708م، غير أنّ الاسبان أعادوا الكُرة عليهم وتمكنوا من احتلالها مرّة ثانية سنة 1732م، واحتلوها لمدة ستين سنة فعمل الباي مُحمَّد بن عثمان باشا الكبير على استئصال هذا الوجود المسيحي من المدينة نهائيا وكان ذلك سنة 1792م³.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، نفسه، ص ص، 267، 273.

² لزغم فوزية، البيوتات والأسر العلمية، مرجع سابق، ص 480.

³ يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا (1500 - 1830)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ت ط) ص ص 20، 22.

- إنّ هذا التحالف الذي فرضته المصلحة المشتركة القائمة على رباط الدين في السنوات الأولى من الوجود العثماني تحوّل إلى نفور وتباعد وحتى إلى قطيعة في السنوات الأخيرة خاصة بعد استرجاع وهران الذي كان استرجاعها نقطة انعطاف بارزة في العلاقات بين السلطة وشيوخ الطرق الصوفية والمرابطين والعلماء ، ومع نفاذ العائدات البحرية من إتاوات وغنائم التي كانت تسدّ السلطة بها حاجاتها المختلفة وكانت هذه العائدات والمداخيل سببا في تخفيف الضغط على الأهالي، عمدت هذه السلطة على تطبيق سياسة داخلية لتعويض هذه المداخيل مُتَّبِعَةً في ذلك أسلوبا قائما على القوّة والترهيب وعدم مراعاة ظروف الأهالي¹ وتجاهل رأي العلماء الذين ما فتئوا للعمل على إزعاج هذه السلطة وتذكيرها بواجبها نحو الرعيّة لذا فقد رأت السلطة في هؤلاء العلماء عنصرا لا يُطاق وجوده ممّا حداها بتنفيذ سياسة قائمة على معاداة العلماء، ومحاولة الحدّ من سلطة نفوذهم، متّخذة في ذلك عدّة إجراءات أحدثت شرخا في العلاقة بين السلطتين العلمية والسياسية ممّا أدّت إلى اتّساع الهوّة، وإحداث قطيعة بينهما ومن هذه الإجراءات :-

(أ) - **سحب الامتيازات والعزل من المناصب** :- من أهم الإجراءات التي عمدتها السلطة ضدّ شيوخ الطرق الصوفية والعلماء هو تراجعها عن سياسة الامتيازات وخاصة المادّية منها والتي كانت قد منحتها من قبل لشيوخ الطرق الصوفية وللعلماء وأهمّها العقارات والأراضي التي أقطعتها لهم فهذا "صالح باي" الذي كان بايا على قسنطينة ورغم مآثره العظيمة والبارزة ومنها بناؤه للمساجد والمدارس والكتاتيب القرآنية وخصّص للمعلمين والأئمّة أجورا سنوية من أموال الأوقاف، وتنظيمه للاقتصاد واهتمامه بالزراعة والصناعة والحرف وتنشيط التجارة الداخلية والخارجية وغيرها من الأعمال، كما اهتم بالتعليم وأهله وقرب إليه الفقهاء والوعاظ والعلماء مثل المفتي الحنفي الشيخ عبد القادر الراشدي والقاضي المالكي الشيخ العباسي، لكن وكما يذكر العنزي فإنّ سيرة هذا الباي تعيّر اتجاه رعيّته وأصبح يظلم النّاس دون مبرّر "...ولما قرب أجله وحانت وفاته تبدّلت سيرته، وانعكست حقيقته وصار يظلم ناس الزاوية حتى أفضى به ذلك إلى الهلاك والهاوية"²، كما عمل على الحد من نفوذ مشايخ الطرق الصوفية

¹ رشيدة شدرى معتر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر ، مرجع سابق ، ص 164.

² صالح العنزي ، فريدة منيسة ، مصدر سابق ، ص 62.

بالجنوب ، وشنّ حملات ضدها في مناطق أخرى من الإيالة خاصة بعد رفض دفع الضرائب ومنها الأغواط وميزاب والحنانشة وغيرها¹ ، وهذا الباي "حسن بن موسى"² آخر بايات وهران بالغرب الجزائري عمل على البطش بالعلماء والتضييق عليهم خاصة بعد ثورتي درقاوة والتجانية وهو ما ينقله الآغا بن عودة المازري إلينا ويصوّره بقوله : "...واجترأ على العلماء والأولياء والشرفاء والرعيّة فبان منه الجور والظلم والتعدّي، وكثر منه الضلال وهتك المحارم والترديّ ، وطغا وتجبّر وتكبّر وكثر منه الفساد والسفك بغير موجب لدماء العباد، ولم يراقب في ذلك خالقه ولم ينظر ليوم المعاد..." ، ومن مظاهر السوء التي قام بها أنّه استدعى أمير ركب الحج الشيخ "محي الدين" والد الأمير "عبد القادر" حين خروجه إلى الحج وأخضعه رفقة ابنه "عبد القادر" لإقامة جبرية في مدينة وهران ولم يُخلّ سبيله إلاّ بعد مُدّة عامين وهذا بعد وشاية كاذبة لما عُرف عن الشيخ مقاومته لسياسة الظلم والقسوة ، وقد قال فيه العلامة السنوسي ابن السيّد الحاج عبد القادر السنوسي قصيدة نونية لتسليته بها ومّا جاء فيها :-

عَوّل على الصبر لا تفجعك أشجان	***	ولا ترعك بما فاجأتك وهران
أما هي الدار لم تؤمن غوائلها	***	بلى هي الدار أغيار وأحزان
شبت على الغدر لم تعطف على أحد	***	إلاّ ومن غدرها صدّ وهجران
ما أنت أول من دهمت ولا آخر	***	ولا بأوسط من خانته إخوان
إنّ العواقب في القرآن ثابتة	***	للمتقين وصدق القول قرآن
فاللّه أسأل أن أراك منطلقا	***	وما حواليك حُرّاس وأعوان ³

¹ مبارك الميللي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ، ج 3 ، 1964 ، ص 244 .

² حسن بن موسى الباهي المعروف ب" أهج حسن " هو ثامن وآخر بايات وهران ، كان طباحا قرّبه الباي "مُحمّد الرقيق" ، تولى حكم وهران في (ذو الحجة 1232هـ / أكتوبر 1827م) .

³ الآغا بن عودة المازري، طلوع سعد السعود ، ج1، مصدر سابق ، ص 350، 361.

وقد آثر الشيخ الانتظار والتزم الطاعة نظرا لمكانته وكثرة أتباعه ومريديه، ثم عرف الباي مدى خطأه فأذن للشيخ باستئناف رحلات الحج، كما أنّ الذي قام به الباي "مُحَمَّد شَاكِر"¹ باي قسنطينة لا يقل عن ذلك فقد كان "رجل صاحب بطش غالب عليه صلابة العجم فيسفك الدماء في الحق والباطل يأخذ أرزاق النَّاس بالغزو ولا يبالي بمن هو طائع أو عاصي"، حيث نكّل بأولاد بورنان وأولاد مقران بمنطقة مجنّاة من خلال عمليات الاغتيال التي طالت العديد بمن له صلة بهذه العائلة مثل أولاد عبد النور وأولاد ابن عاشور²، كما أنّ عمليات العزل من الوظائف كانت من مظاهر القطيعة بين الحكّام والعلماء

ومن الأساليب القمعية التي اعتمدها هؤلاء الحكّام، عمليات عزل القضاة والفقهاء وسيلة لردع وتضييق الخناق على معارضيتهم أو محرّضي الرعيّة عليهم فهذا القاضي المالكي "مُحَمَّد بن مالك" وهو من علماء مدينة الجزائر المشهود لهم بالعلم وكثرة تلاميذه، وله صلة بنقيب الأشراف وكان صهر "علي خوجة" الذي ثار على "مصطفى باشا" فقد حُكِم على هذا الأخير بالنفي إلى مدينة "القليلة" وإيقافه عن درسه ولم يأذن له بالعودة إلّا بعد تدخّل مستشاري الباشا لصالحه³، أو مثل ما حدث للمفتي "مُحَمَّد بن سعيد قدّورة" الذي عزله "مصطفى أهشي" سنة (1090هـ/1679م)، وسبب ذلك مجرد رسالة كاذبة أرسلها حُسّاد الشيخ وأتهموه فيها بأعمال شائنة وقلة الوقار⁴، وهذا الباي "مُحَمَّد المقلّش" يعزل العلامة "أبو راس الناصري"⁵ بعدما وشى به خصومه ظلما وأتهماه بالضلّوع والمشاركة في ثورة "دراوة"⁶، والمصير نفسه لقيه المفتي الشيخ "أحمد بن سعيد قدّورة" الذي عزله هو أيضا "مصطفى أهشي" ولم تكن تهمته التحريض أو التدخّل في أمور السياسة أو المشاركة في الثورة ضد العثمانيين وإنما

¹ أصله من "أزمير"، تولى منصب الباي ما بين (1814م - 1818م).

² صالح العنترى، فريدة منبسة، نفسه، ص ص 81، 82.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 419.

⁴ ابن المفتي، تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، مصدر سابق، ص 99.

⁵ هو مُحَمَّد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المعروف بأبي راس الناصر ولد سنة 1150هـ/1737م بالقرب من قلعة بني راشد بمعسكر، كان عالما موسوعيا وفقهيا متضلعا، تولى التدريس والإفتاء والقضاء، وألّف في عدّة علوم منها الموجود ومنها المفقود، عصفت به رياح السياسة ولم يسلم من بطش الحكّام، فهاجر نحو المغرب ثم عاد، توفي سنة 1238هـ/1823م.

⁶ عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، مرجع سابق، ص 291.

تمته كانت الخلاف الذي وقع بينه وبين مفتي الحنفية " النيار مُجَّد " في مسألة فقهية ووصل الخلاف إلى " مصطفى أهشي " الذي مال إلى رأي المفتي الحنفي وقام بعزل المفتي المالكي " أحمد بن سعيد قدورة " ، والأمر نفسه قام به مع المفتي الحنفي " حسين بن رجب شاوش " حيث عزله بعدما تولى خطة الإفتاء لمدة 12 سنة¹.

ب) الاستهزاء بالعلماء ومضايقتهم: من بين الاجراءات والأساليب التي اعتمدها الحكام ضدّ شيوخ الصوفية والعلماء وكانت من الأسباب التي أحدثت القطيعة بينهما أسلوب الاستهزاء والخط من قيمتهم ومضايقتهم ومن ذلك ما قام به " الداوي شعبان"² من إهانته لعلماء مدينة قسنطينة ومصادرة أملاكهم، وكانت من صفات هذا الداوي أنه محبٌ للمال مستهترا بالعلم وأهله ومما قام به أيضا هو رفضه لاستقبال وفد العلماء الذي أرسله باي تونس إليه بهدف الصلح بل أكثر من ذلك عمل على مصادرة سفينتهم ومضايقهم فلم يسمح لهم بالاتصال بالناس³، كما أنّ الباي مُجَّد الكبير قام بإهانة والسخرية من أحد المرابطين بمنطقة تسالة بعد وقوع اضطرابات فيها حيث أركبه فوق " حمار " الذي طاف به في معسكر المحلّة⁴، وهذا الباشا حسين خوجة الشريف أهان أستاذه الشيخ " المهدي بن صالح " بعد أن أصدر أمرا بنفيه حيث طلب من كل شخص قدّم له هديّة أن يحضر للشيخ ويطلبها منه فتجمّع عليه خلق كثير على السفينة التي تقلّه نحو منفاه⁵.

ج) قتل أو نفي العلماء: عمل بعض البايات وحتى الدايات على اتّباع اجراءات أشد قسوة مع العلماء وخاصة فيمن كانوا يُشكّلون خطرا عليهم في نظرهم وهذا الاجراء تمثّل في القتل فلم يسلم العلماء من القتل شأنهم شأن أفراد الرعيّة الآخرين وكان من أهم أسباب ذلك إمّا الوشاية الكاذبة من الحاقدين أو

¹ ابن المفتي ، تاريخ باشوات الجزائر وعلماؤها ، نفسه ، ص ص ، 89،102.

² الداوي شعبان تولى الحكم ما بين (1100هـ - 1106هـ / 1689م - 1695م)، وثار الانكشارية ضدّه وسجنوه .

³ رشيدة شدرى نعيمة ، العلماء والسلطة ، مرجع سابق ، ص 171.

⁴ BOYER, PIERRE, "Contribution à l'étude de la politique religions des Turcs dans la régence d'Alger 16ème-19ème siècle" in R.O.M.M, N°1, 1966. p38.

⁵ DEVOULX (Albert) , «Les édifices religieux de l'ancien Alger» , in R.A : N° 10 (1866), pp191-192

تدخل هؤلاء العلماء في أمور الحكم والسياسة من خلال إبداء الرأي أو غيرها وأعتقد أنّ ضعف الحجّة عند الحكام العثمانيين وطبيعتهم وتسلطهم في الحكم أدّى بهم إلى انتهاجهم هذا السلوك حتى أنّ "فايسات" أشار إلى أنّ "الأتراك كانوا يتقنون التعامل بالسيف أكثر من إتقانهم التعامل بالريشة"¹، خاصة إذا تعلّق الأمر بأمور الحكم، ومن أشهر البايات الذين عُرفوا ببطشهم وقتلهم للعلماء "الباي حسن" "باي وهران" ومنهم الشيخ "مُحمّد البوشيخي" والشيخ "ابن عبد بن حواء التجيني"² والشيخ "بالقندوز"، وكان هذا الباي أمر جيشه بقتل طلبته جميعا إن هم رفضوا تسليم شيخهم ممّا يدل على مدى بطش هذا السقّاح، وقد كان لقتل "الشيخ بالقندوز" وقع كبير في نفوس طلبته، فرثاه تلميذه الشيخ "ابن الشارف بن الجيلالي بن تكوك"³ مؤسس الزاوية السنوسية بعد عودته من المغرب الأقصى رثاه بقصيدة ممّا جاء فيها :

ارحم شيخي بالقندوز *** مريد الشيخ المعزوز

بالقندوز المزهد *** في وسط الطلبة عابد

وهكذا توفّي الشيخ بالقندوز- رحمه الله - وقُتل ظلما وغدرا نظير لمواقفه المناهضة للعثمانيين وتحمله للمسؤولية بتقديم النصيحة للحكّام⁴. وهذا الباي "الحاج خليل"⁵ كان مُبغضا للأولياء والعلماء وغيرهم من أهل النفع، ويُذكر أنّ من أسباب وفاته دعاء العلماء عليه حيث أنّه وعد كل من الشيخ "المدني بن عطاالله"، والشيخ الحاج "الموفق الكبير بن سعيد الشقراني" بالقتل حين عودته من السفر،

¹ VAYSETTES (E) , «Histoire des derniers Beys de Constantine , depuis 1793 jusqu'à la chute d'HADJ AHMED», in R.A : N° 03 (1859), p107

² الزباني مُحمّد بن يوسف ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح ،تق، الشيخ البوعبدلي ،عالم المعرفة للنشر والتوزيع،ط1، الجزائر، 2013، ص ص 318، 321.

³ ولد سنة 1218هـ / 1803م فقيه من أنصار الطريقة السنوسية ولد بالقرب من مدينة مستغانم وتعلّم بها ،ثم هاجر نحو المغرب الأقصى ،ليعود سنة 1276م/1861هـ ،كان من تلاميذ الشيخ بالقندوز ، توفّي سنة 1307م/1890هـ.

⁴ ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني ، مصدر سابق (مقدمة المحقق ص ص 50 ،53).

⁵ الذي تولى حكم في بايلك الغرب ما بين (1772م - 1778م)، وتوفّي بتلمسان .

لكن الباي هلك قبل تنفيذ وعده¹، كما يذكر ابن المفتي في تقييداته قصة حجز "مُحَمَّد بكداش" كل من العالمين "أحمد بن سعيد قَدْوَرَة" وتهمته في ذلك اشتغاله بالسياسة، وأخيه "علال بن سعيد قَدْوَرَة" ثم قتلهما في الشارع وكان ذلك في شهر ذي الحجة 1118هـ/1706م²، وهذا المفتي الحنفي "مُحَمَّد بن مصطفى" المشهور بـ"ابن المستي" حكم عليه الديوان بالموت ومصادرة أملاكه عام 1138هـ/1726م، ويذكر الدكتور سعد الله ويحتمل أنه كان ضحية انتقام سياسي وأن تهمته تبقى مجهولة³، وهذا صالح باي -ورغم سيرته الحسنة - إلا أنه في آخر حياته لم يسلم الأولياء والعلماء من بطشه فقد قام بشنق المرابط الشيخ "مُحَمَّد الزاوي" الذي عُرف بعد ذلك بـ"مُحَمَّد الغراب" أمام الملأ وتهمته في ذلك هي نقمته على العثمانيين وتحريض الرعية ضده⁴.

رُبَّمَا كان من حُسن حظ بعض العلماء الآخرين أن كان الإجراء المتخذ ضدهم أقل عنفا مما سبق وأخفّ ونعني بذلك سياسة النفي التي كانت تعتبر أخفّ ضررا وأوّل من طالتهم هذه السياسة العالم المفتي الشيخ "قرباش أفندي" القادم من برّ الترك والذي كان خطيبا في الجامع الجديد بباب البحر بعد تمام بنائه، ولما كثر الجموع حوله وهو ما يزعج الولاة قاموا بنفيه⁵، وهذا "مصطفى باشا" يحكم على القاضي المالكي "مُحَمَّد بن مالك" وهو من علماء مدينة الجزائر ويُعرف عنه كثرة طلبته بالنفي إلى مدينة "القليلة" وإيقافه عن الدرس وتهمته التّدخّل في الشؤون السياسية، ولم يعد لدرسه ولا لتلاميذه إلا بعد تدخّل بعض مستشاري الباشا في ذلك⁶،

وهذا المفتي المالكي الشيخ "المهدي بن صالح" حكم عليه تلميذه الباشا "حسين بن خوجة الشريف" بالنفي إلى بلاد غير عربية طبعا بعد إهانتته أمام الملأ⁷، وهذا الشيخ "فتح الله" كان ضحية

¹ الأغا المزاري بن عودة ، طلوع سعد السعود ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 287.

² ابن المفتي ، تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها ، مصدر سابق ، ص 106.

³ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ص 418.

4 - MERCIER, Histoire de Constantine, IMPRIME ; J. MARLE ET F. BIRON, IMPRIMEURS-ÉDITEURS 51, Rue Damrémont, 51;1903; p283.

⁵ ابن المفتي ، تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها ، المصدر نفسه ، ص 87 ، 88.

⁶ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، المرجع نفسه ، ص 419.

⁷ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ص 418.

الباي " أحمد شاوش القبائلي¹ " حيث نفاه إلى مدينة عنابة بعد رفض الشيخ " فتح الله² " رفضاً تاماً في مكاتبة الباشا بأمر غير صحيح بعد الأعمال الشنيعة التي قام بها هذا الباي، وقد أرسل من ورائه اثنين من المخازنية وأمرهم بقتله في أي موضع لحقاه به³.

لم تكن هذه الإجراءات والأساليب هي الوحيدة التي أحدثت شرخاً في العلاقة بين السلطتين فهناك السجن ومصادرة الأملاك وتغذية الخلافات بين العلماء والتفريق بينهما، وتفضيل علماء المذهب الحنفي عن علماء المذهب المالكي، ويبدو لنا أن هذه الإجراءات العقابية التي اتخذتها السلطة ضد المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية والعلماء على حدّ سواء كانت نتائجهما سلبية على الجزائر في مختلف مناحي الحياة السياسية، اقتصادياً واجتماعياً، وحتى ثقافياً فمن الناحية السياسية لم تجن الجزائر إلا خيار المواجهة المسلّحة بين السلطة وبين هؤلاء العلماء والمرابطين وذلك من خلال الثورات التي قادها بعض المرابطين وشيوخ الزوايا في ظل تنامي السلطة الروحية لهؤلاء من جهة، وتراجع نفوذ السلطة الرسمية من جهة ثانية ويعود سبب ذلك إلى ضعفها وتضاف إليها الفتن الداخلية والخارجية⁴ التي واجهتها.

— من الناحية الثقافية فقد أدت هذه السياسة العرجاء إلى هجرة العديد من العلماء وهو ما أثر سلباً على الوضع الثقافي في الجزائر، هذه الهجرة التي قام بها العلماء نقصد بها الهجرة الخارجية أي الانتقال

¹ تولى حكم البايك سنة 1808 م، لم يدم حكمه سوى 15 يوماً، وكانت كلها فتن مات مقتولاً، وعُلق رأسه على باب المدينة .
² أصله من بلاد الشام هاجر هو ووالده واخوته وعمه إلى مصر، ثم غادرها نحو الجزائر ومنها إلى قسنطينة واستقرّ بها وتزوج كان عالماً خطيباً بارعاً على المذهب الحنفي.

³ أحمد العطار، تاريخ بلد قسنطينة، مصدر سابق ص 148.

⁴ نعي بما هنا العلاقات السياسية الغير مستقرة بين الجزائر والجزائريين (إيالة تونس) والمغرب والمواجهات العسكرية أحيانا التي كانت تقع بينهما، يضاف إليها قضايا الحدود والوكلاء والقبائل الحدودية (قبيلتي الحنانشة والتّمامشة مثلا) والتي أحيانا كانت تشكّل خطراً على إيالة، والثورات الداخلية والتي كانت تغذيها المصالح السياسية والتي تؤدي إلى توتر العلاقات بين الجزائر وهاتين الجارتين ضف إلى ذلك الحروب الأهلية والاعتقالات للمزيد حول هذا الموضوع ينظر: - كوثر العائب، العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات (1711/1830)، رسالة ماجستير جامعة الوادي، و حصام صورية، العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير، جامعة وهران، والدراسة القيّمة للدكتور عمار بن خروف وهي: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، كما لا ننسى الحملات الأوربية على سواحل الجزائر والمؤامرات الأوربية عليها والتي كانت حجة هذه الدول محاربة القرصنة والتي أدت إلى التراجع الكبير في الواردات البحرية وهو ما أثر سلباً على الأوضاع الاقتصادية لإيالة الجزائر.

إلى خارج الوطن وهي على نوعين كما يذكرها أبو القاسم سعد الله، هجرة مؤقتة و هجرة دائمة، ويحصر الدكتور سعد الله النوع الأول من الهجرة - في الغالب - :إما تكون لطلب العلم أو الاستزادة منه ، أو لمجاورة البيت الحرام، كما أنّ الهجرة قد تكون داخلية فينتقل العلماء من مدينة إلى أخرى طلبا للعلم أو الخطوة أو الوظيفة أو من القرية إلى المدينة حيث الثقافة أكثر انتشارا أو العكس فرارا من أوضاع معيّنة¹.

وقد تكون الهجرة كذلك خارجية وقد شهدت الجزائر خلال العهد العثماني (1519م/1830م) هجرة خارجية واسعة لعدد كبير من العلماء إلى الدول العربية والاسلامية وخاصة نحو المغرب وتونس، ونحو المشرق العربي، كذلك ممّا أثر على الحياة الثقافية في الجزائر، وقد استقطبت الايالة التونسية خلال هذه المرحلة العديد من طلبة العلم والعلماء على السواء لعدّة عوامل ودوافع دفعت بهؤلاء العلماء إلى المغادرة نحو تونس إمّا مرورا عليها في طريقهم إلى الحج أو للاستقرار فيها مدّة من الزمن للاستزادة العلمية أو غيرها.

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن ماهي الدوافع والعوامل التي أدت إلى هجرة هؤلاء العلماء ؟ وبعد معرفتنا لأهم الطرق التي أرادت بها السلطة التقرب من العلماء وكسب ودّهم بسبب مكانتهم الروحية في أوساط المجتمع هذه المكانة التي أصبحت شيئا فشيئا تززع مكانة هذه السلطة، فكان لا بُدّ من تحييد هذه السلطة الروحية ممّا نتج تحوّل في هذه العلاقة بين النخب الثقافية والسلطة، ولقد وقفنا على العديد من الدوافع والعوامل التي أدت لهجرة العلماء حاولنا تصنيفها إلى عوامل سياسية واقتصادية ،وعوامل اجتماعية وثقافية .

ثانيا -العوامل السياسية والاقتصادية لهجرة العلماء الجزائريين إلى تونس:

1-العوامل السياسية:

-إنّ الظروف والتطوّرات التي حقّزت على وجود العثمانيين بالجزائر هو ظهور الخطر الأجنبي والهجمات

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع نفسه، ص 423.

المتكررة من الأوربيين وخاصة الإسبان عقب ما يُعرف بحروب الاسترداد وكان ذلك ردود أفعال متباينة وكثيرة في مختلف الأوساط الاجتماعية والسياسية على حدّ سواء، وقد أدّى الصراع بين العثمانيين وهذه الدول الأوربية وخاصة اسبانيا والذي استمرّ إلى قرابة ثلاثة قرون ونصف إلى شيوع الاضطراب وانعدام الأمن في البلاد¹، فقد هاجر بعض علماء الجزائر عقب استيلاء العثمانيين على مملكة بني زيان وظلّت موجة الهجرة مستمرة حتى بعد استقرار الوضع للعثمانيين ولم تكن معاملة العثمانيين هي السبب المباشر في هذه الهجرة²، هؤلاء العثمانيون كان يُفترض منهم تطبيق تعاليم الدين الاسلامي في الحكم من خلال المؤاخاة بين سكّان الجزائر جميعهم ومشاورتهم في عديد الأمور المتعلقة بالشؤون السياسية وفسح المجال أمامهم لمشاركتهم في حكم البلاد واختلاطهم ومخالطتهم غير أنّ العثمانيين أساءوا التصرف في هذا المجال وأهم ما ميّز هذه الفترة هو استئثار واحتكار العثمانيين لسدّة الحكم فاستعلوا على الأهالي ولم يكتف هؤلاء الحكام بهذا بل عملوا على إذلالهم واستبدّوا بالسلطة وعاملوهم معاملة المنتصر للمهزوم رغم أنّ دخول العثمانيين للجزائر كان بطلب من أهلها³، وكثيرا ما لجأ الحكّام العثمانيون لاستعمال العنف والقسوة في حل بعض القضايا ومعاملة العامة بطريقة سيئة وأحيانا وحشية فكان الاضطهاد والعنف من أسباب ودوافع وعوامل الهجرة، ومن ذلك ما يذكره العنتري عن "دالي باي"⁴ وهو من قوات المليشوية العثمانية الذي كان قتّالا وسقّاكا للدماء ومُحرّبا يأخذ الأموال بالباطل حتى اشتكى منه الأهالي من سكان قسنطينة إلى الباشا بالعاصمة، ولجّى رغبتهم حيث تمّ عزله واعدامه⁵، وأمّا "فايسات" فيصف ما قام به "الباي تشولاق" ضد الأهالي والقبائل المتمردة في هذه المنطقة أيضا قبله بالعنف والقسوة وهذا عقب ثورة 1572⁶.

¹ محمّة عائشة، "من مظاهر التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني (1519م/1830م)"، هجرة العلماء والطلبة

الجزائريين إلى تونس أمّودجا"، مجلة المعارف والبحوث والدراسات التاريخية، ع 19، ص 58.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 424.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع نفسه، ص ص 140، 141.

⁴ حكم بايلك الشرق (قسنطينة) ما بين 1676 و 1679 م .

⁵ صالح العنتري، فريدة منيسة، مصدر سابق، ص 49.

⁶ (E) Vaysette, Histoire des Beys de Constantine, p. 329.

واستمرت هذه الأعمال رغم مرور السنوات فهذا الباي "ابراهيم العليج"¹ فإنه لم يختلف عن سابقه فقد كان يأخذ الناس بالباطل ويتعامل معهم دون رحمة²، ولم تكن الفترة الأخيرة (مرحلة الدايات) من العهد العثماني بأفضل مما سبقها فقد تميّزت بعد الاستقرار وازدادت الاضطرابات وانتشر الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي وتجلّى ذلك في كثرة تعاقب الحكّام والذين تميّز معظمهم بالضعف وعدم الكفاءة فغاب الحزم في تسيير شؤون الحكم لضعف الدراية والخبرة نظرا لتفشي ظاهرة شراء المناصب³، لذا فقد تبادى العديد من الحكّام العثمانيين في الجزائر في هذه السياسة القاسية في معاملة الأهالي بهدف توحيد البلاد وحماية حدودها غير أنهم اصطدموا بكثير من التمردات والثورات الداخلية وهذا يعود لسوء المعاملة، وقد ثار الرأي العام على الجرائم التي كان يرتكبها العثمانيون على يد بعض البايات السفاحين الذين استخفوا بأرواح الأبرياء ومنهم "الباي حسن" آخر بايات بايلك الغرب - وهران - الذي كان يتتبع رجال العلم والدين فيسجن ويُعدّب ويقتل فأحدث ما يُشبهه محاكم تفتيش التي أقامها الاسبان للمسلمين في مملكة غرناطة بعد سقوطها وكان ضحيتها الكثير من كبار العلماء والفضلاء⁴، ومن ضحايا العثمانيين العثمانيين الشيخ أبو مهدي عيسى بن موسى التوجيني الذي قُتل ولده من طرف العثمانيين ورغم رفع الشكوى للحكام إلا أن شكواه قُوبلت بالرفض فأنشد وقال :

لما عجزت في بلاد الجوري *** عن أخذ ثأر ولدي بالفور

ناديت غوثا يا رجال الحق ***⁵

- إن السلطة العثمانية بالجزائر عملت وبكل الطرق والأساليب ولم تترك أي وسيلة إلا واتّبعها للوصول إلى هدفها وهو المحافظة على استقرار حكمها، ومنذ النصف الثاني من القرن 18م كانت السّمة الرئيسية

¹ حكم بايلك الشرق (قسطنطينة) ما بين 1703 و1707م، أصله مسيحي وأسلم كان حيويا ونشيطا .

² صالح العنترى، فريدة منيسة، مصدر سابق، ص 52.

³ فاطمة الزهراء سيدهم، علاقة دايات الجزائر بالدولة العثمانية ما بين (1792م / 1830م)، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2011/2012م، ص 13.

⁴ أحمد بن مُجد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، مصدر سابق، ص 49.

⁵ نفسه، ص 54.

التي طبعت سياستهم هي العنف ومحاولة السيطرة الفعلية على البلاد بالقضاء على أي خطر يهدد مصالحهم في الحصول على النفوذ والموارد المالية وهو ما ولد صراعا بين الحاكم والمحكوم ونشر الفوضى وعدم الاستقرار وأدّى إلى انفجار الثورات والتمردات، هذا رغم تحذير أهل العلم والدين ونصح الحكّام بخدمة الرعية ونشر العدل وقد أشار الزيّاني لذلك بقوله: " وكانت السياسة التي يسلكونها في حكم البلاد قد أثارت سخط العلماء حيث كانوا يحدّونهم من عواقب أخطار هذه السياسة فنصحوهم بالعدل والالتفات إلى مصالح الرعيّة والقيام بها"¹، كما أنّ من صور تجرّهم وطغيانهم تطبيقهم لسياسة المسؤولية الجماعية حيث يتم قتل العديد من الأهالي والقيام بمجازر ضدهم في حال وفاة أحد العثمانيين وعدم العثور على القاتل الحقيقي²، وأسلوب التهيب هذا كان من بين أهدافه الاستئثار بالحكم واحتكاره، وقد عبّر عديد الشعراء والعلماء عن بطش الولاة وفساد الأوضاع فقد ذكر الزهار صورة من صور خوف الأهالي من الظلم المسلّط عليهم وكان ذلك في آخر مرحلة للعثمانيين أثناء هجوم الحملة الفرنسية على عهد الداوي "حسين باشا" سنة 1233هـ بقوله: " وأثناء سماع أخبار قدوم الحملة الفرنسية للجزائر كان أهل البلد في محنة لا يقدرّون على الكلام خوفا من الظلم والتجبر"³، هذه المدّة الزمنية الطويلة والتي استمرّت ما بين (1518م و1830م) كانت قد مرّت بأربعة مراحل لكل مرحلة منها خصائص معيّنة تميّزها عن غيرها، غير أنّها تشترك في ميزة واحدة وهي استئثار العثمانيين بالسلطة دون غيرهم والعمل على إبعاد الأهالي عن مشاركتهم في حكم البلاد⁴.

- وعلى العكس من ذلك فقد عمل العثمانيون على تمكين اليهود من المناصب السياسية وغيرها، هؤلاء اليهود الذين كانوا أحد العناصر البشرية التي استقرّت في الجزائر منذ زمن بعيد إضافة إلى ما عرفته الجزائر من هجرة يهودية عقب سقوط الأندلس هروبا من قهر النصارى في القرن الخامس عشر أو حتى يهود

¹ محمد بن يوسف الزيّاني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ص 146.

² (G) Delphin, les pachas d'Alger, p. 27.

³ أحمد الشريف الزهار، المذكرات، مصدر سابق، ص 168.

⁴ سعاد لبصير، "دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني 1830/1518 م"، أعمال الملتقى العلمي الأول، مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، جامعة منتوري قسنطينة، ماي 2008م، ص 56.

ليفورن¹، كما تقلد عدد كبير من اليهود مناصب سياسية وقاموا بأدوار فعّالة في الاقتصاد والسياسة بالجزائر خلال الفترات التاريخية المختلفة من التواجد العثماني في الجزائر حتى أن البعض منهم أصبح أقرب للسلطة العثمانية من الأهالي فكانوا مثلاً يُشرفون على مهمّة دفع مرتبات الكراغلة المنتسبين للجيش الانكشاري ويأخذ الراتب سنويا من دار الباشا، كما سيطر اليهود على معظم القطاعات الاقتصادية مثل الاستيراد والتصدير واحتكروا تجارة عدّة سلع ومنها تصدير الحبوب وخاصة القمح التي كانت تُدرّ عليهم أرباحا طائلة وحصلوا بها على عدّة امتيازات ومنها أيضا الصوف والكتان وريش النعام والتمور والأغطية وتجارة الرقيق، وأمّا عمليات الاستيراد فكانت من أهم السلع التي يتم استيرادها السكر والقهوة وحجر الشبّ والعمّور، والأفيون والخمور والصبغ والصابون والقسطل² وهذا النفوذ اليهودي كان للأهالي موقف معادي له حيث قامت بعض القبائل ومنها قبيلتي بن صالح وبن العباس بحملات عدائية ضد التجار اليهود في مدينة البليدة فحطّموا محلاتهم التجارية ولم تتوقف هذه الحملات العدائية إلاّ بعد تدخّل بعض الأولياء ومنهم سيدي العابد وسيدي بن صالح وسيدي بلقاسم وحتى العلماء حيث حذروهم من ذلك وبيّنوا لهم بأنّ الله حرّم ونهى عن الاعتداء عن أي شخص لم يبادر بالهجوم عليهم، وأمروهم بتوقيف هذه الاعتداءات³. والمعروف أنّ اليهود قد مُنحوا امتيازات تمكّنوا من خلالها من بسط نفوذهم حتى في المجال السياسي فكانوا مستشارين بينما تعرّض العديد من أبناء البلد إلى الإبعاد فهذا الباي محمّد الدبّاح⁴ باي التيطري صودرت أملاكه سنة 1794م، وفُعل الأمر نفسه مع

¹ هاجر عدد كبير من يهود مدينة ليفورن الإيطالية في نهاية القرن السابع عشر وتواصل توافدهم حتى منتصف القرن الثامن عشر خصوصا في الفترة ما بين (1720 و1740م)، وقد استقر عدد كبير منهم في مدينة الجزائر للعمل كوسطاء تجاريين بعد الحصول على كميات كبيرة من السلع التي كان يأتي بها رياس البحر وارسالها إلى موانئ ليفورن وبيزا، هذه الفئة من اليهود تحوّلت وفي ظرف قصير إلى عنصر اقتصادي وسياسي بفضل احتلالهم وظائف الوسطاء الاقتصاديين والسياسيين في ذات الوقت. للمزيد ينظر وداد بيلامي: النفوذ الاقتصادي السياسي ليهود الجزائر، مرجع سابق، ص ص 31، 33.

² وداد بيلامي، النفوذ الاقتصادي السياسي ليهود الجزائر، مرجع سابق، ص 70.

³ سعاد لبصير، دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني 1830/1518 م، أعمال الملتقى العلمي الأول، حول الهجرة والرحلة، مرجع سابق، ص 66.

⁴ الباي مُحمّد الدبّاح حكم البايك ما بين (1792 - 1794م)، ثمّ تمّ توقيفه ومصادرة ثروته.

مصطفى الوزناجي¹، كما دفع صالح باي باي قسنطينة الثمن، وكان بسبب مكر اليهود وتأمرهم ضده لأنه وضع وكلاء لمراقبة التجارة الخارجية واستخلاص ضريبة الجمارك على البضائع التجارية، وعدم سماحه للصفقات التي كان يعقدها بعض الموظّفين مع اليهود قصد تصدير الحبوب إلى أوروبا².

2- العوامل الاقتصادية :

كما كان للجانب الاقتصادي دور في هجرة العلماء ومن ذلك إثقال الجزائريين بمختلف الضرائب لصالح السلطة دون مراعاة لظروفهم المزرية فقد أضرت أنواع الضرائب التي كانت تُفرض على الجزائريين عموماً وعلى رجال العلم والدين خصوصاً إذ أُخذت الأموال منهم - على قتلها - وقد كانت تُعطى لهم على شكل هبات تقريباً منهم واستعملت السلطة في جمع هذه الضرائب الوسائل السلمية والوحشية³، فلقد عمدت السلطة لفرض وجودها خاصّة خلال المرحلة الأخيرة من حكم العثمانيين على استخدام استراتيجية محكمة لتتمكّن من إدارة المجتمعات الداخلية فغالباً ما كانت تعمل على إنهاك السكّان بضرائب مجحفة، ممّا أدّى إلى تراجع كبير للنشاطات الزراعية والحرفية والتجارية، وكانت هذه الأموال تُقدّم لرجال السلطة وحاشيتهم في كل مناسبة رسمية لما يتقدّم بها حكام الأقاليم بعد جمعها وهو ما يؤكّده الشريف الزهّار في مذكراته في معرض حديثه حول استخلاص الضرائب حيث يقول: " وهكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي والأواخر صاروا يُخرجون المحلّات لاستخلاص المغارم والظلمات ونهب أموال المسلمين، وما وقع هذا حتى صار الناس فُجّاراً والأمراء ظالمين"⁴، وبسبب هذه السياسة الضريبية المجحفة تحوّل جزء كبير من الأراضي الزراعية الخصبة نتيجة الآفات الطبيعية وانعدام الأمن والأضرار التي كانت نتيجة الحملات المنظّمة أو المفاجئة لفرق المحلّة إلى مراعي، حيث تحوّلت ثلاثة أرباع

¹ الباي مصطفى الوزناجي حكم البايك ما بين (1775 - 1792 م)، وتمّ خلعه بعد ذلك ثم عُيّن بايا على باييك الشرق سنة 1794م، ليقتل بعدها بأمر من الباشا حسن .

² مُجّد الشريف الزهّار، المذكرات، مصدر السابق، ص 49 .

³ للمزيد حول أنواع الضرائب وكيفية جبايتها . يُنظر: ناصر الدين سعيدوني : النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792/ 1830)، مرجع سابق، ص 85، 110 .

⁴ الزهّار، المذكرات، المصدر السابق، ص 35.

من السهول الوهرانية إلى مراعي لقطعان قبائل المخزن كما تحوّل الجزء الأكبر من سهول الشلف ومرتفعات التيطري والسهول العليا القسنطينية إلى مراعي، مع بعض الزراعات البسيطة ولم تعد مساحة الأراضي الزراعية الخاضعة للنظام الجبائي في الجزائر تتجاوز سدس الأراضي الزراعية¹، وفي حال التمرد على السلطة والمجاهرة بالعداء لها كانت تمارس سياسة الترهيب إلى حدّ كبير في إخضاع القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب بالقوّة، ومن ذلك ما قام الباي محمّد الكبير الذي اشتهر بتقديسه للعلماء حيث أخضع قبائل جنوب الصحراء لسلطة الداوي²، كما أخضع الباي خليل كل العلماء المعادين للسلطة والأمر نفسه الذي فعله محمّد المقلّش باي وهران حيث أخضع القبائل التي ساندت ثورة درقاوة بالقوّة³.

لذا فقد كانت الضرائب من الأسباب والعوامل التي أوقدت نار العداء بين العثمانيين ورجال العلم والدين وبالتالي الهجرة نحو مناطق وبلدان أخرى تكون أرفق وتمنح لأهل العلم الحظوة والمكانة.

ومن ذلك إهمال السلطة العثمانية للاقتصاد واحتكارها للمواد الأولية لما فيها من فوائد وإيرادات مالية لأصحاب السلطة والنفوذ، والاحتكار هذا شمل المواد الزراعية والصناعية وظهر ذلك جلياً خصوصاً بعد تراجع مداخيل الجهاد البحري وإقبال موظفوا الإيالة على استهلاك السلع والبضائع الأوروبية يضاف إلى ذلك تعاون بعض الحكّام مع الشركات الأجنبية التي تنشّط في المجال الاقتصادي خصوصاً الفرنسية منها التي تعمل في المجال التجاري، فوجدت هذه السلطة أو هؤلاء الحكّام بمختلف درجاتهم في هذه الهيئات الأجنبية التجارية مصدراً للثروة يستغلونه في إحكام السيطرة وضمن الأمن وشراء المناصب ومثال ذلك ما فعله باي قسنطينة الذي كان يدفع للداوي حوالي

¹ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية، مرجع سابق، ص 20.

² ينظر ابن هطال، مصدر سابق، ص 37.

³ W. Esterhazy, la domination turque dans l'ancienne régence d'alger, Grossrin, 1840, p p186, 188.

15000 بياستر¹ في كل سنة - وهو مبلغ كبير- بهدف ممارسة واحتكار تجارة الصوف والقمح والجلود ثم يبيعه لمختلف المؤسسات أو الشركات الأجنبية بأرباح كبيرة²، كما أنّ نظام الاحتكار هذا ساعد على تدفق المواد الأولية إلى أيدي التجّار الأجانب بثمن زهيد ، وهو ما سبّب عجزا ماليا في الميدان التجاري، كما أدّى هذا النظام إلى ضعف الإنتاج وظهور بعض المجاعات³.

وأدّى نظام الاحتكار هذا أيضا إلى انخفاض أسعار المواد الأولية المعدة للتصدير، وانخفاض سعر المواد المصنوعة والمستوردة من الخارج، فساعد ذلك على تدمير التجارة وإهلاكها فكان عاملا محطّما للاقتصاد وتراجع الإنتاج وعدم تلبية لحاجات السكان الغذائية بسبب عدم اهتمام السكان بالزراعة، وهو ما أورده صالح العنتري بقوله : "بحيث أنّك لا تجد في ذلك الزمان ولا في الذي قبله وبعده من يهتم بأمر الزرع أبدا من أجل بحس قيمته⁴" ، وهذا في معرض حديثه عن المجاعة التي أصابت منطقة الشرق الجزائري أو بابل الشرق بداية القرن 19م، إن سياسة الاحتكار هذه أدّت إلى تدمير التجارة الداخلية والخارجية للإيالة الجزائرية والقضاء على النشاط الزراعي شيئا فشيئا فيها و زاد الأمر سوء عدم محاولة السلطات و حكام الإيالة تحسين الأوضاع أو اصلاحها من خلال تحسين الوسائل الزراعية البدائية أو على الأقل الاهتمام بالوقاية من الأضرار الطبيعية والآفات الطبيعية التي كانت تتعرض لها الإيالة باستمرار أو حتى تطبيق نظام تعويضي للمزارعين وتحمل بعضا من الأضرار الناجمة عن الكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات المتتالية كما عجزت حتى على توفير الأمن فكان اسهامها مدمّرا وسلبيا وذلك من خلال

¹ في حوالي سنة 1715م ظهرت هذه التسمية الجديدة في المراسلات الرسمية الفرنسية هي قرش الجزائر (piastre d'Alger) ، وقد تكون هذه التسمية الفرنسية هي المقابل لما يُدعى في الوثائق الجزائرية "ريال صحيح ضرب الكفرة" وهو على نوعين صغير وكبير ، وهو ما يبعث على الظن أنّه المقصود به القروش الاسبانية التي كانت تقص في مرسيليا بأشكال مُتَّفَق عليها مع حكام الجزائر ، للمزيد ينظر / المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة، الأسعار و المداخل) ج1، دار القصب، الجزائر 2009.

² De paradis venture : Alger au 18 ème, op.cit.p285

³ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر، مرجع سابق . ص ص : 231-232 .

⁴ صالح العنتري ، مجاعات قسنطينة. تح ،وتقديم ،رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، (د ت ط) ، الجزائر ، 1974، ص 35 .

احتكار شراء وبيع المحاصيل كما بالغت من قبل في فرض الضرائب وجبايتها، وهو ما أثر ذلك على الحياة الاجتماعية لسكان الإيالة.

ومن القرارات الخاطئة التي كان يقوم بها بعض رجال السلطة العثمانية في الجزائر وكان لها الأثر الكبير على الحياة العامة ومنها الجوانب العلمية لما لها من علاقة بذلك وكانت سببا في إثارة سخط العلماء خاصة وأدى بهم إلى الهجرة نحو الخارج هي، عملية نهب أموال الأوقاف، والمعلوم أنّ الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية كما أنّه يعبر عن إرادة الخير في الانسان المسلم وبهذا فهو شرعة أتبعها المسلمون منذ أوائل الاسلام غير أنّه تكاثر وتعددت أوجهه وأغراضه بمرور الزمن¹، وقد أدى الوقف وظائف إيجابية عدّة خلال هذه الفترة في حياة الجزائريين ومنها العناية بالعلماء وطلبة العلم وعابري السبيل فكانت تحقق لهم النفع المادي والمعنوي مثل أوقاف جامع كتشاوة أو تقديم الإعانات لأهالي الحرمين الشريفين وكذا إقامة المرافق والمنشآت العامة من طرق وجسور وتشييد أماكن العبادة من مساجد ومدارس قرآنية وحتى الزوايا وغيرها من الأعمال التي تتولّى المؤسسات القائمة على هذه الأموال صرفها، حيث تقوم سلطة محدّدة لتسيير شؤون الوقف هي المؤسسات الوقفية²، وذلك بعد تسجيل هذا الوقف من طرف القضاة بصيغة قانونية ملزمة بحيث يتم تحديد قيمته وتعيين أغراضه وكيفية الاستفادة منه وذكر تاريخ الوقف وتخصيص المشرفين عليه وغيرها من الأمور التي تتعلق بهذا الوقف فيصبح هذا التسجيل بعد التوقيع عليه من طرف الواقفين والشهود وثيقة شرعية وجب الالتزام بها واحترامها، وبما أنّ هذه المؤسسات كانت تتمتع بنفوذ كبير في المجتمع فإنّ أيّ استغلال غير شرعي لأموال هذه الأوقاف أو حتى عدم احترام هذه الوثائق الشرعية التي تمّ تسجيل مختلف المعلومات فيها حول هذه الأموال، سيثير سخطا كبيرا داخل المجتمع ويعتبر ذلك جريمة من الجرائم التي يجب معاقبة المعتدين على هذه أموال هذه الأوقاف، غير أنّ هذه الوثيقة أحيانا لا يلتزم بها الوكلاء وحتى السلطة أحيانا تتدخل لتحوّل فوائد هذا

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص227.

² اشتهرت في الجزائر خلال العهد العثماني عدّة مؤسسات عملت في مجال الوقف ومنها: مؤسسة الحرمين الشريفين، مؤسسة أوقاف الجامع الأعظم، مؤسسة سبل الخيرات، أوقاف مؤسسة بيت المال، مؤسسة أوقاف الأندلسيين، مؤسسة الأوجاق، وغيرها كثير كانت تقوم بأدوار كبيرة اجتماعية وثقافية مهمّة.

الوقف إليها، وقد ذكرت عديد المصادر التاريخية إهمال السلطة العثمانية للأوقاف ونهب أموالها فكانت من أهم الأسباب والعوامل التي أدت إلى إثارة التوتر والقطيعة وحدوث صراع بينها وبين رجال الدين والعلماء فقد أبدوا تدمراً وغضباً من طريقة تسيير هذه المؤسسات الوقفية وأموالها والتدخل في ذلك بطريقة مرفوضة ومن ذلك عملية كتم الوقف أو التصرف فيه بالبيع أو حتى الاستيلاء عليه ليكون ملكاً للسلطة وهو ما خلق صراع وفجوة بينها وبين العلماء ورجال الدين خاصة ومن ذلك شكوى "أحمد بن الساسي البوني" التي رفعها إلى الداوي "محمد بكداش" ضد ناظر الوقف بمدينة عنابة الذي اعتدى على أموال الأوقاف بها ومما جاء فيها :-

يا حاكم الجزائر *** يا أنس نفس الزائر
أريد أن اخبركم *** أدام ربي نصركم
بحال هذه القرية *** بالصدق لا بالفرية
قد صال فيها الظالم *** وهان فيها العالم
خربت المساجد *** وقل فيها الساجد
حُبسها قد أسرفا *** ناظره فأشرفا
والشرع فيها باطل *** والظلم فيها هاطل¹.

وهذا الورتيلاني يوثق كذلك لتصرفات بعض رجال السلطة العثمانية حول نهب الأوقاف واهمالهم لها حيث تحدّث عن أوقاف مدينة قسنطينة وكيف أنّ وُلّاتها أهملوا أوقافها فضعف فيها العلم² ، وقد كرّر موقفه وشكواه حول نهب أموال الأوقاف حينما تحدّث عن مدينة بسكرة بقوله : " إنّ الترك قد استولوا فيها على الأوقاف فأصبحوا يأكلون منها ويتنفعون بها كالأملاك الحقيقية وهي ليست لهم وليسوا من أهلها ولكنهم تمردوا وطغوا وجعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلماً وهذا سبب اندراس العلم وأهله من

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ج1، ص228.

² الورتيلاني ، الرحلة ، مصدر سابق ، ص 386.

كل وطن يوجد فيه ذلك " ¹، كما أخبر أحمد الشريف الزّهار : " أنّ الأتراك قد جاروا وأخذوا جميع ديار الحرمين التي كانت بيد الفقراء وأخرجوهم منها " في معرض حديثه حول عهد الداوي " علي باشا " سنة 1223هـ ².

غير أن من الإنصاف وجب علينا ذكر ما قام به بعض رجال السلطة العثمانية بالجزائر في الاهتمام بالأوقاف وضبطها ومحاسبة الوكلاء والقائمين عليها ومن ثبت تورّطه في ذلك، ومن ذلك ما قام به " صالح باي " في قسنطينة لما وصلته الأخبار عن التقصير والفساد والنهب والتلاعب الذي مسّ الأوقاف، حيث أمر بضبطها ومحاسبة الوكلاء والقائمين عليها، كما أمر بوضع سجلات يشرف عليها القضاة والمفتون واصلاح كل ما تلف منها، والنظر في فائض أموالها وشراء عقارات أخرى لتكون بدورها أوقافا جديدة وهكذا ³، كما أنّ " محمد الكبير " باي معسكر اتّبع نفس الطريقة في المحافظة على أموال الأوقاف والاهتمام بها، ومن جملة ما قيل فيه أنّه : " وتتبع أحباسها التي استولت عليها أيدي المنتهين حتّى تلاشى عنها أثر الحُبس، وارتفع عنها اسمه فصارت من جملة الأملاك لا شعور لأحد بتحبسها، فوجد منها أراضي كثيرة وظّفها كلّها على حائزها "، وقيل عنه أيضا : " ومن أعظم مآثره - وإن كانت كلها عظيمة - أنّه ربّ المدرّسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء ⁴.

ثالثا - العوامل الاجتماعية والثقافية :

1- العوامل الاجتماعية :

مما لا شك فيه أن تراجع الأوضاع الاقتصادية وتدهورها كان له انعكاس وتأثير على الأوضاع الاجتماعية والصحية لأفراد المجتمع، حيث أن ارتفاع قيمة الضرائب وتنوعها وسيطرة اليهود لجوانب عدّة من اقتصاد الولاية واحتكار السلطة أو المقرّبين منها لتجارة السلع والمواد الهامة في حياة المجتمع أو ارتفاع اسعارها، ويضاف لها اهمال السلطة وحكّام الولاية لإصلاح اقتصادي يخدم الراعي والرعيّة وخاصة في

¹ المصدر السابق، ص 110.

² أحمد الشريف الزهار، المذكرات، مصدر سابق، ص 103.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 229.

⁴ أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، مصدر نفسه، ص ص 142، 143.

الجانب الزراعي منه ، أدى هذا كله إلى تردّي للأوضاع الاجتماعية والصحية وتراجع في المستوى المعيشي لسكان الجزائر فانتشرت المجاعات والأمراض والأوبئة ومظاهر الفقر والبؤس بين أفراد المجتمع ، رغم أن معظم المصادر والدراسات تؤكّد على مدى التفاوت الموجود بين العثمانيين وبقية الأهالي في مختلف مجالات الحياة خصوصا في الجانب الاجتماعي، ولقد أشار فونتير بارادي (paradie venture) (De لحالة البؤس والشقاء التي يعيشها هؤلاء الأهالي خلال هذه الفترة بقوله " ..ليس هناك حياة أكثر بؤسا من سكان الأرياف وجبال الجزائر"¹ ، وقد عانى خصوصا سكان المناطق الريفية من الفقر بسبب موجات القحط والجفاف وحتى أسراب الجراد وكذا الزلازل² التي ضربت الجزائر عدّة مرّات خلال هذه المرحلة ممّا اضطرّ بأهل هذه المناطق إلى النزوح نحو المدن وحتى التشرّد³ ، هذا البؤس والشقاء كان من بين أهمّ عوامله انتشار المجاعات ومنها مجاعة 1778م و1779م ويذكر عنها الشريف الزهّار والعنّزي " بأنّ الناس كانوا يموتون من جرائها من الجوع في شوارع مدينتي الجزائر وقسنطينة" وكذلك مجاعة 1787م و1789م، التي تسبّب فيها الجراد وصاحب هذه المجاعات انتشار اللوباء ، ومجاعة 1794م، وهو ممّا أدى إلى ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة وشتيوع الفوضى، كما تميّز الربع الأوّل من القرن التاسع عشر بانتشار رهيب للمجاعات ومنها مجاعة سنة 1800م ودامت ما يزيد عن ستّ سنوات وكذلك مجاعة 1816م والتي دامت حوالي ثلاث سنوات وتميّزت هذه المجاعات باختفاء الأبقار ونقص فادح في الطعام ممّا اضطرّ الداوي مصطفى إلى استيراد الحبوب من موانئ البحر الأبيض المتوسط وهو نفس الإجراء الذي قام به أيضا الداوي حسين من بعده وخاصة مجاعة 1816م.

¹ De paradie venture : Alger au 18 ème , Op. cit, p. 106.

² عرفت الجزائر خلال الفترة العثمانية عدّة مرات زحف كبير للجراد ممّا أدى إلى هلاك الحرث والنسل ومن ذلك نذكر سنوات : 1663. 1710. 1716. 1724. 1760. 1780. 1784. 1798. 1800. 1816. 1822م ، وكان لهذا تأثير كبير على حياة الجزائريين ، وأما الزلازل فقد عرفت الجزائر خلال نفس الفترة سلسلة من الهزّات الأرضية العنيفة تسبّبت في تخريب العديد من المدن ونتج عنها كذلك في كثير من الأحيان خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات ، ومن أهمّها وأخطرها نذكر: زلزال مدينتي الجزائر والمدية عام 1632م حيث تذكر العديد المصادر أنّه أهلك معظم سكان مدينة الجزائر ، وزلزال سنة 1676م التي دامت ارتداداته عدّة شهور (فيفري/ جوان) ، وأضرّ بأغلب منازل مدينة الجزائر ، وكان أخطرها زلزال سنة 1716م الذي تخربت بسببه مدن شرشال وبجاية والجزائر (دار السلطان) ، وقد مات من سكان الجزائر تحت الأنقاض ما لا يقلّ عن 20000 نسمة، وزلزال سنة 1825م الذي تسبّب في هدم بعض الدور في مدينة الجزائر وخراب مدينة البليدة عن آخرها وتركت تحت الأنقاض مالا يقلّ عن 7000 جنة.

³ أرزقي شويتام ، المجتمع الجزائري وفعالياته ، مرجع سابق ، ص 272.

التي تميّزت بخطورتها إثر موجة الجفاف وزحف أسراب الجراد واختفاء الحشائش وزوال المزروعات حتى في مناطق التلّ والساحل ممّا زاد من شقاء السكّان وسوء الأحوال الصحيّة بصفة خاصة¹، وإذا استثنينا بعض الأمراض التي كانت تظهر من حين لآخر فإنّه يمكن القول بأنّ الجزائر كانت قليلة الأمراض الخطيرة خلال هذه المرحلة، ومن الأمراض التي كانت تنتشر خصوصا في بدايتي فصلي الربيع والخريف مرض الرمد الذي كان يصيب غالبا الأطفال وبعض الأمراض الأخرى، وأسباب ذلك يعود ربّما لاهتمام الجزائريين بالنظافة في اللباس والسكن وتناولهم لطعام صحي (قمح، عسل، زيت زيتون..)، وحتى انتشار الحمّات وهو ما جعل الأوربيّون أنفسهم يعتبرون أنّ ظاهرة الغسل المتكرّر عند الجزائريين شذوذا والأمر هذا يختلف بين سكّان الحضر وسكّان البدو²، وأمّا عن الأوبئة وهي الأمراض الفتاكة والسريعة الانتشار فيعود سبب انتشارها في الجزائر إلى انتقال العدوى وتنقّل الأمراض من الأقطار المجاورة بحكم صلة الجزائر بأقطار البحر الأبيض المتوسط وانفتاحها على أقاليم السودان وعلاقتها التجارية خصوصا بالبلاد الأوربية وبلاد المشرق وغيرها، وتوافد التجار وحتى الحجاج والبحارة من هذه المناطق، ويضاف إليها حوادث الأسر والحروب وهو ممّا أدّى إلى انتقال العديد من الأمراض والأوبئة الخطيرة³ مثل: الكوليرا، السل، التيفوس، الجدري والطاعون هذا الأخير الذي عرفت الجزائر خلال هذه المرحلة موجات عنيفة كان له الأثر الواضح على النمو السكّاني وترك أثرا سلبيا على وضعهم الاجتماعي، وممّا ساعد على توطّن هذه الأوبئة وسرعة انتشارها هو كثرة المستنقعات وعدم الالتزام بالقواعد الصحية التي كانت تفرضها الشريعة الإسلامية في مثل هذه الظروف والأحوال، ويضاف إلى ذلك أنّ الحكام لم يكونوا يهتمون بالجوانب الصحية ولا يولونها العناية الكافية بها، فهم لم يتخذوا أي إجراء وقائي ضدّ الأمراض ومن ذلك اجراءات نظام الحجز الصحيّ على السفن القادمة من الموانئ الأوربية خصوصا أو

¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، مرجع سابق، ص 130.

² أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته، نفسه، ص ص 277، 278.

³ غالبا ما تنتشر هذه الأوبئة بعد فترات تعرف الجزائر فيها المجاعة والجفاف، ومنها وباء سنة 1654 المعروف بالكونية، والذي قضى على ثلث سكان مدينة الجزائر، ووباء سنة 1740م الذي دام 3 سنوات، وأهلك في الاسبوع الأوّل منه 10000 نسمة، وفي الشهر الأول ما بين 300 و400 نسمة في اليوم، ووباء سنتي 1792م و1798م الذي أضّر بجميع الجهات لا سيما وهران والجزائر وقسنطينة، وأمّا وباء سنتي 1817 م و1818م فقد قضى على أكثر من 14000 نسمة في مدينة الجزائر فقط، وأدّى إلى هلاك ثلثي سكان مدينة عنابة فأصبح عدد سكانها لا يتجاوز 5000 نسمة بسبب هذا الوباء، كما تضرّرت به أغلب المناطق الصحراوية والجبليّة الأخرى.

حتى الأشخاص من التجار والبحارة أو حتى الأسرى في مثل هذه الظروف ماعدا بعض المحاولات مثل ما قام به صالح باي باي قسنطينة سنة 1787م.

حيث فرض حزام صحي (ما يشبه الحصار) حول مدينة عنابة لمنع العدوى إلى مدينة قسنطينة، أو ما قام به الباي عصمان باي وهران سنة 1794م حيث التجأ إلى سهول مليلة ليقوم بها ثلاثة أشهر بعيدا عن أي اتصال بالسكان وذلك تخوفاً من انتشار الوباء¹، وكان من أخطر هذه الأوبئة وباء الطاعون الذي كان يضرب بقوة ويترك آثارا سلبية على المجتمع الجزائري آنذاك وحتى العناصر الأجنبية المقيمة بالبلاد وقد تكرر ظهوره في شكل حلقات متعاقبة فكان من الظواهر المستمرة والدائمة في الجزائر العثمانية وهو من الأوبئة المستوطنة بالمنطقة وتسببت في انهيار ديموغرافي تاركا تشوها خطيرا في البنية الاجتماعية للجزائريين وخاصة من ناحية تناقص عدد السكان وغيرها²، ويذكر لنا الزهّار في مذكراته عن الوباء الذي ضرب سنة 1201هـ/ 1787م " أنّ الوباء جاء للجزائر حتى وصل عدد الأموات أحيانا إلى 500 جنازة كل يوم ويسمى بالوباء الكبير... وطال الوباء بالجزائر إلى سنة 1211هـ³، وكان أكثر المتضررين من هذه الأوبئة العامة من الناس لانعدام العناية الطبية عدا عن استعمال بعض العقاقير الطبية التقليدية المحضرة بطريقة شعبية بسيطة، بل واستعمل هؤلاء الأهالي حتى الشعوذة، وأما أماكن العلاج فكانت محصورة حول بعض المصحّات والملاجئ مثل زنقة الهواء وملجأ الأمراض العقلية المخصص للأتراك بينما كان للحكّام العثمانيين أطباء خاصّون اختارهم هؤلاء الحكّام من الأسرى الأوربيين أو جلبهم بالأموال⁴، ولكن هؤلاء الحكّام لم يفعلوا شيئا من ذلك للتخفيف على السكان من الآلام والأمراض⁵، وممّا لا شكّ فيه أنّ العلماء لم يكونوا في منأى عن تلك الأوضاع المزرية ونتائجها المدمرة فقد أخذت الأمراض والأوبئة وخاصة الطاعون منهم الكثير فقد ألف "مسلم بن عبد

¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص125.

² عبد الغاني عيساوي، جهود علماء الجزائر في علم التفسير زمن العهد العثماني، أطروحة دكتوراة دولة تخصص كتاب وسنة، إشراف أ/د منصور كافي، جامعة باتنة 1 الجزائر، 2016/2015، ص 28.

³ الزهّار، المذكرات، المصدر السابق، ص51.

⁴ أنظر ملحق عبارة عن رسالة موجهة من الشيخ علي باي باي قسنطينة إلى وكيل البستيون طلب إرسال الطبيب بهدف علاج ابنه والرسالة مؤرخة سنة 1792م ماجستير.

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج1، مرجع سابق، ص167.

القادر الحميدي¹ رسالة خاصة هي "أنيس الغريب والمسافر" ترجم فيها لكثير من العلماء الذين هلكوا بسبب الطاعون والأوبئة، إنّ وقوع هذه الكوارث والجوائح في الجزائر خلال العهد العثماني والنتائج السلبية التي خلفتها في الأرواح أدت إلى موت عدد كبير من الناس، فقد توفّي من الشخصيات العلمية بوباء الطاعون كل من عبد القادر بن السنوسي، والفقيه مصطفى بن عبد الله بن زرقة مؤلف "الرحلة القمرية في الأخبار المحمّدية" بالراشدية بمنطقة بايلك الغرب الجزائري على عهد الباي "محمد بن عثمان الكبير"، بعدما ظهر الجراد بكثرة وأفسد الزرع والثمار فسادا عظيما².

إنّ هذه الأوضاع الصحية السيئة التي عرفها المجتمع الجزائري خلال هذه المرحلة ومع الإهمال الواضح من طرف السلطة للجانب الصحي كان لا بدّ أن تكون هناك صفوة من المجتمع أو نخبة تعمل على إنقاذه ولو جزئيا من حالة الركود والانحيار الصحي ومن المشاكل الصحيّة التي كان يتخبّط فيها هذا المجتمع لذا برزت فئة من الأطباء خاصة في عهد الدايات قامت بدور مهمّ في المجال الصحيّ فهؤلاء الأطباء الذين كانت لهم ميول بالتطبّع، اهتمّوا بالبحث وحتى التأليف في مجال علاج بعض الأمراض المستعصية الناتجة عن المجاعات وسوء التغذية مثل التيتانوس والسل والجذري وغيرها، وقد أخذ هؤلاء العلماء ثقافتهم الطبيّة من تراث الحضارة العربية الاسلامية، ومن ذلك ما خلفه ابن سينا والرازي من معارف طبيّة وطرق علاجية للتداوي من الأمراض المنتشرة آنذاك كما أخذوا كذلك الخبرة الطبية من خلال الاحتكاك بأطباء آخرين بعد سفرياتهم ورحلاتهم نحو المشرق فزادت معارفهم الطبيّة وكبرت شهرتهم، هؤلاء الأطباء كانت لهم مكانة مميّزة لدى المجتمع فقد علق في أذهان أفراد هذا المجتمع أنّ العلاج من مشاكلهم الصحيّة لا يكون إلا من خلال التردّد على هؤلاء الأطباء الشعبيين³، وهناك أسماء معيّنة لأطباء كانت كثيرا ما يتردد عليها للعلاج نظرا لانتساع معارفها في الطبّ النبوي ومجال التداوي بالأعشاب، وقد ألّف هؤلاء نظم وأراجيز في هذا المجال فكان لهم تأثير قويّ على المجتمع الذي كان يضع فيهم ثقة كاملة في طرقهم العلاجية حتى وصل بهم الأمر للاعتقاد في قدرتهم الشفائية، وقد شاعت عدّة

¹ هو أبو عبد الله مسلم بن عبد القادر الحميدي الزائري أو الزايري، تقلد وظائف هامة أوّلها منصب خوجة لدى الآغا الحاج مجّد المزاري البحتاوي، ثم انتقل إلى خدمة حسن بن موسى قبل تولّي هذا الأخير منصب باي الإيالة الغربية، ومارس عنده الكتابة الديوانية، ثم تولي وظيفة دفتر دار، توفي سنة: 1294هـ.

² الآغا المزاري بن عودة، طلوع سعد السعود، ج1، مصدر سابق، ص300.

³ نفطي وافية، "مسألة علوم الطب عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلّة آفاق فكرية، المجلد 05 العدد 01، جامعة سيدي بلعباس 28 ماي 2019، ص ص 20، 53.

مؤلفات لهؤلاء تحوي العلاج بالنباتات الطبيعية، ومن ذلك نذكر "محمد بن أحمد الشريف الحسني" الذي ألف رسالة تناول فيها الحديث عن الحماية من الوباء وقد أهداها بنفسه للسلطان العثماني أحمد باشا سنة 1149هـ، ومنهم "أحمد بن قاسم التميمي البوني" (ت 1139هـ) الذي له عدة تأليف ومنها "إعلام أهل القرية بالأدوية الصحيحة".

كما نذكر "سعيد بن أحمد المقرّي" وهو فقيه وعالم من مدينة تلمسان كان مفتيا بالجامع الكبير بمدينة تلمسان كما اشتهر في الطب والجراحة، وهو عمّ صاحب "نفح الطيب" الذي أخذ عنه، وفيه خلاف في تاريخ وفاته فقال اليفراني بأنه توفي سنة 1010هـ/1602م، بينما "ليني بروفنسال" فإنه يعتبر وفاته كانت سنة 1030هـ¹، وهذا "عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري" المولود بمدينة الجزائر سنة 1107هـ/1695م، فقد درس العلوم الشرعية وأخذ إجازة في علم الفقه كما درس العلوم الطبية والرياضية فأصبح طبيبا وصيدليا، وكان من أهم مؤلفاته (كشف الرموز)، و(الجواهر المكنون في الطب)، وقد قال عنه مؤلفه بأنه: "كتاب جليل يتوشح به الأصغر ولا تمجّه الأكاير فيه الأسباب والعلامات والعلاجات"، وقال في كتاب الرحلة عنه أيضا بأنه "قد أتمّه بعد أكثر من سنة من العمل فيه"، وأما تاريخ وفاته فإنه يعتقد أنها كانت بالمشرق ما بين 1197هـ و1200هـ - وهذا حسب رأي أبو القاسم سعد الله²، وفي هذا الصدد يمكن أن نذكر بأنّ مكانة هؤلاء الأطباء في الإيالة كانت تختلف عن الأطباء الأوربيين باعتبارهم قد حلّوا بإيالة الجزائر إمّا كأسرى أو كأجرائٍ لدى المؤسسات الأوربية ومارسوا وظيفتهم بها إذ كانوا أكثر تقربا من السلطة، رغم أنّهم قد اكتسبوا مكانة واحتراما كبيرين لدى الجزائريين نظرا لكفاءتهم وهو الأمر الذي أكّده الرّحالة والطبيب الألماني "هابنسترايت" في رحلته وذلك في معرض حديثه عن سُكّان الجزائر بقوله: "... بل أصبحنا محلّ تقدير لكوننا أجنب ولأننا نمتهن حرفة الطبّ أو التداوي بالأعشاب، فقد اعتادوا على تسميتنا بـ الباربيرو³، ومردّد ذلك أنّهم غالبا ما كانوا يرونا نحمل في أيدينا زهورا ونباتات"⁴، إنّ الحالة المادية والاجتماعية والصحية المزرية التي عاشتها الجزائر

¹ بوحجرة عثمان: الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830) مقارنة اجتماعية، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، إشراف أ/د دادة محمد، جامعة أحمد بن بلّة وهران، 2015/2014م، ص ص 25، 28.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، مرجع سابق، ص ص 424، 429.

³ الباربيرو في لغة الفرانكا التي هي مزيج من لغات شعوب البحر المتوسط هذه الكلمة تعني المشتغل بالطب أو المداوي بالأعشاب.

⁴ ج، أو هابنسترايت: رحلة هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، ترجمة وتقديم وتعليق، ناصر الدين سعيدوني، مصدر سابق ص 23.

خلال هذه المرحلة تجعل كل مَنْ بقي منهم على قيد الحياة التفكير في الهجرة ومغادرة الديار ومنهم العلماء ورجال الدين.

ومن الأسباب والعوامل الاجتماعية التي أدت إلى هجرة العلماء ورجال الدين كذلك، انتشار الفساد الأخلاقي بمختلف أشكاله فقد أثارت هذه الظواهر اللاأخلاقية حفيظة المجتمع بصفة عامة والعلماء بصفة خاصة مثل انتشار الخمر والزنا والرشوة وانعدام الأمن والاستقرار في عدد من مناطق البلاد وتفشي ظاهرة اللصوصية وبروز قطاع الطرق الذين أصبحوا يعتدون على السكان خلال تنقلاتهم، كما شاع في الجزائر مضغ التبغ وتدخينه وتعاطي المخدرات بأنواعها هذه الظاهرة التي أثارت استياء العلماء، ولقد أحدثت السلطة العثمانية كذلك ظاهرة إدخال مادة التبغ للجزائر كما سمحت وشجعت إدخال الترجيلة فشاع استعمال السبسي للدخان، وأدى انتشاره وشيوعه انعكاسا خطيرا على الحياة الاجتماعية فصار شرب الدخان من المشاكل التي أثارت جدلا كبيرا بين العلماء، وقد تصدى عديد العلماء لهذه الظاهرة تحريما وتحذيرا وتجريما وطالبوا السلطة للحد منها، ومن هؤلاء شيخ الاسلام "عبد الكريم الفكون" صاحب "منشور الهداية"، كما أنه صاحب مخطوط "محدد السنن" الذي خصّه المؤلف للردّ على دعاة حلية شرب التبغ وتعاطي الدخان، كما أنه تصدى لظواهر سلبية أخرى¹، ومنها أيضا الحراية أو قطع الطريق ومن ذلك ما أورده المصعبي حول رحلة بعض سكان بنو ميزاب إلى البقاع المقدسة فقد حدث للركب أن تقدّم إليهم جماعة تطلب منهم مبلغا ماليا مقابل حمايتهم من قطاع الطرق فامتنعوا عن تخليصهم مواصلين رحلتهم دون حماية، وصارت السلطة لا تُعير لهذا النوع من المشاكل الاجتماعية الاجرامية اهتماما، ولا تبحث لها عن حل وهو الأمر الذي أدى بالبعض إلى استغلال الفرصة للتدخل لحل هذه المشاكل لكن مقابل الحصول على مبلغ مالي وهو ما أدى لانتشار ظاهرة الرشوة²، كما يذكر الفكون نماذج لهؤلاء اللصوص والأشرار ومن ذلك أتباع أحمد بوعكاز الذي جعل لنفسه أعوانا وتلاميذا أطلقهم في البلاد شرقا وغربا يجيبون له الجبايات ويتسبون له الكرامات وهم

¹ للمزيد يُنظر "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" تأليف شيخ الاسلام عبد الكريم الفكون، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله .

² فاطمة الزهراء طوبال، النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات 1671م/1830، ص ص173،174.

لصوص أشرار ، وأولاد عيسى وهم جماعة من اللصوص والحراة¹ ، وبهذا فقد انتشرت الفوضى وعمّ الخوف خلال هذه المرحلة، ومن ذلك انتشار الرشوة وظاهرة شراء المناصب وقد تمادى رجال السلطة خاصة خلال المرحلة الأخيرة من العهد العثماني في الجزائر في هذا الأمر فكل إنسان يريد التخلّي عن سمعته بجمع المال ولعب الأدوار عليه أن يقدّم الهدايا لأهمّ الشخصيات في بلاط الجزائر ليعيّن وكيلا في تونس وغيرها ، وهو الأمر الذي يُسجّل على السلطة العثمانية من دايات وبايات كونهم من غير رجال العلم ولا يمتّون له بصلة فمنهم من وصل إلى سدّة الحكم وهو من الجند الانكشارية التي كانت تحترف بعض المهن البسيطة ، فمثلا الداوي "أحمد أعجي باشا" (1695م/1698م).

الذي انتخب من قبل العناصر الانكشارية على الرغم من كبر سنّه ومرضه كان يشتغل بترقيع الأحذية² ، ونفس الأمر يُقال على "الداوي علي" المعروف بالغسّال (1808م/1809م) لامتهانه تغسيل الموتى ، وليس هذا فحسب فقد عُرف عنه أنّه كان ضيعا وعديم الأخلاق ومعتوها ولولا الفتنة العسكرية ما كان ليصل إلى مرتبة الباشوية ولو لأمد قصير³ ، خاصة وأنّ آليات الارتقاء وكيفية الوصول إلى سدّة الحكم في ظل نظام عثماني كان قد اشتهر بفتح الباب أمام الطامحين الأكفء الذين يفرضون شخصيتهم في الميدان، غير أنّه يبدو أنّ الظروف تعيّرت مع الزمن فأصبح للمال دور كبير في تسلّق المراتب والمناصب ، وقد يعود ذلك إلى طمع النخبة العسكرية في الاستحواذ على زمام الأمور وخاصة الموارد المالية فكانت المناصب المالية السياسية والإدارية تباع وتُشترى وتكون من حظّ من يدفع أكثر فأعطيت المناصب لأشخاص بلا مروءة ولا كفاءة إذ عُيّن "مصطفى" بايا على وهران وللحصول على هذا المنصب وَعَدَ بتقدّم مبالغ مالية ضخمة ولم يكن لهذا الرجل أيّة علاقة بالمشايخ ، ولم تكن له معرفة واسعة بأحوال المقاطعة كما أنه كان رجلا جبانا أدّته جبانته للشقاوة حتى هاجت في أيّامه هيجانا عظيما عامّة درقاوة⁴ ، وانجّر عن ذلك كثرة الاغتيالات والمحاکمات بسبب الوشايات والدسائس.

¹ عبد الكريم الفكون ، منشور الهداية ، مصدر سابق ، ص ص ، 120 ، 127 .

² محمّد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية ، مصدر سابق ، ص 25 .

³ أحمد الشريف الزهّار ، المذکرات ، مصدر سابق ، ص 103 .

⁴ الأغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود ، مصدر سابق ص 301 .

ومن ذلك أيضا شيوع شرب الخمر والاعتداء على الحُرّمات وانتشار المفاسد كالزّنا وغيرها فكان الجنود والشباب الترك بصفة عامة يشربون بكثرة حتّى يُعزّبوا ، وهم إذا عزّبوا فقدوا كل السيطرة على أنفسهم فيصبح خطرهم كبير لأهمّ يقتلون ويعتدون على النساء والصبيان¹، وهذا الباي "مصطفى الانجليزي"² عُرّل بسبب تصرّفات ولده الذي اشتهر بالزّنا فكان يغتصب النساء، وأمّا المرأة التي ترفض تُقتل فقد كان زنديقا من أكبر المجرمين كثير الفُسق والزّنا وشرب الخمر، وانجرت إذايته إلى ناس البلاد فلما شاع أمر فساده وتبيّن فُبح صنيعه أمر الباشا بعزله (أي عزّل والده)³ ، أمّا النموذج الآخر للفساد الاخلاقي والفُسق والفجور الذي وصل حتى بلاط البايات أيضا هو فساد الباي "قارة مصطفى" وهو تركي قديم في قسنطينة مكث ثلاثين يوما في ولايته فقط حيث اعتلى الحكم في جانفي 1818م فقرب إليه اليهود والنساء وجمعهم في قصره وأخذ يتعاطى معهم شرب الخمر والدعارة، تاركا أوضاع البايلك للإهمال كما قام بسرقة أموال خزينة البايلك ولما علم الداوي "علي خوجة" أرسل له من يُحقّق معه ثم أمر بعزله وإعدامه⁴ ، ومن المخالفات التي كانت تحدث ما ذكره في ملاحظاته أب إسباني يزور مدينة وهران في عهد "مصطفى بوشلاغم"، ورجل الدين هذ الاسباني هو الذي روى الحادثة لأحد الأطفال كان ضمن سفينة انجليزية بقوله : "حدث أن نزل غلام من سفينة انجليزية إلى الأرض للحصول على بعض الماء، فلما رآه الأتراك الموجودين في حصن المرسى جروا وراءه كمثل الكلاب وراء الأرناب وأجبروه على المضاجعة المقيتة، وخرج من ذلك في حالة يُرثى لها... وكان ذلك التركي معنا فأخذ يُعني ويقول أنّه إذا وجد الغلام مرّة ثانية سوف يفعل معه نفس الشيء"⁵. وما يؤكّده الزهّار في مذكراته عن بعض الأعمال

¹ (E) Vaysette, Histoire des Beys de Constantine, p.601.

² الباي "مصطفى الانجليزي" تولّى حكم قسنطينة سنة 1212هـ / 1798م ، وهو تركي قديم في قسنطينة وسبب تسميته بهذا الاسم لوقوعه في أسر الانجليز وبقاؤه في بلادهم ما يزيد عن 10 سنوات ، وقيل أيضا لكون طباعه تشبه الانجليز في برودة الدم والمكر والخداع أدار البايلك بحزم وجدّ، ثمّ تمّ عزله سنة 1803 م ، ووُضع في الإقامة الجبرية ثمّ فرّ إلى تونس .

³ محمّد الصالح العنتري ، فريدة مُنيسة (تاريخ قسنطينة) ، مصدر سابق ص 69.

⁴ نفسه، ص 88.

⁵ ميكال دي ايزا والهادي الوسلاقي، "ملاحظات أب إسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم"، مجلة الأصالة، عدد 28، 1987، ص 201، 200.

السيئة التي قام بها الداوي "حسين باشا"¹، ومنها أنه سمح ببناء قنطرة الزنا وهي حارة خاصة بالمومسات بعدما رأى تَقَشِّي وشيوع الاتصالات المخالفة للطبيعة بين الجنود الأتراك وكان قد هَدَمَهَا "علي باشا" ونفى المومسات إلى مدينة شرشال، فعمل "حسين باشا" على إباحتها لأبناء جنسه، غير أنه يُعتقد أن ما صنعه هذا الداوي في أوّل أمره كان من تصرّف بعض وزرائه وجميع ما وقع من فساد أو ظلم فهو منهم²، وهذا الفساد والفسق والفجور شمل حتى بعض رجال الدين ممن ادّعى الولاية والتدين ويذكر شيخ الاسلام "عبد الكريم الفكون" في كتابه "منشور الهداية" "أمر رجل يُقال له "مُحَمَّد البلدي" قال عنه: ".وَرُبَّمَا اعْتَرَتْهُ وَسْوَسةٌ أَوْ جنونٌ يحمله على استعمال المياه والإكثار من صبّها على بدنه وثيابه، وكان للناس به اعتقاد وحسن ظنّ فلما اشتهر أمره بين الناس صاروا يُدخلونه دورهم ولا يجربون منه نساءهم". وقد أنكر الشيخ هذا الصنيع. ومنهم رجل آخر يُقال له "بلقاسم الحيدوسي"، وقد قال عنه أيضا: ".حيث انتشر أمره بين الناس فتراه يهوم بين الطرقات ويتخلّل الجماعات ويتصدّ لما ينال في الأسواق، وولع به النساء وصار يدخل الدور ويجتمع بنساء المسلمين غيبا وحضورا ويجهر بقول لا ينال به المولى الرضى"³. وهذا الورتيلاني أيضا كان من جملة العلماء الذين استاءوا لهذه الظواهر المقيتة في المجتمع وناشد السلطة بالتدخل للحدّ من هذا الانحلال الخلقي حيث أورد في رحلته أنه "يجب على من ولّاه أمور المسلمين أن يرفع ذلك بالسيف عن أوطاننا لاسيما وطن بني عامر وبني درّاج ووطننا بني ورتيلان...." بل وكان يهاجم السلطة بسبب غضّ بصرها على مظاهر الضعف والتخلّف والانحلال الخلقي، كما يخاطب العلماء ويستنهض الهمم في إنهاء هذا الفساد وينادي بالتغيير من طرف السلطة فيقول: "وأما السلطة فيجب عليها التغيير باليد"⁴.

2- العوامل الثقافية :

¹ هو آخر دايات الجزائر واسمه الحقيقي "حسين بن الحسن"، وكان وزيرا ثالثا يُكْتَى بخوجة الخيل وكان رجلا عاقلا تولّى الحكم في 23 ربيع الثاني 1233هـ / 1818م، وذلك بعد وفاة "علي باشا" بالوباء، في عهده تمّ احتلال الجزائر سنة 1830م.

² أحمد الشريف الزّهّار، المذكّرات، مصدر سابق، ص ص، 141، 144.

³ عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، مصدر سابق، ص ص، 172، 178.

⁴ الورتيلاني، نزهة الأنظار، أو الرحلة، مصدر سابق، ص 378.

أما بالنسبة للأسباب والعوامل الثقافية التي أدت إلى هجرة العديد من علماء الجزائر نحو الخارج من الدول المغاربية وغيرها، فيمكن لنا أن نذكر منها انعدام المناخ المناسب المساعد على الاستقرار والانتاج الثقافي والعلمي، فلا شك أنّ الهوة المتسعة يوماً بعد يوم بين العلماء والحكّام بسبب تحريم العديد من العلماء لأمر استئذنها هؤلاء الحكّام ومارسوها بل وبتّوها في عامّة المجتمع¹، قد أدت إلى هجرة عديد العلماء فدأء التنكّر لفضل العلماء والصلحاء انتشر حتى بين عموم المجتمع فصار الانتقاص من قدر العلماء والحطّ من قيمتهم ميزة تطّبع الذهنية المجتمعية وقد قيل - النَّاسُ عَلَى دِينِ مَلُوكِهِمْ - وعلى الرّغم من مساهمة هؤلاء العلماء في مختلف مجالات الحياة إلا أنّهم كانوا يتجرّعون مرارة الجحود لما قدّموه من جهد، فالكل مُنشغل بجلبة المهجّجين وصخب المدّاحين وزحام الساعين إلى المناصب والمهرولين لاقتسام الغنائم²، فالعلماء لم يكونوا يشكون من ظلم الحكّام فقط بل كانوا يشكون من ظلم النَّاسِ، فقد اشتهر الجزائريون منذ القديم بأنهم لا يُقيمون للعلماء وزناً ولا يعترفون لهم بحُرمة أو عهد وهي ظاهرة كانت أقسى على العلماء من ظلم الحكّام وظلم العصر وهو الأمر الذي أجبر العديد من العلماء على الهجرة من وطنهم الجزائر وقد لاحظ "السُّنُوسِي"³ ذلك وقارن بين أهل المشرق ومدى عنايتهم بالعلماء وبين أهل بلاد المغرب وخاصّة الجزائر فقد نُقل عنه أنّه قال: " أهل بلادنا أقلّ عناية بمشائخهم ولهذا لا يجد أكثرنا اعتناء بمشائخنا ولا يحسن الأدب معهم بل يستحي كثير منّا أن يُنسب بالتلمذة لمن كان خاملاً، ويكون جلّ انتفاعه بذلك الخامل، فيعدل عن الانتساب إليه إلى من هو مشهور عند الظلمة... ويرحم الله المشاركة ما أكثر اعتناءهم بمشائخهم وبالصالحين منهم خصوصاً"⁴. وهو ما يجعلنا نجد مبرراً منطقياً لمقولة: " فالأزهر الشريف وجامع القرويين وجامع الزيتونة، وجامع الأمويين، والمسجد

¹ من ذلك ما قام به الفكّون بتصنيفه رسالة في حُرمة الدخان وهي " محدد السنان في نحو إخوان الدخان "، غير أن العثمانيين كانوا كثيراً ما يتعاطون التبغ، رغم أنّهم كانوا يعلمون أنّه مخالف للشرع.

² ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، دار الغرب الإسلامي، ط، 1، بيروت، 2000، ص 469.

³ السُّنُوسِي: هو أبو عبد الله محمّد بن علي السنوسي الحسني الإدريسي مؤسس الطريقة السنوسية ولد في مدينة مستغانم في سنة (1787م/1202هـ)، وتوفي (1859م/1276هـ)، قضى حياته على جناح سفر، له عدّة مؤلّفات، للمزيد ينظر، معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 179.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص ص 59، 60.

النبوي أبت الطبيعة أن تجعل أحدها في حوزة القطر الجزائري حتى ينبغ فينا رجال علم وأدب ، فيكون لهم نتاج يستوجب من علماء الأقطار هزّ الرؤوس ومن أدباء الأعصار رقص النفوس ، فالبعرة تدلّ على البعير والأقدام تدلّ على المسير ، والحقّ يعلو ولا يُعلَى عليه"¹.

إنّ افتقار الجزائر لمراكز ثقافية كبرى بحجم الحرمين الشريفين ببلاد الحجاز أو الأزهر الشريف بمصر وجامع الزيتونة بتونس أو بمثل جامع القرويين بالمغرب الأقصى أو المسجد الأقصى وجامع الأمويين ببلاد الشام كان من أهم الدوافع الثقافية والعلمية لعلماء الجزائر من أجل الهجرة والسفر بعيدا وتحمل مشاق الاغتراب بهدف الاستزادة العلمية ومجالسة أهل العلم والصّلاح والحضور لدروسهم فيقيد علمهم ويسعي في إجازاتهم ، فطلب العلم بالنسبة لهؤلاء عمل صالح يتقرّب به الإنسان ويَرجو ثوابه ويطلب جزيل أجره من الله ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾² ، وهو كذلك مصداقاً لقول النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ﴿مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ﴾³ ، وهذا الأمر كذلك جعل من هؤلاء العلماء يتحملون مشقة السفر والترحال بهدف ملاقاتة أهل العلم والأخذ عنهم والحصول على الإجازات.

إنّ الرحلة في طلب العلم مظهرٌ مشرفٌ في الثقافة العربية الاسلامية للنهل من ينابيع العلم والأخذ عن أكابر العلماء ومجالستهم وهو الأمر الذي أدى بهؤلاء العلماء للسفر والصبر على مشاقه ، والمعلوم أنّ الرحلة في طلب العلم ولقاء أهله تزيد للإنسان رفعةً في التعلّم والسبب في ذلك أنّ ما يأخذه الإنسان يكون إما علماً وتعلّماً وإلقاءً ، وإما تلقينا وتقليدا وهي الأفضل في حصول الفائدة والأكثر رسوخا للطالب فعلى قدر كثرة الشيوخ والصبر عليهم يكون أنسب له في تصحيح المعارف وتمييزها ، فالرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفائدة والحصول على ما يريجه كل طالب علم ، وقد تميّز

¹ محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية، مصدر سابق، ص 80.

² سورة التوبة ، الآية 122.

³ رواه أبو داود والترمذي .، كتاب الترغيب والترهيب ، ج 1، ص 73.

العلماء الجزائريون خلال هذه المرحلة بكثرة رحلاتهم إلى منابع الفكر والثقافة في بلاد المغرب والمشرق لإثراء معارفهم وتحصيل العلم ونيل الإجازات فتغربوا عن الوطن وتركوا لنا رحلات علمية دونوا فيها مشاهداتهم وملاحظاتهم ومناظراتهم ومناقشاتهم العلمية، ومنهم من عاد لوطنه لنشر العلم ومنهم من فضل البقاء في تلك البلدان بعد أن تقلد مناصباً من تدريس أو إفتاء أو قضاء¹، وكانت تونس أحد هذه المحطات بالنسبة لعلماء الجزائر لوجود جامع الزيتونة بها الذي كان جامعة علمية استحق أن يقصده العلماء من كل حدب وصوب للأخذ من علمائه وقد لقي هؤلاء العلماء ترحيب الحكام والعلماء والسكان على حدّ سواء.

تؤكد مختلف المصادر التي تعود إلى ما قبل الفترة محل الدراسة - العهد العثماني - عن مدى ازدهار الحياة الثقافية والعلمية في الجزائر وربما يُعتقد أن القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي هو خاتمة لذلك الانتاج العلمي الغزير، وهو يعجّ بأسماء عدد كبير من العلماء الذين كان لهم كمّ كبير من المؤلفات والتصنيفات والشروحات العلمية وهو الأمر الذي يؤكده أبو القاسم سعد الله بقوله: "أنّ عدد العلماء الذين أحصاهم في القرن التاسع الهجري يفوق بكثير العدد الذي كان خلال القرون اللاحقة وهي القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر وخاصة القرن العاشر"²، وهو القرن الذي تمّ فيه إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، ولقد كان انتشار العلوم وكثرة العلماء السّمة البارزة خلال القرون التي سبقت هذه المرحلة محلّ الدراسة، فقد سجّل لنا "أبو العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني"³ في مصنّفه المعروف والموسوم بـ "عنوان الدراية في ذكر من عُرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية"، والذي يُعتبر من أعظم وأهم المصادر وأغزرها حول تاريخ مدينة بجاية الثقافي ترجم فيه خمسين ومائة عالم في هذه المدينة فقط، وسلّط فيه الضوء على النشاط العلمي والاجتماعي الذي عاشته هذه المدينة وما حولها، وهو ما

¹ أرزقي شويتام، "العلاقات الثقافية الجزائرية المغربية (الفترة العثمانية)"، مجلة الدراسات التاريخية، مج9، العدد 13، جامعة الجزائر، جانفي 2011، ص82.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص39.

³ هو أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد أبو العبّاس الغبريني قاض ومؤرّخ له مشاركة في علم الحديث والتفسير وغيره، من كبار فقهاء المالكية، نشأ في بجاية وتعلّم بها وتونس وبلغ عدد الشيوخ الذين سمع منهم وأخذ عنهم نحو سبعين شيخاً، وهو من أعلام المغرب والأندلس وُلّي قضاء بجاية توفّي سنة 704 هـ.

يدلّ على ازدهار الجانب الثقافي في الجزائر عامّة وفي بجاية خاصّة، وقد أشاد "أبو عبد الله الشريف التلمساني" ¹ بعلماء هذه المدينة حين قال: "وجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذي ينبع من حيطانها"، وهذا الأمر ينطبق كذلك على مدينة تلمسان في الغرب الجزائري التي تألقت في جميع الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية، وغدت قاعدة المغرب الأوسط وحلقة صلة بين طرفيه، وقد شخّص ذلك الشيخ علي القلصادي الأندلسي عندما ارتادها سنة 840 هـ. فقال في وصف حالتها العلمية: "وأدركت فيها كثيرا من العلماء والصلحاء والعبّاد والزّهاد، وسوق العلم حينئذ نأفقه وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مُشرفة، وإلى الجدّ والاجتهاد فيه مرتقية"، والذي تميّزت تلمسان به كذلك هو انتشار المؤسسات الثقافية بها من مساجد وجوامع ومدارس وغيرها نظرا لاعتناء حكام الدول التي تعاقبت على المغرب الأوسط بهذا الأمر من تشييد وبناء أو ترميم لهذه المؤسسات فسطع نجم هذه المدينة بكثرة علمائها، وقد صنّف كذلك لعلماء هذه المدينة "ابن مريم أبو عبد الله مُحمّد الشريف" في كتابه الموسوم بـ "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، غير أنّه وبدخول القرن العاشر الهجري بدأت تتراجع مكانة هذه المراكز الثقافية وعرفت خلالها الجزائر ركودا وجمودا في الحركة العلمية والثقافية، وكان الانتاج العلمي مقتصرًا على الأخذ بما تركه السلف من خلال الشروحات والحواشي وهو الأمر الذي أدّى إلى أنتشار التصوّف والدروشة وظهور علماء مزيفون ومتملقة ومدّعون للعلم ولصومه، وقد شخّص لنا ذلك "شيخ الاسلام" حالة الركود هذه، وقدّم لنا عدة نماذج لبعض علماء هذا العصر ممّن ادّعوا العلم والولاية وذكر أوصافهم من خلال كتب "منشور الهداية" السابق الذكر .

إنّ حالة الركود والجمود وهذا التراجع الثقافي الذي عرفته الجزائر يتحمّل جزء كبير منه العثمانيون أو السلطة القائمة آنذاك من خلال اهمالهم للمؤسسات الثقافية أو للقائمين عليها، وكلّ ما كان من السلطة العثمانية من بناء للمساجد والزوايا والمدارس وغيرها لم يشفع لها أو يجعلها في منأى عن الوضع المتدنّي للحالة العلمية والثقافية في الجزائر ففي خلال فترة من فتراتهما بدأت بعض المحاولات لحركة نشيطة

¹ تعلّم بمدينة تلمسان على كبار شيوخها، وحضر المجالس العلمية بتونس وفاس ومصر والحجاز وغيرها فداعت شهرته وملاّ بلاد المغرب معارفا وتلاميذ وهو أحد شيوخ ابن خلدون، توفّي سنة 771هـ/1369م.

تبنت تشجيع العلم والتعليم والعناية بالأوقاف والاهتمام بالعلماء والكتب من أمثال محاولة "صالح باي" والباي "الحاج محمد الكبير"، ولكن الأمر لم يغيّر من حالة النكوص والتراجع والحمول الثقافي والعلمي، ممّا دفع بالجزائريين إلى الهجرة بحثاً عن آفاق أوسع للتحصيل العلمي، غير أنّ الحقيقة الثابتة أنّ هذا الركود والتراجع الثقافي والكساد العلمي كان عامّاً وشاملاً في العالم الإسلامي، ولكنّه يختلف بنسب متفاوتة، ولم يكن خاصّاً بالجزائر أو دول المغرب وخاصّة الخاضعة منها للعثمانيين لنحملهم بذلك الخطأ بسبب سياستهم السائدة عندنا، فلم تكن الدولة العثمانية في عُقر دارها تعيش وضعاً أفضل ولم تمارس سياسة ثقافية ولا تعليمية أحسن في مناطق أخرى كانت خاضعة لها، ومن هنا يبدو جلياً عامل التخلف والتقهقر الذي يكمن في هياكل الدولة نفسها لاهتمامها بالجانب العسكري الجهادي والذي كان على حساب الثقافة والعلوم ولم تستطع هذه الدولة الخروج من دوامة الحروب هذه الداخلية منها والخارجية، وفي سياستها العامّة وحتى في نمط سلوكياتها ويظهر ذلك من خلال طريقة تسيير بعض من حُكَم باسم هذه الدولة وعدم مسايرتهم وتأقلمهم مع العصور التي كانت تعيشها هذه الدولة.

الفصل الثالث:

علماء الجزائر في تونس ودورهم في التواصل الثقافي والعلمي بين الإيالتين

أولا - تراجم لعلماء الجزائر ورحلاتهم إلى تونس وأدوارهم في الحياة العامة

ثانيا - الزيارات المتبادلة بين علماء الإيالتين ونشاطاتهم العلمية والثقافية

ثالثا - دور العلماء في التواصل الصوفي بين الإيالتين

إن ما ميّز الأوضاع الداخلية في تونس أواخر العهد الحفصية، هو حالة التدهور والتفكك، وهو نتيجة حتمية للضعف الذي أصاب السلطة الحفصية من جهة، وأثر الهجمات الاسبانية المتكررة على سواحل السلطنة والتي أدت إلى احتلال مناطق عدّة ومنها العاصمة - تونس - والقضاء على السلطة فيها، وفي ظل هذه الفتن والحروب تعطلّ سير العلوم وأُتلفت خزائن الكتب، وعاث المحتل الاسباني في المراكز العلمية والمؤسّسات التعليمية فسادًا، وقد وصف لنا "ابن دينار" ذلك حينما عبث جنود الاسبان بجامع الزيتونة العامر وبالكتب التي كانت تزخر به مكتبته بقوله: " وهُبت خزائن الكتب التي به وديست بسنابك الخيل...."¹ فما فعله الاسبان كان بمثابة نكبة كبيرة على الكتب والمكتبات خاصة وعلى الحياة الثقافية والعلمية والفكرية عامة، فقد تسبّب ذلك في ضياع وإتلاف الكثير من المؤلفات العلمية والأدبية، لذا شهدت تونس هجرة ونزوح عدد كبير من الأدباء والعلماء نحو المدن الداخلية وحتى نحو الخارج مشرقا ومغربا، وهو ما أدى إلى توقّف الانتاج العلمي والفكري والأدبي، وتراجع الإشعاع الثقافي والفكري الذي عاشته تونس خلال فترة من فترات السلطنة الحفصية وخلفت تراثا علميا ضخما .

وبمجيئ العثمانيين إلى تونس وانتصاب الحكم العثماني بها، وتم استرجاع الأمن فيها، وحينها عمل العثمانيون على إعادة إحياء النشاط العلمي والثقافي والفكري، وذلك من خلال دعوة وجلب ثلّة من العلماء العثمانيين المعروفين بعلمهم ومن ذلك " أحمد أفندي " الذي كان عالما في العلوم الشرعية ، و"رمضان أفندي" الذي يُعتبر أوّل مَنْ أفتى بالمذهب الحنفي، وغيرهم من العلماء ويُضاف إلى ذلك جهود العلماء التونسيين والأسر العلمية²، والتي هاجر بعضها نحو المدن الداخلية وكان لهم دور كبير في إعادة وإحياء الحياة الفكرية والثقافية في تونس.

كما لا ننكر جهود بايات ورجال السلطة العثمانية في تونس في تنشيط الحياة الثقافية بها من خلال بناء المراكز العلمية من مدارس وجوامع ومساجد وزوايا جديدة، أو حتى ترميم البعض الآخر

1 ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، مصدر سابق، ص 166.

2 من هذه الأسر العلمية التونسية نذكر: أسرة آل عظم، أسرة الرضاع، أسرة آل بكري، أسرة الشريف..... الخ.

بسبب ما لحقه من دمار بفعل عامل الزمن أو كان تخريبا متعمدا، وإعادة الاعتبار للحواضر العلمية وعلى رأسها مدينة القيروان وغيرها من الحواضر التي تمّ تهميشها سهوا أو عمدا.

ومن الجهود التي تُحسب كذلك لرجال السلطة العثمانية في تونس والتي كان لها الأثر الكبير على الحياة الثقافية والعلمية والفكرية في تونس، هي الحفاوة التي استقبلت بها هذه السلطة الجديدة في تونس العدد الكبير من المهجّرين الأندلسيين، والذي كان يضم من بين أفرادها عدد لا يُستهان به من العلماء،¹ والأعيان والفضلاء، والشعراء والطلبة والأدباء، هذه العوامل وغيرها أدّت لانتعاش وإعادة الروح للحياة الثقافية والعلمية والفكرية في تونس ممّا جعلها محطّ أنظار طلبة العلم وحتى العلماء الجزائريين لتكون ملاذا علميا آمنا لهم فقصدوا عدد مهمّ من هؤلاء العلماء .

أوّلا- تراجم علماء الجزائر ورحلاتهم إلى تونس وأدوارهم في الحياة العلمية:

عرفت البلاد التونسية هجرة عدد من العلماء الجزائريين، واستطاعوا أن يثبتوا جدارتهم في نشر العلم، وكتابته وتبليغه، عبر وسائل عديدة:

أ- تراجم علماء الجزائر ورحلاتهم إلى تونس:

1/قاسم بن يحيى بن مُحمّد الفكّون (؟..ت/965هـ - 1558م): قاضي ومفسر وفقهه، ومشارك في عدّة علوم، من أهل قسنطينة وبها نشأ وتعلّم وأتمّ دراسته بتونس، ونظرا لقدرته وتمكّنه وليّ الإمامة بجامع البلاط بها، وعاد إلى قسنطينة فويّ قضاءها وكان ذلك سنة (1541م/948هـ) وكانت هذه الوظيفة عُرضت على الشيخ "عمر الوزان" من طرف باشا الجزائر "حسن آغا" آنذاك لكنّه رفضها واعتذر عن ذلك وقُبل اعتذاره، فعين "قاسم بن يحيى الفكّون" مكانه فيها وللتذكير فإنّ هذه الوظيفة كان لا يستحبّها عديد العلماء، وكان من جملة هؤلاء العلماء الشيخ "عبد الكريم الفكّون" أخوه

1 نذكر من هؤلاء: شعبان الأندلسي، الشيخ مصطفى قردناش، أحمد الشريف الأندلسي، مُحمّد الحجيج الأندلسي، للاستزادة في ذلك يُنظر: ابن أبي دينار في كتابه "المؤنس"، و"الخلاصة النقية في أمراء أفريقية" لمحمد الباجي المسعودي.

والذي رفض بعد ذلك أن يُدفن بجانبه حينما سُئِلَ أثناء قرب وفاته عن الموضوع الذي اختاره للدفن أهو قرب موضع "قاسم" فقال: "إن سيدي - ويعني أخوه قاسم - ساحه الله كان قاضيا ولا أحبّ الدفن هناك"¹. كما كان بيت العلم ويلقي دروسه بها ويجزر لمجلسه العلمي بعض أعيان العلماء ومنهم "يحي بن سليمان الأوراسي"، له حواش على بعض الكتب، وهو من أهم علماء مدينة قسنطينة والتي بها نشأ وتعلّم على يد شيوخ كثر أمثال الشيخ معوش والشيخ الوزان، ومن آثاره .

- حواشي وتقايد على توضيح ابن هشام .

- تأليف في النحو .

- عدّة فتاوي في "نوازل الفكون"².

2/ الشيخ ساسي المقرئ: العالم المقرئ بجامع الزيتونة الفقيه العالم بالقراءات السبع والعشر، أخذ عن الشيخ سلطان المزاحي المصري وغيره، وعن الشيخ أبي اسحاق الجمل وغيره، توفي حوالي 1100هـ/1688م³، وأصله من نواحي جبال القبلة من البربر أخذ القراءات عن الشيخ سلطان المزاحي الأزهري، جمع بين التدريس وممارسة التجارة⁴. وهي الحرية التي تمتّع بها العلماء آنذاك، والاستقلال المالي الذي مكّنهم من الاستغناء عن السلطة ورواتبها، ودفعهم إلى بذل أقصى ما عندهم من طاقة، وساهموا في تعليم الصغار، وتوجيه الكبار.

3/ أبو القاسم بن مُجّد البجائي (كان حيًّا سنة 1025هـ/1616م) : أو بلقاسم أيضا - وهو شائع في العربية مثل بالحارث عوض ابن الحارث - بن مُجّد البجائي التونسي من فقهاء الحنفية ومحدّثهم في تونس، كان من جملة من اختارهم القاضي لمصاحبتهم من الجزائر إلى تونس، كان منشغلا بعلم النحو

1 عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، مصدر سابق، ص 50.

² لزغم فوزية، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 152.

³ مُجّد بن مُجّد بن مخلوف، شجرة النور الزكية، مصدر سابق، ص 444.

⁴ حسين خوجة، بشائر أهل الإيمان، مصدر سابق، ص 96.

والفقه قضى مدّة طويلة في مدينة تونس، وقد أخذ من علمائها التونسيين وغيرهم، عمل خطيباً في أحد الجوامع الواقعة خارج باب الجزيرة في المدينة¹، ولم نقف له على تاريخ ميلاده أو وفاته. وهذه المكانة في التمكن من اللّغة هو ديدن الجزائريين، وسمة لا تنوّه بها التراجم، ومؤلفاتهم المعروفة والمغمورة خير شاهد على ذلك، فضلاً عما امتاز به العالم الجزائري يومئذ بالخطابة، وهي مكانة مرموقة لا يقدم لها إلا من كان في مستواها المطلوب، وخصوصاً إذا كان ذلك في العاصمة تونس.

لقد ترك أبو القاسم البجائي عدّة آثار وكتابات في اللّغة بالخصوص منها :-

1- شرح على الخزرجية في العروض .

2- شرح مختصر على شواهد شذور الذهب لابن هشام.

3- شرح مطوّل على شواهد شذور الذهب².

4 - شرح شواهد القطر³.

4/الشيخ أبو يعقوب يوسف بن مُحمّد (1079هـ/1669م/ت 1773م، 1187هـ) : هو أبو يعقوب يوسف بن مُحمّد المصعبي المليلكي المزابي ولد سنة (1079هـ/1669م)، ببلدة مليكة بوادي ميزاب من عائلة آل ويرو، سافر إلى جزيرة جربة بتونس رفقة والده سنة 1103هـ/1692م واستقرّ بها وأخذ العلم عن عدّة علماء منهم الشيخ سليمان بن مُحمّد الباروني، وعن الشيخ عمر بن علي السدويكشي⁴.

ثم سافر إلى مدينة تونس سنة 1701م/1112هـ ليرحل بعدها إلى مصر للاستزادة العلمية فحضر دروساً في الأزهر ليعود بعدها إلى تونس ليفرّ بعدها إلى جادو بجبل نفوسة إثر فتنة وقعت هناك سنة

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2، ص163.

² يقول عنه بنفسه : " وهو ثاني شرح له على الشواهد وهذا أطول وأكثر إبحاثة وقد فرغت من تأليفه أوائل شوال عام خمس وعشرين وألفا "

³ مُحمّد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين ، دار الغرب الاسلامي ، ط1، بيروت، 1981، ج1، ص77.

⁴ عائشة محمّة ، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ، مرجع سابق ص257 .

1140هـ، ومكث في هذه المنطقة سبع سنين، ليعود بعدها إلى الجزيرة سنة (1147هـ)، وسافر بعدها إلى مدينة تونس من جديد سنة 1153هـ/1740م.

كان رجلا ذا هببة وشجاعة وذكاء يعظ الحكّام والأمراء كما كان حكام جربة يعظّمونه، فكان في نظر الخلفاء العثمانيين يمثّل العالم والزعيم الإباضي في المغرب الإسلامي، لذا فقد كان مُمثّلا لرأي الإباضية في جميع المشاكل، ففي سنة 1108هـ/1691م مثّل جزيرة جربة في اجتماع عُقد في لالوت إحدى مدن جبل نفوسة¹، وله عدّة آثار ومنها:

1- حاشية على كتاب أصول الدين لتبغورين بن عيسى الملقب بملشوطي في أصول الدين.

2- تحفة الأحاب في عذر أولي الألباب.

3- حاشية على كتاب الفرائض.

4- شرح منظومة الذرائع .

5 - حاشية على تفسير الجلالين .

6- حاشية على شرح النونية لقاسم بن يحيى الجري .

7- حاشية على كتاب الأحكام لأبي زكريّا يحيى الجنائني .

8 - حاشية على مختصر كتاب العدل وشرحه لأحمد الشماخي

9- رسالة إلى الشيخ شعبان بن أحمد القنّوشي الجري في الوصايا والحقوق .

10 - رسالة في تنجيس أبوالحيوانات المأكولة².

11 - حاشية على شرح مختصر العدل والإنصاف في أصول الفقه.

1 د. مُجّد حدبون، التواصل العلمي بين جربة ووادي ميزاب، أبو يعقوب يوسف بن مُجّد المصعبي (ت 1187 هـ) أنموذجا، مجلة الشهاب، مج 07، العدد 03 (2021 م) ص ص 547، 560 .

² مُجّد محفوظ تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج4، ص338..

12- رسالة وجهها إلى والي طرابلس سنة 1169هـ في إثبات شهادة الإباضية، والرد على من طعن في صحّة شهادتهم من علماء طرابلس¹.

5/عاشور بن موسى القسنطيني (1576م/1664م): هو عاشور بن موسى - وذكر في ما ذكر أنه ابن عيسى - القسنطيني نسبة لمدينة "قسنطينة"، ولد بها حوالي سنة (1576م/984هـ)، وهو المعروف بـ "الفكّيرين"، وهو لقب والده الذي أخذ عليه العلم، وقد توفّي الوالد سنة (1054هـ)، كما تتلمذ عن شيوخ آخرين. قال عنه عبد الكريم الفكّون صاحب كتاب "منشور الهداية" أنّه :- " كان يقرأ عليّ النحو"². كما عُرف عنه أنّه كان أدبياً واسع الاطلاع والمعارف شديد الفطنة والحفظ ومدرس بارع، كما قال عنه "حسين خوجة" في "بشائر أهل الايمان" ما يلي:- " كان إماماً جليلاً فاضلاً مالكي المذهب يعلم عدّة فنون"، ارتحل لطلب العلم إلى أماكن عدّة ومنها تلمسان والمغرب الأقصى وبلاد السودان التي مكث بها مدّة وقد حكى عن نفسه أنّه قال:- "رحلت إلى بلاد السودان فرأيت بها رجلاً حرّاً يحرث بنفسه فقربت منه فسمعتّه يُنشد أبياتاً من مقامات الحريري فقال لي عندي عليها ثمانية عشر شرحاً"³، وأخذ العلم عن عدّة علماء علوماً مختلفة من أدب ونحو وعلم القراءات، كما حذق لهجات مختلفة وتعرّف على عادات وتقاليدها قبائل وشعوب وبلدان المناطق التي زارها ولقي فيها علماء أجلاء ومنهم "مُحمّد بن سليمان"⁴ صاحب مؤلّف "كعبة الطائفين" ودامت رحلته وغيبته حوالي العشرين سنة، ثم عاد إلى مسقط رأسه قسنطينة ليمكث بها مدّة، وبعدها شدّ الرحال نحو تونس ليستقرّ بها وانتصب للتدريس بجامعة الزيتونة⁵، وقد أخذ عنه كل من الشيخ مُحمّد قويسم، ومُحمّد الحجيج،

¹ حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنّفات والمؤلّفين التونسيين، مراجعة، بشير البكّوش، مُحمّد العروسي المطوي، دار الغرب الاسلامي، ط1، بيروت، 1990، ج1، ص 979.

² عبد الكريم الفكّون، منشور الهداية، مصدر سابق، ص 94.

³ حسين خوجة، بشائر أهل الايمان، مصدر سابق، ص 98.

⁴ مُحمّد بن سليمان: هو أبو عبد الله مُحمّد بن سليمان الجازولي تيمنا وتبرّكا بالشيخ الصوفي المعروف صاحب "كتاب دلائل الخيرات"، ولد سنة 1014هـ/1605م، هذا العالم الجليل هو صاحب كتاب "كعبة الطائفين"، كان حيّاً سنة 1066هـ/1656م.

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 383، 384.

وعبد العزيز الفرائي¹، قبل أن يولي وجهته نحو بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج وأدركه الموت بعد سنة (1074هـ/1663م)، من مؤلفاته: رسالة "إعمال الفكر في ضبط لفظة القسطلاني وأبي بكر"².

6/ أحمد البوني: هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد البوني ولد بمدينة بونة (عنابة) سنة (1063هـ/1653م)، نشأ في أسرة ميسورة الحال تنتمي لعائلة كبيرة ممتدة ما بين مدينة الكاف التونسية ومدينة قسنطينة في الجزائر، وقد أخذ العلم من هذه النواحي فتتلمذ عن شيوخ كثير منهم والده قاسم وجدّه محمد الساسي والشيخ الإمام بن التومي وواصل دراسته متنقلا بين المغرب الأقصى وتونس ومصر، فمن شيوخه بمصر عبد الباقي الزرقاني، ويحي الشاوي الملياني، بعد عودته من الحج وتصدّره للإقراء بالأزهر الشريف، وكذلك بركات بن باديس وغيرهم، أتقن عدّة علوم وبرع فيها ومنها علم الحديث، وبعد ذلك عاد إلى بونة وتفرّغ بها للتدريس والتأليف وقد أخذ عنه مجموعة من العلماء، ومنهم عبد الرحمان الجامعي، وعبد القادري الراشدي القسنطيني وغيرهما³، وعُرف بالبوني نسبة لمدينة بونة فهو عالمها وصالحها الإمام المحقق الفهامة المحدث الراوية المسند الواعية، وتوفي الشيخ سنة (1139هـ/1729م)⁴، له تأليف عدّة نذكر منها:

1- فتح الباري في غريب البخاري.

2- الثمار المهتصرة في مناقب العشرة.

3- نظم عقائد النسفي .

4- نظم تراجم كتاب الشمائل.

5- نظم أخلاق الصوفية.

1- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ص 449.

2- عادل نويهيض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 262.

3- أحمد البوني، الدرّة المصونة، مصدر سابق، ص 13.

4- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ص 475.

- 6 - نظم الأجرومية
- 7- نظم إعلام أرباب القريجة بالأدوية الصحيحة في الطب.
- 8- إتحاف النجباء بمواعظ الخطباء
- 9- نظم آداب الدعاء وشروطه.
- 10- رسالة قطع النخاع من أهل الابتداء.
- 11- إعلام الأحبار بغرائب الأخبار.
- 12 - فتح المعين بذكر المشاهير النخاة واللغويين.
- 13 - روضة الأزهار ونفحة الأسحار في الصلاة على النبي المختار.
- 14- أنس النفوس بفوائد القاموس .
- 15 - الإعانة على بعض مسائل الحضانة.
- 16- الظل الوريث في الحث على العلم الشريف.
- 17- نور الشمعة المذهب لظلام أهل الرّياء والسُّمعة في بعض مسائل الحجر والشفعة.
- 18- الدرّة المكنونة في علماء بونة
- 19- الياقوتة المصنونة في صلحاء بونة .
- 20 - رفع الذيل عن بعض فضائل قيام الليل.
- 21 - الفتح القدسي بتفسير آية الكرسي.
- 22 - الكواكب النيّرات المعلّقة على دلائل الخيرات.

23 - نهاية الآمال في فضائل الأعمال.

24 - إعلام القوم بفضائل الصوم.

25 - الفتوحات الكونية بشرح الأربعين النووية.

26 - المعارف الأنسية بنظم العقيدة القدسية¹.

7/مُحَمَّد بن أحمد الشريف الحسني : هو سيدي مُحَمَّد بن أحمد الشريف الحسني ولد ببلدة تاكنانت من عمل الجزائر (1063هـ/1652م)، حفظ القرآن الكريم على والده، وجوّده لرواية نافع، وقرأ الفقه ومختصر خليل على يد الشيخ أحمد بن علي وعلى الشيخ عبد الرحمان بن علي أيضا، وكرّزه عليه، رحل إلى تونس سنة (1682م/1093هـ) وقرأ على مشايخ العصر وحصل على النحو على الشيخ فتاة وعلى الشيخ عبد القادر الجبالي، وحصل التوحيد عن الشيخ علي الغمّاد كما حصل النحو على الشيخ المحجوز والشيخ أحمد مجاهد، واستكمل علم الفرائض وغيرها على شيوخ العصر، تصدّر التدريس بجامع الزيتونة وطالما أفاد طلابه، وتخرّج على يديه عدد كبير من الطلاب، يوصف بأنّه رجل عفيف صالح ربعة أشيب له ميل إلى الخمول، وقد تولّى القضاء بمنطقة ماطر²، وكان لا يزال مقيما بتونس ويتولى القضاء بماطر حينما انتهى حسين خوجة من كتابه " ذيل بشائر أهل الإيمان " وذلك في الربع الأول من القرن 12هـ، ومعنى هذا أنّه عاش فترة كبيرة في تونس خلال عهدي البايات المراديين والحسينيين ولا يُستبعد أنه استقر هناك بشكل نهائي³، توفّي بعد (1110هـ / 1698م)⁴، من مؤلفاته وآثاره نذكر :

- مسك الحبوب في بعض ما نقل من أخبار أبي أيّوب.

¹ أبو القاسم مُحَمَّد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص ص 516، 519.

² حسين خوجة، كتاب ذيل بشائر أهل الإيمان، مصدر سابق، ص 160.

³ لزغم فوزية، "العلماء الجزائريون بتونس خلال عهد الدايات(1671م/1830) ودورهم في مدّ جسور التواصل الثقافي بين

الجزائر وتونس"، مجلة الخلدونية، ع2 السنة 12، 2020، نشر بتاريخ 2020/12/27، ص98.

⁴ الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج 6، ص12.

8/ أبو مهدي عيسى الثعالبي (1020هـ-1080هـ) (1611م/1669م) : هو أبو مهدي عيسى بن مُحمَّد بن مُحمَّد بن أحمد بن عامر الجعفري نسبة إلى جعفر بن أبي طالب الهاشمي الثعالبي الجزائري ، ولد سنة(1020هـ/1611م)، من أكابر فقهاء المالكية في عصره، أصله من ناحية واد يسر (وطن الثعالبة)، الواقعة في الجنوب الشرقي لمدينة الجزائر، ولد ونشأ في زواوة، ثم انتقل إلى العاصمة للأخذ من علمائها الأجلاء أبرزهم سعيد قدورة، ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري الذي لازمه ولم يزل في صحبته حتى زوجه ابنته ثم طلقها غير أنه بقي ملازما لشيخه حتى توفّي، فانتقل بعدها إلى بلاد الحرمين فجاور بها سنتين ودرّس العلم وحصل له الإقبال عند أهلها لجودة فهمه، وحسن تقريره، وهناك تجددت له الرغبة في علم الحديث فأخذه من عدّة علماء منهم القشاشي والزّين الطبري والبابلي وغيرهم ، وكان هذا الأخير يقول له: " ما وصل لنا من المغرب أحفظ من الشيخ المقرّي ولا أذكى منك " ، وهذا شهادة تدلّ على مدى مكانة هذا العالم ، كما قال عنه أبو سالم " ولو قيل إنّ شيوخه يستفيدون منه أكثر ممّا يفيدونه لم يبعد لأنّ غالب استفادته منهم إنّما هي الرواية وهم يستفيدون منه الدراية "¹، ولقد كان أوّل من شدّ الرحال نحو تونس ثم إلى مكة إلى أن وافاه الأجل في سنة(1080 هـ / 1669 م) وخلف الثعالبي مجموعة من المؤلفات أهمّها :

1. كنز الرواة في درر الحجاز.
2. تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس.
3. يواقيت المسموع.
4. رسالة في مضاعفة ثواب هذه الأمة.
5. مشارق الأنوار في بيان فضل الورع من السنة وكلام الأخيار.

1 مُحمَّد بن الحاج بن مُحمَّد الإفرائي ، صفوة من انتشر ، مصدر سابق ، ص 284.

6 - منتخب الأسانيد أو مقاليد الأسانيد ، ذكر فيه شيوخه المالكيين وأسماء رؤاة الإمام أبي حنيفة¹.

9/ سعيد بن ابراهيم قدورة (ت 1066هـ/1656م): هو أبو عثمان سعيد بن ابراهيم قدورة هو صاحب الفضائل المشهورة التونسي الأصل والدار، الجزائري المولد والقرار، مفتيها وعالمها وصالحها الفقيه المتصوّف العلامة القدوة المتفنن الفهامة العمدة²، كان عالما متفنا زاهدا ورعا موصوفا بالصلاح أخذ العلوم عن أعلام منهم سعيد المقرّي ومُحَمَّد بن القسم المطمطي، ومن تلاميذه مُحَمَّد بن إبراهيم الهشتوكي، وابن زاكور الفاسي (ت 1120هـ/1708م) صاحب كتاب "نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان"، وهذا الكتاب معروف باسم "رحلة ابن زاكور الفاسي"، تويّ الشيخ سعيد بن إبراهيم سنة (1066هـ/1656م)³، ترك عدّة تأليف منها .:

- شرح الصغرى.

- شرح خطبة اللقاني .

- شرح السلم .

10 / أحمد بن عمار : هو أبو العبّاس أحمد بن عمار بن عبد الرحمان بن عمّار ، أصله من العائلات الأندلسية المهاجرة إلى الجزائر بعد خروج المسلمين من الأندلس عقب سقوطها، وكانت أسرته قد استقرّت في مستغانم أو تلمسان قبل انتقالهم إلى مدينة الجزائر، يعتقد أنّه ولد سنة (1119هـ/1707م)⁴ ، يعتبر من نوابغ وأدباء الجزائر تلقى تعليمه محلياً كان ذو ثقافة أدبية ودينية واسعة وعميقة وكان من جملة شيوخه : مُحَمَّد بن مُعَمَّد المعروف بابن علي وهو من أصول عثمانية تولى الفتوى على المذهب الحنفي، وأحمد بن مُعَمَّد الورززي المغربي وعمر بن أحمد المكي وغيرهم ،تولّى الشيخ أحمد بن عمّار الفتوى المالكية عدّة مرّات كان منها سنة 1180هـ مكث فيها مدّة سنوات إلى سنة

1 الحبي ، خلاصة الأثر من أعيان القرن الحادي عشر ، مصدر سابق ، ص ص 243،240.

² مُعَمَّد بن مُعَمَّد بن قاسم مخلوف ، شجرة النور الزكية ، مرجع سابق ، ج1، ص 447.

3 مُعَمَّد بن الحاج بن الصغير الإفرائي ،صفوة من انتشر، مصدر سابق ، ص220.

4 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ج2، ص243.

1184هـ/1770م، كانت للشيخ رحلات عدّة لأسباب كثيرة منها السياسية فقد كانت تربطه علاقات ومودّة مع باي تونس (علي باي)¹ الذي كان محبًا للعلم والعلماء فقرّبهم إليه وجمعهم في مجلسه وحاوهم وشاركهم في علومهم، وكان منهم الشيخ أحمد بن عمار ، فكان كثيرا ما ينزل بتونس لذا فقد صوّب وجهه نحو تونس في 1195هـ/1780م بقصد الاستيطان والاستقرار فناظر علماء تونس وألّف بها عملين كما تولّى بها الإفتاء والتدريس وكان من أهم تلاميذه هناك إبراهيم سيالة، وأحمد غزال الجزائري ليغادرها لأرض الحرمين ويعود ذلك لمنافسة العلماء له، ووفاة هذا الباي السالف الذكر ووزيره حمودة باشا²، ومنها الأسباب العلمية فقد ارتحل لطلب العلم والسعي في تحصيله والحرص على مشافهة العلماء وطلب الإجازة للرواية عنهم ، كما ارتحل لأداء مناسك الحج ومجاورة بيت الله الحرام مرّات وكان منها سنة 1166هـ، ومن أبرز تلاميذه خليفته في الحفظ والنبوغ أبو راس الناصري المعسكري، وكان قد وصف شيخه بقوله: "عالم الجزائر أتمنها الله من سوء الدوائر... حبر الأكارم وبحر المكارم تاج المفاخر علا بعلمه واعتزّ، ومائل في الأدب ابن الخطيب وابن المعتز...ألقت إليه رئاسة العلوم زمامها ووقفت الأعلام دونه بمراحل فصار أمامها"³، ترك الشيخ العديد من الآثار لكن معظمها في حكم المفقود ومن مؤلفاته التي ذكرها المؤرّخ أبو القاسم سعد الله:

1- تحفة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب : وهي عبارة عن وصف لرحلة حجازية قام بها ابن عمّار إلى مكة سنة (1166 هـ/1752م) ، لكنها في حكم المفقود ولم يسلم منها إلا المقدمة وقد قام بنشرها مُحمّد بن أبي شنب سنة 1902م .

2 - حاشية على الحفاجي في الأدب.

3 - رسالة في قوله تعالى: " إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك " ..ذكر منها شيئا أبو راس الناصري في (فتح الإله).

4 - شرح على صحيح البخاري

1 الباي علي باشا الثاني: حكم تونس ما بين (1759م - 1124هـ / 1782م - 1196هـ) ، اصطفى لمجلسه العلماء ودخل في زمرتهم يجاورهم ويسرد في ذلك الكتب المهمة ويورد عليهم المشكلات وكثيرا ما كان يجزل العطاء للمجيد منهم (العلماء) ، ينظر: أبو عبد الله مُحمّد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف، مصدر سابق، ج1، ص112.

2 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج2، ص226.

³ أبو راس الناصري ، فتح الإله ومثته ، مصدر سابق، ص48.

5 - رسالة على الطريقة الخلوأتية ،نسبها له الكتاني¹.

6 - في تاريخ سيرة (علي باشا) ذكرها له تلميذه ابراهيم السيلة التونسي.

7 - لواء النصر في فضلاء العصر وهو عبارة عن تراجم لعلماء عصره . 8

8- ديوان شعر.

و يُرَجَّح أنه توفي في (1205 هـ / 1791 م) أو بعده بقليل نظرا لانقطاع أخباره بعد ذلك².

11 / الشيخ مُحَمَّد التواتي : هو أبو عبد الله مُحَمَّد بن مزيان التواتي لقباً، أصله من المغرب من قبيلة الرواشد وانتقل إلى جبل زاوية قرأ النحو على الفقيه النحوي أبي مُحَمَّد عبد العزيز الحَرَّاز ، كانت شهرته بقسنطينة وبها انتشر علمه واقتبل إليه الطلبة وانتفعوا به وكثر بحثه وحصلت له مشاركة في الأصول والمنطق والبيان ، كان سريع الحفظ وفي مجلس علمه متواتر الكلام لا يتلثم ولا يفصل بين اللفظين ولا يتروى إلا قليلا دليل على كثرة حفظه وعلو شأنه في بسط العبارة نظرا لأنه كان يبيت مكبًا على المطالعة فلا تراه إلا مطالعا أو ناسخا وقلّ ما تجده متفرغا عن ذلك ، كما كان ذو خلق حسن وبساطة وتعرض لمحنة وكان ذلك سببا في انتقاله من قسنطينة إلى تونس واستوطن باجة، ورغم المضايقات التي لقيها من أهلها إلا أن نوره سطع واستطاع أن يلفت له أنظار العلماء وعامة الناس فوضع الله له القبول إلى أن توفي بها سنة (1031 هـ / 1622 م)³، ترك عدة مؤلفات قيّمة أُعتمد بعضها في برنامج التدريس بجامع الزيتونة غير أن معظمها مازال مخطوطا ومنها :

1 - غُنْيَةُ الراغب ومُنْيَةُ الطالب.

2 - شرح الشواهد الشعرية لمن أراد التفرّس في العربية.

3 - الخبر في معرفة عجائب البشر.

¹ عبد الحي الكتاني ولد في (1302 هـ / 1884 م) بفاس و توفي سنة (1382 هـ / 1962 م) بمدينة نيس الفرنسية محدث ومُسند و مؤرخ مغربي.

² عائشة محمّة ، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ، مرجع سابق ، ص 260.

³ عبد الكريم الفكّون ، منشور الهداية ، مرجع سابق ، ص ص 57، 59.

ب- أدوار علماء الجزائر في الحياة العلمية بتونس:

لا شك أن هؤلاء العلماء احتكروا وظائف ومجالات معينة في المجتمع وهي الإفتاء والقضاء والتعليم والإمامة والخطابة،¹ وكانت أعلى وظيفة يتولاها العالم هي الفتوى، والتي تحتاج الى درجة عالية من العلم والفقهاء والتعمق في ذلك وفهم واسع وعميق ومعرفة واسعة للقران وعلومه، وعلوم الحديث والقياس وغيرها، كما تحتاج هذه الوظيفة قوه الشخصية والنزاهة والصلاح والشجاعة في الراي والثبات على قول الحق والفراسة، ولم يكن الافتاء وظيفه رسميه قبل العثمانيين فقد كان العلماء يُسْتَشَارُونَ في المسائل الفقهية وغيرها ويُسألون ويُستفتون فكان العالم منهم يجب عنها بما توصل إليه علمه مضيفا إليها عبارة "والله أعلم".

- منصب الإفتاء:

لما جاء العثمانيون لهذه المنطقة أحدثوا في ذلك وجعلوا الإفتاء وظيفة رسمية، وجعلوا الفتوى على مذهبين المذهب الحنفي، وهو المذهب الرسمي لأن العثمانيين كانوا أحنافاً وعلى مذهب الإمام مالك للفتوى في أمور تخص السكان الأصليين للإيالة ونظرا لعدم وجود علماء أحنافٍ فقط كان آل عثمان يُعيّنون القضاة وهم في نفس الوقت المفتي وكان مُقَدِّمًا على المفتي المالكي وبعد مرور الزمن أصبح المفتي الحنفي يُعيّن من أبناء العثمانيين المولودين في المنطقة وعادة ما يلحق للمفتين وظائف أخرى مثل التدريس ووكالة الاوقاف والإمامة والخطابة، وكان ممن تولى وتقلد خطه الإفتاء من العلماء الجزائريين في تونس العالم الجليل "أحمد بن عبد الله بن عمار الجزائري" المعروف والمشهور بـ "أحمد بن عمار"، وقد تولى الإفتاء سنة 1180 هـ / 1754 م وكان مفتيا مالكيا ومنهم أيضا المفتي الحنفي "مُحَمَّد بن محمود العنابي" وهو من أوائل المجددين ودعاة الإصلاح السياسي والاجتماعي في العالم الإسلامي غير أنه لم يطل بقاءه في تونس. وحتى في المذهب الإباضي نجد من تولى خطه الإفتاء وهو العالم "أبو عبد الله مُحَمَّد بن يوسف المصعبي المليكي" كان مفتيا ومدرسا في مساجد جزيرة جربة،² والشيخ "أبو يعقوب يوسف بن مُحَمَّد" وهو والد الشيخ السابق الذكر .

- وظيفة القضاء :

وأما القضاء فيأتي بعد الافتاء في الأهمية، وكان في مرحلته الأولى وظيفة سياسية ودينية، والقاضي

1 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: ج1 مرجع سابق، ص388-392.

2 سحابات زهيرة ، الحضور الجزائري ابالة تونس خلال العهد العثماني مرجع سابق .

كان في وضع أخطر من المفتي بحكم اتصاله المباشر بمشاكل الحياة اليومية من عقود الزواج والطلاق وعمليات البيع والشراء، وعقود الوقف والكراء ، فكانت وظيفته متعلقة بالممارسة والتنفيذ على خلاف المفتي حيث كانت وظيفته متعلقة بالمكان والاعتبار لذا فقد كان بعض الفقهاء يعتذرون من هذه الوظيفة (القضاء) خوفا من عدم القدرة على القيام بشؤونها ومتطلباتها، وكان العثمانيون يجلبون معهم القضاة بمقتضى المذهب الحنفي فكان في العديد من الايالات العثمانية ومنها تونس قاضيين أحدهما للمذهب الحنفي¹ والآخر للمذهب المالكي وكان القضاة أحيانا ينيبون عنهم غيرهم أو يعين الباي خليفة للقاضي.

كما يوجد قضاة للحملات العسكرية الداخلية منها والخارجية ويسمى هؤلاء " بقضاة العسكر". وقد كان منصب القضاء محل تنافس بين العلماء لما فيه من جاه ونفوذ ونفع مادي من بعض ممن ادعى العلم فأصدر الأحكام جزافا² .

وكان في تونس العثمانية قاضيا يعرف بالقاضي العسكر قد تركه "سنان باشا" وهذا القاضي هو "حسين أفندي" وهو أقدم قاضي وكان قد قدم إلى تونس مع العثمانيين وعرف خلفاؤه بالأفندية حتى اشتهروا بها أكثر مما اشتهروا بالقضاة³ . و قد وصف ابن أبي الضياف القضاة العثمانيين الوافدين على البلاد التونسية بالضعف العلمي ورماهم بالنهم والحرص على كسب المال بما وظفوه من مغارم على الأحكام وأنهم أشبه بالجنود منهم بالعلماء حتى انحطت مكانتهم في نظر العامة وتؤثر عنهم حكايات تنافي جلاله المنصب حتى كان عهد الباي "حسين بن علي" و أعاد النظر في هذه الوظيفة وفي من يتقلدها⁴.

ويعتقد أن هذا الوصف ليس مطلقا ولا خاصا بالقضاة العثمانيين لوحدهم فقد كان بعض

1 أول مفتي حنفي في تونس كان العالم المفتي (رمضان أفندي) ، وهو أول خطيب ب "جامع يوسف داي" وأول مدرّس بمدريسته، و كان أول من أفتى بمذهب الإمام أبي حنيفة وأصل مجيئه إلى تونس كان منصب القضاء فكان قاضيا على مذهب الإمام أبي حنيفة وبعد وفاته تولّى مكانه تلميذه العلامة "أحمد الشريف الحنفي" ، ينظر حسين خوجه " ذيل بشائر أهل الايمان" ، مصدر سابق، ص 75 ، و مُجّد بن عثمان السنوسي، " مسامرات الظريف في حسن التعريف"، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص 07.

2 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر، مرجع سابق ، ج2 ص 07 .

3 أحمد قاسم ، إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى بن عظام، مصدر سابق، ص 153.

4 ابن أبي الضياف ، إتخاف أهل الزمان، مصدر سابق، ج2، ص 117، 118.

القضاة من المذهب المالكي غير مبرئين من ذلك هم الآخريين فقد أورد فقد ابن عظيم بعض الأمثلة من القضاة ممن زاغوا عن طريق الحق وأتبعوا أهواءهم في إطلاق الأحكام القضائية وإصدارها¹.
وممن تقلد وظيفه القضاء كذلك "مُحَمَّد بن أحمد الشريف الحسيني" الذي قدم إلى تونس سنة 1682م ، وتولى قضاء ماطر إضافة إلى العالم الرباني "مُحَمَّد العربي بن مُحَمَّد التواتي" المتوفي بعد (1149 هـ / 1736 م) وقد اتّصف بالعمّة والصّلاح والزهد²، كما نجد "أحمد العوّادي" الذي تولّى التدريس بالجامع الاعظم كذلك³.

– الخطابة والإمامة:

ومن المهام والوظائف الأخرى التي كان يشغلها العلماء وظيفه الخطابة وكانت مهنة ووظيفة حساسة وبالغة الأهمية نظرا لأن الرعية أو المجتمع يشترك في الحكم على الخطيب عكس المفتي والقاضي ففي الخطيب يجب أن تتوفر في شخصه الفصاحة وجودة الصوت وسعة الاطلاع هذه زيادة على علمه الشرعي وفقهه بأمور الدين، وكان الخطيب يؤدي صلاة الجمعة والعيدين، وكان أحيانا تضاف له الصلوات الخمس فهو يصبح بذلك إمام خطيب، وكان بعض الخطباء يثيرون خوف الحكام وحذرهم منهم بسبب جرأتهم وفصاحتهم وصلتهم بالجمهور فيثون حولهم العيون والآذان⁴، وهو ما يؤدي الى نقلهم أو عزلهم، وممن تولى هذه الوظيفة من العلماء الجزائريين في تونس نذكر الإمام "قاسم الفكون" الذي تبوأ الإمامة جامع البلاط بتونس من (965 هـ / 1557 م – 1558 م) حينما انتقل والده الى تونس⁵ ، ومنهم أيضا "أبي عبد الله مُحَمَّد الأندلسي" الإمام والخطيب الورع الصالح الزاهد، وقد وصف بأنه رجل خير، فقيه عليه سمّت أهل الخير ووقار أهل العلم، وليس في البلد من تُقبّل عليه النفس ويرتضيه العقل غيره⁶.

وممن تقلد هذه الوظيفة كذلك نجد "أبو القاسم بن مُحَمَّد البجائي" المحدث الورع الذي كان

1 أحمد قاسم ، إيالة تونس العثمانية ، مرجع سابق ، ص ص 166 ، 170.

2 سالم بوتدارة ، الحركة العلمية بالجنوب الجزائري خلال العهد العثماني (أطروحة دكتوراة) ، جامعة سيدي بلعباس ، 2015 ، ص 261/2016.

3 سحابات زهيرة ، الحضور الجزائري في إيالة تونس ، مرجع سابق ، ص 221.

4 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ص 395.

5 عبد الكريم الفكون ، منشور الهداية مصدر سابق ص 43.

6 ابن أبي الضياف ، الاتحاف ، المصدر السابق ج 7 ، ص 66.

إماما خطيبا بالجامع المشهور بجامع "الخطبة" خارج "باب الجزيرة"¹.
ومنهم كذلك الشيخ الإمام "ساسى المقرى" الذي تولى إمامة "جامع الزيتونة" والخطبة فيه
وقد أخذ هذا العالم القراءات عن الشيخ "سلطان المزاحى الأزهرى" بالجامع الأزهر²، توفي الشيخ سنة
1688م، وقد ناهز عمره نحو مائة سنة³.

- التدريس والتعليم :

انتشرت المراكز والمؤسسات التعليمية التي وجدت بالإيالة التونسية وتتمثل أساسا في الكتابات
والمدارس والمساجد والزوايا وغيرها، وانتشرت في المدن والأرياف، وكانت في مجملها تقدم تعليما دينيا
يغلب عليها الطابع التقليدي، حيث يتردد طالب العلم على هذه المراكز ليتعلم فيها مبادئ القراءة
والكتابة وقليل من الفقه والحساب وبعض المتون، ليتدرج بعدها حسب ميوله وما يفيدده فوجد مثلا من
يريد وظيفة القضاء يتجه للبحث كثيرا للاستزادة من كتب "النوازل" وكتب "الفرائض"، وأما الذي يريد
مهنة "العدول" فكانوا يبحثون عن كتب "التوثيق" وتعلم اللغة وهكذا.

وكان التعليم يجري على طريقة شبيهة بالاختيارية فالطالب يختار المدرس ومقدار الفنون
والدروس وأوقاتها وهذا الاختيار يكون مبنيا على مدى مهارة المدرس أو الأستاذ الذي يختار ما يشد
من الدروس والفنون والكتب والأوقات وغيرها، وقد اشتهرت في الإيالة التونسية عدّة عائلات وأسر
علمية بهذا الفن ومنها عائلة "الرصاص" وعائلة "آل بكرى" التي يعود نسبها إلى الخليفة الراشدي
"عثمان بن عفان" وقد ورثت إمامة "جامع الزيتونة" عن عائلة سبقتها وهي عائلة "الرصاص"،
كما نجد عائلة "آل عظوم" وغيرها، وممن أشتهر بفن التدريس مدرسون كثر منهم "أبو عبد الله
محمد بن زيتونة" (1671م/1726م) وقد تصدر للتدريس ب "الجامع الأعظم"⁴.

ومنهم كذلك "يوسف برتقىز" (1671م/1736م) وتعود أصوله إلى "أسارى البحر"،
ويشتهر باسم "يوسف الزغواني" نسبة إلى مسقط رأسه "زغوان" في تونس حيث تقلد مناصب

1 حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان، مصدر سابق، ص91.

2 نفسه، ص65.

3 محمد بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، مرجع سابق ص444.

4 حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان، مصدر سابق، ص133.

شرعية عدّة نظرا لعلمه الواسع ومن ذلك منصب الإمامة ورئاسة الإفتاء الحنفي إضافة لوظيفة التدريس¹.

أمّا من العلماء الجزائريين الذين اشتهروا بالتدريس ومارسوا وظيفة التعليم في الإيالة خلال فترة هذه الدراسة، نذكر "عاشور عيسى القسنطيني" الذي انتصب للتدريس بجامع الزيتونة، وكذلك الشيخ العالم "محمد بن أحمد الشريف الحسني" الذي ارتحل إلى تونس سنة (1023هـ/1682م) وأخذ على العديد من علمائها منهم الشيخ "أبو الحسن الغمّاد"، وقد تصدّى الشيخ "محمد بن الشريف الحسني" للتدريس بجامع الزيتونة حيث أفاد وأجاد وتخرّج على يديه كثير من الطلبة وهو رجل عفيف دين صالح²، ومنهم كذلك الشيخ "أحمد بن عبد الله بن عمّار الجزائري" الذي تولّى التدريس والإفتاء بتونس ومن تلاميذه أيضا "إبراهيم السيّالة"³، ومنهم أيضا: أبو عبد الله محمد المصعبي المليكي الجربي" (1669م/1792م) الذي انتصب للتدريس في مساجد "جزيرة جربة" بعد عودته من مصر التي قادته رحلة علمية إلى هناك⁴، ومن ذلك أيضا نجد الشيخ "أحمد العوّادي"⁵ الذي تولّى القضاء، إضافة إلى وظيفة التدريس بالجامع الأعظم، وكذلك العلامة الشيخ "يوسف المصعبي" الذي كانت له مجالس علمية للتدريس في مساجد "جزيرة جربة"⁶، وقد استقرّ كذلك الشيخ "أحمد

1 حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، مرجع سابق، ج1، ص921.

2 حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان، مصدر سابق، ص98، 160.

3 خصّص الأستاذ الدكتور "أبو القاسم سعد الله" ترجمة خاصّة وهامة لهذا العالم الجليل، تحدّث فيها عن حياته ورحلاته وغيرها، يُنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج2، ص ص 224، 235.

4 سحابات زهيرة، الحضور الجزائري في إيالة تونس، مرجع سابق، ص217.

5 هو الشيخ أبو العباس أحمد العوّادي أصله من العواودة أحد عروش مدينة قسنطينة، هاجر لطلب العلم في تونس فأخذ من أعلامها، وحصل العلم على المذهب المالكي، ودرّس بالجامع الأعظم، وُي القضاة بمينة ماطر ن وعمل في التدريس والتوثيق، كما أختاره الوزير أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع للتدريس بجامعه، كان عالما فقيها خيرا عفيفا تقيا مستورا بثوب التجمل قانعا بالكفاف وقور المجلس عزيز النفس سالكا نهب الصالحين، ولم يزل على ذلك حتى توفي في رجب 1243هـ / جانفي 1828 م.، يُنظر الإتحاف، مصدر سابق، مج4، ج7، ص151.

6 عائشة محمّة، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص257.

التجاني " لمدة سنة كاملة حيث قام بتدريس كتاب مهم هو كتاب " الحكم العطائية"¹ بجامع "الزيتونة" وجامع " سوسة"².

وعلى اختلاف أسمائهم ودرجة علمهم ووظائفهم المختلفة التي تقلدها هؤلاء العلماء فإنهم ساهموا مساهمة فعّالة في تكوين عدد كبير من طلبة العلم، كما أثروا الحياة الثقافية والعلمية والأدبية في تونس خاصة حينما تصدّروا للتدريس والقضاء والإمامة في المساجد والجموع وغيرها .

يُجمّع العديد من الباحثين على أنّ أهم مصدر لأجور العلماء والمؤدّبين والمدرّسين والمعلّمين هو الوقف بالإضافة إلى النفقات الزهيدة من السلطات والأولياء التي تُصرف على هؤلاء ، وقد استفاد العديد من العلماء من الأوقاف بطريقة مباشرة سواء حين ممارستهم لوظيفة التدريس بجامع الزيتونة أو المدارس والجموع الأخرى حيث كانوا يتقاضون مرتبات زهيدة وإعانات حسب درجاتهم ، فالمدرّسون بجامع الزيتونة يحصلون على رواتب قارة خاصة بعد عهد " حسين بن علي"³ ، كما أنّ هذه الرواتب والأجور تختلف حسب مصدر (الكُتّاب) أو المدرسة فقد تكون هذه المدارس أو الكتاتيب تابعة لأوقاف مدرسة أو جامع آخر ، أو أنّها لها أوقافا خاصة بها وكذلك حسب حجم الوقف .

كما أن البايات أو الدايات قد خصّصوا مرتبات لهؤلاء ، ولأنّ أجور العلماء والمؤدّبين لم تنحصر في الأموال فقط ، فقد تعدّتها إلى أن تكون كذلك بعض الثياب أو الطعمام مثل الزيت، الزبيب، القمح أو اللحم ومنها أيضا إحسانات تكون بين المعلمين والمحسنين⁴ ، أمّا القضاة فإنهم يتقاضون أجورهم من المتقاضين خلال القرن (16م) وقد كان ذلك مطيّة لتناول الرشوة وهؤلاء هم قضاة الالتزام وهم الذين يدفعون مبالغ مالية معتبرة بهدف تعيينهم ، وفي مطلع القرن (18م) صدر أمر إصلاحي يقضي بإلغاء " قضاة الالتزام"⁵، وتمّ⁵، وتمّ بموجبه إسناد اختيار القاضي إلى الأهالي لمباشرة عمله في المنطقة⁶ ، وبعد القرن (18م) أصبح لزاما على الدولة دفع رواتب القضاة بتخصيص جارية تدفعها الحكومة لهؤلاء وقد قُدّرت آنذاك بحوالي أربعة

1 يُنسب هذا الكتاب وهو عبارة عن مجموعة من الحكم إلى كاتبها " ابن عطاء الله السكندري " ، وهو أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان بن عيسى بن عطا الله السكندري أحد أركان الطريقة الشاذلية الصوفية التي أسّسها أبو الحسن الشاذلي، ويعتبر الكتاب هو أوّل مؤلّف لصاحبه .

2 عائشة محمّة، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ، مرجع سابق ، ص 267.

3 حفيظة بوتوقوماس ، الحياة الاجتماعية في تونس ، مرجع سابق ، ص 222.

4 عائشة محمّة ، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ، مرجع سابق ، ص ص ، 210 ، 212.

5 أصدر هذا الأمر الإصلاحي الباي " إبراهيم باشا " الذي حكم تونس ما بين (1702م - 1705م) ، كان آغا الصبايحية عُرف عنه تقّيله لأبناء أسرة الدايات .

6 أحمد قاسم ، إيالة تونس العثمانية ، مصدر سابق ، ص 165.

الفصل الثالث: علماء الجزائر في تونس ودورهم في التواصل الثقافي والعلمي بين الإيالتين

"نواصر" يوميا، وأصبح بذلك أجر القضاة واجبا من واجبات الدولة¹، وبالنسبة للعلماء فقد اختلفت جرايات ومرتبّات العلماء الحنفية عن علماء المالكية غير أنّ "أحمد باي" وفي بداية القرن (18م) منح علماء المالكية أيضا مرتبًا يساوي المرتب الذي يتقاضاه علماء الحنفية ممّا أدّى إلى ارتفاع المستوى المعيشي لهذه الفئة².

- هذه عينات لأجور الموظفين من العلماء والأئمّة والمدرّسين في بعض المؤسسات التعليمية (المدارس) والكتاتيب بتونس خلال العهد العثماني³.

ملاحظات	قيمة الأجر اليومي أو الشهري	المتفعون	الكتّاب والمدرسة أو الجامع
	46 شهريا	- المدرّس	المدرسة الحسينية الصغرى
	2 ناصري .	- الإمام المرتّب	
	08 نواصر يوميا	- لإقامة الصلوات	
	نصف ريال يوميا	الخمس بمسجدها	- مدرسة النخلة
	27 ريال شهريا	- المدرّس	- مدرسة الباشية
	46 ناصري يوميا.	- المدرّس	- المدرسة التوفيقية
	100 ريال شهريا	- المدرّس	
	250 ريال شهري		- المدرسة الحسينية الكبرى
	150 ريال	- المدرّس	- المدرسة الحربية بباردو
- يقرؤون كل يوم	ناصري لكلّ قارئ.	- المدرّس	- المدرسة الصادقية
حزبين	4 نواصر .	- المدرّس	
		- الإمام	
- يدرّس الفقه	6 خراب		- جامع الزيتونة
والتوحيد وغير ذلك.	- رُئع ريال	- القراء	
	6 خراب .	- المدرّس	- جامع يوسف صاحب الطابع
	6 نواصر		

1 نفسه ، ص 166.

2 ابن أبي الضياف ، الإنحاف ، مصدر سابق ، ج4، ص 34.

3 رزيقة محمّدي، النظام التعليمي في تونس خلال الفترة الحسينية ، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراة العلوم ، جامعة الجزائر ، إشراف أ/د أرزقي شويّتام ، 2020/ 2019 م ، ص ص ، 316 ، 322.

<p>- شرط أن لا يأخذ على الصبيان شيء.</p> <p>- شرط أن لا يأخذ على الصبيان شيء.</p>	<p>- 5ريال</p> <p>- ربع ريال</p>	<p>- خطيب الجمعة والعيدين.</p> <p>- إمام الصلوات الخمس</p> <p>- المؤدّب أو المدرّس</p> <p>- المؤدّب أو المدرّس</p> <p>- المؤدّب أو المدرّس</p>	<p>- الكتاب الملاصق للجامع الجديد.</p> <p>- الكتاب التابع للمدرسة الصادقية .</p> <p>- الكتاب المتّصل بتربة سيدي محرز بن خلف .</p>
---	----------------------------------	--	---

- من خلال الجدول يمكن تسجيل ملاحظتين هما:

* أن أجرة المدرّس تتحسن شيئاً فشيئاً، وهو ما يدلّ على اهتمام القائمين على شؤون الوقف من البايات وغيرهم بالتدريس وبالجانب العلمي.

* عدم حصول هؤلاء المدرّسين على أجرة مصدرها الصبيان.

- ممّا لا شك فيه أنّ هؤلاء العلماء الجزائريين الذين استقرّوا في تونس استقراراً مؤقتاً أو نهائياً كان لهم دور كبير في الحياة العامّة، فهذا الورتيلاني الذي أقام في مدينة تونس لأزيد من خمسة شهور استغلّها في نشر العلم، وكان قد نوى البقاء أو العودة إليها لولا ما رآه من بعض الجاحدين فيها الذين تحرّكهم أهواء الحقد والحسد على كلّ حين ذكر "وقد مكثت فيها نحو خمسة أشهر ونصف، وأنا في تعمير الأوقات بتدريس الفنون وضبط القواعد من العلوم، فإنّ تونس قاعدة من قواعد العلم، ومدينة من مدن الفهم، غير أنّ أهلها ينكرون البرّاني، بلغ ما بلغ في القرب والتداني"، كما أشار على التنافس والتّحاسد، ومع ذلك فهو لا ينكر إيجابيات المدينة¹.

¹ - حسين الورتيلاني، نزهة الأنظار، مصدر سابق، ج2، ص ص 770، 772.

وهذا أحمد بن عمّار الذي تمكّن من ربط علاقات متينة بأقرانه في تونس، وتبادل معهم التقاريط¹ والإجازات العلميّة، من ذلك التقريظ الثّري الذي كتبه في شهر صفر من سنة 1196هـ/ 1781م، للكاتب الوزير أبي محمّد حمّودة بن عبد العزيز التّونسي (ت 1202هـ) على رسالة له في رسائل من الكلام².

كما أنّ أبو رأس النّاصري اجتمع بعلماء جامع الزيتونة وسألوه في مسائل صعبة فأجابهم عنها دون تردّد، فأخبروا بذلك "حمّودة باشا" باي تونس (1782-1814م)، فدعاه إليه وأكرمه، وفي هذا الصّدّد قال: "واجتمعت مع العلماء بجامعها الأعظم، فتذاكرنا، وترافعنا وتشاجرنا، وتقابضنا في جميع الفنون القديمة والمسائل الخفيّة، وقد أظهرني الله عليهم في ذلك كلّه، ثمّ سألوني عن أشياء صعبة فقهية، فأجبتهم عليها بما عندي من الأنقال الرّائعة عليها من غير توقّف ولا تلثم..."³.

وأقدم من فعل ذلك "عاشور بن موسى القسنطيني" المعروف بـ "الفكّيرين" الذي ذهب إلى تونس واستقرّ بها مدّة وانتصب للتّدريس بالزيتونة⁴، وهذا "أحمد المقرّي التلمساني" وأثناء مروره بتونس خلال رحلته إلى الحجاز أجاز "تاج العارفين التّونسي" في مدينة "سوسة"، حيث نظّم له إجازة بها ثلاثة وأربعين بيتا، ومّا جاء فيها:

أجزتك تاج العارفين جميع ما رويت *** عن أعلام الهدى قلّ أو كثير
مجاز ومقروء وإذنا بشرطه *** وكلّ الذي لققه نظما أو نثرا⁵

ومن تصدّر للتّدريس بتونس "محمّد العنّابي" الذي أجاز الكثير من تلاميذه بها⁶.

كما كانت لبعض العلماء مهامّ سياسيّة غير المهامّ العلميّة، والمعلوم أنّ العلاقات بين الإيالتين العثمانيّتين المتجاورتين تونس والجزائر كان يشوبها التوتّر، فقد أوفدت الجزائر بعض العلماء من أجل التوسّط لحلّ الخلافات بينهما، ومنهم الشّيخ "علي بن النيكرو" الذي كان يتمنّع بمكانة كبيرة لدى

¹-التقاريط: ج.م تقريظ ومعناه مدح الحي وصفه، وقرظ فلان إذا مدح كلّ واحد منهما صاحبه، فالتقاريط في المدح، ويستعمل للدلالة على مدح شخص ما لكتاب معيّن، أو لمؤلّفه، أو لهما معا، وهو أسلوب دأب على الأقدمين وسار عليه من جاء بعدهم.

²- لزغم فوزية، العلماء الجزائريون بتونس خلال عهد الدّايات، مرجع سابق، ص 101.

³- أبو رأس النّاصري، مصدر سابق، ص 115.

⁴- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، مرجع سابق، ج2، ص 384.

⁵- أبو العبّاس أحمد المقرّي، مصدر سابق، ص 153.

⁶- صوريّة خصام، العلاقات بين إيالتى الجزائر وتونس خلال القرن 18م، مرجع سابق، ص 18.

الدّاي "علي باشا" (1232هـ-1233هـ)، ولهذا أرفقه بمهمة سياسية في أواخر سنة (1232 هـ-1814م)¹.

ونظرا لقرب منطقة "خنقة سيدي ناجي" من تونس، فقد ذاع صيت بعض علماء المنطقة، كما أنّ بعض هؤلاء العلماء كانوا على صلة بحكامها مثل الشيخ "محمد بن محمد الطيّب الخنقي" وهو من أبرز علماء (بيت بن ناجي) وكان سياسيًا بارعا، لذا تمّ الاعتماد عليه كوسيط بين بايات قسنطينة وبايات تونس، فساهم بدور كبير في تسوية الخلافات بين الإيالتين².

وأما العلامة الفكون الذي تحدّث عنه الدكتور "أبو القاسم سعد الله" أنّه وُجدت بينه وبين علماء تونس مراسلات ثقافية مثل القاضي "إبراهيم الغرياني" والعالم "محمد تاج العارفين"³، كما ارتحل الأديب الرّحالة "أحمد بن عمّار الجزائريين" إلى تونس 1781 م قصد البقاء فيها، حيث ناظر علماء تونس، وألّف عملين بها؛ الأوّل رسالة في التفسير والأدب، والثانية في التاريخ والسيرة حول سيرة وآثار باي تونس⁴، كما قام بإجارة "إبراهيم السيّالة"⁵. وقد قصد الشيخ "محمد العطار" (ت 965هـ-1558م) تونس في تجارة له وأثناء وجوده بالجامع لفت انتباهه نقاش بين إمام ومفتي الزيتونة مع طلبته في مسألة تخصّ بعض العقليّات، فأجاب الشيخ العطار عن المسألة بتلطف فالتفت إليه الشيخ الإمام، ورحّب به واتحفه بالجلوس معه في الحلقة وقال له: "ومثلك إنّما يجلس هنا"، وبرّه غاية المبرّة⁶.

ثمّ أنّ الشيخ "بدر الدّين بن محمد الفكون" الذي كان حيّا بعد (1164هـ-1750م) قام بنسخ نسخة بيده لكتاب "بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان" لصاحبه "حسين خوجة" وهو في تونس سنة (1163هـ-1749م)⁷. كما أنّ الشيخ "علي الجزيري" المتوفّي سنة 1800 م نشأ في خدمة الباي "حسين بن علي" وتقلّد عدّة مناصب منها إدارته "دار الجلد"⁸، كما تولّى الشيخ "أبو العباس أحمد القسنطيني" المتوفّي سنة (1235 هـ- 1820 م) وكالة الجامع الأعظم وهي من الخطط

¹ - أحمد الزّهار، المذكرات، مصدر سابق، ص 146.

² - عبد المنعم القاسمي، أعلام التّصوّف في الجزائر، ص 359.

³ - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلق، مرجع سابق، ص 360.

⁴ - باي تونس آنذاك، كان "الباي علي باشا بن الحسين".

⁵ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، مرجع سابق، ج 2، ص 225.

⁶ - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، مصدر سابق، ص 38.

⁷ - بونشادة عبد اللّطيف، سير أعلام قسنطينة، دار الموعظة، قسنطينة، الجزائر، 2016م، ص ص 91، 92.

⁸ - ابن أبي الضّيّاف، الإتحاف، مصدر سابق، ج 7، ص 37.

النبيهة في الحاضرة آنذاك، وهو الذي وشح رؤوس سواريه بالتّقش¹. ويضاف إلى ذلك الشيخ "حمّودة المقياسي" المتوفّي سنة (1245 هـ - 1829 م)، الذي أقرأ أهل تونس، وطلبوا منه الإقامة عندهم، وقد وعدوه بتوفير كلّ ما يحتاجه، إلاّ أنّه رفض ذلك، وأصرّ على العودة إلى الجزائر².

إنّ من الأدوار التي قام بعض هؤلاء العلماء في تونس كذلك، وتعدّ من أهم الأدوار في نظرنا في عملية الإصلاح الاجتماعي، فهذا الشيخ "عبد العزيز الثميني" (1718 م - 1808 م) وهو من مواليد منطقة واد ميزاب، وقد حفظ القرآن الكريم وأخذ مبادئ العلوم في بلده ليصل بعده إلى تونس ويتّفق مع العالم والشيخ "يحيى بن صالح الأفضل" في جزيرة "جربة" على العمل معا في إصلاح المجتمع وتقويم الأخلاق، ونشر الفضيلة في المنطقة³.

لقد سمح تواجد العلماء الجزائريين في تونس بالتّواصل مع أقرانهم من العلماء بها، فأفادوا واستفادوا ودرّسوا ودرّسوا بها، وتباحثوا مع علمائها في مسائل مختلفة من فقه وعقيدة ولغة وعلم وكلام، وغيرها من العلوم، وأجازوا واستجازوا وتبادلوا معهم التّقاريط، وأقاموا المناظرات العلميّة وغيرها، وهو ممّا لا شكّ فيه يؤدّي ذلك إلى أنّ كلّ منهم قد أثر في الآخر.

ولا ينكر جاحد الدّور الذي قام به هؤلاء العلماء الجزائريون في تونس في مختلف جوانب الحياة السّياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، وخاصّة الحياة الثقافيّة والعلمية، وكان لهذا الدّور تأثير كبير في الحياة العامّة في تونس خلال الفترة الحديثة أي خلال التّواجد العثماني في المنطقة.

ثانيا- الزّيارات المتبادلة بين علماء الإيالتين، ونشاطهم العلمي والثقافية :

إنّ من أهمّ مظاهر التّواصل العلمي والثقافي بين الإيالتين الجزائر وتونس خلال مرحلة محلّ الدّراسة كانت قضيّة انتقال علماء الجزائر إلى تونس، وكذا الزّيارات المتبادلة من هؤلاء العلماء، ولعلّ هذه الزّيارات كانت عبارة عن هجرة مؤقتة أو مرورا عابرا إلى مناطق أخرى من العالم، لأحد علماء الجزائر، نظرا لأسباب كثيرة، وأهمّها ما يتعلّق بالعامل الجغرافي، ونعني به الوحدة الطبيعيّة، وكذلك

¹ - نفس المرجع، ص، 119.

² - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص 146.

³ - على إثر ما قام به هذا الشيخ أعترف له بالإمامة العلميّة والمشیخة، وأصبح رئيسا للمجلس الذي كان يعتبر السّلطة العليا في منطقة ميزاب بعد عودته، ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج2، ص 75.

العامل الاجتماعي المتعلق بعلاقة الترابط والتصاهر الاجتماعي¹، ومنها ما يتعلّق بالعامل السياسي والثقافي، إذ نجد أنّ أوضاع العلم والثقافة فيها أفضل وأكثر اهتماماً بالعلوم، وأنّ أوضاع الجزائر وحالها أقلّ وأضعف في العالم مقارنة بإيالة تونس، كما أنّ سياسة حكّامها كانت عاملاً مهماً في استقطاب العلماء وطلبة العلم خاصّة من الجزائر بفضل دعم الحركة العلميّة والأدبيّة في البلاد والاهتمام بالمراكز العلميّة بناء وترميماً وتجديداً وتسييراً، وإعطاء أهل العلم مكانتهم ومنحهم الامتيازات المختلفة، وحضور مجالسهم العلميّة².

أ- زيارات علماء الجزائر لتونس: لقد كانت الزيارات العلميّة المتبادلة بين علماء الإيالتين من الأمثلة الحيّة عن التّواصل الفكري ومورداً لنهل العلم والتّحصيل، والتّدرّيس، والإجازة، وما نتج عن هذه الزيارات من حوار فكري ومناظرات علميّة، كما كانت صورة واضحة عن إسهاماتهم في التّطور الفكري والعلمي والثقافي عموماً في المنطقة خلال هذه المرحلة محلّ الدّراسة.

والمعلوم أنّ الإيالة التّونسيّة كانت معبراً يعبره العلماء الجزائريون في رحلتهم لتأدية فريضة الحجّ، فكثيراً ما كانت تستغلّ هذه السّفرة في المناقشات والمساءلات العلميّة في مختلف المواضيع، وكان هؤلاء العلماء كذلك يصفون رحلاتهم في مختلف مناطق هذه الإيالة ومساجدها والزّوايا التي توجد في مختلف مدنها ومناطقها، وأهمّ العلماء والفقهاء الذين تمّ الالتقاء بهم، ويمكن أن نذكر من هؤلاء العلماء الذين دوّنوا رحلاتهم وزيارتهم، والتي أصبحت اليوم من أهمّ المصادر لكتابة تاريخ هذه المرحلة منهم:

- أبو رأس النّاصري محمّد بن أحمد: ورحلته الموسومة بـ "فتح الإله ومنته في التّحدّث بفرض ربّي ونعمته"³، والتي ذكر فيها أحوال تونس والتّقائه بعدد العلماء، ومن ذلك شيخ الإسلام "محمّد بيرم"، كما انضمّ إلى المجالس العلميّة التي كانت تنشط في مدينة تونس⁴.

¹ - ظاهرة المصاهرة القائمة بين سكّان هاتين الإيالتين، تظهر كذلك مدى الترابط القائم بينهما، الذي تبيّن بفعل رابطة الدّم امتزجت بين سكّان الحدود خصوصاً، حيث نجد أسر وعائلات وعروش ذات الأصل الواحد تنتشر في البلدين مثل: "أولاد يعقوب" و "أولاد مومن" و "أولاد رضوان" و "أولاد سيدي عبيد" و "بنو سليم" وغيرها، وقد قدّم للشيخ "إبراهيم العوامل" نماذج وشروحا حول علاقات المصاهرة، ومدى الترابط الأسري والعائلي بين سكّان المناطق الحدوديّة مثل: وادي سوف، ينظر: إبراهيم العوامر، الصّروف في تاريخ الصّحراء وسوف.

2- يوسف الطيّب، العلاقات العلميّة بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص ص 138، 139.

3- هو أبو حفص عمر الشّيخ الإمام العلامة قاضي الجماعة، أخذ عن والده الشّيخ "فاسم الحبوب المساكني" وعن الشّيخ "حمّودة بن عبد العزيز" وغيرهم.

4- عائشة محمّة، التّواصل الثقافي: مرجع سابق، ص ص 261، 262.

-الشيخ الحسين بن محمد الورتيلاني: ورحلته الموسومة بـ "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، والتي ذكر فيها الكثير من مدن ومناطق تونس ووصف تربتها ونباتاتها وخصائص سكّانها وحال العلم والعلماء فيها، وحتى بعض مناظراته مع أهل العلم، كما ذكر زيارته للجوامع والزوايا ولأهل الفضل والعلم من أهل تونس¹، وقد قام كمؤرخ بوصف دقيق للأماكن التي زارها والشخصيات التي لقيها².

ورغم تردّي العلاقات السياسيّة بين الإيالتين في بعض الأحيان بسبب مشكلة ترسيم الحدود والحروب الدائرة بينهما أحيانا، إلا أنّ ذلك لم يؤثّر في حركة انتقال الأفراد والجماعات نحو تونس، واستقرار العلماء فيها، أو الزيارات المتبادلة بينهما، ويشكّل انتقال العلماء من الجزائر نحو تونس مظهرا آخر من مظاهر التّواصل التّقافي بينهما، وتبيّن عدم اكتفاء هؤلاء من العلوم والمعارف التي نالوها في بلادهم، وإثّما فضّلوا الانتقال نحو البلاد المجاور للالتقاء بعلمائه والاستفادة منهم، وعلينا أن نتميّر بين صنفين من العلماء وطلبة العلم فمنهم من فضّل البقاء في تونس والاندماج في علمائها، ومنهم من فضّل الهجرة المؤقتة إلى البلاد التّونسيّة للاستزادة العلميّة، ثمّ العودة إلى الجزائر، ومنهم من كانت تونس ممراّ عبروا منها نحو بلاد المشرق³، ومن ذلك نذكر بعض هؤلاء:

• أبو القاسم بن محمد البجائي: وهو من فقهاء الحنفيّة ومحدّثيهم، قضى فترة كبيرة في مدينة تونس وأخذ من علمائها، وكان فقيها محدّثا ورعا، عمل خطيبا في أحد الجوامع المشهورة وهو المعروف بجامع "الخطبة" خارج باب الجزيرة، ألف كتبًا عدّة ومنها "شرح على الخرجية"⁴

• أبو مهدي عيسى الثّعالي: هو فقيه ومحدّث مالكي، قام برحلة إلى تونس وأخذها عن علمائها، ثمّ توجه إلى المشرق وحجّ ليستقرّ في مكّة مدّة من الزمن، أين أخذ العلم عن بعض علمائها، ثمّ عاد إلى

1- ينظر: الورتيلاني، نزهة الأنظار، مصدر سابق، ج1، ص ص 120، 130.

2- عائشة دباح، "الرحلة العلميّة وتأثيرها على الوضع التّقافي في الجزائر في عهد الدّايات"، مجلة فضايا تاريخيّة، العدد 08، 2017، ص 54.

3- عائشة محمّة، التّواصل التّقافي، مرجع سابق، ص ص 244، 251.

4- حسين خوجة، بشائر أهل الإيمان، مصدر سابق، ص 91.

مصر وأخذ من علمائها أيضا، ثم بعدها عاد إلى مكة ثانية واستقرّ بها حتى توفّي هناك¹.

• أبو زكريا يحيى بن صالح: ولد سنة 1126هـ / 1714م من العلماء الأعلام في منطقة ميزاب، وهو المعروف بـ "عمّي يحيى"، وهو أحد كبار العلماء والمشايخ والفقهاء، توجه نحو تونس واستقرّ في جزيرة جربة ومكث بها مدّة، انشغل بطلب العلم والاستزادة منه، ثمّ رحل إلى مصر أين لازم دروس "المدرسة الإباضيّة"²، ودروس بالجامع الأزهر ليعود إلى موطنه الأصلي بمنطقة "ميزاب" إلى أن توفّي بها في 25 رجب 1202هـ - 1 ماي 1788م³.

ب - زيارات علماء تونس إلى الجزائر: ومع كثرة زيارات العلماء الجزائريين إلى تونس، ومثانة العلاقة بينهم وبين أقرانهم في تونس، إلا أنّ زيارة العلماء التونسيين إلى الجزائر كانت قليلة نسبيا، ويعود ذلك إلى اكتفائهم بما يأخذونه عن علمائهم، لاسيما في جامع الزيتونة، وإذا أرادوا الاستزادة العلميّة توجهوا نحو المشرق (مصر خصوصا) فلم تكن الجزائر تقدّم لهم شيئا ممّا كانوا يطلبونه من العلم.⁴

والمؤكّد أنّ كثير من علماء تونس شدّدوا رحالهم إلى المغرب الأقصى، وسواء كانت رحلتهم برا أو بحرا، فإنّ العديد منهم كانوا يفضّل التوقّف ببعض المدن الجزائريّة للراحة أو لزيارة الأولياء الصالحين والاتّصال بالعلماء في هذه الديار⁵، والبعض من هؤلاء العلماء التونسيين، وخاصة من كان منهم على المذهب الحنفي، لم تكن لهم نقطة عبور فقط، بل أصبحت مكانا لطلب العلم أو الحصول حتّى على وظيفة، وهذا يعود للتشابه النسبي في النّظم السياسيّة بين الإيالتين العثمانيّتين، لذا فقد ورد على الجزائر خلال مرحلة محلّ الدّراسة بعض العلماء والقضاة الحنفيّة من تونس، ومن ذلك نذكر الشّيخ "إبراهيم بن حاجي علي"، فقد وفد على الجزائر نهاية ق 10هـ - 16م، والأمر كذلك يتعلّق بالشّيخ "أبو الطيّب الخطيب أمير محمّد"، ونظرا لمكانتهم العلميّة الرّفيعة والعالية فقد صدر قرار من الباب العالي

1 - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 91.

2 - نفس المرجع، ص 253، 259.

3 إبراهيم بن بكير بحاز وآخرون، معجم أعلام الإباضيّة من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، المطبعة العربيّة، ط1، غرداية - الجزائر، 1999، ج1، ص 460.

4 - لزغم فوزية، الإجازات العلميّة لعلماء الجزائر العثمانيّة، مرجع سابق، ص 174.

5 - دلندة الأرقش، جمال بن الطاهر: المغرب الحديث من خلال مصادره، مرجع سابق، ص 301.

وصل إلى حاكم الجزائر يدعوه فيه إلى ضرورة التّكفّل بمؤلاء العلماء، وتوفير كلّ ما يحتاجونه من دعم مادّي ومعنوي، بحيث تمّ تخصيص وظيفة بمقدار 15 أفجة يوميًا لهما، يتصرّفون بها بموجب هذا القرار¹.

وهذا الشّيخ "محمد بن علي الخروبي الصّفاقي"² الذي وفد على الجزائر خلال نفس الفترة، حيث مارس وظيفة التّدريس والخطابة في الجزائر، وهو من أهل الحديث والفقّه، كما كان له دورا في السّفارة بين السّلطة في الجزائر والسّلطة في المغرب الأقصى أيّام "أبي عبد الله المهدي الشّريف الحسني"³.

ومن العلماء الذين طرّقوا أبواب الجزائر كذلك نجد الشّيخ "أبو سليم داوود بن إبراهيم التّلاتلي الجري الإباضي" (ت 967هـ-1560م) العالم المحقّق الإباضي المذهب ارتحل في طلب العلم إلى مناطق عدّة ومنها مصر، انتصب للتّدريس والوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جزيرة "جربة" بتونس، والتفّ حوله سكّان الجزيرة، وفي سنة 961هـ-1554م زار منطقة "ميزاب" وأخذ هناك عن العلامة "أبي مهدي عيسى بن إسماعيل"، ثمّ عاد إلى "جربة" واستقرّ بها ليتّم سجنه من طرف "درغوث باشا" حاكم طرابلس وبعدها تمّ قتله بتهمة تحريض الأهالي ضدّ هذا الحاكم، وكان ذلك سنة 967هـ-1560م، وكان من أهمّ آثاره:

- شرح عقيدة التّوحيد
- شرح متن الأجروميّة
- سفر في رثاء بعض أشياخه⁴

1- يوسف الطيّب، العلاقات العلميّة بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص156.
2- هو أبو عبد الله بن محمد بن علي الخروبي، كان من أهل الحديث والفقّه والتّصوّف وخطيبا، كان جماعا للكتب، توفّي بالجزائر بسبب الوفاء، ينظر: أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف، مرجع سابق، ج2، ص 484.
3- يوسف الطيّب، العلاقات العلميّة بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص163.
4- محمد محفوظ، تراجم المؤلّفين التّونسيين، ج2، مرجع سابق، ص ص 177، 180.

كما قَدِمَ إلى الجزائر أيضا "أبو إسحاق إبراهيم الجَمَني" (1037هـ-1628م / 1134هـ - 1722م)، وهو "إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم" ولد في قرية "جَمَنة" فهو بذلك ينسب لها فيقال له "الجَمَني"، ينتمي إلى أسرة علم ودين وفقه، حيث كان والده من علماء المنطقة، رحل هذا الشَّيخ إلى الجزائر واستقرَّ بمنطقة "خنقة سيدي ناجي"، وأخذ العلم عن الشَّيخ "سيدي عبد الله بلقاسم الجلابي"، ثمَّ ارتحل إلى بلاد "زواوة" لطلب العلم أيضا¹، حيث اهل العلم من شيوخ المنطقة مثل "الشَّيخ محمَّد السَّعدي" "والشَّيخ محمَّد المغربي" "والشَّيخ أبو القاسم القاضي"، ثمَّ رحل إلى مناطق عدَّة للاستزادة العلميَّة ومنها مصر، ثمَّ استقرَّ به الحال في جزيرة "جربة"، واستمرَّ في تلقين الدروس للطلبة إلى أن وافته المنية، وكان من أهمَّ آثاره العلميَّة شرح مختصر خليل (لم يكمله)².

ومن العلماء التُّونسيين الذين وفدوا إلى الجزائر نجد كذلك "أحمد بن مصطفى بن محمَّد" المشهور والمعروف بـ "قارة خوجة" ويعرف أيضا بـ "ابن برناز" وتعني بالتركية (صاحب الأنف الكبير) عالم حنفي المذهب، وهو من سلالة العثمانيين المستقرِّين في تونس، جاء إلى الجزائر كذلك للاستزادة العلميَّة، حيث قصد قسنطينة وأخذ عن مفتي هذه المدينة الشَّيخ "بركات بن باديس"، الشَّيخ 'علي الكمَّاد"، وتوجَّه كذلك إلى بلاد زواوة، فدرس عن الشَّيخ "محمَّد الفاسي" والشَّيخ "محمَّد صولة" وغيرهما، ثمَّ عاد إلى وطنه وتولَّى الإمامة والخطابة بالجامع المقابل لمقام "سيدي محرز" عام 1725م، وتدريس الحديث النَّبوي بجامع الزَّيتونة، له عدَّة آثار نذكر منها:

● أعلام الأعيان بتخفيفات على العبيد والصَّبيان.

● تزيين القرَّة بمحاسن الدرَّة في القراءات الثَّلاث³.

كما جاء من تونس علماء آخرون لطلب العلم وإجراء مناظرات علميَّة، وتولَّى البعض منهم مناصب عالية في الحكم، ومن ذلك الشَّيخ "أبو حفص بن محمَّد" الذي تولَّى قضاء العسكر في عهد

1- حسن خوجة، ذيل بشائر الإيمان، مصدر سابق، ص ص 37-39.

2- محمَّد محفوظ، تراجم المؤلِّفين التُّونسيين، ج2، مرجع سابق، ص ص 56، 58.

3- حسن خوجة، ذيل بشائر الإيمان، مصدر سابق، ص ص 140، 143.

الدّاي "محمد بكداش"¹، ووفد على الجزائر الشيخ "محمد زيتونة التونسي" بطلب من "الدّاي محمد بكداش" لاستشارة في أمور الحكم². وهذا الشيخ العالم "محمد الشّافعي الباجي" الذي استقرّ في الجزائر مدّة طويلة يقدم العلم ويؤلّف، إضافة إلى الشيخ "أحمد الأصرم القيرواني"، وأثناء استقرارهما في الجزائر عملا في خطة الإنشاء³.

من خلال ما رصدناه لحركة العلماء وطلبة العلم بين الإيالتين خلال فترة محلّ الدّراسة، يمكن تسجيل ملاحظة مهمّة، وهي أنّ الوافدين من تونس نحو الجزائر أقلّ بكثير من عدد الجزائريين الذين تردّدوا على تونس، وربّما يعود ذلك لعدّة أسباب وعوامل أهمّها:

1- عدم وجود مراكز كبيرة في إيالة الجزائر تضاهي "جامع القرويين" بالمغرب الأقصى، أو "جامع الأزهر" في مصر، أو "جامع الزيتونة" في تونس.

2- تقلّبات الوضع السّياسي بين الإيالتين، وقيام اضطرابات سياسية، وصارت الحالة الأمنية صعبة للغاية.

3- اعتبار الإيالة التّونسيّة منطقة عبور نحو بلاد المشرق، ممّا يجعلها (تونس) محطة للاستزادة العلميّة. لقد عرفت هجرة العلماء والطلّبة الجزائريين إلى تونس نشاطا بارزا خلال العهد العثماني ويعود ذلك لدوافع عديدة منها ما هو تعليمي (علمي)، ومنها ما هو سياسي واجتماعي دفعت برجال العلم وطلّبتهم بالهجرة نحو تونس، إمّا لأخذ العلم أو لمجرّد الزيارة للعلماء والتّعرّف عليهم وتبادل الأفكار والآراء والكتب معهم، وكان أكثرها للاستزادة العلميّة.

ج - تبادل الاجازات العلميّة: إنّ من الغايات التي يعمل طلّاب العلم، وحتّى العلماء على تحقيقها في رحلاتهم العلميّة، هي الاستزادة من العلم والمعرفة، وحتّى الحصول على الإجازة العلميّة التي تعتبر من أحد أهمّ الأهداف التي يسعى لها طلبة العلم من قبل "الشيخ" أو "العالم" في البلاد التي يقصدونها،

1- صوريّة خصام، العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن 18م، مرجع سابق، ص 20.

2- حسن خوجة، ذيل بشائر الإيمان، مصدر سابق، ص 132، 140.

3- أحمد بن أبي الضّيّاف، الإتحاف، مصدر سابق، ج7، ص 51.

وكلّ طالب لها وبعد الحصول عليها يصبح بإمكانه تلقين المعارف التي ورثها من شيخه، ويكون ما رواه موثوقا به.

الإجازة مصدر وأصلها جواز، وهي مشتقة من الفعل جَوَّز، وجاز وجوزا، وجاوزه جوازا، أي سار فيه وخلفه، والمجتاز هو السالك، وأجاز رأيه أي أنفذه، والمجاز الطّريق إذا قطع من أحد جانبيه إلى الآخر¹.

ومصطلح الإجازة يختلف باختلاف مفهومها وحسب استعمالها، فهناك؛ الإجازة في الشعر، والإجازة الصّوفيّة، والإجازة الأدبية التي تستعمل حينما تكون المادّة المجاز فيها هي الأدب العربي، وهناك الإجازة العلميّة.

والإجازة اصطلاحا هي الإذن والتّسويغ، وهي إذن ورخصة تتضمّن المادّة العلميّة الصّادرة من أجلها يمنحها الشّيخ لمن يبيح له رواية المادّة المذكورة فيها عنه، والإجازة بذلك تكون بهذا المعنى طريقة من طرق نقل الحديث، وتحمله من الشّيخ إلى من أباح له نقل الحديث عنه².

كما أنّ الإجازة هي: "إذن من شيخ لطالب علم، أو لعالم آخر في رواية الحديث الشّريف أو الفقه أو التّاريخ أو غيرها من العلوم، وهي بذلك إذن بتوليّ منصب للتّدريس أو الإفتاء أو غيرها"³. وهي بمثابة الشهادة العلمية في زماننا التي تخول لصاحبها تولي المناصب والمسؤوليات.

وحثّى يصل الطالب لهذه المرحلة ويحصل على هذه الإجازة وجب عليه مجالسة العلماء مدّة طويلة يثبت من خلالها جدارته في الحصول على الإجازة التي تصبح بيانا يثبت بها أنّه درس على علماء أجلاء، وأنّه أتقن أصنافا من العلوم، وبالجملة في الاجازات هي شهادة على الكفاءة العلميّة التي تسمح لحاملها حقّ الرّواية وتلقين العلوم والمعارف أو التّدريس والخطابة والإفتاء والقضاء⁴.

1- مجد الدّين بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيظ، تح: محمّد نعيم العرقوسي، مؤسّسة الرسالة، ط8، بيروت، 2005م، ص: 506.

2- عبد الله فيّاض، الإجازات العلميّة عند المسلمين، مطبعة الإرشاد، ط1، بغداد، 1967م، ص 21.

3- لزغم فوزية، الإجازات العلميّة لعلماء الجزائر العثمانيّة، مرجع سابق، ص 15، 18.

4- مولاي بالحيمس، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ارجع سابق، ص 34.

تمنح الإجازة لطالبيها بطريقتين؛ الأولى عن طريق المشافهة، والثانية عن طريق التحرير، وهذه الأخيرة هي الأحدث، والإجازة كثيرا ما تعطي لنا صورة عن القرارات والعلوم التي كانت تعتمد آنذاك، وأهم المعارف المحصّل عليها، ويحدّد له المستوى الذي بلغه المجاز، وأهم رحلاته في طلب العلم وأماكن ترحاله، ثمّ تحتّم بجملة من النّصائح والمواعظ التي يقدمها الشّيخ لطالبيه لتكون له عوناً تمكّنه من الارتقاء في سلّم طالب العلم¹.

إنّ الإجازة العلميّة تعتبر "شهادة كفاءة" أو "تأهيل" تمكّن المجاز من منح لقب "الشّيخ" أو "الأستاذ" في العلوم المجاز بها، فإنّها بمرور الوقت أصبحت لا تعني كلّ هذا، والسبب تساهل المجيزين في منحها، فلم يعد هناك تحقّق من المجازين في كفاءتهم ودراساتهم، ولا من سلوكهم أو من أخلاقهم، وقد نتج عن هذا كلّ ضعف مستوى التّعليم، لأنّ المجازين أصبحوا يتصدّرون للتّدريس ويمنحون الإجازات لغيرهم في علوم وكتب لم يدرسوها هم أصلا².

منحت الإجازة لبعض علماء الجزائر من طرف علماء مسلمين، كما أجاز بعض علماء الجزائر غيرهم من طلبة العلم، ومن ذلك الإجازة التي منحها "أديب العلماء وعالم الأدباء"، كما يلقّب الشّيخ والعالم "محمد بن عبد المؤمن" للشّيخ "ابن زاكور الفاسي" المغربي، وقد أجازته بعد اعتذار الشّيخ "ابن عبد المؤمن" لعدم أهليته³، كما قال الشّيخ عن نفسه، وهو ما يعتبر تواضع وأدب كان يحظى به الشّيخ.

كما أجاز الشّيخ "محمد بن سعيد قدّورة" الشّيخ "ابن زاكور الفاسي" إجازة مطلقة عامّة ومما جاء فيها "... في جميع مقروءاتي معقولا ومنقولا توحيدا ونحوا"، أمّا عن طلبة العلم التّونسيين فقد أجاز الشّيخ "محمد بن عمّار" تلميذه "إبراهيم السيّالة التّونسي"، وأجاز كذلك الشّيخ "ابن العنّابي" تلميذه "محمد بيرم".

1- عائشة محمّة، التّواصل التّقافي: مرجع سابق، ص 223.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر التّقافي، مرجع سابق، ج 2، ص 39، 40.

3- ينظر: نصّ الإجازة في كتاب رحلة "ابن زاكور الفاسي"، مصدر سابق، ص 62، 69.

أمّا علماء الجزائر وطلبة العلم منهم فقد منحت لبعض هؤلاء من علماء المسلمين في بلاد المشرق وبلاد المغرب فهي كثيرة، وقد تضمّنت معظمها العلوم كلّها، ولم تكن خاصّة بعلم الحديث وحده، فكان تتضمّن معظمها كلّ العلوم ولم تكن خاصّة بعلم الحديث وحده، وكانت أحيانا تتناول الفقه والتّوحيد والتّصوّف¹.

إن تبادل الإجازات العلميّة بين علماء الإيالتين يعتبر مظهرا من مظاهر التّواصل التّقافي للعهد العثماني، غير أنّ كتب التّراجم والسّير حفظت عددا قليلا منهما، وقد طلب بعض علماء تونس إجازات من علماء جزائريين عند مرورهم واستقرارهم بالأراضي التّونسيّة طيلة العهد العثماني، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على قيمة علماء الجزائر وانتشار صيتهم، فهذا الشّيخ "أحمد المقرّي" لم تكن صلته بعلماء تونس كبيرة مقارنة بتواصله مع علماء المغرب الأقصى، وهو ما جعل عدد العلماء الذين أجازهم في تونس قليل، حيث في رحلته إلى المشرق سنة (1028هـ-1618م) نزل مدينة سوسة واستقرّ بها مدّة فاستجاز من مدينة تونس مكاتبه الشّيخ "محمد تاج العارفين"²، وهو من كبار علماء تونس في ذلك الوقت، ثمّ حضر إلى الشّيخ "المقرّي" بمدينة سوسة، فنظّم له إجازة في خلال ثلاثة وأربعين بيتا منها:

أجزتك تاج العارفين جميع ما رويت *** عن أعلام الهدى قلّ أو كثرا

مجازا ومقروءا وإذنا بشرطه *** وكلّ الذي لفقته نظما أو نثرا

كما أجاز الشّيخ "المقرّي" أيضا الشّيخ "أبو القاسم بن جمال الدّين المسراتي القيرواني" جميع مؤلفاته ومروياته في قصيدة نظمها له في ثمانية أبيات³.

وهذا الشّيخ "عيسى التّعالبي" وفي أثناء رحلته إلى المشرق نزل الشّيخ مدينة تونس وجلس

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر التّقافي، مرجع سابق، ج2، ص ص 42-49.

2- هو أوّل من تولّى الإمامة بجامع الزيتونة، قرأ على يد الشّيخ "أبي يحيى الرّصاع"، وقد قال عنه "ابن أبي دينار" في كتابه "المؤنس" ما يلي: (ولم يكن بالدّيار التّونسيّة من يوم حلّ بها العسكر العثماني من تعاطي الزّواية والدّراية، إلّا الشّيخ أبو عبد الله محمد تاج العارفين العثماني وكان مجلسه من أجل المجالس). المؤنس، مصدر سابق، ص 317.

3- لزغم فوزية، الإجازات العلميّة، مرجع سابق، ص ص 197، 198.

مع كبار علمائها، مثل الشيخ "أبو بكر بن الشيخ تاج العارفين البكري" (ت 1072هـ) وأخذ عنه وأجازه بعض العلماء، وقد يكون الشيخ "أبو بكر" منهم¹.

أمّا الشيخ "يحيى الشاوي" وخلال تصدّره التدريس في بلاد المشرق (مصر)، فقد أجاز الشيخ "أبو الحسن علي التّوري الصفاقسي"².

أمّا الشيخ "محمّد بن محمود العنّابي" فقد أجاز بعض علماء تونس الذين لجأوا إليه، حيث جمعتهم بهم علاقات وديّة ومودّة كبيرة عندما كان الشيخ "العنّابي" يتردّد على بلاد المشرق ولا سيما علماء أسرة "بيرم"³، ومن ذلك إجازته للشيخ "محمّد بيرم الزّابع"⁴ مرّتين، إحداهما صوفيّة مشافهة بالأحزاب الشاذليّة، والأخرى إجازة علميّة كتابية عدّد فيها طرق تلقّيه للحديث الشّريف والفقّه، وما جاء في إجازته له قوله: "نعم، أجزت للشّاب الأديب الفاضل السيّد محمّد بن شيخ الإسلام محمّد بكر ما تجوز عني روايته"، وقد ختم إجازته هذه له بقوله: "منتظر لطف الودود عبده محمّد ابن محمود سنة 1232 هـ"، وهذا التاريخ هو الذي يوجد دائماً في ختمه الخاصّ به لما كان في منصبه متولّيّاً لقضاء الحنفيّة في الجزائر، لكن إجازته له ربّما إمّا تكون أثناء حجّته سنة 1236 هـ، وقد استقرّ في مصر لمُدّة، ثمّ أثناء عودته للجزائر حلّ بتونس بين سنتي (1244هـ-1245هـ/1828م-1829م) وأثناء نزوله بها أحاط به العلماء وأشادوا به ونوّهوا بعلمه، وأكرمه باي تونس آنذاك⁵.

1- نفس المرجع، ص 202، 203.

2- هو الشيخ "علي بن سالم بن محمّد بن سالم بن أحمد بن سعيد"، من أجل أعيان فضلاء وعلماء مدينة صفاقس، كان -رحمه الله- ثقة عمدة في علوم الدّين، من حديث وتفسير، وفقه، وأصول الدّين، وأصول الفقّه وغيرها، من مؤلّفاته "غيث النّفع" و "تنبيه الغافلين"، توفيّ الشيخ بمرض الشّقّ سنة 1117 هـ - 1706 م، ينظر: نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار، محمود مقيديش، مصدر سابق، ص: 358، 368.

3- وهي أسرة تركيّة الأصل، دخل أوّل أفرادها تونس أثناء الفتح العثماني لها، وقد أنجبت هذه الأسرة العديد من العلماء الذين توارثوا الخطط الدّينيّة الرّفيعة، وفي مقدّماتها القضاء والإفتاء الحنفيين، ينظر: كتاب العمر لحسن حسني عبد الوهاب، ط1، 1990، ج2.

4- محمّد بيرم الزّابع: ولد سنة 1220 هـ - 1805 م، نشأ نشأة علميّة، وتصدّر للتدريس والفتوى، تولّى الخطابة في جامع صاحب الطّابع، والجامع اليوسفي، وهو أوّل من لقّب بـ "شيخ الإسلام" في تونس، سمّاه الأمير "أحمد باشا"، وكان الأمير يقربّه ويستشيرّه.

5- لزغم فوزية، الإجازات العلميّة لعلماء الجزائر العثمانيّة، مرجع سابق، ص 250، 251.

لقد أجاز كذلك الشيخ "أحمد زروق"¹ وهو نجل الشيخ "أحمد قاسم البوني" الشيخ محمد بوعتور² إجازة مطوّلة بقوله: "وأقول الفاضل أبا عبد الله المذكور وأجزت الفاضل جميع ما تحوز لي وعن روايته من مقروء ومسموع ومعقول ومنقول، وأصول وفروع كالموطأ والكتب السنّة وغيرها من الجوامع والمسانيد"، وكان ذلك سنة 1159هـ³.

كما أنّ الشيخ "أحمد بن عمّار الجزائري" وأثناء إقامته بتونس اتّصل بعدديد علمائها وتبادل معهم الإجازات والتّقاريط، ومن أشهر تلاميذه الشيخ "إبراهيم السّيّالة" والذي أجازته سنة 1204هـ-1789م، الذي جمع ثبتا في أسانيد شيخه سماه بـ "منتخب الأسانيد"⁴.

كما طلب "أبو رأس الناصري" الإجازة من الشيخ "عبد الله السنوسي التونسي"، وذلك أثناء إقامته بتونس سنة 1205هـ، وكان من جملة ما قاله لشيخه: "أحببت أن أكون من تلامذتك الرّاغبين في إجازتك، وإن لم أكن لذلك أهلا، كي تمبّ عليّ نفحاتكم وسنا بركاتكم..."، وقد أجازته في جميع ما يتعلّق بالعلوم الدّينيّة وأصولها، وكتب له بخطّ يده تلك الإجازة⁵.

وهذا الشيخ "ابن العنّابي" وخلال إقامته بتونس، وقد أشاد علماء تونس ونوّهوا بعلمه، كما أكرمه باي تونس وأحاطه بالتبجيل والتّعظيم، طلب العديد من علماء تونس منه الإجازة ومنهم الشيخ "مصطفى بيرم" الذي استدعاه. بقصيدة تتكوّن من أربعة عشرة بيتا تضمّنت طلب الإجازة منه، حيث قال:

فكم طابت الخضراء نشرا وبهجة *** وكلّ إناء بالذي فيه راسح

ولست الذي يراد بالمدح قدره *** فقدرك معلوم ومجدك واضح

1- أحمد زروق: يعتبر "أحمد زروق بن أحمد بن قاسم البوني" أحد علماء القرن 12هـ/18م، وقد أجاز كثير من العلماء، منهم الحسين الورتيلاني.

2- محمد بوعتور: من كبار علماء تونس، وهو والد الوزير الأكبر "محمد العزيز بوعتور" في عهد الحماية الفرنسيّة على تونس.

3- يوسف الطيّب، العلاقات العلميّة بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص 163.

4- عبد الحي الكتاني، فارس الفهارس والإثبات، ت: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط2، ج2.

5- أبو رأس الناصري، فتح الإله ومثته: مصدر سابق، ص ص 50، 51.

وأطلب من عليك نيل إجازة *** بفضلك لا إنيّ لذلك صالح¹

وقد لبى الشيخ "ابن العنّابي" طلب الشيخ "مصطفى بيم" لحرصه على نشر سلسلة السّند، وكان يجيزه كلّ من يطلبه².

وأما عن علماء تونس الذين أجازوا علماء الجزائر والذين قصدوا تونس خلال الفترة محلّ الدّراسة أي الفترة الحديثة، وهذه الإجازة سواء كانت أثناء طريقهم إلى المشرق وخاصة إلى البقاع المقدّسة لأداء مناسك الحجّ، أو حتّى لطلب العلم في حواضر تونس ومراكزها العلميّة، خصوصا جامع الزّيتونة وللاحتكاك بعلماء الإيالة التّونسيّة وتبادل المعارف معهم، ومن ذلك فقط أجاز كلاً من القاضي "محمد بن محمد بن إبراهيم بن عقاب الخدّامي التّونسي" والشيخ "أبو عبد الله بن أبي الرّبيع الجيزي التّونسي" أجاز الشيخ "الكفيف التلمساني" (ت 901هـ) أثناء إقامته بتونس³، وهذا الشيخ "أبو الغيث" المعروف بـ "القشّاش التّونسي" (ت 1031هـ)⁴ فإنّه أجاز الشيخ "محمد بن عبد الكريم الجزائري" الذي رحل إلى المشرق وأثناء مروره بتونس درس عند هذا الشيخ وأجازه⁵.

كما أجاز الشيخ "عيسى الثّعالي" وقد أثنى عليه كبار علماء تونس منهم الشيخ "أبي بكر بن الشيخ تاج العارفين" المتوفى 1072هـ، وكان الشيخ "الثّعالي" آنذاك في رحلة إلى المشرق، وقد نزل في تونس فاستغلّ ذلك وطلب الإجازة، وفي ذلك قال عنه "محمد مخلوف": "وأجازوه وأثنوا عليه بما هو أهله"⁶.

إنّ قرب تونس من مصر، حيث الجامع الأزهر أدّى بعلماء تونس الرّاغبين في الاستزادة العلميّة

1- أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنّابي، رائد التّجديد الإسلامي (1775-1850)، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1977، ص 129.

2- لزغم فوزية، الإجازات العلميّة لعلماء الجزائر العثمانيّة، مرجع سابق، ص 251.

3- يوسف الطيّب، العلاقات العلميّة بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص 164.

4- سبقّت ترجمة هذا الشيخ.

5- الجبرتي عبد الرّحمان بن حسن، عجائب الآثار في التّراجم والاختبار، تح: عبد الرّحيم عبد الرّحمان عبد الرّحيم، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ص 85.

6- مُجد مخلوف، شجرة التّور الرّكيّة، مرجع سابق، ص 311، 312.

يلتجؤون إليها وإلى جامع الأزهر، فيأخذون عن علماء مصر، وعن العلماء الوافدين إليها من أقطار العالم الإسلامي الأخرى، كما أنّ الجزائر لم تكن تقدّم لعلماء تونس أكثر من بلادهم لتطوّر حلق العلم ومستوى العلماء عندهم نتيجة لجهود حكّامها في مجال العلم من خلال تشييد المدارس والمساجد والزوايا العلميّة، وأموال الأوقاف التي أوقفها هؤلاء الحكّام على العلماء وتشجيعهم بتقديم الأجور والرواتب.

إنّ تبادل الإجازات العلميّة بين علماء الإيالتين مظهر آخر من مظاهر التّواصل التّقافي بين الإيالتين خلال رحلة محلّ الدّراسة، والتي هي شهادات يمنحها العلماء للطلّبة الذين تلقّوا عنهم أي صنف من أصناف المعرفة، وهذا كلّ لا يتأتّى إلّا من خلال الزّيارات المتبادلة بين العلماء، وخاصّة العلماء الجزائريين الذين استقرّ بعضهم في تونس لفترة أو بصفة نهائيّة، وهم قلّة، وقد لاحظنا أنّ عدد العلماء الجزائريين الذين تمّت إجازاتهم أكثر عدداً من نظرائهم من العلماء التّونسيين الذين تمّت إجازته من طرف العلماء الجزائريين للأسباب السّالفة الذّكر، ولم تكن الزّيارات العلميّة والإجازات المتبادلة مظهراً وحيداً لهذا التّواصل، فقد كانت هناك المناظرات العلميّة ومسائل الإفتاء وغيرها.

د - المناظرات العلميّة بين علماء الإيالتين: لقد كان لكثير من العلماء خلال هذه المرحلة العديد من المؤلّفات العلميّة والشّروحات والاختصارات، وكانت هذه المؤلّفات تتداول بين الإيالات المغاربية (تونس، ليبيا، الجزائر)، وهذه المؤلّفات مسّت جوانب عدّة منها؛ الدينيّة، التاريخيّة، والجغرافيّة، واللّغويّة، ممّا أظهر نوعاً من الحركة التّقديّة لهذه المؤلّفات، وكان ذلك سبباً في ظهور المناظرات العلميّة، والتي كانت من النّشاطات المهمّة للعلماء من خلال المسائلات المختلفة لبعضهم البعض، والعمل على إظهار العالم لصحّة رأيه وإثباته بالدلائل والحجج العلميّة.

وتعتبر المناظرة وسيلة اتّصال بين علماء الإيالتين، وقد أدّت الرّحلات الحجازيّة إلى تحقيق هذا الاتّصال إذ كانت من أهمّ نتائجه تلاقح الأفكار وتبادلها، كما تعتبر المناظرات امتحاناً حقيقيّاً للعالم، فكان كبار العلماء يحضرها ويتمّ فيها تصفية الآراء، وتناقل المجالس المختلفة ما كان في هذه المناظرات،

فتصبح حافزا للعلماء والطلبة للاستزادة العلميّة والمعرفيّة¹، كما أنّها تمثّل مظهرا من مظاهر التّواصل الثقافي، إذا كانت هذه المناظرات بين علماء قطريين متجاوزين مثل الإيالتين الجزائر وتونس، ومن ذلك ما سجّلته كتب الرّحلات والتّراجم عن المناظرات العلميّة التي كانت بين علماء الجزائر خلال الفترة مرحلة الدّراسة:

المناظرة التّحويّة التي كانت بين الشّيخ "إبراهيم الفلّاري التّونسي" 2 والشّيخ "عبد الكريم الفكّون" والشّيخ "الفلّاري" كان مدرّسا أستاذا في جامع الزيتونة. وكان هذا الشّيخ يتردّد عن مدينة قسنطينة، وقد استفزّ الشّيخ "الفكّون" في إحدى الجلسات بسؤاله عن قضية نحيويّة، وهي الجامع بين قوله تعالى: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران الآية 97]، وقول الشّاعر:

كانت حنفيّة أثلاثا فثلتهم **** من العبيد وثلت من مواليها

ولم يعرف "الفكّون" الجواب لقلة زاده من العلم وصغر سنّه فلامه "الفلّاري" عن جهله بالتّحو والقواعد، غير أنّ الشّيخ "الفكّون" اجتهد في مكتبة والده ووجد بيتا من الشّعْر فعمل على فهمه وتفسيره، واستخرج معانيه وإعرابه من كتاب "مغني اللّيب" 3، والبيت هو: إنّ هذه المليحة الحسناء **** وأيّ من أضمرت لخلّ وفاء.

ولما عاود "الفلّاري" تأنيب الفكّون طلب منه هذا الأخير أن يجيبه عن معنى هذا البيت وإعرابه، وكان الشّيخ "الفلّاري" مع عدد من الحضور، ولكنّه بهت عن الإجابة وانعقد لسانه عن الجواب ولم يدر ما يقول، واكتشف أمره بين أصحاب المجلس، وانتهت الجلسة. وهذه المناظرة باعتراف كلّ طرف بالآخر والإقرار بقيمته العلميّة والنّحيويّة، وكان "الفلّاري" قصد بعد ذلك بيت الشّيخ "الفكّون" وأخذ بخاطره وطيبه معترفا له بعلمه ودعا له بالبركة في العلم واعتبره من أحسن فقهاء مدينة قسنطينة، وقد

1- عبد السلام شقور، المناظرات والإنشادات في الرّحلات المغاربيّة الحجازيّة، ندوة مكّة المكرّمة عاصمة الثّقافة الإسلاميّة، 1426 هـ، ص ص 121، 125.

2- إبراهيم الفلّاري التّونسي: هو من تولّى الفتيا بتونس على مذهب الإمام مالك، وكان يعرف عدّة فنون، ينظر: كتاب الباشي: مصدر سابق، ص 98.

3- كتاب عنوانه هو: "مغني اللّيب عن كتب الأعراب" مؤلّفه "جمال الدّين بن هشام الأنصاري" (ت 761هـ-1360م).

أخبره "الفكّون" عن شرح البيت وإعرابه ومصدره وتفسيره، فازدادت الألفة بينهما، وقد كثرت بينهما المناظرات العلميّة¹.

ويذكر الشيخ "الفكّون" ذلك بقوله: "وبعد مدّة مضى إلى بلده، وانقطع به ولم يأتي من عنده ما وعدني، وهو الآن عندهم بتونس"، ويعلّق الشيخ "أبو القاسم سعد الله" عن هذه العلاقة وهذه المناظرات بين الشّخصين أن كلام الشيخ "الفكّون" كان يكتب هذا الكتاب قبل 1039هـ-1629م، وهو تاريخ وفاة الشيخ "الفلاري"².

كما أنّ الشيخ "ابن حمادوش الجزائري" التقى بالعالم التونسي الشيخ "مُحمّد الشّافعي الباجي"³ وهو في الجزائر، وتذاكر في عدّة مسائل منها لغز الشيخ "أحمد البوني" الشّهير، ثمّ أورد "ابن حمادوش" رأي الشيخ "الشّافعي" في اللّغز شعرا ونثرا، ثمّ علّق عليه⁴، وهذا الشيخ "أبو رأس النّاصري" وخلال زيارته إلى تونس والتي اكتسب من رحلته هذه علما واسعا وخبرة كبيرة جرّاء التّقاء ومحاورته لعلماء كبار خاصّة في الجامع الأعظم "جامع الرّيتونة" وتناظر علمائه، حيث يقول على رحلته هذه: "واجتمعت مع العلماء بجامعها الأعظم فتذاكرنا وتناظرنا وترافعنا وتشاجرنا في جميع الفنون الدّقيقة والمسائل المخفيّة، وقد أظهرني الله عليهم في ذلك كلّ..."⁵، من هذا نستنتج أنّ الشيخ "أبو رأس النّاصري" قد ناظر بعض علماء تونس، وساهم في تنشيط الحركة التّقافيّة في تونس خلال إقامته بها، ممّا أدّى إلى مدحه من طرف الحكّام والعلماء على حدّ سواء.

1- عبد الكريم الفكّون، منشور الهداية، مصدر سابق، ص ص 110، 111.

2- نفس المرجع، ص 112.

3- مُحمّد الشّافعي الباجي: هو ابن القاضي محمّد الشافعي بن محمّد بن محمّد بن القاضي الشريف المساكني الأديب الشاعر الفقيه اللغوي الأصولي ولد سنة 1105هـ / 1692م، كان عالما مشهورا تقلّد قضاء المحلّة، وكان مختصّا بالأمير حسين بن علي باي، له شرح على قصيدة محمّد الرشيد باي (الميمية)، وسمّى هذا الشرح (إبداء النكات من خبايا المحركات)، توفي الشيخ سنة 1180هـ / 1766م.

4- أبو القاسم سعد الله، الطّبيب الرّخالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 2005م، ص 65.

5- محمّد أبو رأس النّاصري، مصدر سابق، ص 115.

هـ - تبادل المسائل العلمية والفتاوى الشرعية: إنّ المستوى العلمي الذي وصل إليه بعض علماء الجزائر، جعل منهم يتصدّرون مجالس الإفتاء في تونس، ومما نذكره في هذا الشأن أنّ الشيخ "أبو رأس الناصري" كذلك قد حضر مجلساً مع الشيخ "محمد بن المحجوب"¹ من أجل الفصل في قضية حضانة بين خصمين، فقال لمن أراد نزعها من الحضانة: "أثبت عليه أنّها غير مأمونة، فقلت إنّ الحاضنة إذ نوزعت في سلب شرط وادّعت أنّها متّصفة به، هي تثبته لقول الشيخ "خليل" "وأثبتها"، فرجع إلى قوله فله درّه، ما أنصفه، وصار يشاورني في نوازل ترفع إليه، وبثّ شكري في تونس يفوق ما استحقّه"².

وهذا الشيخ "أحمد بن عمّار الجزائري" فقد وليّ التدريس ومجلس الإفتاء في تونس، الذي ذهب إليها بقصد الاستقرار، وكان من أشهر تلاميذه الشيخ "إبراهيم السيّالة" وكان ذلك سنة (1195هـ/1781م) وقد ناظر بعض علماء تونس، ولكنّه لم يبق هناك نظراً لمنافسة العلماء له، وموت "علي باي" باي تونس، وفاة صديقه أيضاً "حمودة عبد العزيز" صاحب كتاب "الباشي" سنة (1202هـ-1787م)، وهو ما حمّله بالخروج نحو المشرق³، كما أنّ الشيخ "محمد المصعبي" بعد عودته من مصر والاستزادة العلميّة التي تلقّاها في جامع الأزهر واستقراره في "جربة" أصبح مفتياً بها⁴، وابنه كذلك هو الشيخ العلامة "يوسف المصعبي المليكّي" الذي كان مفتي جزيرة جربة، وكان عديد العلماء يقرّون له بالعلم والفضل والورع والشجاعة والكرم⁵.

كما كانت ترد في بعض المسائل الخاصّة للإفتاء فيها، ومن جملة ذلك ما نذكره ما ورد للشيخ "ابن عظوم"، فقد وردت عليه بعض الفتاوى من عنابة، والجزائر، وتبسة، وفتاوى أخرى كثيرة من قسنطينة، فقد بعث الفقيه "عبد الكريم" ابن الفقيه القاضي "يحيى الفكّون" باستفتاء من قسنطينة إلى

1- محمد بن المحجوب: فقيه وإمام أصله من مساكن ولد بمدينة "سوسة" سنة 1780م والده الشيخ القاسم، تقدّم للفتيا مع أبيه أيام الباشا علي بن حسين باي، كان الشيخ كريم النفس وجيهاً عالي الهمة مهيباً، توفيّ الشيخ سنة 1243هـ/1827م.

2- محمد أبو رأس الناصري، مصدر سابق، ص 109.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج2، ص 226.

4- عائشة محمّة، التواصل الثقافي، مرجع سابق، ص 19.

5- سحابات زهيرة، الحضور الجزائري، مرجع سابق، ص 217.

الباشا خضر وقال في كتابه للباشا: "لا يجاوبنا فيه إلا الأندلسي أو ابن عَظُوم"، كما يقَدِّم لنا استفتاء وصله من مدينة تبسة مؤرخا في أواخر ذي القعدة 1001هـ الموافق لأواخر جويلية 1593م¹.
و- تبادل المراسلات العلمية بين الطرفين: إضافة إلى مجالس الإفتاء والفتاوى، كانت هناك التّقارِظ والرسائل المتبادلة، فقد تبادل علماء جزائريّون مع نظرائهم من تونس مراسلات ومساجلات فكريّة في العديد من المناسبات.

ومن هؤلاء العلماء نذكر منهم الشّيخ "عبد الكريم الفكّون" والشّيخ "أحمد المقرّي" و "سعید قدّورة" والشّيخ "أحمد بن عمّار" والشّيخ "محمّد بن محمود العنّابي"، وكانت هذه المراسلات لا تخلو من نقاشات علميّة في جوانب عدّة؛ لغويّة وفقهيّة وغيرها، ومن ذلك ما أشتهر به الشّيخ "عبد الكريم الفكّون" تبادل فيها مع علماء عصره في الإيالة التّونسيّة الأفكار والألغاز والأشعار، ومن هؤلاء العلماء نذكر؛ الشّيخ "محمّد تاج العارفين"، والشّيخ "إبراهيم الغريان القيرواني"، والشّيخ "بالغيث القشّاش التّونسي"، حيث كانت علاقته بهم علاقة وثيقة²، ومن بين الرسائل الواردة إليه رسالة الشّيخ "محمّد تاج العارفين" سنة 1037هـ/1628م، حيث بدأ رسالته بالإطراء والمدح بقوله: "الحمد لله الذي أطلع شمس الطّلع الفكوّنيّة من الأفق المغربي، ويا عجبا من طلوعها أمانا للعالم...". ثمّ يثنى على الصّلىح بين البلدين، حيث قام العلماء والفقهاء فيه بدور كبير بقوله: "وقد تفاءلنا باسمه جابر³، وقد طاب منه مشربه الرّائق الرّاهر، منزل جبر الله فيه القلوب ويسّر الله فيه كلّ مرغوب ومطلوب من إصلاح الله سبحانه بين عباده"، وفي الأخير أوصاه بالدّعاء له في ظاهر الغيب، وبلّغ السّلام مجموعة من الفقهاء التّونسيين، وأكّدا له بقاء المراسلات بينهما⁴.

وفي نفس السّياق وردت للشّيخ "الفكّون" رسالة من الشّيخ "إبراهيم الغرياني" في نفس السّنة 1037هـ، وفي رسالة طويلة ذكرها الشّيخ كذلك في "منشور الهداية"، عبّر فيها الشّيخ "الغرياني" عن حبّه وشوقه لصديقه "الفكّون"، كما طلب منه الدّعاء له ولأولاده، كما أورد قصيدة الشّيخ "الغرياني" التي تصبّ في نفس المجرى من المحبّة والشّوق للشّيخ الفقيه الولي "الفكّون"، وأهمّ ما جاء فيها، أو ما اخترنا منها:

¹ - أحمد قاسم، إيالة تونس العثمانيّة، مصدر سابق، ص ص 43، 45.

² - يوسف الطيّب، العلاقات العلميّة بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص ص 166، 167.

³ - إشارة إلى المكان الذي وقع فيه الصّلىح بين الجزائر وتونس.

⁴ - عبد الكريم الفكّون، منشور الهداية، مصدر سابق، ص 217.

هَلْ مِنْ يَبْلُغُ ذَاتَ الْحُلِيِّ وَالْحُلَلِ *** سَلَامَ صَبِّ بِلِيِّ بِالْهَجْرِ وَالْحَلَلِ

تَفَنَّدْتُ حُيْلَ شَوْقِي رِنْعِي مُهَجِّي *** رَوَّجْتُ صَوْنَ فُؤَادٍ بِالْعَرَامِ بُلِي

هَلْ لِي رَجَاءٌ لَوْصَلَ مِنْكَ يُنْعِشَنِي *** وَإِنْ نَفَرْتُ فِي مَوْئِي لَهُ أَمَلِي

مُؤَرِّخَ فَاضِلِّ بِالْفِقْهِ مَتَزَرُّ *** مُحَدِّثَ بِحَدِيثِ صَحِّ فِي الْأَصْلِ

وَهُوَ الَّذِي تُبْرِئُ الْأَسْقَامَ دَعْوَتُهُ *** وَيُنْعِشُ الرُّوحَ بِالآيَاتِ عَن عَجَلِ

وَفَضْلُهُ شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ مُشْتَهَرًا *** كَالْبَدْرِ يَعْلُو لَنَا وَلَكِنْ بِلَا أَفَلٍ¹

كما أنّ الشيخ العلامة الفقيه "ابن العنّابي" كثير المراسلات مع أقرانه من علماء تونس، وقد اختلفت المراسلات، فهناك الاستفتاء وهناك الإجازات التي يطلب أصحابها منحهم إجازة عن جميع مروياته، وكان هو يجيب السائلين بصدر رحب، وبيت علمه بسخاء، كما أنّ إجازته تكتب أحيانا نثرا، وأحيانا شعرا، وأحيانا بكليهما²، فقد أجاز "ابن العنّابي" "محمد بيرم الرابع" وهي إجازة تتعلق بأحزاب "الشاذلي"، وقد ذكر ذلك الشيخ "بيرم الرابع" بقوله: "شيخنا العلامة المحقق حامل لواء المذهب الحنفي بقطر الجزائر محمد بن محمود..."³

إنّ الرسائل بين الأدباء والعلماء في الإيالتين خلال الفترة محلّ الدّراسة عنصرا مهمّا في الحياة العلميّة للإيالتين، ومظهرها آخر من مظاهر التواصل الثقافي والعلمي بينهما، ووسيلة من وسائل تامين الروابط الثقافيّة فيما بينهما، ومهما كانت مواضيع هذه الرسائل، والتي تنوّعت بين المديح والمودّة، العتاب والاعتذار، التّهنة والشكوى، الرّثاء والوصاية، فإنّها تتميز بالسهولة والوضوح، والابتعاد عن

1- عبد الكريم الفكون: منشور الهداية، نفسه، ص ص: 220، 222.

2- أبو القاسم سعد الله: رائد التّجديد الإسلامي محمد بن العنّابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص: 49.

3- المرجع السابق، ص: 44.

صعب الألفاظ، والإكثار من السجع، وتضمنين الأمثال، كما أنّها في الغالب لا تحمل تاريخ كتابتها، وتتفاوت في عدد صفحاتها.¹

ثالثا: دور العلماء في التواصل بين الطّرق الصّوفيّة في الإيالتين :

يقال: "إذا كانت بلاد المشرق هي بلاد الرّسل والأنبياء، فإنّ بلاد المغرب هي أرض الصّالحين والأولياء"، وهذا القول له ما يبرّره، كما له أدلّته وبراهينه الواقعيّة والموضوعيّة، وما انتشر الرّوايا والأضرحة، والرّباطات والمشاهد والمزارات التي تُورّخ لأولياء الله الصّالحين في الجزائر، والّذين احتضنتهم أراضي الجزائر بكلّ طبقاتهم ومقاماتهم قرنا بعد آخر، وغطّوا بواديهما وحواضرها وعمّروا شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، فصارت بذلك الرّوايا والطّرق الصّوفيّة إحدى مكوّنات ماضي وتاريخ هذا البلد، ولا يمكن فهم الماضي التّقافي لهذا البلد دون استحضار هذا العنصر الّذي يعتبر رافد من روافد الحقل المعرفيّة والتّقافيّة، والّذي ساهم في نسيج الموروث التّقافي خاصّة خلال فترة مرحلة الدّراسة أي العصر الحديث.

لا يمكن اعتبار دور العلماء والفقهاء هو الوحيد في تنشيط الحركة العلميّة والتّقافيّة بين الإيالتين، فقد كان للمتصوّفة ورجال الطّرق الصّوفيّة دور مهم في استمراريّة هذه الحركيّة التّقافيّة، على الرّغم من تدهور الأوضاع السياسيّة في الإيالتين، والتّوتّر الحاصل بينهما خلال فترة الدّراسة، وليس هذا فحسب، بل ازداد تأثير هذه الطّرق الصّوفيّة ورجالها في المجتمع، وقد أدّت مكانتها (الطّرق الصّوفيّة) الدّينيّة في جعلها محورا مهمّا من محاور اتّخاذ القرار السّياسي وتأثيره على السّلطة السياسيّة في الإيالتين، وكان كبيرا وواضحا خاصّة في الجزائر، أمّا من النّاحية الاجتماعيّة والتّقافيّة فكان دورها واضحا في التقارب بين أفراد مجتمع هاتين الإيالتين، وعاملا من عوامل التّواصل التّقافي بين البلدين خلال هذه المرحلة، وقبل التّطرّق إلى مظاهر الصّلات بين الطّرق الصّوفيّة وجذورها المختلفة وآثارها، فإنّنا سنقف على بعض المفاهيم المتعلّقة بهذا الشّأن، من خلال الطّريقة والتّصوّف، وبعض عوامل نشأتها في الجزائر.

1- عائشة محمّة: التّواصل التّقافي: مرجع سابق، ص ص: 229، 231.

أ- مفهوم التصوف والطريقة: إن مدلول ومفهوم الطّريق أو الطّريقة من النّاحية اللّغويّة معان كثيرة، ومن ذلك أنّ الطّريق هو السّبيل، ويذكر ويؤنث فيقال الطّريق الأعظم، والطّريق العظمى، ويجمع ب: طرق أو أطرق، وجمع الجمع "طرقات" والطّريقة، وجمعها طرائق هي السّيرة والحالة، والمذهب¹، والطّريقة هي الحال، تقول فلان على طريقة حسنة وعلى طريقة سيّئة، والطّريقة هي أيضا "السّيرة والمذهب وكلّ مسلك يسلكه الإنسان في فعل محمودا كان أو مذموما"²، ويفهم من ذلك أنّ لا فرق في اللّغة بين الطّريق والطّريقة.

وأما الطّريقة اصطلاحا فإنّ مدلولها اختلف في تتابعها الزّمني، فكان الأوّلون يعنون بها التّصوّف ذاته أي أنّ المتصوّف يحدّد لنفسه طريقا يسير عليه للوصول به إلى الله وبلوغ مرضاته من خلال أداء الفرائض وتربية النّفس وتزكّيّتها، وقراءة القرآن، والمداومة على الأذكار، والتّقرب إلى الله بالنّوافل والصدقات والصّيام وقيام اللّيل، ولا يزال صاحب هذا الطّريق يداوم على ذلك حتّى تصبح نفسه طيّعة وقافا عند حدود الله باتّباع أوامره واجتناب نواهيه، فالطّريق أو الطّريقة اصطلاحا هو المنهج العلمي للتّصوّف كما عرّف منذ القرن الثّالث قبل أن يشيع استعماله له منذ القرن السّادس³، والطّريقة ما هي إلّا منهج حياة روحيّة يمكن التّوصّل بها بصحيح النّيّة، وفي تقديم المجاهدات والرّياضات النّفسية إلى معرفة الله تعالى معرفة صحيحة، وهي تدلّ جميعها على ممارسات ومراسيم، تعبدية تقوم جامعات معيّنة⁴.

أمّا التّصوّف فإنّ مدلوله اللّغوي مختلف فيه، ومن ذلك أنّ هذا المصطلح مثله مثل مصطلح

1- بطرس حروفش وآخرون، المنجد في اللّغة والإعلام، دار المشرق، ط14، بيروت، ص 465.

2- عبد الحكيم مرتاض، الطّرق الصّوفيّة في العهد العثماني (1518م-1830م)، أطروحة دكتوراه في التّاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2016/2015م، ص18.

3- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم، دار الرّشاد، ط1، الدّار البيضاء، 2000م، ج3، ص ص 115، 116.

4- يوسف الطّيب، العلاقات العلميّة بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص 221.

القلب الذي لا اشتقاق لغوي له، وهو ما ذهب إليه "القشيري"¹، وهو ما قاله به "الهوجيري" أيضا إذ قال: "واشتقاق هذا الاسم لا يصحّ على مقتضى اللّغة من أيّ معنى، لأنّ هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتقّ منه"². وهناك من يرى أنّ المصطلح له اشتقاقات لغويّة، فاعتبره البعض أنّ أصل المصطلح يعود إلى لباس الصّوف³، وهناك ما يرجعه إلى الصّفّ الأوّل لكون هؤلاء المتصوّفة يقفون في هذا الصّفّ بين يدي الله ويقبلون عليه وهممهم مرتفعة إليه⁴، وقيل مشتقّ من صفاء القلب⁵.

أمّا من النّاحية الاصطلاحية فقد اختلف في مدلوله أيضا، وتعدّدت المفاهيم الاصطلاحية والتّعريف لمصطلح التّصوّف، غير أنّها تتمحور حول العكوف على العبادة والانقطاع إلى ذكر الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها، من لذّة ومال وجاه والانفراد عن الخلق للعبادة⁶.

ويذهب "ابن خلدون" أنّ اشتقاقها من الصّوف أقرب إلى الصّواب لاختصاص أصحاب التّصوّف بلبس الصّوف لما كانوا عليه من مخالفة النّاس في لبس فاخر الثّياب⁷.

أمّا "أبو بكر محمّد الكلاباذي" فيعرّف التّصوّف بقوله: "هو عزوف النّفس عن الدّنيا والعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها، والزّهد فيما يقبل النّاس عليه من لذّة ومال وجاه"⁸.

1- أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري، الرّسالة القشيرية في علم التّصوّف، مطبعة محمّد علي صبحي وأولاده، القاهرة، 1957م، ص 126.

2- أبو الحسن علي بن عثمان الهوجيري، كشف المحجوب، دراسة وتحقيق وترجمة: إسعاد عبد الهادي قنديل، دار التّهضة العربيّة للطباعة والنّشر، بيروت، 1980م، ص 230.

3- عبد القاهر بن عبد الله السّهودي، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1966م، ص 60.

4- أبو بكر محمّد الكلاباذي، التعريف لمذهب أهل التّصوّف، تح: محمود أمين الفوّاري، مكتبة الكلّيات، القاهرة، ط2، 1980م، ص 28.

5- إبراهيم بسيوني، نشأة التّصوّف الإسلامي، دار المعارف، مصر، 1969م، ص 09.

6- إحسان إلهي ظهير، التّصوّف المنشأ والمصدر، إدارة ترجمان السنّة للنّشر، ط1، لاهور- باكستان، 1986م، ج1، ص ص 20، 21.

7- عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة، دار الجيل، د ط، بيروت، ص 517.

8- أبو بكر محمّد الكلاباذي، التعريف لمذهب أهل التّصوّف، مصدر نفسه، ص ص 24، 25.

والمعلوم أنّ هذا المصطلح لم يكن معروفا خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وإّما شاع وانتشر بعد ذلك، وهناك من يعتبر أنّ اللفظ ظهر في النّصف الثّاني من القرن الثّامن للميلاد، وأنّ أوّل استعماله كان في مدينة الكوفة بالعراق¹.

وكان ظهور الطّرق الصّوفيّة أواخر القرن الثّالث الهجري/ التّاسع للميلاد، وبانتشارها وتفرّعها، فإنّ عددها فاق الثّمانين طريقة² بحلول القرن الثّامن الهجري / الرّابع عشر للميلاد، وكان لهذه الطّرق الصّوفيّة ومشايخها التأثير الكبير والواضح في نفوس النّاس والدّور الكبير في نشر مذهب التّصوّف في العالم الإسلامي، ومن ذلك بلاد المغرب، ومن ذلك نذكر الشّيخ "عبد القادر الجيلاني" و "أبو مدين شعيب" الذي أخذ عن شيخه "عبد القادر الجيلاني" ونشر طريقته في بلاد المغرب، وذلك التقائهما في عرفة³.

إنّ الطّرق الصّوفيّة - من هذا المنطلق - كان ظهورها في بلاد المغرب قبل مجيء العثمانيين إليها من خلال بروز عدد كبير من المرابطين وأهل الزّهد فيها ورجال التّصوّف بها. وفي بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) نذكر مثلا "عبد الرّحمان الثّعالبي" و "محمّد الهواري" و "إبراهيم التّازي" و "محمّد بن يوسف السنوسي"، وهناك من عاصر بداية العهد العثماني مثل "أحمد بن يوسف الملياني" و "محمّد آفغول" و "محمّد التّواتي البجائي" وتوسّعت مع الوجود العثماني الذي ربط علاقات متينة ومميّزة مع كثير من طرق ورجال التّصوّف⁴، ومن الطّرق الصّوفيّة التي احتضنت العثمانيين في الجزائر الطّريقة القادرية والطّريقة الشاذليّة، حيث أنّ "أحمد بن يوسف الملياني" أعلن هو وأتباعه تأييده للعثمانيين، حتّى عدّه بعض المؤرّخين أنّه أحد رجال "عزّوج" بعد اتّصاله به سنة 1509م، ودخوله في خدمته، ومشاركته في حملة "عزّوج" على مدينة تلمسان، واستمرّ هذا التّحالف بين أحفاد هذا الشّيخ وأتباع طريقته وبين باشوات الجزائر إلى غاية دخول الفرنسيين إلى الجزائر⁵.

إنّ أهمّ ما ميّز الحياة الاجتماعيّة والثّقافيّة في الجزائر خلال مرحلة محلّ الدّراسة هو انتشار مظاهر

1- إحسان إلهي ظهير، التّصوّف المنشأ والمصدر، مرجع سابق، ص 42.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، مرجع سابق، ج 1، ص 58.

3- احميدة عميراي، فواصل من الفكر والتّاريخ، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 2002، ص 110.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، مرجع سابق، ج 1، ص 459.

5- Kamal Filali: L'Algérie mystique des marabouts fondateurs Khiwan insurgés

15ème- 19 ème, éditions publisabd ; Paris 2002 ; p,63

التصوّف وسيطرتها على توجيه مسار الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والروحيّة أيضا، فإنّ الذي كان يجمع شتات القبائل، والإمارات المتفرّقة والمتناحرة أحيانا هو ذلك الحسّ الروحي الممزوج بالتصوّف الذي يشعّره بمصير واحد ويثير فيهم نحوه الجهاد الذي توخّد كلمتهم لنصرة الإسلام والدّود عن جمّاه¹.

والطّرق الصّوفيّة في الجزائر على نوعين؛ منها ما هو غير خلواتي، ومنها ما هو خلواتي، ولكلّ منهما خصائص ومميّزات، فالطّرق غير الخلواتيّة لا يدّعي شيوخها المعرفة بأسرار الغيب، غير أنّهم يتّخذون لأنفسهم أورادا وأذكارا يلقّنونه لأتباعهم ومريديهم، كما يقومون بتعليم الناس العلوم الشرعيّة وتحفيظ القرآن الكريم². وأمّا الطّرق الخلواتيّة³ فيعتقد أتباعها ومريديها أنّ لشيخهم القدرة على معرفة بعض الأسرار الدّينيّة الغيبية، ويلقّنونها لمن شاءوا من أتباعهم، وقد وضع شيخ هذه الطّريقة أورادا وأذكارا تختلف في صيغها وأعدادها وأوقاتها، وتكون بصورة فردية أو جماعية⁴.

وعلى الرّغم من أنّ لكلّ طريقة شيوخها الذين ألزموا على مريديهم أشكالا وتقاليدا وأذكارا وأورادا معيّنة، فإنّ معظم أورادهم وأذكارهم مقتبسة من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة، وهي في مجملها تلاوة من القرآن الكريم واستغفار الله وابتهالات وأدعية وصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم، وتسبيح الله وحمده⁵ -إلا فيما ندر- كما أنّ الشّيء الذي يميّزه معظم الزّوايا التابعة لهذه الطّرق الصّوفيّة هو إيواء التلاميذ والطلّبة والإنفاق عليهم أثناء إقامتهم بها لحفظ القرآن الكريم، وتعلّم مختلف العلوم الدّينيّة كالفقّه والحديث والعقيدة وعلوم اللّغة وغيرها⁶.

غير أنّ الأستاذ -أبو القاسم سعد الله- يصنّف المتصوّفين ورجال الطّرق الصّوفيّة من خلال سلوكهم إلى ثلاثة أصناف؛ صنف العلماء الموظّفين والفقهاء المستقلّين الذين لا صلة لهم بممارسة

1- رشيد بكّاي، "تأثير الطّرق الصّوفيّة على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني"، مجلّة الباحث، العدد الثامن، ديسمبر 2011م، ص 207.

2- كمال دحومان الهاشمي، أشرف الجزائر (دورهم الحضاري في المجتمع الجزائري)، دار الخلدوتية للنشر والتوزيع، القبة - الجزائر، 2013م، ص: 129.

3- تعرف بذلك لكونها تعود لأصل واحد، وتتسبب: لأبي الفيض بن نور كريم الدّين الخلوّتي الخوارزمي (ت 1066هـ/1655م).

4- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى، غير مليّة، الجزائر، 2009م، ج 1، ص 215.

5- عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوّف في الجزائر، مرجع سابق، ص ص 182-183.

6- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، المرجع السابق، ص 215.

التصوّف العملي، والصنّف الثاني هم العلماء الذين غلب عليهم التصوّف وهم في الغالب لا يميلون إلى الوظيفة أو التقرب من السلطة والصنّف الثالث فيضمّ المتصوّفة الذين يدعون العلم أو المنتسبين إلى التصوّف والولاية لأغراض مختلفة ومنها استغلال العامة¹.

ب- التأثير الصوفي بين الإيالتين : سنكتفي بالحديث عن التأثير المتبادل لهذه الطرّق الصوفيّة بين الإيالتين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني .

أولاً / الطرّق الصوفية في الجزائر : لقد عرفت الجزائر خلال العهد العثماني انتشار العديد من الطرّق الصوفيّة، ويعتبر البعض أنّها حوالي العشرين طريقة صوفيّة، وهي تتقاطع في الكثير من الأمور غير أنّها تختلف اختلافا واضحا في مدى تأثيرها الثقافي والسياسي داخل هذه الإيالة أو حتّى في المناطق المجاورة لها، وسنقوم بالتعريف بأبرز الطرّق الصوفيّة ومؤسّسها وبعض أصولها، وأهمّ مناطق انتشارها في الإيالة، وتتمثّل هذه الطرّق في :-

1 - الطّريقة القادريّة: تعتبر أقدمها وأهمّ الطرّق الصوفيّة في العالم الإسلامي عامّة، وفي الجزائر العثمانيّة نظرا لمواقفها وممارساتها المناهضة لسياسة السلطة الحاكمة خلال مرحلة محلّ الدّراسة، والمعلوم أنّ هذه الطّريقة تنسب إلى مؤسّسها "عبد القادر الجيلاني" الذي ولد حوالي سنة 470هـ/1077م، هاجر إلى بغداد واستقرّ بها وتفقه في الدّين، ثمّ تصدّر للتدريس والفتوى، وازدادت شهرته حتّى صار يقصده النّاس لأخذ العلم والزّيارة، توفّي ببغداد سنة 561هـ/1167م².

دخلت هذه الطّريقة للجزائر قديما عن طريق الوالي الصّالح الشّيخ "أبي مدين شعيب"³ دفين مدينة "تلمسان" الذي التقى بالشّيخ "عبد القادر الجيلاني" في البقاع المقدّسة أثناء تأدية فريضة الحجّ، حيث تتلمذ على يده وأخذ عنه التصوّف وألبسه الخرقة كما هو متعارف عنه ومعمول به عند

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 481.

2- محمّد أحمد درنيقة، الطّريقة القادريّة وأعلامها، المؤسّسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2009م، ص 17، 25.

3- أبي مدين شعيب: هو بن حسين الأنصاري الأشبيلي، انتقل لطلب العلم وعاش ما بين (1126م-1197م).

الصّوفيّة¹، ويعتقد أنّ هذه الطّريقة قد توطّنت بصفة رسميّة في الجزائر بعد استقرار أحد أحفاد الشّيخ "عبد القادر الجيلاني" واسمه "إبراهيم بن موسى"، وكان قادماً من الأندلس مروراً بالمغرب الأقصى وتأسيسه لأوّل زاوية قادريّة ببلدة "منعة" (تابعة لولاية باتنة حالياً) بمنطقة الأوراس، هذه الزّاوية أصبحت مقصداً ورمزاً لاتباع الطّريقة ومريديها، وكان لهذه الزّاوية دور كبير في نشر هذه الطّريقة شرقاً وغرباً²، وتأسّست لهذه الطّريقة عدّة فروع في الجزائر، ولها عدّة زوايا وخاصة في المدن الكبرى مثل مدينة الجزائر، قسنطينة، تلمسان وبجاية ولها عدّة أوقاف³ يستفاد منها، ورغم الكيفيّة الصّارمة في الانتساب إليها، إلا أنّ أتباعها ومريدوها بالآلاف خلال العهد العثماني وما بعده⁴، وقد كان تأثير هذه الطّريقة في نفوس الجزائريين -حتى أولئك الذين ليسوا من اتباعها- كبير جدّاً، حتّى وصل الأمر إلى الاستغاثة باسم مؤسس هذه الطّريقة فيقول في ندائه (يا سيدي عبد القادر)، فهو في نظرهم أعظم أوليائهم واتقاهم، وهو سلطان الصّالحين كما يلقّبونه⁵، كما كان من أهمّ زوايا هذه الطّريقة زاوية "القيطنة" قرب مدينة معسكر التي تأسّست سنة (1200هـ/1785م) على يد الشّيخ الحاج "مصطفى بن محمّد المختار الغريسي" (جدّ الأمير عبد القادر الجزائري)⁶، وقد انتشرت هذه الطّريقة في الجزائر انتشاراً واسعاً من خلال كثرة مؤيديها وأتباعها لأنّها وجدت أرضاً خصبة فاستطاعت أن تنمو

1- صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصّوفيّة والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصّة، ص ص 96، 97.

2- عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشّيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقتهم، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2009، ص 288.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، مرجع سابق، ج4، ص43.

4- نفسه، ص58.

5- إدوارد دونوفو، الإخوان دراسة إثنولوجيّة حول الجماعات الدّينيّة عند مسلمي الجزائر، تر وتحر: كمال فيلاي، شركة دار الهدى للطباعة والنّشر والتّوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 29.

6- يحي بوعزيز، الطّريقة القادريّة والأمير عبد القادر، مؤسّسة الأمير عبد القادر، موفم للنّشر، الجزائر، 2011، ص ص 19، 23.

وتزدهر خاصة خلال العهد العثماني، فأنشأت الزوايا الخاصة بها التي شملت تقريبا كل مناطق الوطن، وكان لها تأثير ديني وثقافي وسياسي قوي¹.

لقد كان الشيخ "أبو مدين شعيب" وقبل دخوله الجزائر بعد رحلته للحجّ مرّ بتونس، وهناك التقى ببعض شيوخها، وارتبطت العلاقات بينه وبين هؤلاء الشيوخ، وصار بعضهم يقصد الجزائر من أجل زيارته في بجاية، ونتيجة لتلك الزيارات توطّدت العلاقات، وتمكّنت الطريقة القادرية من التّفوذ إلى تونس، غير أنّها ظلّت دون زاوية إلى غاية ظهور الشيخ "المنزلي"² الذي قام ببناء زاوية لها بمنزل "بوزلفة"³ بمعونة من "حمودة باشا الحسيني" الذي كان يعدّ من أتباعها، وكان لمساهمة هذا الأخير دور كبير في نشر هذه الطريقة وجلب عدد من الأتباع⁴.

يعتبر العالم الفاضل "إبراهيم بن أحمد الشريف" (1207هـ-1285هـ/1792م-1868م) وهو جزائري الأصل هاجر إلى مدينة "نفطة" وهناك تزوّج من إحدى شريفات سلالة "سيدي بوزيد" الذي لجأوا بدورهم إلى الجريد التونسي، وبالضبط إلى مدينة "نفطة"، وقد اتّصف هذا الشيخ بالعلم والزهد والصّلاح، وكان شيخا قادريّا، والتي أخذها عن الشيخ "أبي بكر بن أحمد الشريف" عن شيخه "الإمام المنزلي" والذي أذن له بتأسيس الزاوية القادرية في مدينة نفطة التونسية سنة (1234هـ/1819م)، وكانت هذه الزاوية تأوي العديد من المحتاجين وتقدّم مساعدات وإعانات للفقراء والمساكين، كما كانت تقدّم الدّروس لأكثر من 500 طالب داخلي يعرفون باسم الجوّالية⁵.

1- صلاح مؤيد العقبي، الطّرق الصّوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2002، ص 143.

2- الإمام المنزلي: هو محمّد بن محمّد (بفتح الميم) بن فرج المعروف بـ "المنزلي"، نسبة إلى بلدة منزل بوزلفة، كان الشيخ محمّد المنزلي عالما فاضلا فقيها مدرّسا ورعا وزاهدا، وهو شيخ الطريقة القادرية وناشرها، وقد أجاز في الطريقة ابن بلدته الشيخ "علي الشّايب"، توفيّ الشيخ الإمام المنزلي سنة (1248هـ/1832م)

3- منزل بوزلفة: إحدى مدن إيالة تونس تابعة حاليا إلى ولاية نابل، تبعد عن العاصمة تونس بحوالي 40 كلم.

4- التّليبي العجيلي، الطّرق الصّوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881م-1939م)، منشورات كلىة الادب بمنوبة، د م، 1992، ص ص 39-40.

5- عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التّصوّف في الجزائر، مرجع سابق، ص ص 43، 44.

انتشرت هذه الطريفة بشكل سريع في كافة الإيالة التونسية، وكانت على علاقة كبيرة وممتينة بمريديها وشيوخها في إيالة الجزائر، وقد ظهرت بعد ذلك زوايا أخرى لهذه الطريفة في تونس مثل؛ زاوية الكاف التي ترأسها الشيخ "المازوني" وزاوية توزر، وزوايا أخرى.¹

2- الطريفة الشاذلية: تنتسب هذه الطريفة إلى "أبي الحسن علي الشاذلي" الذي ولد في قبيلة غمارة قرب سبنة بالمغرب الأقصى سنة 593هـ/1196م، الذي توجه بأمر من شيخه "عبد السلام بن مشيش" إلى قرية شاذلة خارج مدينة تونس واختلى فيها ليشتهر أمره بعد ذلك، مما تسبب له في مشاكل مع السلطنة، فخرج إلى مصر واستقر بها حتى وفاته سنة 656هـ/1258م²، وقد انتشرت هذه الطريفة في العالم الإسلامي، فيها من معاشة للواقع واستقطبت إليها عدد كبير من العلماء³، ويعتبر الشيخ "أحمد بن يوسف الملياني" هو حامل لواء هذه الطريفة في الجزائر، وانتشرت طريفته بسرعة أثناء حياته ويقدم لتلاميذه الأذكار، وكان تلاميذه قد اضطهدوا أيضا في المغرب الأقصى والجزائر -لأنه أتهم بالإلحاد من بعض العلماء- لما جاء به من بعض الأفكار والأقوال، ومن ذلك قوله: "أن الله قد أعطاه علم الظاهر والباطن وادعى أنه نائب عن رسول الله، وأراه الرسول في اليقظة لا في المنام"⁴، وقد تحالف الشيخ "الملياني" مع العثمانيين، وهي توضح بذلك مدى التداخل الحاصل بين التصوف والسياسة، ومدى تأثير هذه الطريفة في الجزائر العثمانية، تقوم هذه الطريفة على أصول خمس وهي:

- تقوى الله في السر والعلن
- اتباع السنة في الأقوال والأفعال
- الإعراض عن الخلق في السر والعلانية
- الرضا عن الله في القليل والكثير

1- التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881م-1939م)، مرجع سابق، ص 42.

2- عمّار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب أفريقيا السّمراء، الجزائر، د ط، 1988، ص ص 101، 105.

3- عبد المنعم القاسمي الحسني، الطريفة الرحمانية الأصول والآثار منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل للنشر والتوزيع، ط1، بوسعادة - الجزائر، 2013، ص 45.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص ص 495-496.

• الرجوع إلى الله في السراء والضراء.¹

يلتزم أتباع هذه الطريقة بأذكار معينة ومن ذلك الاستغفار مئة مرة، والصلاة على النبي، مئة مرة، وذلك كل صباح ومساء، وحضور الحضرة مرة في الأسبوع على الأقل، وزيارة المقدم والحديث إليه مرة في الشهر، هذا الوجه الظاهري للأذكار، أما الوجه الباطني هو التأمل والتفكير والتعمق في الخالق وخلقته²، ولهذه الطريقة فروع عدة في الجزائر، ومنها؛ الجزولية، والزروقية، واليوسفية، والعيساوية، والأحمدية، والشيعية والطيبية، والخصالية، والناصرية³.

3- الطريقة الرحمانية: تنتسب إلى مؤسسها الشيخ "محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري الأزهري" (1715م-1793م)⁴، وقيل أنه تلقى تعاليم الطريقة الخلواتية على يد الشيخ "محمد بن سالم الحفناوي"، وتستعمل هذه الطريقة الذكر في حلقات ويرددون اسم الله بالتدرج، واعتبرت هذه الطريقة من أوسع الطرق انتشارا في الجزائر، ومن أشهر زواياها هي زاوية "الهامل" بمدينة بوسعادة، وزاوية "الحملوي"، و "باش تارزي" في مدينة قسنطينة، وزاوية "حنقة سيدي ناجي" بمدينة بسكرة⁵. وانتشرت هذه الطريقة في تونس أيضا، وقد نفذت إلى إيالة عبر منفذين أولهما:

-الكاف⁶: حيث أسس الشيخ "يوسف بوحجر" أحد أتباع سيدي "محمد بن عبد الرحمن" زاوية رحمانية بها والتي صارت الزاوية الأم في تونس حوالي 1784م، وفي سنة 1821م تأسست زاوية ثانية

1- أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، ابن عطا الله السكندري وتصفوه، المكتبة الأنجلو-مصرية، مصر، ط2، 1969، ص 52.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج4، ص 69.

3- نفسه، ص 70.

4- الشيخ محمد بن عبد الرحمن: ولد في قرية (آيت إسماعيل) من عرش قشطولة، ولد حوالي 1715م وقبل 1714م، وتعلم بزاوية الشيخ "الصدّيق بن أعراب بايت إيراثن، وتوجه للمشرق للحج، وعند عودته مكث في مصر ما يزيد عن 25 سنة، حيث جالس علماء الأزهر، وبعد عودته للجزائر استقر في قريته، وأسس زاويته وعمل على نشر أفكاره وتعاليم طريقته الخلواتية التي توسّعت وانتشرت خاصة بعد وفاته التي كانت حوالي سنة 1208هـ/ 1793م، يعرف الشيخ كذلك ببوقبرين.

5- صورية حصام، العلاقات بين إيالت الجزائر وتونس خلال القرن 18م، مرجع سابق، ص 131.

6- الكاف: مدينة تونسية تقع في الشمال الغربي، وهي عاصمة ولاية الكاف، يبلغ عدد سكّانها 73706 نسمة، وهي تقع على على آثار رومانية.

في نفس المدينة على يد ابنه "محمد بن الصالح بن يوسف بوحجر"، وهو ما يعكس لنا التأثير الخارجي خاصة الجزائرية على الحياة الدينية والثقافية في تونس عامة وفي المنطقة الغربية من الإيالة خاصة.¹

-نقطة²: والتي أسس فيها الشيخ "محمد بن عزوز" زاوية للطريقة الرحمانية، وكان الشيخ قد غادر

زاويته البرج بمنطقة "طولقة" وذلك بعد احتلال فرنسا لمدينة بسكرة سنة (1843م-1844م)، وقد ذاع صيت هذه الطريقة، ثم آلت مشيخة هذه الزاوية من بعده إلى ابنه "مصطفى بن محمد بن عزوز" (ت 1866م)، حيث عمل على بثّ تعاليم الطريقة الرحمانية الخلواتية في العروش وصار له أتباع كثيرون خاصة في هذه المدينة، باعتباره عالم فاضل ومن الزهاد والصلحاء ومن بيت علم وصلاح، وللشيخ "إبراهيم الرياحي" فيه مدائح شعرية ونثرية ومن أهم آثاره "بجعة العاشقين وروضة الأنوار للعارفين" ورسالة "في السلوك إلى طريق الخلواتية"³، وعن هذه الزاوية تفرّعت عدّة زوايا أخرى في منطقة "سليانة" و"القصرين" و"تالة" وغيرها. قصد هذه الزاوية وفود طلابية من الجنوب الجزائري ومن قسنطينة وبلاد القبائل ومنطقة الأوراس، ولم تنقطع الصلة بين الجزائريين والتونسيين بفضل الترابط والصلة المتينة وثقت عراها الطريقة الرحمانية من خلال فروعها المنتشرة في البلدين، فكانت الزيارات المتبادلة بين الطرفين، وخاصة العلمية منها، ومن ذلك زاوية "خنقة سيدي ناجي" التي كانت أكثر الزوايا اهتماما بالعلم والعلماء⁴، ومن ذلك أيضا تبادل الرسائل الإخوانية، ومنها رسالة الشيخ "مصطفى بن عزوز" إلى شيخ زاوية "طولقة" الرحمانية "علي بن عثمان"، ومما جاء فيها: "الحمد لله وحده المحبّ الأكمل... سيدي وابن سيدي... خليفة شيخنا وولده، وهو شيخنا شيخ البركة، سيدنا علي بن عثمان بن مولاي علي بن عمر... سلام الله عليك ألف ألوف وعلى كافة إخوتك...".

1- حمزة بوقادوم، "الحضور الصوفي الجزائري بمدينة الكاف خلال القرن 19م"، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلة (05)، العدد(2)، 2021م، ص ص 594، 595.

2- نقطة: بلدة وواحة في تونس، مركز معتمدية ولاية قفصة، كثيرة المياه سماها الرومان نبتة.

3- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 232.

4- يوسف الطيّب، العلاقات العلمية بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص ص 242، 244.

ونطلب الله أن يجمعني بكم في أقرب وقت إن شاء الله آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين".¹

4- الطريقة التيجانية: تعتبر من أحدث الطرق الصوفية في الجزائر، غير أنها استطاعت أن تفرض نفسها ضمن الطرق الرئيسية، فهي لا تقل أهمية عن الطرق الرئيسية السابقة الذكر -القادرية والرحمانية- إذ كان لها هي الأخرى دورا بارزا في كثير من الأحداث السياسية التي عرفتها إيالة الجزائرية خلال هذه المرحلة، كما ساهمت في تفعيل النشاط الثقافي والديني، وعملت على بعث روح التعاون والتضامن والتكافل الاجتماعي بين سكان إيالة، خاصة بين الفقراء وسكان الأرياف بسبب التهميش وسياسة التفرقة التي فرضت عليهم من طرف السلطة في إيالة²، وتنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها "الشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن المختار بن أحمد التيجاني"³، بدأ مؤسس الطريقة بنشر طريقته في الجزائر سنة 1782م، وكثر أتباعه وازداد نفوذ الشيخ حتى أن الباي "عثمان الكبير" باي وهران اعتقد ورأى أن أصحاب هذه الطريقة يسعون لإقامة حكومة خاصة بهم فجهز لهم حملة تاديبية نحو منطقة "عين ماضي"، وتمكن الشيخ من الهروب، وقد فرض على أهالي المنطقة غرامات مالية كبيرة، غير أن الباي لم يتمكن من القضاء على الطريقة التي تابعت نشاطها كما في السابق⁴.

أما في تونس، فقد وصل إشعاع هذه الطريقة إليها في عهد الشيخ "أحمد التيجاني" أثناء إقامته في "فاس" المغربية، حيث اجتمع به الشيخ "إبراهيم الرياحي"⁵ أثناء سفرته إلى المغرب الأقصى سنة

1- سليمان الصّيد، تاريخ الشيخ علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الرحمانية، دار هومة، الجزائر، 1998، ص ص 25، 26.

2- الأمير بوغدادة، التيارات الدينية في الجزائر خلال القرن 13هـ/19م، مرجع سابق، ص 84.

3- أحمد التيجاني: ينسب إلى قبيلة بن توجين التي استقرت قديما بـ "عين ماضي"، ولد 1150هـ/1737م سنة بمنطقة عين الماضي، رحل سنة 1758م إلى مدينة فاس، ثم دخل تلمسان حيث درس الحديث والتفسير، حج سنة 1773م، حيث التقى بالعديد من رجال التصوف، مرّ بتونس أثناء عودته، ثم عاد نحو فاس، ورحل بعدها إلى منطقة توات، ثم رجع إلى فاس واستقر بها حتى توفي بها سنة 1230هـ/1815م.

4- عزيز سامح الأتر، العثمانيون في شمال إفريقيا، تر: محمود علي عامر، دار النهضة المغربية للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1989، ص 570.

5- الشيخ إبراهيم الرياحي: ولد بمنطقة تستور سنة 1706م، التحق بالحاضرة تونس للتعلّم، حفظ القرآن الكريم، اشتغل بتأديب الصبيان، وهو العلامة الفقيه الشاعر الصوفي والرحالة السياسي، تولى عدّة مناصب علمية وسياسية، وأرسل في مهام دبلوماسية

(1803م-1804م) جلب "الميرة"¹، فكان الشيخ "إبراهيم الرّياحي" قد تأثّر به وهو بذلك أوّل من تلقّى الطّريقة التّيجانيّة بحاضرة تونس وتعلّق بها ونشرها وأقام أوراها ووظائفها، وهو أوّل من أظهر طريقته بتونس²، كما اجتمع كذلك الشيخ "المناعي التونسي" (ت 1247هـ/1834م) بمدينة "فاس" بالشيخ "أحمد التّيجاني" ومنحه إجازة لإعطاء أوراها الطّريقة بتونس، وقد أسّس زاويته قرب - حوانيت عاشور- وسرعان ما انتشرت في معظم أنحاء البلاد³، ولم يكتف الشيخ "إبراهيم الرّياحي" بالدعوة للطّريقة في تونس فحسب، بل دعا إلى الانخراط والانضمام فيها خلال موسم الحجّ في بيت الله الحرام سنة (1241هـ/1826م)، وحينما كان سفيرا لدار الخلافة العثمانيّة على عهد السلطان "محمود خان"⁴.

وقد استمرّ التّواصل بين الشيخ "إبراهيم الرّياحي" وبين الشيخ "أحمد التّيجاني"، ومن ذلك الرّسالة التي بعث بها هذا الأخير إلى الشيخ "إبراهيم الرّياحي" بعد عودته إلى تونس، وأهمّ ما جاء فيها: " إلى يد حبيبنا ورفيع المكانة في قلوبنا، سفير وجوّال بحار العلوم... سيّدي إبراهيم الرّياحي التونسي من كاتبه العبد الفقير لله " أحمد بن محمّد التّيجاني وبعد، فالسّؤال منّا عن أحوالك، كيف أنت... ونسأل الله عزّ وجلّ لك أيّها السيّد الكريم والماجد العليم أن يرزقك بين يديه وقفة كاملة صافية خارجة منه وإليه"⁵. كما أنّ الشيخ "إبراهيم الرّياحي" مدح شيخه "أحمد التّيجاني" في كم من موضع، ومن ذلك شعره الذي قال فيه:

مختلفة، له العديد من المصنّفات، انتخبه الباي "حمّودة باشا" سفيرا للسلطنة الشّريفية بالمغرب الأقصى على عهد السلطان "سليمان بن محمّد" لغرض طلب الميرة، توفّي الشيخ الرّياحي سنة 1850م.

1-الميرة: كان خلال هذه الفترة قد احتبس الغيث وقلّ الطّعام، كما وقع قحط شديد، فأرسله "حمّودة باشا" للإتيان بمعونة غذائيّة من المغرب على عهد السلطان الشّريف "سليمان بن محمّد" سلطان المغرب سنة 1218 هـ (1803م-1804 م) فسرح له الشّراء من المملكة، وحملها في مراكب.

2-محمّد السنوسي، مسامرات الطّريف، ج1، مرجع سابق، ص 160.

3-التّليبي العجيلي، الطّرق الصّوفيّة والاستعمار الفرنسي، مرجع سابق، ص 44.

4-سحابات زهيرة، الحضور الجزائري، مرجع سابق، ص 226.

5-عبد الرّحيم بن حادة، عبد الرّحمان المودّن، شبكات التّواصل في المغارب والعالم المتوسّطي، مطبعة النّجاح، د ط، 2008، ص 121.

صاحِ اَرْكَبِ العِزْمَ لا تُحْلِدْ إلى اليأس *** واصْحَبْ أحا الحِزْمِ ذا جِدِّ إلى فاس
 واشْرَحْ متونَ صِباباتي لِجِيرتها *** وحيِّ حَيًّا بهم قد كان إيناسي
 لا يُبْصِرُ الحُسْنَ إلا في وجوهِكُمْ *** وليس ينجح في حبِّ لوسواسِ
 عَوْثُ البرايا أبو العباسِ أحمدُ مَنْ *** معناه أعظمُ أن يُجَلِّي بقرطاس
 أعني التَّجانيَّ تاجِ العارفينِ وَمَنْ *** بسابغِ الفضلِ مِنْ عرفانه كاسي
 وَابْعَثْ له عند سمعِ النَّظْمِ مرحةً *** تنفي عليَّ شَقَاوَاتِي وإفلاسي¹

وانتشرت هذه الطّريقة سريعا في تونس، ففي الجنوب التونسي انتشرت الطّريقة نتيجة الاتّصالات مع منطقة "سوف" وجهود بعض رجال هذه الطّريقة، ومن ذلك الشيخ "الطّاهر بن عبد الصّادق القماري"² الذي وصل "توزر" بإذن من خليفة الشيخ "التّيجاني" الحاج "علي التّماسيني" فانتشرت الطّريقة انتشارا واسعا على يديه³، فشملت الطّريقة معظم الأراضي التّونسيّة خلال القرن 13هـ/19م، وظهرت لها في الإيالة عدّة زوايا، ومن ذلك: زاوية الطّرنجة بمدينة تونس سنة 1254هـ/1838م، وهي أوّل زاوية للطّريقة في تونس، وزاوية "باب المنارة" التي تأسّست سنة 1287هـ/1866م من طرف "محمد العيد التّماسيني" خلال زيارته إلى تونس في طريقه للحج⁴، وبمدينة "توزر" التي تأسّست فيها عدّة زوايا لهذه الطّريقة⁵.

ورغم دخول هذه الطّريقة المتأخّر إلى الإيالة التّونسيّة، إلا أنّها سرعان ما انتشرت في معظم البلاد ومختلف مدنها، وهذا الجدول يوضّح ذلك⁶:

1- مُجَدِّ التّيفر، عنوان الأريب، ج2، مرجع سابق، ص ص46، 47.

2- الشيخ الطّاهر بن عبد الصّادق القماري: أصله من بلدة قمار (واد سوف)، كما يدلّ ذلك من اسمه، كان مقرّبا للشيخ "علي التّماسيني"، توفّي جمادى الثّانية 1266 هـ/ أبريل 1850 م، وقبر بالزاوية المنسوبة إليه بمدينة توزر.

3- عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ أحمد التّيجاني وأتباعه، مطبعة الوليد، د ط، الوادي، الجزائر، ص 186.

4 علي غريسي، "زاوية باب المنارة من التّأسيس إلى التّجديد"، مطبوعة سلسلة الطّريقة التّيجانيّة، تماسين، العدد3، جويلية 2010م، ص 02.

5- يوسف الطّيب، العلاقات العلميّة بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص ص228، 229.

6- يوسف الطّيب، العلاقات العلميّة بين الجزائر وتونس، المرجع نفسه، ص ص229، 230.

المدن	عدد الزوايا	عدد الأتباع
بنزرت	02	293
تونس	06	501
باجة	/	400
تالة	/	5350
القيروان	02	1578
قفصة	/	500
توزر	03	555
سوسة	03	123
مدنين	01	68
مجاز الباب	01	201

جدول 2 / - أهمّ الزوايا وعد أتباع الطريقة التيجانية في بعض المدن التونسية.

5- الطريقة الحنصالية: وهي فرع من الطريقة الشاذليّة، وتنسب إلى مؤسسها "أبو أمين سعيد بن يوسف الحنصالي"، وهو من قبيلة "بني مطير" الواقعة جنوب "فاس" بالمغرب الأقصى، وهو من مواليد القرن 17م¹، وتوفي هذا الشيخ سنة (1114هـ/1702م)، وقد عمل على نشرها في الجزائر الشيخ "سعدون الفرجيوي"، الذي كان قد تتلمذ على الشيخ "يوسف الحنصالي" الذي أصبح مقدّما لشيخه، وقد اشتهرت الطريقة أكثر في عهد الشيخ "أحمد الزواوي" باعتباره من عائلة مرابطيّة، ومن أشهر رجالات هذه الطريقة الشيخ "أحمد المبارك العطار" وهو من علماء مدينة "قسنطينة" ومؤرخيها المشهورين صاحب كتاب "تاريخ قسنطينة" والذي ترك منظومة في الطريقة الحنصالية سماها "نصيحة الإخوان" في أصول التربية وآداب السلوك، انتشرت هذه الطريقة انتشارا واسعا في الشرق الجزائري، وتمركزت خصوصا في مدينة قسنطينة²، وأمّا في وسط البلاد وغربها، فعدد أتباعها قليل¹، خلال هذه

Louis Rin: Marabouts et Khouns, étudi sur L'islam en Algérie, Adphe joudou -1 libraire, éditeur, Alger, 1884, P398.

2-صلاح مؤيد الدين العقي، الطرق الصوفيّة بالجزائر، دار البصائر، د ط، الجزائر، 2007م، ص ص 156، 157.

الفترة كان لهذه الطّريقة علاقات سواء مع الزّاوية الأمّ بالمغرب الأقصى ومع الكاف في تونس، حيث يوجد مجموعة من أتباع الطّريقة الحنصاليّة² والتي انتقلت من شرق إيالة الجزائر إلى غرب الإيالة التّونسيّة، ويعود ذلك لكثرة زواياها في الجزائر (05 زوايا) وكثرة مرديها كذلك حوالي 3530 مرید³. وكلّ هذه الطّرق الصّوفيّة السّالفة الذّكر، هي طرق ظهرت في الإيالة الجزائريّة أوّلا، وكان لها دورها الكبير والفعلّ في الحياة السّياسيّة والثّقافيّة والدينيّة والاجتماعيّة خلال مرحلة محلّ الدّراسة، ثمّ انتقلت وانتشرت في تونس، وقد ساهم متصوّفوا ورجال هذه الطّرق في نشرها وكسب مرديين لطريقتهم، وكسبوا تعاطف حكام هذه الإيالة، ودليل ذلك السّماح لهم بتأسيس وبناء زوايا لهذه الطّرق الصّوفيّة في مختلف مدن الإيالة، والتي كان لها تأثير واسع على الحياة العامّة بها، وخاصّة منها الطّريقة الرّحمانيّة والتّيجانيّة والقاديّة.

ثانياً - الطّرق الصّوفيّة في تونس: وأمّا بالنّسبة للطّرق الصّوفيّة والتي تواجدت في الإيالة التّونسيّة ثمّ انتقلت إلى إيالة الجزائر فتمثّلت أهمّها فيما يلي:

1 - الطّريقة الشّابّيّة: تنتسب إلى مؤسسها الشّيخ "أحمد بن مخلوف الشّابّي"⁴، ويعتبر العديد من المؤرّخين أنّ هذه الطّريقة هي طريقة متفرّعة عن الطّريقة الشاذليّة شأنها في ذلك شأن كثير من الطّرق⁵، وإذا كان الشّيخ "أحمد بن مخلوف الشّابّي" هو المهد الأوّل لهذه الطّريقة، فإنّ ابنه الشّيخ "عرفة بن أحمد الشّابّي" يعتبر المؤسس الحقيقي للطّريقة، وذلك لوضعه منهجا ومسلكا لها⁶، وقد عمل العثمانيون على تشيبتها لوقوفها ضدّ التّدخل العثماني في تونس، ولم تبرز في تونس إلّا بعد مدّة في منطقة الجريد

1- عبد الحكيم مرتاض، الطّرق الصّوفيّة بالجزائر في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 44.

2- حمزة بوقادوم، الحضور الصّوفيّ بالجزائر بمدينة الكاف، مرجع سابق، ص 600.

3- Louis Rin: Marabouts et Khouns, op.cit., P398.

4- أحمد بن مخلوف: المولود ببلدة الشّابّيّة حوالي (835هـ/1431م) وبها نشأ وترعرع، قام بعدّة رحلات علميّة ورحلات صوفيّة، وقد ارتبط اسمه بالبلدة التي ولد بها وهي (الشّابّيّة)، وهي مدينة على السّاحل الشّرقى للبلاد التّونسيّة بين سوسة وشفافس، توفي الشّيخ حوالي (898هـ/1492م).

5- التّليبي العجيلي، الطّرق الصّوفيّة والاستعمار الفرنسي، مرجع سابق، ص 49.

6- كوثر العايب، العلاقات الجزائريّة التّونسيّة عهد الدّايات، مرجع سابق، ص 111.

تحت مسمى جديد وهو "بيت الشريعة"، والتي تأسست في عهد الشيخ "علي بن محمد المسعود الشابي" (ت 1663م)، وهو ابن الشيخ "مسعود الشابي"¹.

أما بخصوص انتقالها إلى الجزائر، فقد وفد على الشيخ رجل منطقة الأوراس (سوق أهراس) ينتمي إلى قبيلة "الحنانشة" واسمه "نصر بن أحمد المقنعي الحنانشي" فأخذ عنه طريقته وتكفل بنشرها في قبيلته التي كان مجالها الجغرافي يمتد ما بين شمال قسنطينة إلى شمال غرب القطر التونسي²، ثم تأسست زاوية بمنطقة "ششار" قرب (خنشلة حالياً)، حينما لجأ الشيخ "محمد المسعود بن محمد بالنور" وهو الشيخ الثامن للطريقة³، وقد توسع نشاط هذه الطريقة ليشمل عدة مدن أخرى مثل تبسة ووادي سوف أين تأسست عدة مساجد، لذا غزت الطريقة الشابيّة المنطقة الممتدة حالياً من سوق أهراس والقالة (عنابة) وقسنطينة والأوراس إلى مشارف الصحراء⁴.

ففي منطقة "سوف" تذكر المصادر التاريخية أنّ الشيخ "المسعود الشابي"⁵ قد انطلق في رحلته الدعويّة بالمنطقة متّصلاً بالقبائل المجاورة، حيث ساهم في الصلح بينهم واهتم بتعليمهم علوم الدين ومبادئ الطريقة الشابيّة، كما دعا سكان المنطقة إلى بناء المسجد الذي أصبح يعرف باسمه (جامع

1- التليلي العجيلي، الطّرق الصّوفيّة والاستعمار الفرنسي، مرجع سابق، ص 49.

2- علي الشابي، العارف بالله أحمد بن مخلوف الشابي، وفلسفته الصّوفيّة، الدّار التونسيّة للنشر، تونس 1399هـ/1979م، ص ص 60، 62.

3- عبد الحكيم مرتاض، الطّرق الصّوفيّة بالجزائر في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 29.

4- أحمد البوني، الدّرة المصونة، مصدر سابق، ص 170.

5- مسعود الشابي: هو المسعود بن محمد الشابي بن عبد اللطيف بن ابي المكرم، يعود نسبه إلى عبد الله بن مسعود، عرف بالشابي نسبة الى بلدة الشابة بتونس، وهي مكان قرب مدينة المهديّة، قدم إلى سوف أواخر القرن 16م، وعمل على تأسيس مسجدين؛ الأوّل في الوادي، والآخر بقمار سنة 1597م، كانت وفاة الشيخ مسعود الشابي حوالي 1028هـ/1619م، ينظر الصّروف، ص 192.

سيدي مسعود¹، وتزايد النشاط الدعوي للشيخ في هذه المنطقة بسبب تردده عليها، وبسببه خرج كثير من أهل سوف من الجهل إلى نور العلم، وسرت دعوته في الناس من بعده².

إنّ النهج الدعوي الذي اتّبعه "مسعود الشّابّي" كان له الأثر في التواصل الصّوفي الشّابّي بين الإيالتين من خلال أسلوب تقليدي يستوعب معظم شرائح المجتمع، حيث قام هذا الأسلوب على الطّابع القصصي والأحادي التي تتناسب مع الإدراك العقلي لأفراد المجتمع خلال تلك الفترة³، كما وردت على الشّيوخ بعض المسائل الفقهيّة للإفتاء فيها، ومنها نازلة مفادها أنّ "أهل المسيلة اشتبهوا ببيع جلود الضّأن المغشوشة بجلود الميّتة، وكانوا يصنعون منها الفرو، فما حكمها في بيع واللّباس؟"، وقد أجاب الشّيوخ أنّ هذا الأمر حلال لأنّ الأصل في الأشياء الطّهارة⁴، لقد كان لهذه الطّريقة دور اجتماعي وديني مهمّ في هذه المنطقة من خلال حلّ النزاعات والصّراعات القبليّة، وتنظيم الاستفادة من الموارد كميّاه الجريد وملكيّة التّخيل وتفعيل دور المؤسّسات الدينيّة والمتمثّلة في المساجد التي شيّدها للقيام بالنشاط الدعوي، وما زالت تحمل أسمائهم، ولا سيما "مسعود الشّابّي" وابنه "علي الشّابّي"، كدليل على ما تركوه من أثر طيّب كبير في المنطقة⁵.

2 - الطّريقة البوعليّة: تأسّست في القرن 13 م، وهي تنسب إلى الوليّ الصّالح "أبو علي" دفين نفطة، كما ظهرت لها زاوية بمنطقة الكاف أسّسها "محمد المازوني". ولها في وادي سوف اتباع، ويزورون شيخهم ويتبركون به.

1- Ahmed Najah: Le souf des oasis, éditions la maison du livre, Alger, 1971, p125.

2- إبراهيم محمّد السّاسي العوامر، الصّروف في تاريخ الصّحراء وسوف، مرجع سابق، ص 244.

3- علي الشّابّي، "مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّابّيّة"، المجلة التّاريخيّة المغاربيّة (م.ت.م)، العدد 13، 14، يناير 1979، مطبعة الاتّحاد التّونسي للشّغل، تونس، ص: 63.

4- يوسف بن حيدة، التّواصل الصّوفي للطّرق الصّوفيّة بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانيّة "الطّريقة الشّابّيّة نموذجاً"، أطروحة دكتوراه، جامعة الجليلي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، ص 210.

5- علي غنابزيّة، "وادي ريغ من خلال تاريخ العدواني"، مجلة الباحث في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، العدد 2، معهد العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، المركز الجامعي، الوادي، 2011م، ص: 118.

3 - المرزوقية: وتنسب إلى سيدي مرزوق ، وهو رجل أسود كان خادما عند سيدي بوعلي النفطي ، فلما توسم فيه الصلاح ، وظهرت عليه الكرامات ، امره ان يستقل بنهجه الصوفي.¹ وصار يدين له بالولاء سكان الجريد التونسي، وانتقل ذلك إلى الجزائر ولاسيما وادي سوف وما جاورها، وهي تضم ذوي البشرة السوداء، ويدعون "الوصفان"، والذي ينتمون في اتجاههم الصوفي لمختلف الطرق الصوفية.²

إن تلك الطّرق الصّوفيّة التي ذكرناها وغيرها، ممّن لا يتّسع المجال لذكرها³، والتي ظهرت في الإيالتين على تقوية الصّلات الروحيّة بينهما خلال فترة العهد العثماني، ويظهر ذلك من خلال عمل العديد من المتصوّفة الجزائريين قد ساهموا في نقل ونشر طرق صوفيّة جزائريّة في تونس، ومن خلال كسب مريدين جدد لطريقتهم، ومن هذه الطّرق الرّحمانيّة والطّريقة التّيجانيّة.

كما جسّدت هذه الطّرق الصّوفيّة التّواصل العلمي والتّقافي بين الإيالتين خلال هذه الفترة، وأتّضح ذلك من خلال ما قامت به الطّريقة القادريّة سواء في تونس أو الجزائر، حيث كانت زاوية نفطة القادريّة أو زاوية توزر مركزا تعليميا مهمّا تُخرّج منه العديد من الطّلبة الجزائريين، خاصّة منطقة شرق الجزائر وجنوبها الشّرقية، حيث صارت هذه الزّاوية (زاوية توزر) ملاذا لأهل سوف يقصدونها لحفظ القرآن الكريم استعدادا لدخول جامع الزّيتونة⁴ واستكمال الدراسة فيه، وكذلك الأمر بالنّسبة للطّريقة الرّحمانيّة التي كانت زاويتها بنفطة منارة للعلم والتّصوّف يقصدها طلّاب الجنوب الجزائري وحتى من قسنطينة ومنطقة الأوراس وبلاد القبائل للتّلمذ على كبار علماء هذه المنطقة مبادئ العلوم⁵، وتعدّها

1- إبراهيم العوامر، الصروف، المرجع السابق، ص 166.

2- علي غنابزيّة، مجتمع وادي سوف، مرجع سابق، ص 184.

3- لقد اكتفينا بأهمّ الطّرق الصّوفيّة التي كان لها تأثيرا كبيرا في الحياة العامّة في كلا الإيالتين، نظرا لانتشارها الواسع وجهودها المختلفة، أمّا الطّرق الصّوفيّة مثل الطّريقة الحشاشيّة، والتي هي طريقة كانت خاصّة بأهل تقرت من الجزائريين الذين انتقلوا إلى إيالة تونس بالعهد العثماني، وقد وجدت هذه الطّريقة مناخا جيّدا للاستقرار والانتشار ووجود مريدين لها، غير أنّ تأثيرها كان ضعيفا.

4- علي غنابزيّة، مجتمع وادي سوف، مرجع سابق، ص 203.

5- مُجّد الصّالح الجابري، التّواصل التّقافي بين الجزائر وتونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص ص 221، 222.

الأمر إلى تبادل الرسائل الإخوانية ومنها رسالة الشيخ "مصطفى بن عزّوز" إلى الشيخ "علي بن عثمان" شيخ الزاوية الرحمانية بطولقة (بسكرة) التي عبّر فيها عن مكانة الشيخ والتي ختمها بطلب الدعاء له¹، وكذلك الأمر بالنسبة للفتاوى المتبادلة في الأمور الدينية والصوفية ومن ذلك الأمر ما أجاب به الشيخ "أحمد التيجاني" عن سؤال ورده من "محمود التونسي" عن الصلاة وكيفية ترقيةها، وقد أجابه الشيخ عن ذلك².

ولهذا فقد شكّلت الطرق الصوفية جسرا للتواصل العلمي بين الجزائر وتونس بحكم ارتباط هذه الطرق ببعضها البعض نتيجة وحدة أصولها الفكرية، وظهر جلياً من خلال نشر الوعي والمعرفة بين سكان المناطق الشرقية لإيالة الجزائر والمناطق الغربية لإيالة التونسية، والحفاظ على الموروث الثقافي للإيالتين ومرجعيتها الفقهية القائمة على المذهب المالكي، وتوثيق العلاقات بين القبائل الحدودية وخاصة الاجتماعية منها للتخفيف من حدة الصراع والنزاعات³، وتكوين فئة مثقفة من خريجي الزوايا، والمساهمة في تطوير وتمتين الروابط العلمية والثقافية بين الإيالتين.

والخلاصة، وبعد استعراض ثلّة من علماء الجزائر ورحلاتهم إلى تونس، وتبادل الزيارات من علماء تونس، إلا أن علماء الجزائر كانت لهم أدوارهم العلمية بالإيالة التونسية، فتولّوا مناصب بارزة ومرموقة في الإفتاء والقضاء، والخطابة والتدريس، فأثبتوا جدارتهم وسجّلوا أسماءهم في مراتب المجد العلمي. كما أن الزيارات المتبادلة بين علماء الإيالتين، أثمرت منح الإجازات العلمية، وتنظيم المناظرات التي ظهرت من خلالها الخبرة والتمكن العلمي من الطرفين، فضلا عن تبادل الرسائل حول الفتاوى الشرعية التي

1- يوسف الطيّب، العلاقات العلمية بين الجزائر وتونس، مرجع سابق، ص 245.

2- محمود التونسي، العلاقات العلمية، ص، 300.

3- إلاّ منها ما ندر، ومنها علاقة الطريقة الشاذلية بمنطقة "خنقة سيد ناجي" باعتبارها مركزا علميا وثقافيا خلال هذه الفترة، حيث كانت بينهما صراعات ومطاردات بين الطرفين نظرا للطابع الصوفي والديني المختلف بين الطريقتين، ومكانة الشاذلية في المنطقة وسعيها لاستقطاب القبائل ضد الأتراك، ممّا جعلها منافسا قويا لزاوية الخنقة، وأدى إلى توتر العلاقات بين الشيخين "سيدي المبارك" والشيخ "عبد الصمد الشاذلي".

تخص النوازل المستعصية، والتي تصدى لها علماء الجزائر، وأظهروا مكانتهم بين صفوف العلماء الأجلّاء.

إن الطرق الصوفية، كانت هي الأخرى مجالا رحبا، لربط العلاقات ، وتبادل الزيارات، وتأسيس الزوايا في تونس بالخصوص، أو تنشيط الزوايا الخاملة، مثل الزاوية القادرية، وجعل بعض الزوايا تمتد في تونس، وتنتشر انتشارا واسعا مثل الرحمانية والتجانية، واحداثنا أثرا صوفيا بارزا. إضافة إلى اتجاهات صوفية تونسية الأصل، كان لها الأثر في ربط العلاقات السياسية والروحية مثل الشايبية، أو ذات طابع ديني روحي مثل البوعلية والمرزوقية.

وهكذا، فإن التواصل العلمي والثقافي والروحي الذي حمل لواءه علماء الجزائر في العهد العثماني مع تونس، كان ساطعا في التاريخ، ومؤثرا في المجتمعات، ورابطا بين البلدين، ومجسدا للروح الدينية الفعالة.

الخاتمة

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة والموسومة ب : " العلماء الجزائريون في تونس ودورهم في الحياة العلمية والثقافية وأثرهم في النواصل الثقافي بين البلدين ما بين القرنين 16 و19 م / 10 و13 هـ". توصلت إلى جملة من الاستنتاجات والملاحظات والتي يمكن إيجازها في ما يلي :

- تجذّر التواصل العلمي والثقافي بين الجزائر وتونس والذي يعود إلى عصور سابقة في تاريخ المغرب الاسلامي ، وهذا يعود لعوامل عدّة كان التاريخ والجغرافيا العامل الرئيسي فيها .

- التأثير الأندلسي الواضح على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وغيرها في كل من الجزائر وتونس على السواء وخاصة الثقافية منها، وهذا نتيجة لهجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب عقب سقوط الأندلس وعمليات التهجير القسري التي تعرّض لها المسلمون في بلاد الأندلس، حيث استقرّ العديد من علماء الأندلس في بلاد المغرب وكانوا إضافة مهمّة للمراكز العلمية المختلفة الموجودة في الجزائر أو تونس.

- رغم الأضرار الكبيرة التي نتجت عن الاحتلال الاسباني للعديد من المدن الساحلية في كل من الجزائر وتونس ومنها تخريب المنشآت الدينية وتحويلها إلى كنائس وحرق العديد من المؤلفات، كما حدث في تونس من خلال تدمير المكتبات وحتى هجرة العلماء نحو المدن الداخلية أو بلدان المشرق، إلا أنه كانت له بعض الإيجابيات ولعلّ أهمها هو التفاف سكان الحاضرتين حول العلماء بسبب مناداة هؤلاء العلماء بالجهاد ضد هذا الاحتلال بل إنّ كثيرا من رجال السلطة استعملوا هؤلاء العلماء لتحريض الأهالي لطردهم العدوان، إضافة إلى كثرة التصانيف للأدباء والشعراء والعلماء خلال الفترة التي صاحبت الغزو الاسباني .

- تعدّد وتنوّع المراكز والحواضر العلمية والثقافية في الجزائر وإن كان تأثيرها وإنتاجها متفاوتا، أمّا بالنسبة لتونس فإنّ مراكزها وحواضرها العلمية والثقافية تفوق نظيرتها في الجزائر سواء من حيث العدد أو تجذّرها التاريخي أو حتى في قوّة تأثيرها وإنتاجها العلمي - جامع الزيتونة مثلا - وهو ما حدا بعلماء الجزائر خلال الفترة الحديثة أي العهد العثماني بالهجرة نحو هذه المراكز والحواضر العلمية بغرض الاستزادة العلمية أو للتدريس .

- كثرة الرحلات العلمية من الجزائر نحو تونس، وهذا أمر طبيعي لقلّة المراكز العلمية والثقافية في الجزائر

وكثرتها في تونس يُضاف إلى ذلك الأوضاع السياسية التي سادت في الجزائر والتي ميّزتها علاقات التوتر بين السلطة والعلماء وهو ما حفّزهم على الهجرة نحو تونس وغيرها.

- تضافرت عدّة عوامل سياسية واقتصادية وأخرى اجتماعية وثقافية لهجرة علماء الجزائر خلال العهد العثماني نحو الخارج وخاصة تونس نظرا لطبيعة الجوار وعناية حكام الإيالة التونسية بالعلم والعلماء، وكذلك احتواء تونس على مراكز علمية هامة مثل : جامع الزيتونة والقيروان ومدينة جربة وهو ما ساهم في جذب العلماء الجزائريين نحوها.

- تقاسم الدور التعليمي في الجزائر وتونس خلال الفترة الحديثة كل من المساجد والجوامع والكتاتيب والمدارس والزوايا، وقد تمّ تعيين موظفين وموارد مالية لتوفير متطلبات المتعلمين والمعلمين على السواء وهذه الموارد تمثّلت في عائدات الأوقاف التي اهتم بها كثيرا حُكّام الحاضرتين بل كانوا هم أبرز المساهمين فيها من أموالهم الخاصة، وقد يكون ذلك رغبة في الثواب من الله وتقربا إليه، أو لإرضاء مشايخ الطرق - خلال البحث كذلك لاحظت قلّة هجرة علماء الجزائر نحو تونس مقارنة بالهجرة نحو المغرب الأقصى ورّما يعود ذلك لاهتمام الحُكّام السعديين بالعلماء إضافة للتوتر بين العثمانيين والسعديين الذين عملوا على جلب العلماء الجزائريين إليهم، وكذلك وجود حواضر علمية مشهورة بها مثل فاس أو مراكز علمية مثل جامع القرويين، كما أنّ بلاد المشرق كذلك كانت وجهة للعلماء الجزائريين خلال هذه الفترة محل البحث إما لأداء فريضة الحج ثم الاستقرار هناك للاستزادة العلمية أو للتدريس في الحواضر العلمية والمراكز العلمية والتي من بينها جامع الأزهر بمصر.

- الهجرة العكسية ونعني بها هجرة علماء تونس نحو الجزائر كانت قليلة مقارنة بعلماء الجزائر الذين هاجروا إلى تونس، ويعود ذلك لاكتفاء هؤلاء العلماء بجامع الزيتونة واهتمام حُكّام تونس خلال العهد العثماني بالعلم والعلماء من خلال اجلالهم والنفقة عليهم .

- حظوة العلماء والرحالة الجزائريين في تونس وظهر ذلك من خلال التقدير والاحترام الذي قوبلوا به سواء من طرف الحكام أو حتى العلماء الذين تهافتوا على اقتناء مصنفاتهم ومؤلفاتهم ومجالستهم والاستزادة العلمية منهم أو حتى الحصول على الإجازات العلمية من طرفهم ، كما أنّ تفوّقهم العلمي على نظرائهم من تونس - أبي راس الناصري والورتيلاني مثلا - زاد من هذه الحظوة وهذه المكانة.

- ممّا يلاحظ كذلك غزارة الإجازات العلمية المتبادلة بين علماء الايلتين والتقاريط وتبادل المؤلفات والمناظرات العلمية المفيدة والمراسلات، وهي كلها تدلُّ على تقدير واحترام العلماء فيما بينهم.

-المساهمة الفعّالة للرحالة والعلماء الجزائريين في الحياة العامّة في تونس وخاصة في تنشيط الحركة العلمية والثقافية والدينية من خلال المشاركة في التدريس والخطابة والإفتاء والقضاء والإصلاح الاجتماعي والديني كما ذكرنا ذلك في ثنايا البحث من خلال علماء بني ميزاب في جربة.

- الدور الكبير الذي قام به شيوخ ورجال الطرق الصوفية الجزائريين في الحفاظ على الموروث الثقافي في الايلتين، والمساهمة الكبيرة في الحياة الثقافية والاجتماعية في تونس خصوصا ويظهر ذلك من خلال رجال الطريقة الرحمانية والقادرية والطريقة التيجانية .

-استمرار التواصل الثقافي بين الايلتين رغم توتر العلاقات السياسية أحيانا بينهما.

وفي الأخير يمكن القول أن ما توصّلت إليه في هذه الدراسة من نتائج لا يضع حدًّا لدراسة هذا الموضوع الواسع بل هي محاولة يجب تدعيمها بدراسات علمية أخرى و مواصلة البحث والتنقيب فيه، وذلك من خلال طرح بعض الاشكاليات العلمية في هذا المجال ومنها: لماذا اختار هؤلاء العلماء الهجرة إلى بلدان أخرى تونس وغيرها (المغرب الأقصى، مصر ...) ممّا فسح المجال لانتشار الدروشة وتردّي الأوضاع العلمية في الجزائر ؟ وغيرها من الاشكاليات العلمية التي تكون منطلقات لدراسات علمية أكاديمية أخرى، مع ذلك فهذا العمل يُعتبر دراسة حاولت من خلالها أن أضع لبنة تُضاف للدراسات المتخصصة في كتابة تاريخ بلاد المغرب ولبنة تُضاف في مجال الدراسات التاريخية المتعلقة بالتاريخ الثقافي لبلاد المغرب خلال الفترة العثمانية والتي يجب أن تتبعها دراسات أخرى تُثري هذا الموضوع والله هو الموقِّع والهادي إلى سواء السبيل.

الملاحق

-وثائق تاريخية

-صفحات من مخطوطات

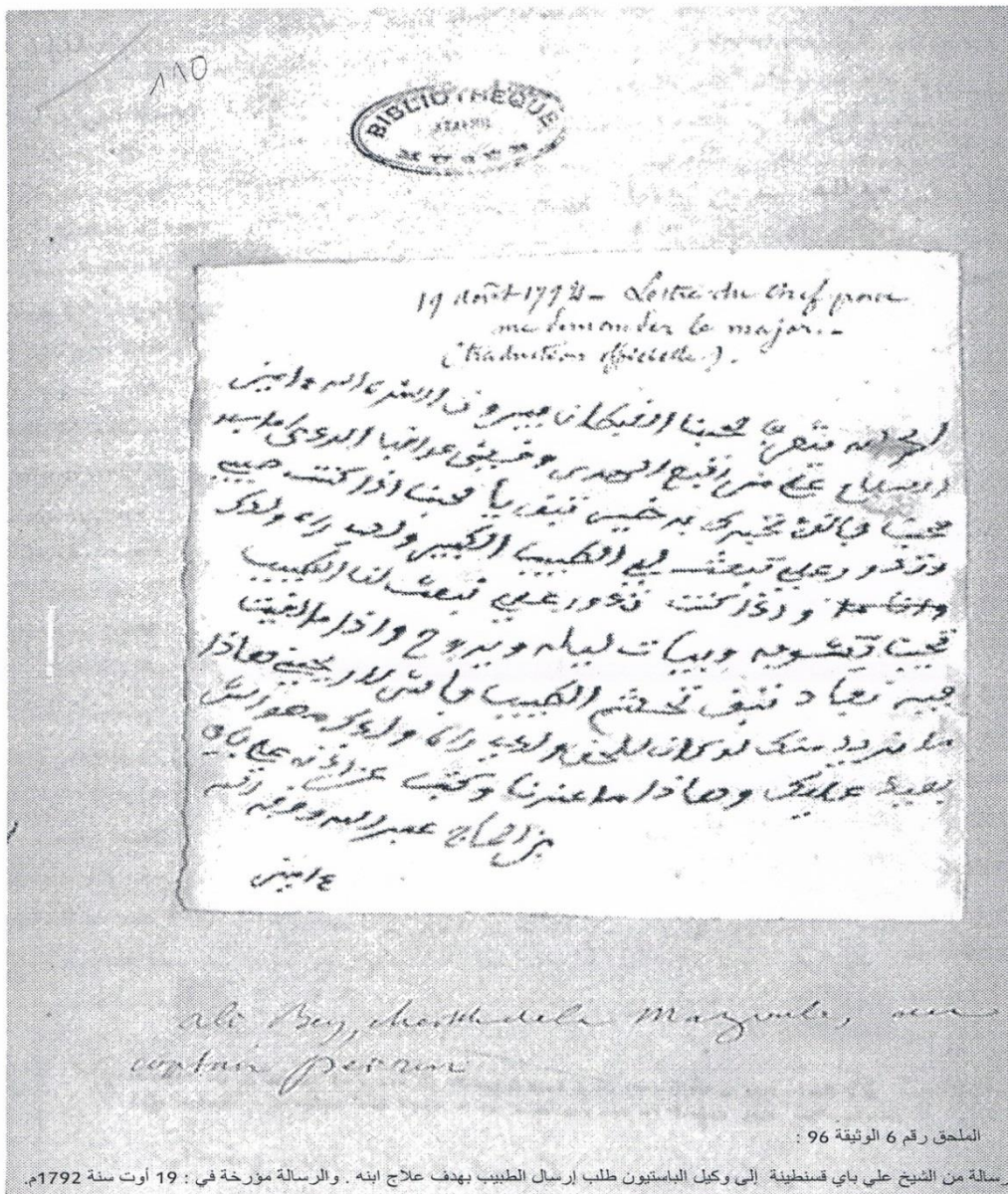
- صور لمساجد عريقة

-خرائط توضيحية

الملحق رقم 01 : الوثيقة 96 رسالة من الشيخ علي باي باي قسنطينة إلى وكيل البستيون طلب إرسال الطبيب بهدف علاج ابنه والرسالة مؤرخة سنة 1792م.

الحمد لله يتعرف صحبنا القبطان فيرون أرشده الله آمين.

السلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى آمين بحيث... نخبرك به خير تبقى يا محبنا أذا كنت حي وتدور علي تبعث لي الطبيب الكبير ولدي راه ولدك وإذا كنت تدور علي تبعث لنا الطبيب تحب يشوفه وبيات ليلة ويروح وإذا ما لقيت فيه نفاذ تبق تحشم الطبيب باش لا ريحني هذا ما نريد منك لو كان للحق ولدي راه ولدك مهواش بعيد عليك وهذا ما عندنا وكتب عن إذن علي باي بن الحاج عبد الله وفقه الله . آمين .



المصدر: الأرشيف التونسي .

الملحق رقم 04: أحد أبواب جامع الزيتونة مكتوبا في أعلاه تاريخ تجديد الجامع الصورة بعدستي الخاصة ، تاريخ التقاط الصورتين يوم : 29 ديسمبر 2012م .



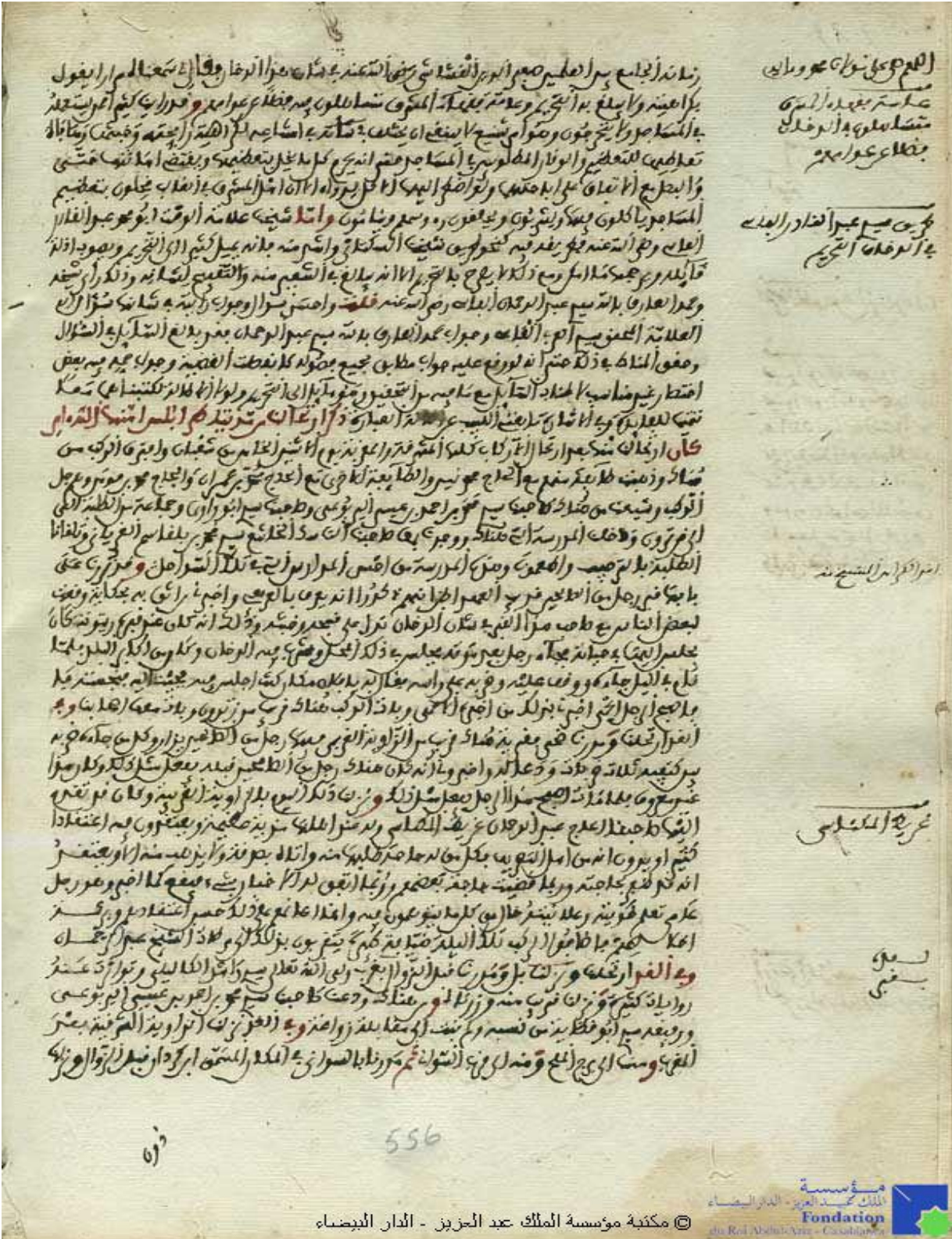
أحد أبواب جامع الزيتونة مكتوبا في أعلاه تاريخ تجديد الجامع . الصورة بعدستي الخاصة



جامع الزيتونة أحد المراكز العلمية والثقافية التي قصدها علماء الجزائر خلال العصر الحديث (العهد العثماني)

الملحق رقم 06: صفحة 547 و 548 من مخطوط رحلة العياشي متحدثا فيها عن لقائه ببعض

علماء تونس ، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز - تاريخ الاطلاع يوم 20 أبريل 2019 م.



العلم على نوارح هو وراي
 علمه مستور في العلم
 متصلا بعلومه في العلم
 بفضله عوامه

في يوم من يوم القادر العبد
 في النور على الترخيم

اشهر انهم من السبع منه

تاريخ الملحق

سنة
 ستمائة

فخرج الشيخ الطهري كما راعى وضو كداه مع غلبه ظلمت بمصداية تلك العترة وغيره منة ورجعنا به
 بذلك اليوم وروى في الخبرين المذكورين انهم لم يزلوا يركبون ويشتبهون مثل صاحب يس عمار واصل الزبيدي والفتي
 بنور الوصي الا صاحب شيخ التوب اعلم به انما اعسر الى بطنه ولم يطو الا به مع رحيلك وجاءت الابل في ذلك البكر
 غابوا في ذلك ما يطعمهم اربابهم اعطوا ان يكونوا يفتنون في ذلك اهل البدر ومن لم يفتن بنور كلامه ليس اعلم به
 انما في ذلك وهو من اهل هاد شيعت يس عمار فاجى وادخلت الحدائق والظلمة والزلزال عفر جسد عيسى عنك محمد
 انما في ذلك من زوى تاريخ سنة كذا او مشرب وما نمانه ومنه خط الالقاء في رطله منة وفروا على ما في
 نحو اير طبع من ذلك الجمل الجسد فقلت له ان من علم وصراير كذا ويغير عنك ان من دخل شعره في رطله
 اير منه كل يوم يفتن انتم كل ما يخلوا واري حلال هو جرد البيع اعسر من يملكه بغير سوطه نحو انما في
 سنة وعصمة الائمة اما علمه سنة الله في رحيلك دخلت الى البدر الفدر انما في ذلك الالام الشيخ
 شيخ اخرى ووزر يس عمار انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 وراية في رحيلك بنور حاد انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 ونور الله تعالى في رحيلك بنور حاد انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 بالبلاد المعروفة يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 الخلع وسع والى صفت الله به وليس في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 بعد ذلك انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 سرك في بطنه ووزر الشيخ اسما في اخرى وسرك في ذلك اليوم ولم يفتن الا جاسي العتمة والفتن انما في ذلك
 فويستوا الجراد وفروا في بيت الله بنور حاد انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 في سنة في نور زوى وادشا وادشا في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 ولم يفتن الا في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 الا في سنة ووزر الشيخ اسما في اخرى وسرك في ذلك اليوم ولم يفتن الا جاسي العتمة والفتن انما في ذلك
 واري في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 بيده زاد من ذلك انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 شعركه وشركه في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 محيطة وعلية في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 الجوز ووضو انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 فوي بعد الا في سنة اربع وسنة خمس وسنة ستة ذلك البدر وهو يتبع الى يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 وفروا عنه في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 ولا يوايز في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 بلون بها راوا اعلم انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 ونور حاد انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 بهم انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 لم ذلك في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 يعني مع انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك
 مع انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك يس عمار في انما في ذلك

يس

557

الملحق رقم 07: خريطة بعض الحواضر العلمية في تونس .



المصدر: الخريطة من انجاز الطالب.

الملحق رقم 08: خريطة بعض أهم الحواضر العلمية في الجزائر.



المصدر : الخريطة من أنجاز الطالب .

قائمة المصادر والمراجع

– القرآن الكريم برواية ورش

أولاً / قائمة المصادر العربية :

- 1- ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، مطبعة الدولة التونسية ، الطبعة الأولى، 1870 م.
- 2- ابن المفتي حسين بن رجب شاوش: تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق فارس كعوان، ط2009، 1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف ، الجزائر .
- 3- ابن زاكور الفاسي: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، المعروفة ب « رحلة ابن زاكور الفاسي » المتوفى 1120 هـ / 1708 م تحقيق : مُحمَّد ضيف ، ومحفوظ بوكراع ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع الجزائر، (د ط) ، 2011 م ، الجزائر .
- 4- ابن سحنون الراشدي :الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح و تق ،المهدي البوعبدلي الجزائر ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2013 ، الجزائر .
- 5- أبو الحسن علي القلصادي : رحلة القلصادي ،دراسة وتحقيق مُحمَّد أبو الأجنان ، الشركة التونسية للتوزيع، (د ط)، 1978، تونس .
- 6 – أبو الحسن علي بن عثمان الهوجيري: كشف المحجوب، دراسة وتحقيق وترجمة: إسعاد عبد الهادي قنديل، دار النهضة العربيّة للطباعة والنّشر، بيروت، لبنان، 1980م.
- 7- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلّوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،الدولة العلوية ، تح ،جعفر الناصري ،وَمُحمَّد الناصري ، دار الكتاب (د ت) ،(د ط) ،دار الكتاب ،1955م.
- 8- أبو العرب مُحمَّد بن أحمد بن قميم التميمي : كتاب طبقات علماء تونس ، ،(د ط)، دار الكتاب اللبناني ،بيروت لبنان .
- 9- أبو راس الناصري :عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ، دراسة وتحقيق محمّد بوركبة ،منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، ج1، 2011 الجزائر .
- 10- أبو راس الناصري الجزائري: نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان ،تح، وتع، محمّد الحبيب العلالّني وسهيل الحبيب ، تق ، مُحمَّد علي الحبيب ، منشورات مركز الدراسات الاسلامية بالقيروان (د ط)، 2012م ، القيروان ، تونس .
- 11- أبو زكريا يحيى ابن أبي بكر بن الحسن بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، مطبعة بيبير فونتانا ،(د ط)، 1903، الجزائر .

قائمة المصادر والمراجع

- 12- أبوبكر محمد الكلابادي: التعريف لمذهب أهل التصوّف، تح: محمود أمين الفوّاري، مكتبة الكليات ، ط2، 1980م، القاهرة، مصر .
- 13- أحمد ابن أبي الضيّف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية ج3 و ج7 ، (د ط)، 1999م، الدار العربية للكتاب بيروت، لبنان.
- 14- أحمد الشريف الزهّار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهّار، نقيب أشرف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، (د ط) ، 1974م، ش و ن ت ، الجزائر.
- 15- أحمد أمين بن فضل الله المحي الحنفي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تحقيق مُجّد حسن مُجّد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.
- 16- أحمد بن المبارك بن العطار: تاريخ بلد قسنطينة، تح، تع، تق، د/عبد الله حمّادي، (د ط)، 2011م، دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر.
- 17- أحمد بن قاسم الحجري: رحلة أفوقاي الأندلسي، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحاب (1611-1613)، تحرير وتقديم، محمد رزّوق ، ط1، 2004م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان.
- 18- أحمد بن هطّال التلمساني : رحلة محمد بن الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، وتحقيق وتقديم ، محمد بن عبد الكريم ، (د ط) ، 1969، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر.
- 19- أحمد قاسم البوني : الدرّة المصونة في صلحاء وعلماء بونة، تحقيق أ د / سعد بوفلاحة ، ط1، 2007، منشورات بونة للبحوث والدراسات عنابة، الجزائر.
- 20 - الآغا بن عودة المزاري : طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج 1، تح، يحي بوعزيز، (د ط) ، 1990م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 21- الجبرتي عبد الرّحمان بن حسن: عجائب الآثار في التّراجم والاخبار، تح: عبد الرّحيم عبد الرّحمان عبد الرّحيم، دار الكتب المصريّة، القاهرة.
- 22- الجبرتي عبد الرّحمان بن حسن، عجائب الآثار في التّراجم والاخبار، تح: عبد الرّحيم عبد الرّحمان عبد الرّحيم، (د ط) ، 1998م، دار الكتب المصريّة، القاهرة.
- 23- الحسين بن محمد الورتيلاني : نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ، أو "الرحلة الورتيلانية" ، مطبعة فونتانا الشرقية ، ج1 و ج2، د ط، 1908، الجزائر.

قائمة المصادر والمراجع

- 24- الزباني مُجّد بن يوسف: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح، تق، الشيخ البوعبدلي، ط1، 2013 م، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 25- الغبريني أبو العباس أحمد: عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ط2، 1981 م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 26- المقرّي شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج1، المطبعة الرسمية تونس.
- 27- جوهان أورنيست هابنسترايت: رحلة العالم ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م)، تر، تع، تق، ناصر الدين سعيدوني، ط1، 2008، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 28- جون أندريه بيسونال: الرحلة إلى تونس، ترجمة وتعليق، مُجّد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، (د ط)، 2003 م، تونس.
- 29- حسن بن مُجّد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي): وصف أفريقيا، ترجمة مُجّد حجي، ومُجّد الأخضر ط2، دار الغرب الإسلامي 1983 م، بيروت، لبنان.
- 30- حسين خوجة بن علي بن سليمان الحنفي: ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان (د ط)، 1908، المطبعة الرسمية العربية، تونس.
- 31- شالر وليام: مذكرات قنصل أمريكا (1816 - 1824) ترجمة وتعليق العربي إسماعيل، (د ط)، ش.و.ن.ت، 1982م، الجزائر.
- 32- صالح العنتري: مجاعات قسنطينة. تح، وتقديم، رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د ط)، 1974، الجزائر.
- 33- عبد الرّحمان بن خلدون: المقدمة، دار الجيل، د ط، بيروت، لبنان.
- 34- عبد القادر المشرفي: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبان كبني عامر، تحقيق مُجّد بن عبد الكريم، (د ط) (د ت)، منشورات مكتبة الحياة، بيروت لبنان.
- 35- عبد القادر المشرفي: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبان كبني عامر، تحقيق مُجّد بن عبد الكريم، (د ط) (د ت)، منشورات مكتبة الحياة، بيروت لبنان.
- 36- عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية، ت، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1987، بيروت، لبنان.

قائمة المصادر والمراجع

- 37 - مارمول كاربخال : أفريقيا ، ترجمه عن الفرنسية مُجّد حجي وآخرون ، ج 2، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع ،(د ط) 1989 م، الرباط ، المملكة المغربية.
- 38- مُجّد أمين بن فضل الله المحبي الحنفي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تحقيق مُجّد حسن مُجّد حسن إسماعيل (د ط) ، 2006م، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .
- 39- مُجّد بن الحاج بن مُجّد بن عبد الله الصغير الإفرائي : صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق د /عبد المجيد خيالي، ط1، 2004م، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب.
- 40- محمد بن عثمان السنوسي :مسامرات الطريف بـُحسن التعريف ، تحقيق وتعليق ،محمد الشاذلي النيفر ،دار الغرب الإسلامي ،ط1،1994،بيروت ،لبنان .
- 41- محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، تعليق عبد المجيد خيالي ، ط1، 2003 م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان.
- 42- مُجّد بن يوسف الزيّاني :دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تح تق المهدي البوعبدلي ، ط1، 2013 م، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ،الجزائر.
- 43- محمود مقديش نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ،تحقيق علي الزواري ، و مُجّد محفوظ ، ج2 ، ط 1 ، 1988، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،لبنان.
- 44- مسلم بن عبد القادر الوهراني :خاتمة أنيس الغريب والمسافر في الطرائف وال نوادر، تح ، رابح بونار ،(د ط)، 1974، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (ش. و. ن .ت)، الجزائر.
- 45- هنري دونان : الإيالة التونسية 1858م، تر، محمد فريد الشريف، (د ط) ، 2012م، المطبعة العصرية ،تونس.

ثانيا / المراجع العربية :

- 1 - إبراهيم حركات :مدخل إلى تاريخ العلوم، ج3، ، ط1،2000م ، دار الرّشاد ، الدّار البيضاء، المملكة المغربية.
- 11- إبراهيم بسيوني: نشأة تصوّف الإسلامي ،(د ط)، 1969م، دار المعارف، مصر.
- 2- ابن زكري محمد السعيد بن أحمد : أوضح الدلائل على وجوب اصلاح الزوايا في بلاد القبائل ، مطبعة فونتانا ، 1913، الجزائر.

قائمة المصادر والمراجع

- 3- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 وج 2، ط1، 1998م، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان .
- 15- أبو القاسم سعد الله: الطَّيِّب الرَّحَّالَة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005م.
- 16- _____: رائد التَّجديد الإسلامي محمد بن العنَّابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 18- أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري: الرِّسالة القشيريَّة في علم التَّصوِّف، مطبعة محمَّد علي صبحي وأولاده، القاهرة، د ط، 1957م.
- 4- أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري: الرِّسالة القشيريَّة في علم التَّصوِّف، مطبعة محمَّد علي صبحي وأولاده، (د ط)، (1957م)، القاهرة، مصر.
- 5- أحمد قاسم : إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظَّوم (1574- 1600م)، ، ، 2004 م، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، زغوان تونس .
- 6- الزركشي بن بدر الدين بن بهادر : إعلام الساجد بأحكام المساجد ، تقديم أيمن صالح شعبان، ط1، 1995، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- 14- ابن زكري محمَّد السعيد بن أحمد : أوضح الدلائل على وجوب اصلاح الزوايا في بلاد القبائل ، مطبعة فونتانا ، (د ط) ، 1913، الجزائر.
- 19- أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني: ابن عطا الله السَّكندري وتصوِّفه، المكتبة الأنجلو-مصريَّة ، ط2، 1969 م ، مصر.
- 20- إحسان إلهي ظهير: التَّصوِّف المنشأ والمصدر، ج1، ط1، 1986 م، إدارة ترجمان السَّنَّة للنشر، لاهور، باكستان.
- 21- أحمد عبد السلام : المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19 م ، ترجمة أحمد عبد السلام و عبد الرزاق الحليوي ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون . بيت الحكمة قرطاج ، (د ط) ، 1993 م، قرطاج ، تونس.
- 24- أحمد عبد السلام : مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع ، ط1، 1987، تونس .

قائمة المصادر والمراجع

- 22 - أحمد الحمروني : الهجرات الأندلسية إلى البلاد التونسية ، ميديا كوم ، ط1، 2009م، تونس.
- 23 - أحمد السعداوي: المدينة والوقف في تونس القرن السابع عشر من خلال وثائق الأوقاف ، ضمن كتاب " العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية" ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ، ط1، 2005، الرباط، المملكة المغربية.
- 25- أحمد قاسم : إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم (1574.1600م)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، زغوان تونس ، 2004 .
- 26- أحمد مريوش وآخرون :الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، د ط ، دار القصبه للنشر ، 2007.
- 27- احميدة عميراوي: فواصل من الفكر والتاريخ، دار البعث ،(د ط) ، 2002 م، قسنطينة، الجزائر.
- 28- إدوارد دونوفو: الإخوان دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، تر وتح: كمال فيلاي، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،(د ط) ، 2003 م، عين مليلة، الجزائر.
- 29- التليلي العجيلي: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881م-1939م)، منشورات كلية الادب بمنوبة، (د ط)، 1992م، منوبة ،تونس.
- 30- الزركشي بن بدر الدين بن بهادر : إعلام الساجد بأحكام المساجد ، تقديم أيمن صالح شعبان ، ط1 ، 1995، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- 31- المقرّي شهاب الدين : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج1، المطبعة الرسمية تونس.
- 32- المهدي البوعبدلي وناصر الدين سعيدوني : الجزائر في التاريخ العهد العثماني ، ج4 ، المؤسسة الوطنية للكتاب (د ط) ، ، 1984 م، الجزائر.
- 33- أندريه ريمون :العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية ،تع ،قاسم طوير، ط1 1986 ، دار المجد ،دمشق سوريا .
- 34- بومولة نبيل: صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني، إمارة المقرانيين في القرن 10هـ / 16 م ، دار هومة للنشر والتوزيع (د ط) ، 2013، الجزائر.
- 35- بونشادة عبد اللطيف: سير أعلام قسنطينة، دار الموعدة، قسنطينة، الجزائر (دط)، 2016م.

قائمة المصادر والمراجع

- 36- توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا (1492- 1792) ، ط 3 ، 1984، المؤسسة الوطنية للكتاب (م، و، ك)، الجزائر.
- 37- حسن حسني عبد الوهّاب : كتاب العمر في المصنّفات والمؤلفين التونسيين ،مراجعة ،بشير البكّوش ،مُجدّ العروسي المطوي ج1، ط1، 1990، دار الغرب الاسلامي ،بيروت لبنان.
- 38- حلّيمي عبد القادر علي :مدينة الجزائر نشأتها وتطوّرها قبل 1830 م، ط1، 1972م، المطبعة العربية للفكر الاسلامي ،الجزائر .
- 39- سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج1،(د ط)، 1971، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، مصر .
- 40- سليمان الصّيد: تاريخ الشيخ علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الرّحمانيّة،(د ط)، 1998م ، دار هومة، الجزائر.
- 41- صادق محمّد الحاج : مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف ،ديوان المطبوعات الجامعية (د ط)، 1994، الجزائر .
- 42- صلاح مؤيد العقبي: الطّرق الصّوفيّة والزّوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق،(د ط)، 2002، بيروت لبنان.
- 43- عبد الباقي مفتاح: أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، ط1، 2009م، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان،.
- 44- عبد الرحمان الجيلالي :تاريخ الجزائر العام ،ج2، ط1، 1955، المطبعة العربية، الجزائر .
- 45- عبد الرّحيم بن حادة، عبد الرّحمان المودّن: شبكات التّواصل في المغرب والعالم المتوسّطي د ط، 2008 م ، مطبعة النّجاح، الدار البيضاء، المملكة المغربية .
- 46- عبد العزيز فيلاي: تلمسان في العهد الزياني، ج2، موفم للنشر،(د .ط)، 2007، م، الجزائر.
- 47- عبد القادر حلّوش :السياسة التعليميّة الفرنسيّة في الجزائر (1870 - 1914) ، شركة دار الأُمَّة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 1 ، 2010 م ، الجزائر .
- 48- عبد القاهر بن عبد الله السّهرودي: عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، ط1، 1966م، بيروت، لبنان.

قائمة المصادر والمراجع

- 49- عبد الله فيّاض: الإجازات العلميّة عند المسلمين، ط1، 1967م، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق.
- 50 - عبد المنعم القاسمي الحسني: أعلام التّصوّف في الجزائر، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، ط1، 1427هـ/ 2006 م، بوسعادة، الجزائر.
- 52- عبد المنعم القاسمي الحسني: الطّريقة الرّحمانيّة الأصول والآثار منذ البدايات إلى غاية الحرب العالميّة الأولى، دار الخليل للنّشر والتّوزيع، ط1، 2013م، بوسعادة، الجزائر.
- 53 - عبد الوهاب بن منصور: أعلام المغرب العربي، ج1، (د ط)، 1979، المطبعة الملكية، الرباط، المملكة المغربية .
- 54- عزيز سامح أتر: العثمانيون في شمال إفريقيا، تر: محمود علي عامر، دار النهضة المغربيّة للطباعة والنّشر، ط1، 1989 م، بيروت، لبنان.
- 55 - علي الشّاي: العارف بالله أحمد بن مخلوف الشّايّ، وفلسفته الصّوفيّة، الدّار التّونسيّة للنّشر، (د ط) 1399هـ/ 1979 م، تونس.
- 56 - علي غنابزيّة: تاريخ العلاقات العثمانية المغاربية وأثرها الجيوسراتيجي على ضفتي البحر المتوسّط (1492 - 1911)، دار رؤى حضارية للنشر والتوزيع، ط1، 2018، الجزائر .
- 57- عمّار هلال: الطّرق الصّوفيّة ونشر الإسلام والثّقافة العربيّة في غرب أفريقيا السّمراء، (د ط)، 1988م، الجزائر.
- 58 - عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (3/ 14 هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية، (د ط)، 1995، الجزائر.
- 59 - كمال دحومان الهاشمي: أشرف الجزائر (دورهم الحضاري في المجتمع الجزائري)، دار الخلدونيّة للنّشر والتّوزيع، د ط، 2013م، القبّة، الجزائر.
- 60 - مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، (د ط)، 1964 م، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر .
- 61 - مُحمّد الطّمّار: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 .
- 62 - مُحمّد محفوظ: تراجم المؤلّفين التونسي (ج، ج)، دار الغرب الاسلامي ط1، 1981م، بيروت، لبنان.

قائمة المصادر والمراجع

- 63 - مُجَّد مُجَّد زيتون : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ،دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 1988، القاهرة، مصر.
- 64- محمد أحمد درنيقة: الطريقة القادرية وأعلامها، المؤسسة الحديثة للكتاب(د ط)، 2009 م، طرابلس، لبنان.
- 65 - مُجَّد الصَّاح الجابري: التّواصل الثّقافي بين الجزائر وتونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د ط، 2000م.
- 66- محمد النيفر :عنوان الأريب عمّا نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب ،تذييل واستدراك ،علي النيفر ،ط1، 1996م، دار الغرب الإسلامي ،بيروت لبنان.
- 67 - محمد الهادي الشريف :تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ،تعريب محمد الشّاوش ،ومحمد عجينة، ط3، 1993 م، دار سراس للنشر، تونس.
- 68- محمد حجي : الزاوية الدلائية ودورها الديني العلمي والسياسي ، المطبعة الوطنية بالرباط ، (د ط)، 1964 م، الرباط ،المغرب.
- 69- محمد علي دبّوز : نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، ج 1، ط1، 1971م المطبعة العربية الجزائرية.
- 70- محمد غانم : التاريخ والمؤرخون في الجزائر خلال القرن الثامن عشر ،وحدة البحث في الانثروبولوجيا والثقافة والفنون جامعة وهران (د ط) ،، 1988 م، وهران ،الجزائر .
- 71- محمد نسيب : زوايا العلم والقرآن بالجزائر،(د ط)،(د ت ط) ،دار الفكر الجزائر، الجزائر.
- 72 - مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة خلال العهد العثماني، ط2 ، 1981، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - ش . و . ن . ت - الجزائر.
- 73 - مصطفى أحمد بن حمّوش : المدينة والسلطة في الاسلام ، نموذج الجزائر في العهد العثماني ، ط1، 1999، دار البشائر ،دمشق ،سوريا.
- 74 - محمد بن الخوجة : صفحات من تاريخ تونس ، تق ، وتح ، حمّادي الساحلي و الجيلالي بن الحاج يحي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1، 1986، بيروت ،لبنان.
- 75- محمد بن الخوجة : تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد ،د ط، 1939 م ، المطبعة التونسية، تونس.

قائمة المصادر والمراجع

- 76- محمد أحمد درنيقة: الطّريقة القادرية وأعلامها، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د ط، 2009م.
- 77- ناصر الدين سعيدوني : الجزائر منطلقات وآفاق ، دار الغرب الإسلامي، ط، 1، 2000، بيروت، لبنان.
- 78-_____،_____ : دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر دار الغرب الإسلامي، ط 1 الجزائر، الجزائر .
- 79 _____،_____ : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني ، م . و- ك ، ط 1984، الجزائر.
- 80-_____،_____ : النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792م/1830م) ط، 2، 1985، م و ك ، الجزائر.
- 81-_____،_____ : دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر دار الغرب الإسلامي ، ط 1 الجزائر، الجزائر.
- 82-_____،_____ . : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ،الفترة الحديثة والمعاصرة ، ج2، (د ط) ، 1988، م .و. ك ، الجزائر .
- 83-_____،_____ : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر - العهد العثماني - المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د ط)، 1984 م، الجزائر .
- 84 _____،_____ : الطّريقة القادرية والأمير عبد القادر ، مؤسّسة الأمير عبد القادر، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 2011 م ، الجزائر.
- 85- يحي بوعزيز: مدينة وهران عبر التاريخ ، د، ب ، ن ، ت ، طبعة خاصة ، 2009، الجزائر.
- 86 _____،_____ :أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ج1، ط1995، 1، دار الغرب الاسلامي ،بيروت لبنان .
- 87-_____،_____ :علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500 - 1830)، (د ت)،(د ط) ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر .
- 88 _____،_____ : الطّريقة القادرية والأمير عبد القادر ، مؤسّسة الأمير عبد القادر، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 2011م.

قائمة المصادر والمراجع

89 _____، _____: - أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ج1، ط1995، دار الغرب الاسلامي ،بيروت لبنان.

90 _____، _____: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى، غير مليلة، الجزائر، 2009م، الجزائر .

91 _____، _____: مدينة وهران عبر التاريخ،(د، ب ، ن ، ت)، طبعة خاصة، 2009، الجزائر.

92- يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى، غير مليلة، الجزائر، 2009م، الجزائر.

93 _____، _____:علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا (1500 - 1830)، (د ت)،(د ط) ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر.

ثالثا / الرسائل والأطروحات الجامعية

1 - الأمير بوغدادة : المؤسّسات في الجزائر أواخر العهد العثماني (القضاء أنموذجا) ، مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ،إشراف احميدة عميراوي ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، قسنطينة ، 2008/2007 .

2 - بن بلة خيرة : المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني ،أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراة دولة في الآثار الإسلامية ،إشراف د/ عبد العزيز لعرج، جامعة الجزائر، (2007- 2008) .

3 - بوجلال قدور : مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بايلك الغرب فترة الدايات (1671 - 1830) ، أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث ، جامعة وهران ، 2013، 2014/.

4 - بوحجرة عثمان : الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني (1519- 1830) مقارنة اجتماعية ،رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير ،إشراف أ /د دادة محمّد ،جامعة أحمد بن بلة وهران ، 2015/2014م.

5 - حسّان كشرود : رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية بالجزائر العثمانية ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ، إشراف :فاطمة الزهراء قشي ،جامعة منتوري قسنطينة ، 2008 /2007.

قائمة المصادر والمراجع

- 6 - حفيظة بوتوقوماس: الحياة الاجتماعية في تونس خلال العهد الحسيني (1705م - 1835) ،مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف، د. أرزقي شويتام، جامعة الجزائر2، (2010 - 2011).
- 7- دباح عائشة: الحياة الثقافية والدينية في الجزائر على عهد الدايات(1671/1830)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة، إشراف أ/د سعيدي مزيان ، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر.
- 8 - درقاوي منصور : الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين (10 هـ و 13 هـ / 16 م و 19 م) بين التأثير والتأثر ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، إشراف فغور دحو ، جامعة أحمد بن بلّة ، وهران ، 2014 / 2015.
- 9 - رزيقة محمّدي : النظام التعليمي في تونس خلال الفترة الحسينية ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة العلوم ، جامعة الجزائر ، إشراف أ/د أرزقي شويتام ، 2019 / 2020 م.
- 10 - رشيدة شدرى معمر: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671- 1830) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث ، إشراف فلة موساوي القشاعي ، جامعة الجزائر، 2005.
- 11 - رقيّة شارف :التاريخ والمؤرخون الجزائريون خلال العهد العثماني وإلى غاية 1850، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراة ، إشراف أ.د/ أرزقي شويتام ، جامعة الجزائر2، 2016/2017.
- 12 - سالم بوتدارة : الحركة العلمية بالجنوب الجزائري خلال العهد العثماني (أطروحة دكتوراة) ، جامعة سيدي بلعباس ، 2015 / 2016.
- 13 - طوبال فاطمة الزهراء : النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات (1671م / 1830 م)، أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث ، إشراف د/ رابح لونييسي ، جامعة أحمد بن بلّة ، وهران.
- 14 - عائشة غطاس :الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700م - 1830 م) أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث (مخ) جامعة الجزائر 2000/2001 .
- 15 - عائشة محمّة :التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية (1519- 1830)،مقاربة سياسية ثقافية ، أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث ، إشراف الدكتور صالح بوسليم ، جامعة غرداية (2019/2020).

قائمة المصادر والمراجع

- 16- علي غنابزية، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر، مذكرة ماجستير، اشراف الأستاذ الدكتور عمار بن خروف، جامعة الجزائر، 2002.
- 17 - عبد الحكيم مرتاض :الطرق الصوفية في العهد العثماني (1518م-1830م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2015/2016م.
- 18 - عبد الحكيم مرتاض: الطرق الصوفية بالجزائر في العهد العثماني (924 . 1246هـ/1518-1830 م) تأثيراتها الثقافية والسياسية ،أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات ،جامعة وهران (2015. 2016).
- 19 - عبد الغاني عيساوي : جهود علماء الجزائر في علم التفسير زمن العهد العثماني ،أطروحة دكتوراه ،اشراف أ /د منصور كافي ،جامعة باتنة 1 الجزائر، 2015/2016.
- 20 - فاطمة الزهراء طوبال:النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات 1671م/1830.،أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه، اشراف أ/د رابح لونيسي، جامعة أحمد بن بلة ،وهران الجزائر 2019/2020 م.
- 21 - فاطمة الزهراء سيدهم : علاقة دايات الجزائر بالدولة العثمانية ما بين (1792م /1830م) ، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس ، 2011/2012م.
- 22 - فتيحة عبد النور : الروابط الثقافية بين الجزائر وتونس (1830 - 1954) ،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ،إشراف . د:صبيحة بـحـوش ،جامعة الجزائر ، (2013- 2014).
- 23 - فوزية لزغم : البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (1520/ 1830)، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الاسلامية ،جامعة وهران ، 2013/2014.
- 24 - ليلي غويني : التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية ،مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ، إشراف الدكتورة عائشة غطاس ،جامعة الجزائر2، 2010/2011.

قائمة المصادر والمراجع

- 25 - مسعود بقادي: هجرة علماء تلمسان إلى فاس ودورها الثقافي خلال القرن 10هـ / 16م، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف الدكتور عبد المجيد قدور، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة 2014/2013 م.
- 26 - مفيدة بن يوسف: الجالية الأندلسية بالجزائر وتأثيراتها الحضارية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني القرنين السادس عشر والسابع عشر (16- 17م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور أرزقي شويتم، جامعة الجزائر (2010-2011م).
- 27 - منصور درقاوي: الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين (16م / 19م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور دحو فغورور جامعة وهران، 2014/ 2015.
- 28 - نصر الدين بن داود: بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ / 13م إلى القرن 10هـ / 16م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، إشراف محمد بن معمر، 2009 / 2010.
- 29 - الواليش فتيحة: الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور مولاي بالحيمسي، جامعة الجزائر 1993 / 1994.
- 30 - وداد بيلامي: النفوذ الاقتصادي والسياسي ليهود الجزائر (1516م / 1830م)، رسالة الماجستير، إشراف د/ احميدة عميراي، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004.
- 31 - يوسف الطيب: العلاقات العلمية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني - رسائل أئمة التجانية إلى أعيان الجنوب التونسي أنموذجا -، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ، إشراف أ/د مكحلي محمد، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2019/2020.
- رابعا / المقالات والدوريات العربية:
- 1 - ابراهيم مياصي: الدور التعليمي لزاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف، مجلة حولية المؤرخ، ج1، الجزائر، 2000.
- 2 - أرزقي شويتم: العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية)، م د ت، مج09، العدد 13، جامعة الجزائر، جانفي 2011، (م. مجلة - د الدراسات - ت التاريخية).
- 3 - الغالي الغربي: الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات، ثورة ابن الأحرش الدرقاوي ضد الأتراك في مطلع القرن التاسع عشر، دراسات تاريخية عدد 23، 24، 1986.

قائمة المصادر والمراجع

- 4 - حسين مؤنس : المساجد ، عالم المعرفة ، عدد 37 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1981.
- 5 - با عزيز بن عمر : الزوايا بمنطقة زاوية ، مجلة الشهاب ج1، م9، جانفي 1933.
- 6 - حمزة بوقادوم: الحضور الصوفي الجزائري بمدينة الكاف خلال القرن 19م، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلة (05)، العدد(2)، 2021م.
- 7 - حميد بن سالم : الثقافة الاسلامية ومكانة اللغة العربية في الجزائر قبل الاستقلال ، مجلة اللسان العربي، ع1، يونيو 1964، المغرب.
- 8 - ذهبية بوشيبة : العلم والعلماء خلال العهد العثماني ، مجلة الحوار المتوسطي ، العدد 3 و4 جامعة سعيدة ، (د ت) .
- 9 - رشيد بكاي : تأثير الطرق الصوفية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، مجلة الباحث، ع 8، ديسمبر 2011.
- 9 - سعدية رقاد: الحواضر العلمية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني ، مجلة عصور جديدة ، العدد 23 ، أوت 1437 هـ / 2016م .
- 10 - عبد القادر صحراوي : الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني (16م/19م) ، مجلة الحوار المتوسطي ، ع 3 و4.
- 11 - علي غريسي: زاوية باب المنارة من التأسيس إلى التجديد، مطبوعة سلسلة الطريقة التيجانية، تماسين، العدد3، جويلية 2010م.
- 12 - فتيحة بردي: الممارسة التعليمية في الجزائر أثناء الحكم العثماني ، دراسة في الواقع والمعطيات ، مجلة الذاكرة ، جامعة الجيلاني بونعامة ، خميس مليانة - عين الدفلى، الجزائر، العدد 11 ، جوان 2018.
- 13 - لزغم فوزية : العلماء الجزائريون بتونس خلال عهد الدايات (1671م / 1830) ودورهم في مدّ جسور التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ، مجلة الخلدونية ع2 السنة 12، 2020، مقال نشر بتاريخ 2020/12/27.

قائمة المصادر والمراجع

14 - محمّة عائشة : من مظاهر التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني (1519م/1830م) ، هجرة العلماء والطلبة الجزائريين إلى تونس أنموذجا ، مجلة المعارف والبحوث والدراسات التاريخية ، ع 19.

15 - محمّد الأمين شرويك : جهود محمّد الكبير وصالح باي في تشجيع حركة الثقافة والتعليم في الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية ، مجلة العلوم الاسلامية والحضارة ، العدد الثامن ، جوان 2018.

16 - محمّد الطالبي : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين ، مجلة الأصالة العدد 26 الجزائر 1976 .

17 - ميكال دي ايزا والهادي الوسلاقي: ملاحظات أب إسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم، مجلة الأصالة عدد 28-1987.

18 - نفطي وافية :مسألة علوم الطب عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني ، مجلة آفاق فكرية ، المجلد 05 العدد 01، جامعة سيدي بلعباس 28ماي 2019.

19 - يحي بوعزيز : أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19م - 20م ، مجلة الثقافة ، عدد 63 ، 1981.

خامسا / المعاجم والموسوعات:

1 - بطرس حرفوش وآخرون: المنجد في اللغة والإعلام، ط14، دار المشرق، بيروت، لبنان.

2 - عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية ، ط1، جروس برس، بيروت لبنان، 1988.

3 - مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: محمّد نعيم العرقوسي، ط8، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 2005م.

سادسا / أعمال المؤتمرات :

1 - أبو القاسم سعد الله : بعض التحوّلات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1830/1518) ، بحوث المؤتمر الدوّلي حول " العلم والمعرفة في العالم العثماني " ، المقام في اسطنبول "تركيا" شهر أفريل 1999م، مركز الابحاث للتاريخ والثقافة والفنون الاسلامية ، (د ط) ، 2000، اسطنبول ، تركيا.

قائمة المصادر والمراجع

- 2 - **دلندة الأرقش** : جدلية التجديد والتواصل في الحياة الفكرية بإيالة تونس، أعمال مؤتمر العالم الثالث للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ج1 وج2، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي سنة 1990.
 - 3 - **سعاد لبصير**: دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني 1830/1518 م ،أعمال الملتقى العلمي الأول ،مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، جامعة منتوري قسنطينة ، ماي 2008م.
 - 4- **عبد السلام شقور**: المناظرات والإنشادات في الرحلات المغاربية الحجازية، ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، 1426 هـ.
 - 5 - **ناصر الدين سعيدوني**: مؤسّسة الزوايا في الجزائر العثمانية (نموذج بلاد القبائل)، العلم والمعرفة في العالم العثماني، أعمال بحوث المؤتمر الدولي أبريل 1999، اسطنبول، تركيا .
 - 6 - **نجوى عثمان** : الزوايا والمدارس العثمانية في القيروان ، بحوث المؤتمر الدولي حول " العلم والمعرفة في العالم العثماني "، المقام في اسطنبول "تركيا" شهر أبريل 1999 ، مركز الابحاث للتاريخ والثقافة والفنون الاسلامية، (د ط) ، 2000، اسطنبول، تركيا.
- سابعا / قائمة المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

1 (G) **Delphin**, les pachas d'Alger de (1515 À 1745); Imprimerie Nationale 1925; Paris ; France .

2 **BOYER, PIERRE**, "Contribution à l'étude de la politique religious des Turcs dans la régence d'Alger 16ème-19ème siècle" in R.O.M.M, N°1, 1966.

3 **DAN(P)** , histoire de la barbarie et ses corsaires, récollet imp. Du Roy, 2ème, édit. , Paris, 1973.

4 **De voux (A. _)**: Tachrifat .imprimerie du gouvernement ; Alger _ 1852.

5 _ **Venture de Paradis**: Alger au XVIIIe siècle ; édité par E. Fagnan; imprimeur _libraire-éditeur 4place du gouvernement ; 1898; Paris ; France..

6 **DEVOULX (Albert)** , «Les édifices religieux de l'ancien Alger» , in R.A : N° 10 (1866) .

7 Dr. **SHAW**, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais par J.Mac.Carthy 2ème Ed. Bouslama, Tunis 1980.

8 **EMERIT;(M)** Un doucement inédit sur Alger au 17^{ème} siècle ; Alger 1959.

9 **FERAUD**: Le Sahara de constantine,A.Jourdan, Alger, 1887.

10 **Kamal Filali**: L'Algérie mystique des marabouts fondateurs Khiwan insurgés 15ème- 19 ème, éditions publisabd ; Paris 2002.

11 **Kraiem (Mustapha.)** : La Tunisie précoloniale , t2,Tunis 1973.

12 **MERCIER**, Histoire de Constantine, IMPRIME ; J. MARLE ET F. BIRON, IMPRIMEURS- ÉDITEURS 51, Rue Damrémont, 51;1903.

13 **PEYSONNEL (J.A):**VOYAGES DANS LA REGENCES D'ALGER ET DE TUNIS ,PARIS ,1838 .

14 SAIDOUNI. NACER-EDDINE: L 'Algérois rural à la fin de l'époque Ottoman (1791-1830), Der-El-Gherb-El-Islami, Beyrouth, 2001.

15 Turin Yvonne :Affrontements culturelles dans L'Algérie(1830/1880),Maspero,PARIS,1971.

16 VAYSSETTES (E) , «Histoire des derniers Beys de Constantine , depuis 1793 jusqu'à la chute d'HADJ AHMED», in R.A : N° 03 (1859).

17 _W. Esterhazy, la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Gross .

الفهارس

1 - فهرس الأعلام

الاسم	الصفحة
إبراهيم التازي	230
إبراهيم الجمني	109-81-77-64
إبراهيم الرّياحي	214-213-239-133-45
إبراهيم السيّالة	206-201
إبراهيم الغرياني	222-218-2016-200-179
ابراهيم الفلّاري التونسي	222-221
ابراهيم بن أحمد الشريف	173
إبراهيم بن حاجي علي	211
ابراهيم بن موسى	233
ابن الأحرش	244-125-118-94-67
ابن الشريف	125
ابن العنابي	200-194-193-190-106-104
ابن المغوفل	94
ابن خلدون	204-157-45-43
ابن زاكور الفاسي	230-190-168-28
أبهلول المجاجي	94
أبو الحسن الشاذلي	175
أبو الحسن الغمّاد	174
أبو العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني	156
أبو الغيث القشّاش	51-50
أبو الفضل المسراتي	49
أبو القاسم بن مُحمّد البجائي	184-173-161
أبو بكر الكلابادي	204

-178-169-129-107-106-79-78-75-16 230-198-193-183	أبو راس الناصري
173-34	أبو عبد الله الأندلسي
48	أبو عبد الله ماغوش التونسي
185-167	أبو مهدي عيسى الثعالبي
161	أبو يعقوب يوسف بن مُجَدِّد المصعبي
35	أحمد أفندي
218-197-164-114	أحمد البوني
175	أحمد التجاني
51	أحمد الريغي
120	أحمد المملوك
55	أحمد النوري
192-149-118-109-100-91-47	أحمد باشا
131-129-96	أحمد بن سعيد قدّورة
70-45-44	أحمد بن عبد الله الجزائري
199-198-193-179-178-169	أحمد بن عمّار
193-109-66	أحمد بن قاسم البوني
48-33	أحمد بن مُجَدِّد بن عبد الرحمان بن الخلوف التونسي
210-205-90	أحمد بن يوسف الملياني
111	أمينة بنت السيّد أحمد الشريف
112	الباي بوحنك
136	الباي تشولاقي
67	الباي قارة مصطفى

139	الباي مُجَّد الدبّاح
140-102-97-67-66	الباي مُجَّد الكبير
99	الباي مُجَّد شاكر
160-106-100	حسن آغا
32-29	الحسن الحفصي
148-127	حسن بن موسى
153-137-111	حسين باشا
151	حسين باشا ميزمورتو
42	الحسين بن علي
107	الحسين بن مُجَّد السعيد الورتيلاني
-169-100-94-82-81-59-46-45-39-35 251-213-178	حمّودة باشا
209	حمّودة باشا الحسيني
37	خوان بيريث
96-28-27-26-24	خير الدين بربروس
148	الداي عثمان الكبير
18	الدكتور شو
172-80-36	رمضان أفندي
108	ساسي المقرّي
168	سعيد المقرّي
168-107	سعيد بن ابراهيم قدّورة
106	سعيد بن مُجَّد العقباني
172-38-35-34-31	سنان باشا
71-66-44	سيدي بومدين
71-45	سيدي راشد

124	سيدي عرفة
33	سيدي علي المحجوب
106	سيدي عمر المانجلاتي
232-28-18	شارل وليام
58	صالح الكواش
178-163	عاشور بن موسى القسنطيني
48-36	عبد الرحمان الأخصري
205-112-97-70	عبد الرحمان الثعالبي
163-55-54-52	عبد العزيز الفراتي
236-207-205-87-70-44	عبد القادر الجيلاني
42	عبد القادر الجيلي
233-232-122-105	عبد القادر المشرفي
-160-153-151-150-111-109-107-50 200-199-197-196-180-170-163	عبد الكريم الفكّون
85-80-50-49-48-38-36-35	عثمان داي
205-96-93-90-27-26-24-23	عروج
147	عصمان باي
131	علال بن سعيد قدّورة
179-170-169-153-118-100-43-31	علي باشا
228-198-197-169-86-56-55-47-44-40	علي باي
65	علي بتشين
57	علي بن الحسين
179	علي بن النيكرو
38	علي بن داوود القرشي
230-220-212-204	علي بن عثمان

217	علي بن مسعود الشّابي
152-128	علي خوجة
160	عمر الوزان
106	عمر بن مُجّد الكمّاد
59-48	قاسم بن عظّوم القيرواني
160	قاسم بن يحيى بن مُجّد الفكون
132	قرباش أفندي
194	الكفيف التلمساني
39	مالك بن أنس
219	مُجّد المازوني
91	مُجّد أقوجيل
108-99-93	مُجّد الساسي البوني
139-109-71-70-44-34	مُجّد الشريف
215	مُجّد العيد التماسيني
218	مُجّد المسعود بن مُجّد بالنور
87-86-84-46-44-40	مُجّد باي
187-143-131-126-115-114-103-60	مُجّد بكداش
174-166-149	مُجّد بن أحمد الشريف الحسني
104	مُجّد بن المهدي الكتروسي
211	مُجّد بن سالم الحفناوي
108	مُجّد بن صولة
211	مُجّد بن عبد الرحمان القشتولي
186	مُجّد بن علي الخروبي الصفاقسي
199-192-171	مُجّد بن محمود العنابي
200-192-190-184-82-61-60-57	مُجّد بيرم

61	مُحَمَّد بَيْرَم الثَّانِي
220	مُحَمَّد عَزَّوَز
48-33	مُحَمَّد مَآغُوش
214-101	مَحْمُود خَانَ
219-218-217	مَسْعُود الشَّابِي
152	مَصْطَفَى الْإِنْجِلِيزِي
114	مَصْطَفَى أَهْجِي
96	مَصْطَفَى بَاي
220-212	مَصْطَفَى بَن عَزَّوَز
208-92	مَصْطَفَى بَن مُحَمَّد بَن الْمَخْتَار الغريسي
125	يَحْيَى الْأُورَاسِي
192-164-54-52-51	يَحْيَى الشَّآوِي
180	يَحْيَى بَن صَالِح الْأَفْضَل
211	يُوسُف بُوْحَجْر
172-87-86-80-39-38-35	يُوسُف دَاي

الصفحة	المكان
278	اسطمبول
237-233-232-230-62-38-27-26-25-24-7	إفريقيا
46	أكسيوم
42	ألمرية
157-138-85-82-42-41-26-23-17	الأندلس
220-218-217-212-207-160-125-124-115	الأوراس
240-139-49	أوروبا
173-161-47	باب الجزيرة
245-215	باب المنارة
242-207	باتنة
170-86-60-44-39	باجة
-106-98-94-71-66-46-45-40-39-33-27-26-23 236-232-208-156	بجاية
220-219-211-143-124-121-67	بسكرة
237-207	بغداد
163-155-41	بلاد الحجاز
155	بلاد الشام
-90-69-40-38-34-32-30-28-26-24-23-11-7 226-223-202-190-156-154-122	بلاد المغرب
237-211	بوسعادة
231-165-164-109-99	بونة
133	البيت الحرام
166	تاكنانت
215-212	تالة

218-199-124	تبسة
-115-106-100-71-66-46-44-42-40-38-33-27 243-205-178-168-163-157-122	تلمسان
215-124-72-67	تماسين
219-213-207-96-93-43-23	تنس
72	توات
215-209-86	توزر
120	توقرت
-180-175-171-161-125-85-57-53-41-40-33-24 225-199-185	جربة
217-209-88-53	الجريد
86-53	جمنة
33-30-29-25-24	حلق الوادي
214	حوانيت عاشور
219-218	خنشلة
218	المسيلة
212-211-187-179-124-100-53	خنقة سيدي ناجي
235-234-174-84-83-38-37	زغوان
244-187-170-167-108-107-71-47	زواوة
124	الزيان
212	سليانة
191-179-175-153-87-86-51-44-42	سوسة
218-217	سوق اهراس
153-70-23	شرشال

218	ششار
140-94	الشلف
253-192-126-87-86-82-57-56-55-52-45-44-41	صفاقس
239-238-232-186-162-88-30-29-25-23-18	طرابلس
236-220-212-211-124-72	طولقة
218-147-39	عناّبة
213-125-124-96-72-67	عين ماضي
136-42-40-23	غرناطة
67-54-48-33	فاس
231-211-98-67-47	فرنسا
219-86-39	قابس
212	القصرين
132-128-70	القليعة
88-86-83-48-44-40-35-30-16	القيروان
208-124	القيطنة
219-216-211-209-164-121-86-58-44-19	الكاف
204-88-63	الكوفة
138	ليفورن
172-166	ماطر
93	متيجة
93	مّجاجة
216	مجاز الباب
216	مدنين
152-126-125-23	المرسى
-234-188-185-175-164-53-52-51-48-45-41-33	مصر

238-236	
-169-144-130-124-110-109-107-92-71-67-66 280	معسكر
-191-186-185-164-163-155-131-122-100-75 230-225-216-213-210-209	المغرب الأقصى
246-185	مكة
209-208	منزل بوزلفة
60-56-55-44	المنستير
116-99-94-71	منطقة القبائل
208-32-28	منعة
33-25	المهدية
226-186-185-180-150-127-33	ميزاب
220-219-211-209-88-87	نفطة
215	واد سوف
167	واد يستر
245-152-140-127-66-39-33-23-12	وهران

الصفحة	الشعوب
-122-121-118-105-101-97-92-82-35-28-25 144-130	الأتراك
125-117-90-78-66-37-33-25-23	الاسبان
54	آل الفراقي
113-107-104-96	آل الكتروسي
174	آل بكري
174	آل عظوم
117-112	أولاد سيدي الشيخ
122-93	أولاد عبد الله
40	الأبييرين
160-123-97-45-30	البربر
40-29-23	البرتغاليين
32	بنو حفص
153	بني درّاج
135-39	بني زيان
38	بني ضبة
153-122-117-93	بني عامر
46	بني مزغنة
153	بني ورتيلان
56-48-46-16	الحسينيين
217-127-124	الحنانشة
170	الرواشد
94-27	الزيانيين
93	شافع

-138-104-101-96-47-33-31-25-24-23-10 237-217-171-157	العثمانيون
86-85	المراديون
152-145-139-138-122-121-32	اليهود

الصفحة	المحتويات
9	مقدمة
الفصل التمهيدي	
25	أولا- العثمانيون والبحر الأبيض المتوسط
28	ثانيا- انتصاب الحكم العثماني في الجزائر و تونس
34	ثالثا- جذور وعوامل التواصل الثقافي بين الإيالتين
الفصل الأول: الأوضاع الثقافية وأهم المؤثرات الثقافية في الإيالتين	
41	أولا - الأوضاع الثقافية في الجزائر العثمانية
41	1-الحواضر الثقافية:
47	2-المؤثرات على الوضع الثقافي
54	3- الركود والانحطاط الثقافي
58	ثانيا- الأوضاع الثقافية في تونس العثمانية
60	1-العوامل المؤثرة على الوضع الثقافي التونسي
69	2- دور الأسرة الحسينية في العناية بالمراكز والحواضر الثقافية
75	3- دور العلماء في بعث الحركة الفكرية والعلمية في تونس
89	ثالثا - المراكز العلمية والدينية في الإيالتين
90	أ-المراكز العلمية والدينية في الجزائر
106	ب-المراكز العلمية والدينية في تونس
الفصل الثاني: عوامل هجرة العلماء الجزائريين نحو تونس	
118	أولا - اتصال العثمانيين بالعلماء في الجزائر
118	1-التعاون بين العلماء والعثمانيين وحثهم على الجهاد ضدّ الاسبان
121	2- مشاركة العلماء في الجهاد
124	3- دعم العثمانيين لرجال الدين والتصوّف واکرامهم
146	4- تأزّم العلاقات بين العلماء والسلطة وارهاسات هجرة العلماء

163	ثانيا- العوامل السياسية والاقتصادية لهجرة العلماء الجزائريين إلى تونس
163	1-العوامل السياسية
167	2-العوامل الاقتصادية
173	ثالثا- العوامل الثقافية والاجتماعية
173	1-العوامل الاجتماعية
182	2-العوامل الثقافية
الفصل الثالث: علماء الجزائر في تونس ودورهم في التواصل الثقافي والعلمي بين الإيالتين	
189	أولا - تراجم علماء الجزائر ورحلاتهم إلى تونس وأدوارهم في الحياة العلمية:
189	أ-تراجم علماء الجزائر ورحلاتهم إلى تونس
201	ب- أدوار علماء الجزائر في الحياة العلمية بتونس
211	ثانيا - الزيارات المتبادلة بين علماء الإيالتين ونشاطاتهم العلمية والثقافية
212	أ- زيارات علماء الجزائر لتونس
214	ب- زيارات علماء تونس إلى الجزائر
217	ج- تبادل الاجازات العلمية
224	د - المناظرات العلمية بين علماء الايالتين
227	هـ - تبادل المسائل العلمية والفتاوى الشرعية
228	و- تبادل المراسلات العلمية بين الطرفين
230	ثالثا: دور العلماء في التواصل بين الطّرق الصّوفيّة في الإيالتين
231	أ- مفهوم التصوف والطريقة
235	ب- التأثير الصوفي بين الأيالتين
252	الخاتمة
256	الملاحق
266	قائمة المصادر والمراجع
285	فهرس الأعلام
297	فهرس المحتويات

300	ملخص البحث
-----	------------

ملخص البحث

الملخص

تشكل بلاد المغرب وحدة طبيعية واحدة ولها امتداد روحي موحد نظرا لاعتناق أهلها الإسلام منذ دخول الأفواج الأولى من الفاتحين المسلمين، والحديث عن تاريخ وحضارة بلد - مل - لم يعد يقتصر على دراسة تاريخه السياسي وعلاقاته السياسية مع مختلف البلدان، بل ترتقي إلى معرفة جوانبه المختلفة وعلاقاته الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية مع غيره من الشعوب، إن علاقة الجزائر العثمانية مع جيرانها تشمل جوانب مختلفة ومجالات عدة، وقد تنوّعت أطرافها بحكم الموقع الاستراتيجي للجزائر فهي تمثّل قلب دول المغرب العربي، ورغم علاقات التوتر التي سادت بين الإيالتين في جانبها السياسي فإنّه لم يمنع هذا من حدوث علاقات ودّية تمثّلت في وجود علاقات اقتصادية وأخرى ثقافية بينهما، والتي تمثّلت في هجرة العلماء الجزائريين ومشاركتهم في الحياة العلمية والثقافية فكانت خير مظهر لهذه العلاقات وهذا التواصل بين المجتمعين والإيالتين خلال هذه الفترة.

ومن أجل الوقوف على ذلك وتتبع المنحنى البياني لهجرة هؤلاء العلماء ومدى تأثيرهم في الحياة العامة وخاصة الثقافية منها في تونس كان اختياري لهذا الموضوع الموسوم بـ "العلماء الجزائريون في تونس ودورهم في الحياة العلمية والثقافية وأثرهم في التواصل الثقافي بين البلدين ما بين القرنين 16 و19م / 10 و13هـ"، وذلك من خلال طرح إشكالية عامة لهذا الموضوع وهي :- من هم العلماء الجزائريون الذين هاجروا نحو تونس خلال الفترة ما بين 16 و19م؟ وماهي العوامل المؤثرة على هجرة هؤلاء العلماء وما هو دورهم في الحياة العلمية والثقافية في تونس.

وقد عملت على تقسيم بحثي هذا إلى مقدّمة وفصل تمهيدي أو مدخل وأربعة فصول، وقد ختمت دراستي هذه بمجموعة من الملاحظات والاستنتاجات التي توصلت إليها، والتي من أهمها :-

* تجذّر التواصل العلمي والثقافي بين الجزائر وتونس وهذا يعود لعوامل عدّة كان التاريخ والجغرافيا العامل الرئيسي فيها، واستمراره رغم توتر العلاقات السياسية أحيانا بينهما.

* حظوة العلماء والرحالة الجزائريين في تونس وظهر ذلك من خلال التقدير والاحترام الذي قوبلوا به سواء من طرف الحكام أو حتى علماء تونس.

الكلمات المفتاحية : الفترة العثمانية - التواصل الثقافي - العلماء الجزائريون - المراكز العلمية -

الجزائر - تونس - الطرق الصوفية - عوامل الهجرة - الإجازات العلمية .

Résumé:

Les pays du Maghreb constituent une seule unité naturelle et ont une extension spirituelle unifiée du fait de la conversion de leurs peuples à l'Islam depuis l'entrée des premiers groupes de conquérants musulmans. Parler de l'histoire et de la civilisation d'un pays ne se limite plus à étudier son histoire politique et ses relations politiques avec différents pays, mais s'élève plutôt à la connaissance de ses différents aspects et de ses relations sociales, économiques et culturelles avec les autres peuples. Les relations de l'Algérie ottomane avec ses voisins comportent divers aspects et de nombreux domaines, et ses partis se sont diversifiés en raison de la situation stratégique de l'Algérie, car elle représentait le cœur des pays du Maghreb arabe. Malgré les relations tendues qui ont prévalu entre les deux régences dans leur aspect politique, cela n'a pas empêché l'apparition de relations amicales, représentées par l'existence de relations économiques et culturelles entre elles, qui se sont traduites par la migration des scientifiques algériens et leur participation à la vie scientifique et culturelle, qui fut la meilleure manifestation de ces relations et de cette communication entre les deux sociétés et les régences durant cette période.

Afin de le déterminer et de retracer la courbe graphique de la migration de ces savants et l'étendue de leur influence sur la vie publique, notamment culturelle, en Tunisie, j'ai choisi ce thème intitulé « Les savants algériens en Tunisie et leur rôle dans la vie scientifique et culturelle et leur impact sur la communication culturelle entre les deux pays entre les 16^{ème} et 19^{ème} siècles après JC / 10 et 13 AH. » Ceci est fait en présentant une problématique générale pour ce thème, qui est : Qui sont les savants algériens qui ont immigré en Tunisie pendant la période entre 16 et 19 après JC ? Quels sont les facteurs affectant la migration de ces savants et quel est leur rôle dans la vie scientifique et culturelle en Tunisie ? "

J'ai divisé ma recherche en une introduction, un chapitre d'introduction et quatre chapitres. J'ai conclu mon étude par un ensemble d'observations et de conclusions auxquelles je suis parvenu, dont les plus importantes sont :

* La communication scientifique et culturelle entre l'Algérie et la Tunisie s'est enracinée, et cela est dû à plusieurs facteurs, dont l'histoire et la géographie étaient les principaux facteurs, et à sa continuité malgré les relations politiques parfois tendues entre elles.

* La faveur des savants et des voyageurs algériens en Tunisie, et cela se manifestait à travers l'appréciation et le respect avec lesquels ils étaient accueillis, que ce soit par les dirigeants ou même par les savants tunisiens.

Mots clés : période ottomane - communication culturelle - savants algériens - centres scientifiques - Algérie - Tunisie - ordres soufis - facteurs de migration - licences académiques.

Summary

The countries of the Maghreb constitute a single natural unit and have a unified spiritual extension due to its people's embrace of Islam since the entry of the first groups of Muslim conquerors. Talking about the history and civilization of a country is no longer limited to studying its political history and political relations with various countries, but rather it rises to know its various aspects and social relations. Economic and cultural relations with other peoples. The relationship of Ottoman Algeria with its neighbors includes various aspects and many fields, and its parties were diversified due to the strategic location of Algeria, as it represents the heart of the countries of the Arab Maghreb. Despite the tensions that prevailed between the two provinces in its political aspect, they did not prevent the friendly relations from occurring which were represented by the existence of economic and cultural relations between them, and also the migration of Algerian scholars and their participation in scientific and cultural life, which was the best manifestation of these relations and this communication between the two societies and the two regions during this period.

In order to determine this and follow the migration of these scholars and the extent of their influence on public life, especially cultural life, in Tunisia, I chose this topic entitled "Algerian scholars in Tunisia and their role in scientific and cultural life and their impact on cultural communication between the two countries between the 16th and 19th centuries AD / 10 and 13 AH." This is done by presenting a general problem for this topic, which is: Who are the Algerian scholars who immigrated to Tunisia during the period between 16 and 19 AD?

What are the factors affecting the migration of these scholars and what is their role in scientific and cultural life in Tunisia?

I have divided my research into an introduction, an preliminary chapter or a preface and four chapters. I concluded my study with a set of observations and deductions that I reached, the most important of which are:

History and Geography are considered, among others, the main factors that strengthened the scientific and cultural relations between them despite the tensional relations which sometimes occurred .

The favor of Algerian scholars and travelers in Tunisia, and this was evident through the appreciation and respect with which they were met, whether by the rulers or even Tunisian scholars.

Keywords: the Ottoman period - cultural communication - Algerian scholars - scientific centers - Algeria - Tunisia - Sufi methods - factors of migration - academic licenses.